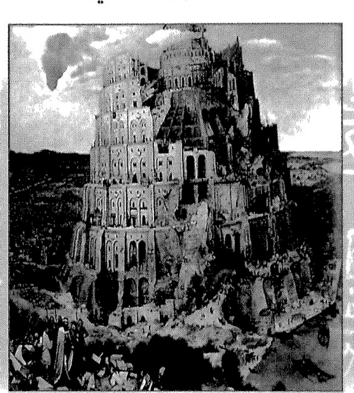


هارالد هارمان

تاريخ اللغات ومستقبلها

عـالـم بـابلـي



ترجمة
سامي شمعون

مراجعة
محمد حرب فرزات

الدوحة 2006

هارالد هارمان

عالم بابلي

تاريخ اللغات ومستقبلها

ترجمة: سامي شمعون

مراجعة: محمد حرب فرزات

المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث
دولة قطر – الدوحة
2006

العنوان الأصلي للكتاب:

HARALD HAARMANN
BABLYLONISCHE WELT
GESCHICHTE UND ZUKUNFT
DER SPRACHEN
CAMPUS VERLAG
FRANKFURT/NEW YORK (2001)



الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث

مركز الترجمة: ص. ب : ٢٣٧٠٠ قطر - الدوحة (٢٠٠٦)

هاتف: ٤٣٢١١٢٦ _ ٩٧٤ +

فاكس: ٤٣٢١٤٠٢ _ ٩٧٤+

رقم الإيداع: دار الكتب القطرية: ٢٠٥/٦٣٩

الترقيم الدولي (ردمك): ٥-٧٣-٥٨-٩٩٩٢١ ISBN

الطبعة الأولى ٢٠٠٦



الإعداد للطباعة والتوزيع:

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب. : ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ١ ٩٦١ +

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

e-mail: tradebooks@all-prints.com

لوحة الغلاف: برج بابل

للرسام البلجيكي Pieter Bruegel (c.1525-1569)

تصميم الغلاف: عباس مكي

الإخراج الفني: تركية التالي

المحتويات

الفصل الخامس:

الفصل السادس:

الفصل السابع

مقدمة الطبعة العربية

عندما اقترح عليّ الزميل الصديق الأستاذ الدكتور حسام الخطيب، المشرف على مركز الترجمة في المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، في دولة قطر، تكليفي بمراجعة الترجمة العربية لهذا الكتاب: «عالم بابلي - تاريخ اللغات ومستقبلها» لمؤلفه الأستاذ هارالد هارمان، 2001، ولمعرّبه عن الأصل الألماني الأستاذ سامي شمعون، 2004، الذي أنجز عملاً يستحق الشكر والتقدير بتعريب كتاب جديد يتضمن بين دفتيه دراسة علمية غنية عن مسألة اللغة التي يمكن أن تعد أهم قضية ثقافية - حضارية في هذا الزمن الراهن سيمتد تأثيرها إلى أجيال قادمة في المستقبل، كان ردي الفوري بالموافقة تلقائياً ودون تردد، لاهتمامي الشديد بموضوع الكتاب، ولحرصي على الإسهام في العمل على إصداره عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث في دولة قطر بأفضل صورة ممكنة. وقد وجدت في هذه المهمة فرصة لتجديد الاتصال والتواصل بالثقافة الألمانية التي سعيت للتزود من مصادرها ومناهلها منذ زمن مبكر في مسيرة التعلّم والتعليم في جامعات دمشق وبرلين وهايدلبرغ وباريس.. لتكون معيناً

لا ينضب وأداة لا تخيب في طرق البحث واكتشاف مغاليق الحضارات والثقافات واللغات القديمة إلى جانب أدوات باهرة في لغات أخرى.

ومن حسن الطالع أن صادفت هذه الرغبة في نشر طبعة بالعربية لكتاب «عالم بابلي» موافقة وتأييداً مشجعاً عند سعادة الأستاذ الدكتور محمد عبدالرحيم كافود، رئيس المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، وعند سعادة الأستاذ يوسف محمد درويش، أمين عام المجلس الذي أولى هذا الكتاب جلّ اهتمامه وكلّفني «بإعداد تقرير عن الكتاب وعن ترجمته إلى العربية»، (4 .5 .2005). فقمت عندئذ بتقديم تقرير عن الكتاب ومؤلفه ومادته العلمية وقيمته المعرفية والثقافية، عرضت فيه تقييماً موضوعياً للكتاب، اقترحت فيه إجراء مراجعة كاملة سعياً لمزيد من الإتقان والوضوح وطلباً لسلامة التعبير ولضبط كتابة الأسماء الكثيرة والمصطلحات الواردة، سواء أكان ذلك بلغاتها الأصلية أم معرّبة، وللتغلب على مشكلة توقف عندها الأستاذ المترجم الفاضل ولم يحلّها بشكل كامل، وكانت مثاراً للقلق لأول وهلة، بإدخال الأشكال والإحالات في مادة النص المعرّب.

وبناء على ذلك تلقيت من سعادة الأمين العام تكليفاً «بالمراجعة والتدقيق وإعداد الترجمة العربية للطباعة بعد استكمال ما فيها من نواقص ولا سيما ما يتعلق بالأشكال والرسوم البيانية ومتابعة طباعة الكتاب وتصحيح مسودات الطباعة، 25 .5 .2005».

وأمام هذه المهمة الدقيقة، كنت شديد الحرص على النجاح في

تبديد المخاوف من «احتمال ظهور صعوبات طباعية مهلكة» عند إعداد طباعة الكتاب ألكترونياً، وهو ما تطلب بالفعل متابعة متواصلة لنقل النص المطبوع، بعد قراءته ومراجعته وتنقيحه وترتيبه وترقيم صفحاته وتحديد مواقع أشكاله، إلى نص حاسوبي على قرص مدمج.

وبعد أن تأخر البدء بالطباعة، لظروف قاهرة، إلى شهر سبتمبر/ أيلول، حين العودة من الإجازات الصيفية، تضافرت الجهود لطباعة النص العربي للكتاب، بعد أن تم إعداده كاملاً، واستكملت ترجمة صفحات ومقاطع، وأضيفت شروح عدد من الأشكال والصور والخرائط والبيانات، التي لم يتمكن المترجم في حينه من استكمالها فبقيت دون شرح أو تعليق ـ الأمر الذي تطلب من المراجع بالتالي عملاً دقيقاً للمحافظة على عنصر قوي لا يجوز التخلي عنه من مادة الكتاب العلمية، وهي الصور والبيانات والأشكال.. التي عمدنا إلى الإبقاء عليها ضمن متن الكتاب ومساقه بصورة تمكّن القارىء العربي، وقارىء الطبعة العربية، من الإفادة من نتائج البحث العلمي الذي قام به المؤلف بدرجة الفائدة التي قد يجنيها قارىء النص الأصلي للكتاب باللغة الألمانية. ويقتضي الإنصاف هنا، التنويه بالجهد الذي بذله الطابع السيد خليل الحشاش الذي تمكن من إنجاز العمل المطلوب في نهاية المطاف بدرجة من الإتقان تستحق الشكر.

ليست الترجمة بالعمل السهل، بل قد تفوق في ما يمكن أن تسببه من العناء للمترجم ما قد يسببه التأليف للمؤلف. فالمترجم الحاذق

يجد نفسه أمام مهمة عالية المستوى من الحوار الثقافي بين لغتين وتراثين لكل منهما عقليته الخاصة ومصطلحاته ومفرداته، وليس كالمراجع من يدرك طبيعة هذا العمل، ومن يقدّر هذه المهمة، عندما يتقدم لتحمل المسؤولية بإخلاص لخدمة الكتاب المترجم عنه أولاً، وللحفاظ على عمل المترجم وتجميله ثانياً، دون التفريط بحق القارىء بتلقي كتاب جديد صحيح بلغته لا يشوبه خلل، ولا يعيبه نقصان. ولهذا كله، تابعت قراءة النص المترجم مرّات، وتوقفت عند كثير من المقاطع التي روجعت بالمقارنة مع الأصل الألماني في مظانها ومواضعها.

أما قائمة المصادر والمراجع في آخر الكتاب، فقد أُبقي عليها في الطبعة العربية كما هي، لتكون تأكيداً على ثراء مصادر المعلومات التي استقى منها المؤلف وتنوعها، وعلى اتساع ميادين البحوث في موضوع أصول اللغات وانتشارها وتفرعها وتصارعها وموتها، وهو ما قد يدفع الباحثين المتخصصين والمهتمين إلى إجراء مقاربات وخوض غمار بحوث جديدة قد تستكمل أو تفصّل في مالم يتناوله الباحث الأستاذ هـ/ هارمان في كتابه. ولا سيما الوضع اللغوي في العالم العربي الذي أصبح يتطلب تجديداً في مناهج البحث وتعديلاً في الآراء ووجهات النظر أمام الجغرافيا اللغوية في عصرنا الراهن.

أطروحة الكتاب ومضمونه:

لهذا الكتاب أطروحة ثقافية نجمت عن تأمل عميق وموقف فكري تجاه قضية اللغة قادته إلى البحث لاستخلاص نتائج موضوعية. فقد

طرأت فكرة الكتاب على المؤلف من تأمله للوحة استكشافية للرسام الفرنسي الشهير بول غوغان (Paul Gauguin 1903 - 1848)، وقد تكون هذه اللوحة أهم لوحاته، وموضوعها: (من أين أتينا؟ ومن نحن؟ وإلى أين المصير؟)، رسمها في 1897واللوحة الأصلية من هذه اللوحة الرائعة نجدها في متحف الفنون الجميلة في بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن الاستغراق في فكرة وجود الإنسان مضى هارولد هارمان في فصول الكتاب المتتابعة في معالجة أصل اللغات في أدغال المعطيات الإثنوغرافية والاجتماعية - الثقافية والجيوسياسية، وهو إذ يمضي في البحث في تفرع اللغات وتعددها وتفاعلها وتصارعها، يرصد تاريخ الثقافة في مرآة الاتصالات اللغوية وما يرافق ذلك من ارتباط اللغات بالهوية الثقافية والنزاعات الإثنية، ليرسم في المحصلة خرائط وشجرات نسب تمثل العائلات اللغوية الكبيرة وأنظمة الكتابة عبر العصور، ليخلص إلى نظرة واقعية - مستقبلية على مسألة تعدد اللغات في ضوء شبكة المعلومات وعصر العولمة الذي أُدخلنا فيه. وهو وضع جديد يفرض علينا واجباً لا مفر منه، يقضي بوضع استراتيجية لغوية للتعامل مع هذه القضية الثقافية الكبرى.

لقد عرف الإنسان عبر تاريخه الطويل عدداً كبيراً من اللغات واللهجات؛ وفي مسيرة الإنسانية عبر القرون باد الكثير من اللغات التي تحدث بها الناس قبل اختراع أنظمة الكتابة، كما بادت لغات

عديدة أخرى مع انهيار الحضارات ودمارها. ومع تقدم علوم الآثار واللغات تمكن علماء من روّاد تاريخ الحضارات والعلوم الإنسانية من استرداد الحياة لعدد من اللغات التي ماتت بتوقف الناطقين بها عن استخدامها ولحلول لغات ظافرة محلها زمناً طويلاً وقروناً عديدة.. وهكذا بعد نحو ألفي سنة من الانقطاع والضياع استعيدت إلى الوسط العلمي لغات حضارات قديمة كانت منسية كالمصرية القديمة والسومرية والبابلية في أرض الرافدين والعيلامية في فارس ولغات الأنباط وتدمر واليمن في بلاد جزيرة العرب وغيرها..

وفي العالم الآن نحو ستة آلاف لغة متداولة - ويعد هذا التعدد اللغوي البابلي إنسياقاً مع التقاليد الدارجة عن عالم بابلي قديم متعدد الألسنة واللغات - إثراء للمعارف والثقافات يستحق الاحتفاظ به في رأي فريق من الباحثين - لكن الرأي يبدو مختلفاً عند فريق آخر يرى فيه عبئاً يمثل وطأة التاريخ على الحاضر وحريٌ به في عصر العولمة أن يُرمى ويترك لمصلحة التوجه نحو توحيد نمط استخدام اللغة في العالم المعاصر.

ومهما يكن فإن سلسلة من المسائل ذات الأهمية المحورية تبرز أمامنا، ومنها الموقف من مسألة تعدد اللغات وسياسات الحكومات تجاهها، والموقف حيال التحولات اللغوية في المجتمعات في ترافقها مع التحركات الديموغرافية وتنامي حركات الهجرة والانتقال، وحيال مصير اللغات الضعيفة والقزمة والمغلوبة، سواء منها تلك التي آلت

إلى الفناء خلال القرنين الماضيين أو المهددة بالفناء والاندثار أمام اللغات القوية الكاسحة.

وفي الواقع، يقتحم المؤلف صميم موضوع اللغة ويقدم في كتابه نتائج بحوث ودراسات منهجية طويلة الأمد، في محصلة مركبة لغوية - اجتماعية معمقة للتنوع العالمي للغات يقترح في نهايتها طرقاً يوجه نحوها ويدعو لمتابعتها. ويلفت النظر إلى الفرص المتاحة أمام بعض اللغات والأخطار التي تتعرض لها لغات أخرى في هذا الكون المثير الحافل بتعدد الألسن واللغات واللهجات، في هذا العصر، عصر عالم الترقيم والعولمة..

إن المؤلف وهو أوروبي ألماني اللغة والثقافة يواجه قضية اللغة في عصر العولمة، متسائلاً عما سيصيب لغات العالم بعد انهيار النظام العالمي الذي أُسس في القرن الماضي، القرن العشرين، وبعد المباشرة بفرض نظام عالمي جديد له قياداته ومؤسساته الاقتصادية والعسكرية وبعد عولمة الإعلام والمعلومات والتعليم والمصارف والتجارة والمال.. فهل ستمر اللغات المتعددة في عصر العولمة؟ وهل صحيح أن تعدد اللغات في الاستخدام والتعامل، وهي أقدم الأدوات التقنية التي أوجدها الإنسان منذ فجر الحضارات للتعبير عن وجوده ولحفظ ذاكرته، إنّما يمثل عبئاً وعائقاً للسير نحو نمو مشترك للمجتمعات؟

ومع هذه التساؤلات المثيرة يرى المؤلف أن التوجه نحو التنميط الموحد لاستخدام اللغة يتجاهل في الواقع المعنى الأصيل للغة

ولدلالاتها بوصفها حاملاً للهوية الثقافية التي تطابق بعددها وتنوعها الشرط الإنساني مطابقة مطلقة وحقيقية.

إن صدور الترجمة العربية من كتاب «عالم بابلي - تاريخ اللغات ومستقبلها» - عن مركز الترجمة في المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث في دولة قطر - إنما يأتي في سياق الجهود الحثيثة لإغناء الساحة الثقافية بالفكر الجديد من منابعه اللغوية المتعددة مباشرة وبثمار البحث العلمي المتميز في قضية هي في مقدمة قضايا العلوم الإنسانية، وهي قضية اللغة وموقعها في المصير القومي والكيان الإنساني.

وبعد.. فلنا ملء الرجاء أن ينال هذا الكتاب في دائرة الثقافة العربية ما يستحقه من اهتمام ومتابعة وتوجيه نزيه بالنقد العلمي البنّاء والمفيد من المتخصصين والباحثين المعنيين ما يكافىء كل عناء ويطمئن من كل قلق وما يدفع أخيراً إلى مزيد من العمل بكل عزيمة وإخلاص لإغناء منابر الثقافة ومجالس الكتاب في قطر والوطن العربي.

وفوق كل ذي علم عليم

أ. د./ محمد حرب فرزات

خبير بقسم الوثائق في المجلس الوطني

للثقافة والفنون والتراث

الدوحة - 2006

المقدمة

اللغة من الأمور البديهية بالنسبة لنا. لقد صقلت عملية التطور الأنثروبولجي الإنسان وحولته إلى كائن اجتماعي، علماً بأنّ اللغة تملك في هذا السياق حصة كبيرة لا يمكن الاستهانة بها على الإطلاق. وفي الوقت الذي كان فيه الإنسان النياندرتالي Neandertaler، الإنسان الأوروبي الأول، لا يملك سوى وسيلة تواصل بدائية للغاية - كانت لغته بالفعل «بدائية» - نرى أنّ لغات الإنسان الحديث (الإنسان بوصفه نوعاً بيولوجياً أو Homo sapiens) المعروفة تتميّز بتراكيب مليئة بالتعقيدات. ينطبق هذا على لغات الأبوريجنيس (أهل البلاد الأصليين القدماء) في أستراليا، أو الهنود البرازيليين في منطقة الأمازون، مثل انطباقه على اللغات العالمية الحديثة. وهكذا فإنّ التطور الذي مرّت به لغات البشر يُعد في الوقت نفسه رمزاً حيّاً لطفرة التطوّر التي قام بها الإنسان قبل نحو 100,000-150 سنة.

وعلى غرار جميع المؤسسات الاجتماعية للإنسان، فإنّ اللغة أيضاً تكتسي بحلّة ذات طابع محلي. ولا ينحصر هذا في اللغة بحد ذاتها، بل

في تنوّع اللغات أيضاً الذي يُعد إحدى البديهيات التي نواجهها. واللغة ليست سوى وسيلة اتصال تستخدم من قبل جماعة معينة في منطقة معينة. هناك أكثر من 6000 لغة منتشرة حالياً في العالم نتيجة وجود العديد من الشعوب ذوي الثقافات المختلفة. ومن النتائج التي تمخّض عنها تعايش اللغات، والتي تتولد عادة من العلاقات الاجتماعية القائمة بين الناس: قيام تعاون وتفاعل بين أُناس يحسنون التعامل مع بعضهم البعض، أو حدوث أزمات في صفوف آخرين لا يجيدون التعايش مع بعضهم البعض.

ثم هناك الكثير من الآراء التي تنتشر في كل حدب وصوب حول قيمة وعدم قيمة تعدد اللغات. هناك البعض من الناس الذين يرون تنوّع اللغات في العالم بمثابة النعمة، لا بل ينظرون إليه على أنه إغناء للحياة الثقافية يجب الذود عنه والمحافظة عليه ورعايته، في حين أنّ هذا التنوّع يُعد بالنسبة إلى فريق آخر عبئاً تاريخياً يكون التخلّص منه في عصر العولمة مبعثاً للفائدة. وبغض النظر عن الآراء المحبذة لتعدد اللغات أو الرافضة له، فإنّ تنوّع اللغات يُعد بالنسبة لنا تحدياً صارخاً يتطلب منّا جميعاً تطوير الاستراتيجيات الملائمة الكفيلة بالتعامل مع هذه الظاهرة بصورة عقلانية تتوافق مع بديهية وجودها. ومن يريد تسليط الأضواء على أدغال تعدد اللغات الحديثة وتنوعها، أو من يريد الإطلاع على وظيفتها وعلى الدور الذي تؤديه في صياغة وبلورة تكوّن المجتمعات البشرية الحديثة، عليه أن يقوم برحلة

استكشافية في بابل اللغات الطبيعية لأنّ الطريق نحو فهم اللغة يمر عَبْر فهم تنوّعها. (هناك اليوم ما يربو على ستة آلاف لغة معروفة تُستخدم في كافة أرجاء المعمورة).

وبالنظر إلى تنوّع اللغات في هذا العالم الذي نعيش فيه ومعه كبشر، تتزاحم أسئلة عديدة تتطلب أجوبة معقولة. ومن هذه الأسئلة: كيف يجد الإنسان طريقه عَبْرَ متاهات هذا التنوّع اللغوي الكبير؟، وكيف يتعلّم الإنسان التعامل مع لغات متعددة؟، وما هو النظام الذي تعتمده الحكومات في المجتمعات المتعددة القوميات والمتنوعة اللغات؟ وما هو تفسير ظاهرة تحوّل اللغة إلى سلاح سياسي خطير أو مصدر لنشوب الأزمات التي قد تعرض الناس في العديد من مناطق العالم إلى إندلاع الحروب؟، وهل يجب العمل على دعم تعدد اللغات أم يجب السعي إلى توحيدها؟ وما إلى ذلك من الأسئلة. هذه الأسئلة وغيرها من الاستفسارات تتباين في قيمتها ووزنها. فبعضها عام وبعضها الآخر خاص. لكن ما هي الأسئلة الرئيسية التي يجب على مراقبة البلبلة البابلية للغات الإنطلاق منها والتي تعتمد عليها جميع الإجابات المتعلقة بالأسئلة الخاصة؟

من أجل تطوير أفق ملائم يحتاج المرء إلى نوع من بعد النظر. فإذا كانت اللغة، كما يدعي الخبراء، مهمة جداً في توجيه الناس داخل بيئتهم الثقافية، أي إذا كانت اللغة تقرر بصورة حاسمة تفكيرنا وسلوكياتنا، حينئذ فإنّ الأسئلة الأساسية الجوهرية المتعلقة في فهم

البلبلة اللغوية البابلية لا تنحصر في اللغة نفسها، بل إنها تتعلق بصورة عامة بوجود الإنسان نفسه وفي تعامله مع الثقافة. لذا يجب على كل واحد منّا أن يبحث بنفسه عن الجواب الذي يريده عَبْرَ الإبحار في ظروف الوجود البشري. بالنسبة إليّ تفتحت أبصاري وعثرت على ضالتي المنشودة إثر إنشغالي بسيرة وفلسفة حياة وأعمال أحد أعظم فناني العالم، حيث تمكنت خلال تقفي آثاره من العثور على اكتشافات شيّقة للغاية لم تخطر على بالي أبداً.

لو كان باول غوغان Paul Gauguin (1848-1903) قد واصل حياته مع أسرته في باريس كسمسار للبورصة، لما رأينا مَن اهتم به. قبل سفره في فبراير/ شباط 1891 إلى بحر الجنوب قال إنه يريد العيش بعيداً عن مضايقات المدنية وأن يرسم صوراً بسيطة جداً. بيد أنّ أسلوبه في التعامل مع الألوان الصارخة لم يلاق أي صدىً في صفوف معاصريه في أوروبا. لذا تطلب الأمر عقوداً طويلة إلى أن أخذ الناس يقدرون ويثمنون باول غوغان وأعماله الفنية.

كانت أعمال غوغان المتأخرة تبدو للوهلة الأولى فقط سطحية وبسيطة مثل أعماله الأولى. في الواقع تكاثرت العلاقات المجازية داخل لوحاته التي تصوّر المناظر الطبيعية البولونيزية المملوءة بالناس والحيوانات. لكن عدم تفهم وفهم معاصري غوغان هذه العلاقات المجازية لم يعد موجوداً بالنسبة إلى مشاهدي لوحاته حالياً، وأصبحت أعمال غوغان في هذه الأثناء قيّمة إلى درجة أن متحف باول

غوغان في تاهيتي لا يملك أي لوحة من لوحاته الأصلية – باستثناء بعض الصور المرسومة بقلم الرصاص – وإن كان بين الحين والآخر يعرض بعض لوحاته الأصلية التي يستعيرها من المعارض في الخارج. وحتى لوحة غوغان التي أقحم فيها أفكاره العميقة المغزى لا يمكن مشاهدتها في المتحف إلاّ في نسخة عن الأصل: D'où venons-nous? Que sommes-nous? Où allons-nous? (من أين نأتي؟ ما نحن؟ إلى أين نذهب؟). أما اللوحة الأصلية التي أبدعها غوغان عام 1897 فموجودة حالياً في متحف الفنون الجميلة في بوسطن.

كان هذا العمل، كما يبدو، الأهم بالنسبة إلى غوغان نفسه. كانت غايته، كما كتب، إبداع عمل لا يجب على المرء تفسيره، عمل يقدّم ما هو مهم من تلقاء ذاته (Welchman. 1997: 98f). كان غوغان يظن أنه لن يستطيع رسم عمل أفضل من هذا أبداً، وكان غوغان ينظر إلى هذه الفكرة بجديّة إلى درجة أنه أقدم بعد الانتهاء، من توقيع اللوحة على محاولة انتحار باءت بالفشل. وبعد مرور بضع سنوات توفي غوغان في هيفاأوا Hivaoa، إحدى جزر الماركويزاس Marquesas.

في الواقع ليس من الضروري أن يكون المرء فيلسوفاً، أو كاتباً أو عالماً بالشؤون الثقافية من أجل التعرّف على تمكّن غوغان من توحيد وضم جميع الأسئلة الأساسية المتعلقة بالوجود البشري في عنوان عمله الرئيسي هذا. فجميع الأجزاء الرئيسية التي يتبلور فيها هذا

الوجود واضحة للعيان ومرئية في هذه اللوحة إلى درجة أنّ المرء لا يحتاج إلى تفسيرات معقدة من أجل فهم هذه الفلسفة التي تُعلّمها الحياة. إننا نحتاج إلى نظرة للوراء، إلى الماضي من أجل الحصول على تصوّر المصادر التي تكوّن منها عالمنا الحالي، لأننا لا نستطيع إلاّ عَبْرَ الملاحظة التاريخية من إعطاء سلسلة الأحداث الماضية معناها. وعندما نسأل أنفسنا عن سبب حاجتنا للتاريخ، يأتينا الجواب: إننا لا نستطيع فهم حاضرنا إلاّ إنطلاقاً من حِكَم التاريخ ودروسه (Jenkins 1999).

ثم إنّ مَنْ يفهم الحاضر يملك أفضل الشروط لاستشراف المستقبل، أي القدرة على تخمين التطورات المقبلة، خاصة وأنّ تخمين مناحي المستقبل هو الشيء الوحيد فقط الذي نستطيع القيام به. فبالنظر إلى معارف نظرية الفوضى مثلاً، يتعيّن علينا نحن الذين نعيش في الوقت الحاضر أن نكون أكثر حذراً تجاه تنبؤات المستقبل. وكلما كانت الصورة الإجمالية التي نتمكن من صياغتها عن عالمنا الحالي أكثر كمالاً، كانت أقوالنا عن التطورات المقبلة المحتملة الوقوع أكثر دقة أيضاً، لأنّ التاريخ والحاضر والمستقبل كل متشابك في ذاكرتنا الثقافية يشد بعضه بعضاً بقوة كما حدث قبل مئات السنين. وما زالت الأسئلة حول من أين؟، وماذا؟، وإلى أين؟ ملحة كما كان الأمر عليه في عالم غوغان.

هناك العديد من الموضوعات التي تستأهل أن تُجابه بالأسئلة التي

وجهها غوغان ومحاولة البحث عن أجوبة لها، خاصة وأنّ الناس يحتاجون في طريقهم إلى المستقبل إلى مزيد من المعلومات والمعارف أكثر مما يتصورون. فقبل مائة سنة ما كان يوجد من يستطيع تصوّر مدى التقلبات التي سيشهدها تعدد اللغات، أو عدد اللغات التي ستغيّر مكانتها الاجتماعية السياسية في دول العالم، أو عدد اللغات والثقافات التي سيخبو نورها وتتوقف عن الوجود، أو الراديكالية التي ستتغيّر فيها صورة عالمنا. ومن كان يظن قبل مائة عام أنه يملك الأجوبة المقنعة على أسئلة غوغان، فإنه سيُصاب بالدهشة مما يتصل بمعارفه المتعلقة بذلك الزمن والتي أصبحت في هذه الأثناء قطعاً في متحف لتاريخ الأفكار.

لقد فكّر المرء بإسهاب خلال القرن العشرين في: من أين؟ ماذا؟ وإلى أين؟ للوجود البشري بصورة عامة وفي الإبداعات الثقافية البشرية بصورة خاصة أيضاً. أما الغريب في الأمر فهو أنّ أقدم تقنيات الإنسان، أي لغته، لم يكن حظها كبيراً في هذه المناقشات. إذ لم يقم حتى يومنا هذا أي كان ببذل مساعٍ تستحق الذكر للتفكير بالأسئلة التقليدية التي تطرحها بحوث اللغة عن: من أين وماذا وإلى أين، أيضاً. ولا أقصد هنا الأفكار المتنوعة المتعلقة باستخدام اللغات الاصطناعية (مثل الإسبرانتو Esperanto) أو التنبؤات البسيطة حول مسيرة اللغة الإنجليزية الظافرة في عالم المستقبل، بل المقصود هو توجيه السؤال حول «إلى أين؟» من وجهة نظر أنثروبولوجيا استخدام

اللغات الطبيعية في عصر مجتمع المعلومات. ثم إنّ هذا الإجمالي للمشاكل المرتبطة مع بعضها البعض لا يقتصر على أبعاد قيمة مكانة اللغة في الاتصالات العالمية (أي الاتصالات عَبر الحدود الأثنية الثقافية) أو على علاقة اللغة بالتقنية الرقمية، بل يشمل أيضاً وضعية اللغة ومتكلميها خارج نطاق العالم الرقمي (على سبيل المثال العديد من الشعوب الصغيرة واللغات القزمة).

وبغض النظر عن جميع ما قد يكون المرء قد عثر عليه من الأجوبة للردّ على الأسئلة التي طرحها غوغان قبل مائة عام ما يتعلق بعالم اللغات، يجب إعادة النظر فيها جميعاً، لأننا ننظر حالياً بصورة مختلفة جداً إلى العالم وبمتطلبات وتوقعات أخرى وبمقاييس قيم ودرجات مقاربة أخرى، ولربما بمزيد من الخبرات عند التعامل مع الظواهر الأساسية السرية الأزلية للوجود الإنساني: الهوية الثقافية المرتبطة باللغة.

وإذا كان صحيحاً أنّ اللغة هي أكثر التقنيات تأثيراً في صياغة وهَيْكَلَة الثقافة، حينئذ يكون من المعقول بالتأكيد السعي للبحث عن أجوبة منسّقة للرد على: من أين، ماذا، وإلى أين هذه التقنية؟. وفي هذا السياق يجب على المرء ألا يستنكف عن اقتحام أدغال الآلاف من المتغيرات التي تظهر فيها تقنية «اللغة». إنّ الرحلة الاستكشافية التي أقوم بها في هذا الكتاب عَبْرَ أدغال التنوّع العالمي للغات، تندرج تحت

مبدأ شق الطريق أمام دور اللغة في مجتمعنا المتعدد الثقافات وإلقاء نظرة ثاقبة على الطريقة التي يتعامل فيها الناس مع اللغة واللغات.

الدار البيضاء . المغرب

عند منعطف القرن 21

هارالد هارمان

المدخل

يعتبر التنوّع اللغوي والثقافي إحدى بديهيّات الوجود البشري. إلاّ أنّ معرفة وجود الكثير من اللغات والعديد من الثقافات في العالم تُشكّلُ عادة بعض الإرباك. وباستثناء حلقة ضيقة من الخبراء يندر أن نجد مَن يدرك مدى تشعب التنوع اللغوي والثقافي الذي يعيش الناس فيه ومعه. وإلى جانب الإرباك الذي تولده التجارب المتعلقة بدرجة هذا التنوع هناك مضامين المعرفة التي تدور حول الأساليب التي يتعيّن على الناس اتباعها في التعامل مع هذه الأعداد الكبيرة من اللغات. وكما هو معروف هناك أزمات في الكثير من مناطق العالم التي تؤدي فيها اللغة دوراً حقيقياً. بيد أنّ تنوّع جوانب مثل هذه الأزمات ونوع الإستراتيجيات السياسية التي تعتمدها إدارة الأزمات في تسويتها يبقيان مخفيين على الغالبية العظمى من الناس.

إننا نعيش مع بديهيات أخرى مثل العولمة اللغوية دون أن نستفسر بشكل دقيق عن طبيعة النتائج المترتبة على هذه العملية بالنسبة إلى العالم. أما ما نظن أننا نعرفه فهو أن هذا العدد الكبير من اللغات المحلية لا يمكن إلاّ أن يعيق عملية تبادل الاتصالات في العالم وكيف

أن اللغة الإنجليزية ستحقق الفوز، وكيف أنّ اللغات الأخرى ستتراجع باستمرار إلى المراتب الخلفية ناهيك عن اللغات الصغيرة التي لا أمل لها في البقاء، كما يدّعي البعض.

وعلى الرغم من أن مثل هذه «الآراء» تبدو معقولة للوهلة الأولى، إلاّ أنها في الواقع غير قادرة على عكس حقائق عالمنا. أما مَن لا يرضى بالآراء العامة، بل الذي يسعى لاختراق ضباب المعرفة غير الكاملة المريك المحيط بنا، فإنه ينغمر في عالم مليء بالمفاجآت وغني بالآفاق الجديدة والذي يتبيّن فيه أنّ الكثير من «الحقائق» غير القابلة للدحض التي نواجهها عن التنوع اللغوي ليست سوى محتويات معارف قديمة، لا بل إنها تكشف عن نفسها كأحكام مسبقة.

ومن جملة الآراء الكثيرة المنتشرة حول تعدد اللغات والعولمة نريد في ما يلي ذكر بعض الأمثلة فقط. إن عصر الخرافات لم يأل إلى الزوال بعد نظراً لأنّ الناس ما يزالون اليوم كالسابق ينسجون ما يحلو لهم من خرافات جديدة:

الخرافة 1: العولمة من عمليات الحداثة التي ستغيّر ظروف الاتصالات في عالمنا جملةً وتفصيلاً

إن عملية العولمة التي يشهدها العالم في الوقت الحالي ليست بالأمر الجديد على الإطلاق. ثم إنّ التشابك الرقمي والتقني للاتصالات في العالم الذي يقلل البعد الجغرافي للمسافات ويسهل الاتصالات العالمية، لا يعني أوتوماتيكياً بأي حال من الأحوال أننا

نواجه في هذا السياق ظاهرة لم تكن معروفة حتى الآن وغير موجودة في السابق أبداً.

إن البشرية تشهد منذ عصر الاستكشافات الجغرافية والعلمية في القرن الخامس عشر، ومنذ بداية عصر الكولونيالية في القرن الثامن عشر على أبعد تقدير، عملية عولمة (مبكرة) أدت باستمرار إلى تزايد المعارف عن العالم.

أما الذي يفرّق مرحلة التطور الحديثة للعولمة عن المراحل السابقة لهذه العملية الفعّالة منذ مئات السنين فهو سرعة انتقال المعلومات والبيانات وكثافة شبكة الاتصالات وتزايد أعداد الناس الذين يستطيعون الإطلاع على المعارف المتوفرة عن العالم. لكن نشر المعرفة وزيادتها لا تحدثان بانتظام كما لا تتحسن نوعية المعرفة باستمرار. ونظراً لأنّ الناس يتعاملون مع تقييمات متعددة النواحي ويخضعون معارفهم عن العالم لهذه التقييمات، فإنّ المعارف الموضوعية عن العالم ليست هي الوحيدة التي تتكاثر، بل إنّ ما يتكاثر بنفس الوقت هو تصورات خيالية لا حصر لها، مما يشكل مصدر أحكام مسبقة جديدة وتصلّب الأحكام المسبقة القديمة.

الخرافة 2: في عملية العولمة الحديثة يتقلص تنوع اللغات في عالمنا بصورة شديدة. عمالقة الاتصالات العالميون يزيحون سائر اللغات الأخرى عن الطريق. إننا نعيش في عصر الموت الجماعي للغات.

منذ سنوات والانتباه يُلفت إلى مشكلة تعرّض اللغات إلى الخطر، حيث يتولد الانطباع وكأنّ هذه المشكلة هي من ظواهر الحداثة، وكأنّ الأخطار الجدية المهددة لوجود اللغات الصغيرة لم تأت إلاّ من جرّاء العولمة. وكما يدعي البعض فإن عملية العولمة ستؤدي في نهاية المطاف إلى تقليص أعداد اللغات في العالم، وكيف أن الإرث اللغوي والثقافي لشعوب العالم سيصاب بنوع من الفقر. لذا حانت ساعة توثيق تنوّع اللغات الموجودة في العالم قبل أن تنحل وتتلاشى. وعلى الرغم من أنّ مثل هذه النظريات الحبلى بالأنباء المثيرة ملائمة بشكل خاص لإثارة انتباه الرأي العالمي الذي يدرك المشاكل القائمة، فإنها في الواقع تفتقد إلى الأرضيات الموضوعية التي تقوم عليها المعارف الرصينة في عالمنا.

ومن أجل تقييم حالة تعرض لغة ما للخطر، لا توجد حتى الآن أي دراسات يمكن الاعتماد عليها تتضمن معايير موضوعية، على سبيل المثال وجود قائمة تحتوي على العناصر النقدية لحيوية هذه اللغة أو تلك. لهذا ليس من الممكن أبداً تصنيف لغات العالم دون تحفظ حسب درجة حيويتها و«فرصها في البقاء». هناك بعض المتشائمين الذين يتنبأون بموت جماعي للغات، إلاّ أنّ المراقبين الحيادين لا يريدون الخوض في غمار مثل هذه التنبؤات التشاؤمية. وفي الواقع تنتشر آراء مليئة بالمغامرات حول مصير اللغات والمجموعات اللغوية.

خلال المائة عام الماضية قيل الكثير عن «موت» اللغات المحلية

في فرنسا وعن الكثير من اللغات في سيبيريا. إلا أن هذه اللغات ما تزال موجودة، وحتى بالنسبة إلى المناطق الغريبة، كمنطقة الأمازون على سبيل المثال، تم الإعلان في الخمسينات عن موت اللغات الموجودة فيها، غير أنّ الناطقين بهذه اللغات جرى «العثور عليهم مجدداً» خلال الثمانينات (راجع الفصل الثاني).

وعندما يتعلق الأمر بالأفكار حول مصير اللغات المنفردة فمن الممكن جداً أن تتسم التناقضات التي يتورط فيها المراقبون بنوع من الخيال والغرابة. في عام 1880 وما تلاه نشر دي. آي. دافيس D.I.Davies في ويلز الرأي المتفائل القائل بأنّ عدد الناطقين باللغة الويلزية Kimric (نسبة إلى مقاطعة ويلز بإنجلترا) سيرتفع خلال القرن التالي إلى نحو ثلاثة ملايين إنسان. وفي عام 1960 تحدث المتشائم إس. لويس S. Lewis عن آفاق هذه اللغة التي بدت معتمة تماماً، إذ تنبأ لويس أن عام 2000 سيشهد وفاة اللغة الويلزية. والآن، ونحن نقف على أعتاب القرن الحادي والعشرين، لا يمكن الحديث أبداً عن وفاة هذه اللغة التي يتكلمها أكثر من نصف مليون إنسان، ثم إنّ الويلزية ليست لغة للناس المسنّين وحسب، بل إن أعمار 113,000 شخص يتحدثون هذه اللغة لا تتجاوز خمسة عشر عاماً، لا بل حتى أصغر سنا (Aitchison/Carter 1994: 88ff).

وبالفعل كانت توجد على مر الأيام لغات مهددة بالإنقراض وأخرى انقرضت، فحيث توجد لغات مهيمنة توجد أيضاً لغات غير مهيمنة. إن

انتصارات العمالقة وهزائم الأقزام يمكن مراقبتها في تاريخ الثقافات منذ الأزمنة القديمة. وتوجد أيضاً معلومات وفيرة جداً عن المنتصرين، أي عن اللغات التي فرضت نفسها، أما عن الخاسرين، أي اللغات التي أُزيحت عن الطريق والتي لا يمكن النظر إليها إلا كمتحجرات في التاريخ الثقافي، فالمعلومات قليلة جداً. ونظراً لأننا نعيش اليوم في عصر أصبحت فيه حقوق الإنسان حيّة في ضمائرنا جميعاً، فإننا ننظر بجدية خاصة إلى مشاكل اللغات المعرضة للخطر. أما في العصور السابقة التي كانت فيها اتصالات اللغات والثقافات خاضعة لهيمنة عقلية المنتصر، لم يشعر المرء إلاّ قليلاً بالخاسرين الذين تلاشوا عن الوجود دون أي ضجة. لذا فإن الناس خلال القرون السابقة ما كانوا يدركون أيضاً حالة تعرض العديد من لغاتهم إلى الخطر.

صحيح، أن الكثير من لغاتنا معرض للخطر، حيث تموت في كل عام في مكان ما من العالم لغة ما. ومن ناحية أخرى فإن إدراك التعرض للخطر والظروف المحيطة به قد أدى أيضاً إلى زيادة فعالية التصدي لموت اللغات. وعلى الرغم من محدودية القدرة على حماية اللغات المعرضة للخطر، فإن فرص بقاء واستمرار حتى أصغر اللغات ليست ضئيلة أبداً كما يبدو للوهلة الأولى (راجع الفصل الثاني). ثم إنّ هذا يرتبط أيضاً بنفي مسؤولية العولمة مسؤولية مباشرة عن تعرض اللغات غير المهيمنة إلى الخطر.

إننا نعيش في عصر التشابك العالمي للمعلومات، وهذا إصطلاح طالما يُفهم من طرف واحد، ودون شعور بالمسؤولية، بأنه هيمنة اللغة الإنجليزية. وعلى الرغم من أنّ اللغة الانجليزية قد قوّت دورها بكونها لغة عالمية، فإنّ هذا لم يتم في كل مكان ولم يحدث بالضرورة على حساب اللغات الأخرى. إن ما تتميّز به هيمنة اللغة الإنجليزية في الحداثة هو توسيع وظائف معينة ذات أهمية مركزية بالنسبة للاتصالات العالمية. إنّ الإنجليزية لغة مهيمنة على نطاق عالمي إذا ما جعلنا حجم بنوك البيانات الحديثة الموجودة بهذه اللغة يؤثر علينا. وفي دائرة الاختصاص هذه لمجتمع المعلومات المتشابك رقمياً، الذي قد يتطور أيضاً في يوم ما إلى مجتمع المعرفة، تتبوأ الإنجليزية مركز الصدارة بين جميع اللغات العالمية الأخرى. واستدلالاً بأدائها لوظائفها التقليدية في عالم اللغات العالمية لم يعد للإنجليزية أي منافس ندّ.

غير أنّ الحياة في عالمنا الكوزموبوليتي الموهوم لا يمكن قصرها على الاستخدام الاقتصادي - التقني لبنوك المعلومات، وعلى استهلاك وسائل الإعلام، وعلى اتجاهات الموضة الأنجلوسكسونية أو على بلاغة اللاعبين الثانويين في السياسة العالمية وحسب، بل إنّه في الحياة اليومية لأغلب الناس تتفتح بانوراما عريضة من الوظائف اللغوية المحلية التي تبقى فيها اللغة الإنجليزية خارج الساحة. فإذا ما جمعنا عدد جميع الأشخاص الذين يتقنون الإنجليزية دون عناء، أي

الذين اكتسبوا الإنجليزية كلغة أولى (اللغة الأم)، أو لغة ثانية، أو لغة تعلّم، أو لغة أجنبية، فإن العدد لا يتجاوز حتى 10% من مجموع سكان العالم.

يُعد استخدام اللغات العالمية التقليدية، وبصورة خاصة اللغة الإنجليزية، لأداء وظائف الاتصالات العالمية اتجاهاً عاماً ضخماً لعصرنا الذي يخضع تطوره لإملاءات متطلبات الاتصالات في مجتمع الشبكة. لكن هذا الاتجاه ليس عملية الاتصال الوحيدة وإن كان يستقطب أكبر الانتباه. فبالتوازي مع التشابك اللغوي الدولي للعالم هناك اتجاه آخر تتغذى ديناميته من مصادر عديدة.

لقد بدأ الناس خلال السنوات الماضية يعون حقائق التعددية الثقافية والتعددية اللغوية العالمية. إنّ تنامي التفهم للقيمة الذاتية للثقافات المحلية، ليس كما يراه المحايدون فقط بل في المقام الأول، كمحرك لتشخيص الذات لمتحدثي اللغات الإقليمية، قد حرّك في العقد الأخير من القرن العشرين عملية إحياء المصالح الثقافية الإقليمية.

وحتى هذه العملية أيضاً تظهر مفعولاً عالمياً. ونظراً لأن رفع قيمة الثقافات واللغات المحلية له حوافز معنوية في المقام الأول، فإن هذا الاتجاه الاتصالاتي الجبار غير مرتبط بالاتجاه الجبار للاتصالات العالمية. ومن ناحية أخرى ألا يُنظر إلى الاتجاهين الجبارين كعمليتين قطبيتين، كما لو أنهما تتنافسان مع بعضهما البعض وموجهتان ضد

بعضهما البعض، لأنّ الأمر يتعلق أبعد من ذلك بتطورات يكمل بعضها البعض.

هناك العديد من المجتمعات اللغوية التي لا يجد الناطقون بلغاتهم فيها أي صدىً لعملية الإحياء الثقافي في مواجهة التحدي الثقافي الجبّار، ولا عجب، فهذه على الأغلب لغات قزمة لا يتجاوز عدد متكلميها 1000 شخص. وفي مثل هذه المجموعات لا يوجد على الأغلب تكافل داخلي مما يؤدي في المحصلة إلى انصهار الجيل الجديد في لغة الغالبية السكانية. يتمثل هذا في اللغة اللاتفية (في السابق اللغة الروسية أيضاً) بالنسبة إلى الليفيين في لاتفيا وفي اللغة الإنجليزية بالنسبة لأبناء العديد من شعوب الهنود الصغيرة في الولايات المتحدة الأمريكية. إن اللغات القزمة منتشرة في العديد من الدول في جميع أطراف العالم. وإن أكبر عدد للغات القزمة المهددة بالانقراض الذي نشهده في دولة واحدة موجود في أستراليا.

وعلى الرغم من أنّ هذه العملية من عمليات ضياع اللغات المحلية – بالنسبة لعدد الأشخاص المعنيين بالمسألة – لا تمثل اتجاهاً ديموغرافياً كبيراً، إلاّ أنها من وجهة نظر قائمة اللغات المنفردة المعنية بالأمر عامل حاسم في تبدل الرسم البياني للغات في العالم.

الخرافة 3: تعدد اللغات عائق على الطريق إلى عالم ذي منظور كوزموبوليتي كوني

إذا ما نظر المرء إلى التطور الحاصل باتجاه المجتمع

الكوزموبوليتي في المستقبل من مفهوم عملية متوالية على خط مستقيم تخضع لها كافة اتجاهات الإرتقاء الثقافي الأخرى، حينئذ يكون السعي إلى الانتظام اللغوي - الثقافي المحرك الحاسم للتقدم الاجتماعي. أما إذا تُرك المجال لعملية العولمة للتأثير علينا، حينئذ لا يمكن التعرف على أي علامات لحدوث تطور ممتد خطياً باتجاه هذا الانتظام. على العكس تماماً، يتشكّل مع تقوية الوعي الثقافي الإقليمي إتجاه يتصدى لقوة جذب التسطح الكوزموبوليتي.

إنّ اللمسة الكوزموبوليتية التي تضفيها اللغة الإنجليزية على الاتصالات المتبادلة على نطاق عالمي لا تتعارض مع تقييم لغة محلية بكونها محركاً للهوية الذاتية ورمزاً لثقافة إقليمية. ثم إنّ التوجه الكوزموبوليتي المنطلق من اللغات العالمية ليس سوى مظهر من مظاهر الوظائف الاجتماعية للغة، علماً أنّ حضور لغة عالمية لا يقلل بالضرورة من تماسك هوية اللغة المحلية. إنّ الإنسان الحديث يحتاج إلى هذه (اللغة بكونها وسيلة للاتصالات العالمية) وإلى تلك (اللغة بكونها رمزاً للخصوصية الثقافية) لأنّ الثقافة التي ترتكز على لغة واحدة فقط لا تقدم أي آفاق مستقبلية تبشّر بالخير.

إن الأفراد الثنائيي اللغة، الذين لا يستطيعون أو لا يرغبون في العيش مع تناقض توزيع الوظائف بين اللغات المهيمنة وغير المهيمنة، قد يميلون إلى تفضيل أحادي الجانب للغة المهيمنة وتجاهل اللغة غير المهيمنة، لا بل التخلي عنها. لذا فإن تقييم التنوّع اللغوي بكونه على الأغلب مسألة ذاتية لا يخضع لأي معايير موضوعية.

وفي الحين الذي يصبح فيه الرجوع إلى الإنجليزية أو إلى لغات عالمية أخرى ضرورة لا بد منها Conditio sine qua non بالنسبة لحركية الاتصالات الثقافية المتبادلة، يصبح فهم الذات ذو العلاقة بلغة أم محلية كأداة للخصوصية الثقافية – الأثنية، قوة مضادة لفقدان الهوية والتسطيح الاجتماعي. وعند النظر إليهما من هذه الزاوية فإنّ الاتجاهين الضخمين، أي الكوزموبوليتية اللغوية وتحقيق الذات القائم على لغة محلية ضرورة لا يمكن الاستغناء عنهما بالنسبة إلى تطور حياتنا الثقافية في المستقبل.

الخرافة 4: تنوّع اللغات ظاهرة خارج البلدان الأوروبية. في عالم الدول القومية الأوروبية يُعد تعدد اللغات شيئاً هامشياً

ما يزال الكثير من الأوروبيين يعتقدون أن تعدد اللغات في عالم الدول الأوروبية ظاهرة استثنائية وأنّ الطبيعة الموحدة للثقافات الوطنية في أوروبا قد تبدلت من جرّاء قدوم طالبي اللجوء السياسي والمهاجرين بحثاً عن العمل. غير أنّ الأوروبيين أصبحوا في هذا الصدد ضحية أيديولوجية دولهم القومية التي كانوا قد أسسوها بروح عصر القرن التاسع عشر والتي لا تزال تؤثر حتى الآن. وبالتوازي مع هذه الأيديولوجية، التي تُعدُّ الدول القومية الأوروبية بموجبها كيانات تتألف من مجموعات سكانية متجانسة، انتشرت أيديولوجية لغوية قومية تقوم على المبدأ القائل بأنّ الدولة القومية المتجانسة يجب أن يكون لها لغة رسمية موحدة.

وباستثناء آيسلندا التي تجسّد، بسبب موقعها كجزيرة متطرفة وانعزالها لأسباب مرورية تقنية المثل الأعلى للدولة القومية جغرافياً أيضاً، يعتبر التجانس اللغوي - الثقافي للدول الأوروبية تصوراً خيالياً لا علاقة له بالواقع أبداً. إن التعددية الثقافية والتعددية اللغوية صفتان تميزان المسرح السياسي لأوروبا منذ أقدم الأزمنة. أما توسيع المشكل اللغوي متعدد الألوان الذي حدث إثر تدفق سيول اللاجئين والنازحين فهو تجربة فتحت فجأة أعين الأوروبيين. وانطلاقاً من الاطلاع على التناقضات الثقافية واللغوية الغريبة تنبه الناس إلى الوقائع اللغوية - الثقافية التي باتت تحيط بهم من كل حدب وصوب، أي وقائع تعدد اللغات التي كانت في السابق قد طمست أو تم تشويهها بواسطة أيديولوجية الدول القومية التي كانت تمجد ثقافة اللغة الواحدة فقط.

ومَن يهتم بتعدد اللغات في العالم تصبح قوالب الدول القومية وقوالب اللغات القومية بالنسبة له عائقاً وحجر عثرة على الطريق. وبغض النظر عن بعض الحالات الاستثنائية تعتبر الدولة القومية المتجانسة لغوياً وثقافياً أمراً طوباوياً. إن الوقائع السياسية للحداثة، على سبيل المثال: نضج الإندماج الأوروبي، تقرّب من «وداع الدولة القومية» (Albrow 1998). ولا ينطبق هذا فقط على الدول الأوروبية بل على دول العالم كافة. ثم إن الدول التي تعتبر تقليدياً دولاً موحدة هي في الواقع دول متعددة اللغات، أو التي أضفت على نفسها سمعة معينة

مثل ألمانيا فرنسا إيران أو اليابان. إنّ تعدد اللغات هو القاعدة في دول العالم، ولا وجود لاتجاه نحو الانتظام اللغوي في لغة واحدة.

الخرافة 5: استخدام العديد من اللغات الرسمية في الدول متعددة القوميات أو المنظمات الدولية عبء غير ضروري

من الصور النمطية المتجذرة حول مغزى وغرض السياسات اللغوية هو أنّ استخدام لغات عديدة في الوظائف الرسمية بدل استخدام لغة رسمية موحدة (أي واحدة) يشكّلُ إرباكاً كبيراً. وهكذا فإنّ تجارب التعامل مع العديد من اللغات الرسمية في بلدان مثل الهند أو جنوب أفريقيا، وكذلك من قبل المنظمات الدولية مثل منظمة الأمم المتحدة أو مؤسسات الاتحاد الأوروبي، تبدو وكأنها تؤكّد جميعها على نظرية الترهل الذي يصيب عمليات إجراء المعاملات الرسمية بلغات متعددة. في الواقع جرت المطالبة مراراً وتكراراً بتسوية أوضاع اللغة الرسمية المستخدمة في هيئات الاتحاد الأوروبي نظراً لأنّ تعدد اللغات المستخدمة حالياً مكلف جداً ويتطلب تنظيمياً وقتاً طويلاً.

وفي إطار النقاش الذي يدور حول التبسيط التنظيمي لاستخدام لغة رسمية ما سواء على صعيد الاتحاد الأوروبي أو ما يتعلق بكيان دولي معين يضم قوميات عديدة، يجري بصورة عامة فصل الإشكالية اللغوية عن المشاكل السياسية الاجتماعية، مما يؤدي إلى تولّد الانطباع وكأن اللغات بحد ذاتها هي العائق الفعلي. إن تعدد اللغات الرسمية ليس إلاّ ذريعة تُحمّل مسؤولية المشاكل التنظيمية التي

تكتنف المعاملات الرسمية. أما عند إمعان النظر في الأمر يتبيّن أن الكابح الفعلي في المنظمات المعنية هو آلية العمليات الديمقراطية لاتخاذ القرارات وليس التشابك الوظيفي بين اللغات المتعددة.

وكما دللت التجارب، فإنّ صياغة الآراء السياسية وتحقيق القرارات على المستوى الحكومي وتطبيقها في البرلمان ووضعها موضع التنفيذ على الصعيد الإداري عملية صعبة المراس في الديمقراطيات التي تعمل بصورة منتظمة. وهذا هو في الواقع سبب ترهل منظمات المجتمعات الديمقراطية بغض النظر إن تعلق الأمر باستخدام لغة رسمية واحدة أو عدة لغات رسمية. أما في النظم الدكتاتورية فإنّ استخدام لغة رسمية واحدة أسهل بكثير من استخدام لغات عديدة. على سبيل المثال كانت جميع القرارات الحاسمية في الاتحاد السوفييتي السابق تُتخذ من قبل الحكومة المركزية في موسكو وتُصاغ باللغة الروسية. وبالاعتماد على هذه القاعدة السلطوية لغوياً كانت هذه القرارات تترجم إلى جميع اللغات الرسمية الأخرى في البلاد (في الجمهوريات السوفييتية غير الروسية).

كما أنّ تعدد اللغات الرسمية لم يستخدم أبداً في أي مكان كان لأغراض التواصل فقط. إنّ اختيار اللغات الرسمية له علاقة أيضاً بسمعة اللغة المختارة وهيبتها. وحتى عندما تكون قيمة استخدام اللغات الاتصالاتية غير متناسبة مع التكاليف التنظيمية المرتبطة بها، تكون للغة الرسمية قيمة رمزية، وتعادل مكانتها حاجات المجموعة

اللغوية لأن تكون متساوية مع المجموعات اللغوية الأخرى. في مثل قيم السمعة والهيبة هذه بالذات تكمن أسباب استخدام لغات رسمية متعددة حتى في البلدان ذات القومية المتجانسة. من الأمثلة على ذلك فنلندا التي تبلغ فيها نسبة غالبية الشعب الفنلندي 94%. في فنلندا يوجد قيد الاستخدام العديد من اللغات الرسمية مثل الفنلندية والسويدية والزاميّة Saamisch (في ثلاث من اللغات المحلية المختلفة المتداولة)؛ (راجع الفصل الأول).

الخرافة 6: تعتبر حالات الاتصال، حيث يجري استخدام لغات عديدة، بُؤراً محتملة لنشوب الأزمات

على الرغم من عدم خطأ هذا التعميم جملةً وتفصيلاً، إلاّ أنّه أيضاً ليس صحيحاً تماماً. هناك في الواقع حالات كثيرة تشكّل فيها الاتصالات بين اللغات بؤراً للأزمات. وأغلب هذه الحالات هو الوضع الذي تمارس فيه اللغة المهيمنة (على سبيل المثال اللغة الرسمية للبلاد) ضغطاً على لغة غير مهيمنة (على سبيل المثال لغة أقلية إثنية).

ومن الأمثلة الصارخة على مثل هذه الأزمات كان الوضع السائد في كوسوفو حتى اندلاع الحرب في مطلع صيف عام 1999. إذ كانت لغة أكثرية سكان هذه المنطقة، أي اللغة الألبانية، لا تملك أي حقوق مما جعلها تتراجع إلى مصاف اللغات المحلية العادية تماماً. ومن ناحية أخرى احتلت الصربية وهي لغة أقلية في الحياة العامة جميع وظائف

الاتصال، ابتداء من المعاملات الرسمية وانتهاء بالتعليم المدرسي. هكذا هيمنت الأيديولوجية اللغوية الصربية للدولة على الرغم من الطبيعة الفيدرالية السائدة أسمياً في يوغوسلافيا، وفي كوسوفو أيضاً.

وكما يرى الألبان كانت الصربية أداة للقمع تمارسه القيادة المركزية في بلغراد التي أبقت غالبية الشعب في كوسوفو في حالة من التبعية على الوضع الكولونيالي ومنعته من التفتح الثقافي المحلي. ولكن وفق التفسير الصربي لا تزال الألبانية حتى اليوم رمزاً للتمرد والإرهاب.

وعلى غرار الطريقة التي خضعت فيها لغة أحد أطراف النزاع، كما في النزاع اللغوي في كوسوفو، إلى تقييمات إزدرائية أطلقها طرف على الطرف «الآخر» (ولا تزال فعلياً حتى الآن)، هناك استراتيجيات مماثلة كما هو الحال في الصراع التركي - الكردي في شرق تركيا. وهناك أيضاً تعتبر اللغة الرسمية للدولة (التركية) من قبل الناطقين باللغة غير المهيمنة (الكردية) أداة للقمع.

وما يتعلق بتقييم اللغة الكردية من قبل الأتراك، هناك عامل إزدرائي غير موجود في كوسوفو، يتمثل في عدم اعتراف الجانب التركي الرسمي بوجود اللغة الكردية كلغة مستقلة. ونظراً لأنّ الجانب الرسمي التركي لا يعترف بالقومية الكردية، بل يسمي الأكراد «أتراك الجبال» فإن لغتهم لا تحتل على أفضل حال إلا مكانة لهجة محلية، ولا تستحق بالتالي أي تشجيع.

وبالنظر إلى التجارب المستخلصة من الأزمات في كوسوفو وتركيا وغيرهما من الأماكن، لا عجب أبداً أن نرى بعض المراقبين الحياديين يميلون إلى تقييم سلبي للاتصالات اللغوية وتعدد اللغات في منطقة ما كمصدر محتمل لنشوب الأزمات. إنّ حالات النزاع توقظ انتباهاً خاصاً، في حين أنّ حالات الاتصال بين اللغات المعنية بالأمر التي تتطور دون أزمات أو ضجيج تبقى غير مذكورة.

علاوة على ذلك فإنه في غالبية، وإن لم يكن في جميع حالات الصراعات اللغوية، تصبح اللغات نفسها موضعاً للأزمة وليس فتيلها الفعلي. على الأغلب تصبح اللغة رمزاً لأشياء أخرى، أي لاستراتيجيات السلوك اللاتواصلي، ولعدم كفاءة أو عدم رغبة الناطقين بهذه اللغة المعينة للاندماج مع الناطقين باللغة الأخرى.

في كوسوفو مثلاً كانت اللغات ولا تزال مصدر الأزمات نظراً لعدم التمكن من التعايش بين الصرب والألبان ولاستمرار حالة العداء بينهم، ونظراً لأنّ السلوك التواصلي في العلاقات بينهم والنظام السياسي القائم غير مكفول إلاّ بوجود قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، ونظراً لأنّ الأحقاد الأثنية ما زالت حتى الآن تغذي هذا الصراع. وفي هذه الغابة وعرة المسالك تلعب لغات المجموعات الأثنية المتعادية في الوقت نفسه دور الأداة الأيديولوجية في إذكاء هذا الصراع. لذا رأينا كيف أنّ اللغتين الصربية والألبانية تورطتا بسبب استقطابهما الأتني - الثنائي في الأزمة التي تحولت إلى

مواجهات عسكرية دون أن يوجد في دورهما بالتواصل أي عنصر يشكل بحد ذاته مصدراً لقيام النزاع.

ولا تشكّل اللغات بحد ذاتها مصدر النزاع إلاّ عندما يحولها الناس إلى وسيلة لرفض التعاون المتبادل. ولا تتحول اللغات في منطقة ما إلى مصدر للنزاع إلاّ على يد الناطقين بها. وما دام التواصل بين الناس ذوي اللغات والثقافات المتعددة يقوم على الاستعداد للتعاون، فإنّ اللغات المعنية سرعان ما تجد لنفسها قنوات للتجانس الوظيفي. إن تعدد اللغات في منطقة ما يصبح قادراً على أداء وظيفته شريطة التعامل العقلاني مع هذه اللغات من قبل الناطقين بها.

وعندما تنعدم مثل هذه المعرفة أو الاستعداد لاستخدام اللغة كأداة لتفاعل قائم على التسامح، يقوم الناطقون بها بتحويلها إلى حالة حُبلى بالنزاعات. وفي الحالات المتطرفة يعبر ذلك عن نفسه عندما تهيمن على تفكير أولئك الذين يسيطرون على السلطة السياسية غشاوة من طوبائية الانتظام الخيالي للغة. وعندما يطغى مثل هذا التفكير على التفاعل اليومي في منطقة الاتصالات اللغوية، حينئذ تتولد صدامات حتمية بين اللغات ذات العلاقة بهذه الاتصالات كما لو أن حقائق تعدد اللغات ترفض محاولات إيجاد ثقافة وحيدة. إن مصدر النزاع الفعلي في منطقة ما ليس اللغة بحد ذاتها ولا تعدد اللغات بل التفكير والتصرف الهدامين اللذين يتم بهما تجاهل الوقائع أو اللذين يجري التلاعب بهما من أجل الدفاع عن مصالح أنانية لأحد أطراف النزاع.

الخرافة 7: اللغة في المقام الأول وسيلة للاتصال وتمثل طبيعتها إلى حد كبير طبيعة أداة لأغراض تبادل المعلومات

لا يوجد من يستطيع بجديّة إنكار كون اللغة وسيلة لنقل المعلومات. بيد أن قصر أهمية اللغة على هذه الوظيفة وحدها يعني تشويهاً للأوضاع الواقعية التي تلعب فيها اللغة دوراً مفصلياً. أما الرأي أحادي الجانب القائل بأنّ اللغة ليست سوى أداة لنقل المعلومات، فهو نتاج أفكار ذلك الزمن الذي كان فيه التطور الاجتماعي يُقاس حسب أصناف عقلية التقدم المطبوعة بالعلوم الطبيعية. ثم إنّ اللغة كانت حتى مطلع الستينات تُشخَّصُ كأداة للفكر البشري العقلاني، وكانت نظريات اللغة تركز على الشروط الموضوعية – العقلانية لتبادل المعلومات بين شركاء حوار لديهم نفس المعلومات عن العالم.

تم التعرّف على اللغة كظاهرة اجتماعية في القرن السادس عشر. حيث تعرف العلامة الإسباني وأول فلاسفة العصر الجديد خوان لويس فيف Juan Luis Vives (1492 - 1540) على الطبيعة الاجتماعية للغة وقام بإطلاق المقولة التالية: "Es etiam sermo societatis humanae instrumentum" (اللغة إذاً هي أداة المجتمع البشري). وبهذا لفت الانتباه للمرة الأولى إلى أنّ اللغة تخدم، عَبْر التفاعل بين أعضاء مجتمع ما، تحقيق الروابط الاجتماعية. ويبدو في هذه الأثناء وكأن هذا الرأي قد طواه النسيان، وإن كان قد ظهر من جديد في نهاية القرن التاسع عشر. وكان جيورج فون در غابلنتس Georg Von Der Gablentz في شرحه لعلم اللغات (1981) قد ركز مجدداً على اللغة كظاهرة اجتماعية.

كان علماء اللغة يظنون خلال عشرات السنين أن فرديناند دو سوسور Ferdinand de Saussure هو مؤسس علم اللغة البنيوي Strukturalistische Linguistik كما ورد في كتابه المصدر الأساسي بعنوان: «دروس في علم اللغة العام» Cours de Linguistique générale (1908 - 1909) الذي أُعيد نشره على يد تلامذته بالاعتماد على نصوص المحاضرات التي كان يلقيها أستاذهم. ثم إنّ الطبيعة الشكلية للنظر التزامني إلى اللغة والمدمجة في نظرية العلامة اللغوية بدت وكأنها الغاية الرئيسية للعلّامة دو سوسور، الذي قيل عنه بأنه كان قد تجاهل الطبيعة الاجتماعية للغة. على أي حال، وفق وجهة النظر هذه تم تقييم كتابه وجرى تطوير البنيوية اللغوية ذات الطابع السوسوري.

ومما يدعو إلى الملاحظة هو أن المرء لم يستطع إلاّ مؤخراً فقط التدليل على أنّ سوسور كان يملك بالمعنى الفعلي رأياً اجتماعياً لغوياً بقي مخفيّاً في كتابه Cours والذي لم يستطع البنيويون معرفته (Thibault 1997). وهكذا فإنّ سوسور لم يحتل بكتابه هذا مكانة بارزة في تاريخ العلوم العامة للغة، بل إنه ينتمي حسب هذه الأحقية إلى رعيل الروّاد الطليعيين في علم اللغة الاجتماعي الحديث.

قام خبراء من مختلف فروع العلوم الإنسانية (علماء لغة، أنثروبولوجيون، علماء دلالات الألفاظ وتطورها، باحثون في شؤون الهوية، أثنولوجيون) خلال العقود الماضية بصياغة فسيفساء من المعارف تظهر تدريجياً اللوحة الكاملة للوظائف اللغوية في مختلف مجالات الإبداع الثقافي البشري. فاللغة تتوغل عميقاً في الوجود

الإنساني. ثم إنّ اللغة لا تباشر مفعولها فقط عندما يبدأ الناس بالتواصل مع بعضهم البعض، بل إنّ اللغة كما يبدو تساهم في عملية تهيئة الأفراد للإنخراط في المجتمع والبحث عن هويتهم.

وقد عُرف مؤخرا أنّ عملية تشكيل الهوية لدى الفرد هي المحرك المقرر لسلوكه الاجتماعي ولقدرته على إقامة محيط ثقافي. ومن ناحية أخرى، تعتبر الهوية الفردية من جانبها شرطاً مسبقاً لبناء هويات جماعية، أي للتراص الداخلي للمجموعات. «الناس لا يستطيعون النجاة إلاّ عند العيش داخل مجموعات، والمجموعات تتطلب من جانبها، من أجل أن تكون قادرة على أداء وظائفها بصورة كاملة، هوية سليمة ومستقرة قدر الإمكان تستطيع أن تعبّر عن نفسها بتفرد بمختلف أشكال التعبير مثل الإقليمية، ومنظومة القرابة والمنظومة الاجتماعية، ونوع كسب المعيشة، والأخلاق، والعقيدة، وإلى اخره من الأمور الكثيرة) (Müller 1987: 391).

وتؤدي اللغة في تشكيل الهوية دوراً أساسياً. فلقد تبيّن في تاريخ الثقافة أنّ اللغة هي أكثر أنظمة الإشارات فعالية وأكثرها قدرة على التأقلم وأكثرها أوجهاً من ناحية وظائفها التواصلية التي تخدم تشكيل الهوية. واللغة حسب تعقد أشكالها التعبيرية مؤهلة من ناحية على أحسن وجه لمواجهة المتطلبات الموجهة للناس في تفاعلهم مع محيطهم الثقافي. ومن ناحية أخرى يظهر في قدرة اللغة على التأقلم أنّ هذه الأداة تتأقلم بمرونة مع الشروط الموجودة في مجتمع متغيّر.

ومن لغة صيادي الحيوانات الوحشية والصيادين القدماء من العصر الحجري القديم تطورت لغة مجتمعنا الحالي ذي التقنية الرفيعة. ثم إنّ وسيلة اللغة تشعبت خلال تاريخ تطورها إلى آلاف الأنواع، وهذا أيضاً علامة تدلل على قدرتها للتأقلم بفعالية مع الظروف الخاصة لتشكّل الهوية الثقافية المحلية (Nettle 1999).

وبالنظر إلى الأهمية المركزية للغة في تشكيل الهوية الفردية والجماعية، يصبح من المفهوم بسهولة خطأ توجيه السؤال بصورة عامة إن كان تنوع اللغات بؤرة للنزاع أم لا.

إنّ تعدد اللغات في العالم ليس واقعاً يجب العيش معه وحسب، بل إنه أيضاً أداة للهوية الإنسانية لا يمكن الاستغناء عنها من أجل مواجهة متطلبات الثقافة المحلية والمحافظة على السلوك الاجتماعي وجعله يؤدي وظائفه تحت مختلف الظروف الاجتماعية. إن خسارة تنوّع اللغات في العالم يعادل ما قد يحدث من تقليل لقدرة الإنسان على إقامة جماعة ذات صبغة محلية.

ثم إنّ النظر إلى تعدد اللغات الفردية وتنوعها في العالم على أنه مانع وعبء لا حاجة إليه، أو على أنه إغناء وفرصة طيبة لقيام حوار ثقافي، شأن يخصنا ويعتمد علينا وعلى نوايانا ووضعيات مصالحنا. وعندما يتم حالياً في مسألة حقوق الإنسان إعطاء وزن أكبر للإعتراف بالثقافات الإقليمية وهويتها، حينئذ يشمل هذا المنحى من التفكير أيضاً اللغات التي تتبلور فيها هوية الثقافات الإقليمية.

ومن أجل التعامل بسهولة مع بابل الحداثة، يجب على المرء التعرف على شعابها أولاً. لذا ستقوم الصفحات التالية بالحديث المسهب عن تنوع اللغات في العالم الذي نعيش فيه. ومن الأمور التي تنتمي إلى مراقبة تنوع اللغات أيضاً تقييم التجارب التي عاشها الناس في مختلف أرجاء العالم مع ظروفهم الحياتية البابلية، نظراً لأنّ حكاية التعامل مع بابل تعطينا الكثير من العبر والدروس التي يكون من المفيد تعلمها. إن منظمة تسوية أمور اللغات الرسمية، ووظائف اللغات العالمية ومكانة اللغات القزمة ستُناقش مثل مناقشة الاتصالات اللغوية وظروفها الإيكولوجية وكذلك التلاحم الوظيفي بين الشفهية والكتابة.

وإذا ما قدّم هذا الكتاب للقارىء الانطباع بأنّ خلف كواليس الاتصالات اليومية العادية يتطور حقل من الفعاليات المدهشة التي ترتبط بإجمالي مشاكل الإبداع الثقافي للبشر وحيث توجه نوايا البشر التعامل مع بابل، حينئذ يكون المؤلف قد توصل إلى هدفه المنشود: انتشال بداهة اللغة من المنطقة الرمادية وإبراز ملامحها المتعددة الألوان. ثم إنّ هذا الكتاب يريد تقديم قسطه للقضاء على الخرافة المتعلقة بالبلبلة اللغوية البابلية. نعم لقد عشنا نحن معشر البشر دوماً وأبداً مع خرافاتنا، علماً بأنّ هناك العديد من الخرافات الجديدة التي تنشأ كل يوم. وفي خضم ما كان وما يحدث، يكون من المفيد «التخلص» من الخرافات التي أكل الدهر عليها وشرب و«غسل» عالم أفكارنا مما علق به من شوائب وخلق ساحة رحبة لآفاق جديدة:

الفصل الأول

اللغات في متاهات المعطيات الأثنية والاجتماعية الثقافية والجيوبوليتية (الجيوسياسية)

في جميع أرجاء العالم هناك حدود وخطوط فاصلة، مرئية ومخفية، طبيعية ومن صنع الإنسان. فالأشرطة الساحلية التي تفصل الكتل الأرضية عن المياه مثلاً تنتمي إلى العوائق الطبيعية، تماماً مثل السلاسل الجبلية التي تفصل الأراضي بعضها عن بعض. أما الحدود السياسية فهي حدود اصطناعية لا تتألف إلاّ جزئياً مع المعطيات الجغرافية. علماً أنّ الخطوط الفاصلة الأثنية تظهر كالعوامل المتغايرة، وخاصة في الأشكال الثقافية وفي الصورة الأنثروبولوجية - الديموغرافية للمجموعات السكانية المحلية. أما الحدود اللغوية بالمقابل فهي حدود غير مرئية، وإشاراتها الحدودية سمعية ولا تظهر للعيان إلاّ بواسطة اللوحات المثبتة في المناطق الحدودية.

وهكذا فإنّ اللغة والثقافة لا يتطابقان في كل مكان. نشاهد هذه

الظاهرة، على سبيل المثال، لدى الشعوب الصغيرة العديدة في شمال سيبيريا التي تتشابه ثقافاتها المادية كثيراً، وإن كانت تتحدث بلغات عديدة مختلفة. تتولد أوجه الشبه الثقافية بصورة رئيسية من الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية المتشابهة التي يعيش الناس في كنفها في مناطق كبيرة حيث لا مجال للزراعة وحيث تكون الحياة النباتية أقل وفرة مما هو موجود في المناطق الأخرى. في شمال سيبيريا تمت المحافظة على الأشكال الزراعية من قبل ثقافات القنص ذات التقاليد الغنية ومن قبل سكان القبائل التي تربي وترعى حيوانات الرنة. وحتى النظام السوفييتي القائم على التوجيهات القسرية لم يتمكن من القضاء على هذه التقاليد. ثم إنّ المتوارثات الدينية متشابهة أيضاً لدى الشعوب المنفردة مثل المذاهب التكهنية القائمة على السحر والشعوذة (Novik 1989) . ولا يزال الإيمان بالأرواح الطبيعية قائماً حتى الآن، حيث تكون البحار والغابات خاضعة برمتها لحماية ورعاية الأرواح الأنثوية.

وعلى الرغم من التطابقات والانسجامات الثقافية، فإنّ لغات شعوب سيبيريا مختلفة جداً إلى حد ما وغير قريبة نهائياً من بعضها البعض. فاللغات السامودية Samojedisch (السامودية: شعب سيبيري منغولي يعيش على القنص وصيد الأسماك - المترجم)، (على سبيل المثال: النتسية Nenzisch، السلكوبية Selkupisch) هي فرع من أسرة اللغات الأورالية، في حين أنّ اللغات التونغوسية Tungusisch الصغيرة (على

سبيل المثال: الإفنكي Evenki، الأوروكية Orokisch) تنتمي من ناحية علم الأنساب إلى أسرة اللغات الألطائيّة Altaisch (الألطائية: أسرة من اللغات تنتظم التركية والمنشورية والمغولية - المترجم). أما بالنسبة إلى اللغات السيبيرية القديمة. وقد يعدّ أهم ممثليها جماعة الأسكيمو السيبيرية Eskimo والجماعة التشكتية Tschuktische، فلا يمكن البرهنة على وجود أي علاقة قرابة لها مع أسر اللغات الأخرى المذكورة. وإذا ما أراد المرء معرفة مدى الحجم الذي يتنافس فيه رسم الحدود اللغوية مع الحدود الثقافية والسياسية، حينئذ يجب عليه التعامل مع بلبلة حقيقية من الإشارات الحدودية.

ثم إنّ حدود الدولة وحدود اللغة لا تتطابق في أي مكان من أماكن العالم، إلى درجة أنّ الخارطة السياسية تظهر ملامح مختلفة تماماً عن ملامح خارطة انتشار اللغات. وفي معظم مناطق العالم تكون الحدود اللغوية أقدم بكثير من حدود الدولة. وحتى في عصر القوميات عندما سعى الأوروبيون إلى مؤالفة حدود دولهم القومية مع لغاتهم القومية لم يتمكنوا من تحقيق ذلك إلاّ بصورة غير كاملة. ويظهر مدى اعتباطية رسم حدود العديد من الدول الحديثة بصورة واضحة للعيان في المرحلة ما بعد الكولونيالية في إفريقيا وآسيا.

وحتى تقسيم أمريكا اللاتينية إلى وحدات سياسية كان اعتباطياً. إذ تخترق حدود الدول المناطق التي تتكلم الإسبانية تماماً مثل اختراقها لمناطق انتشار لغات الهنود (الأمريكيين). أما الحدود

السياسية الوحيدة في هذه القارة التي تؤشر في الوقت نفسه إلى حدود اللغة فهي حدود البرازيل مع الدول المجاورة لها. كما أن مجرى الحدود لا يفصل دولاً فقط بل أيضاً المجموعات اللغوية الإسبانية عن المجموعات اللغوية البرتغالية. وعلى غرار اللغات الأوروبية المستوردة فإنّ لغات الهنود لا تتلاءم أيضاً مع عالم الدول في هذه القارة. إلاّ أنّ هناك دولة واحدة فقط تمكنت من أن تحقق بالحدود التي اختطتها لنفسها وقائع جديدة على الأرض، ألا وهي دولة باراغواي حيث يشكل الناطقون بلغة غواراني Guarani الأغلبية والناطقون بالإسبانية الأقلية. أما في جميع دول أمريكا اللاتينية فيشكّل الناطقون بلغة الهنود الأقلية السكانية.

إنّ رسم حدود دولة ما سهل للغاية لأنّ الحدود معلّمة بواسطة العلامات المثبتة على الأرض (أي أوتاد حدودية، أحجار، أسيجة وما شابه). لقد كان جدار برلين طيلة وجوده يُستخدم لعزل الشرق عن الغرب، وأصبح انهياره رمزاً لفتح الحدود، وأبعد من ذلك، رمز تمزق الستار الحديدي. لكن مثل هذه الحدود الثابتة أو الرمزية لا وجود لها في عالم اللغات. ثم إنّ المرء لا يستطيع ربط الانتشار الجغرافي للغة ما مع ظروف العلاقات القائمة بين الناطقين بها.

فعندما يعرف المرء مثلاً أنّ الناس يتحدثون الألمانية في ألمانيا، ولكسمبورغ، وسويسرا، والنمسا، وإيطاليا (التيرول الجنوبي) وفي روسيا (جنوب سيبيريا) وعندما يعرف المرء عدد الناطقين بهذه اللغة

في البلدان المذكورة، فإنّ هذا لا يعني أوتوماتيكياً أنّ المرء يعرف تماماً ظروف الوجود الاجتماعي للفرد الألماني لأنّ هذه الظروف تختلف من بلد إلى آخر من البلدان المذكورة، لذا يحق الحديث عن «الأنواع الوطنية للغة الألمانية» (Ammon 1995). في ألمانيا لغة الدولة هي الألمانية، أي أنها اللغة الوحيدة المستعملة في الحياة العامة. لذا يعتبر من الأمور الطبيعية جداً أن يقوم الفرد الألماني باستخدام لغته في كل مكان وفي كل زمان. أما في اللكسمبورغ فالألمانية ليست إلاّ واحدة من ثلاث لغات ولا تُستخدم كلغة قومية بل كلغة ثانية. اللغة القومية في لكسمبورغ هي اللتسبورغية Letzeburgische.

وفي سويسرا يجري استخدام الألمانية بنوعيها، أي بالصيغة السويسرية Schwyzertütsch غير الرسمية وبصيغة اللغة الألمانية الرسمية الفصحى Hochdeutsch. أما الألمان الذين يقطنون التيرول الجنوبي فيتحدثون لغتين (الألمانية والإيطالية) ولغتهم الأم لها مرتبة رسمية فقط في المناطق التي يسكنونها. أما بالنسبة للغة الألمانية في روسيا فلا وجود لأي حقوق تشجيعية لهذه اللغة لأنّ الألمان أقلية لا تملك منطقة إدارية خاصة بها. في حين أن الألمانية تتمتع لدى الأقلية الألمانية في سيبيريا بمرتبة لغة الوطن والتي لا تُستخدم لأغراض الكتابة إلا نادراً. فلغة التعليم المدرسي هناك هي الروسية.

لهذا لا يمكن عند إعداد خارطة لغوية أو خارطة سكانية (حسب وجهات النظر الأثنوغرافية) رسم علامات محدّدة لوضعية اتصال

اللغات في المناطق المختلطة الأثنيات. وإذا كانت حالات الاتصالات اللغوية غير قابلة للتصوير على الخارطة فإنّ هذا ينطبق أيضاً على تعدد اللغات والناطقين بها. علماً أنّ تعدد اللغات في دول العالم ظاهرة غير استثنائية بتاتاً. على العكس تماماً. حيث أنّ الحالة السائدة في غالبية الدول هي أن يتحدث الشعب بأسره أو أقليات ذات أعداد غير قليلة، عدة لغات، وكيف أنّ هذا التنوع في التواصل يميّز ثقافة البلاد المعنية (Mackey 1976: 13 ff).

ولا ينطبق هذا على الدول ذات السكان المتعدد القوميات والمعروفة تقليدياً بهذه الصفة مثل الهند وروسيا أو جنوب أفريقيا، بل يشمل أيضاً البلدان التي طورت سمعة سياسية على أنها دولة قومية موحدة مثل فرنسا، اليابان أو العراق. إن المطلعين على أحوال هذه البلدان يعرفون تماماً وجود العديد من اللغات الأصلية غير الفرنسية المنتشرة في المناطق المحيطة بفرنسا، ويشيرون إلى اليابان حيث يعيش باستثناء كتلة اليابانيين الذين يحسنون لغة واحدة، شعب آينو Ainu، والكوريون والروكيآنيون Ryukyuaner (في أرخبيل الجزر الجنوبية). ومنذ حرب الخليج الثانية عام 1991 يعرف العالم بأسره أنّ العراق غير مأهول بالناس الذين يتحدثون العربية فقط، بل هناك أيضاً الأكراد وغيرهم من الأقليات في شمال العراق (الآشوريون، الكلدانيون وهم الصابئة، المندائيون، اليزيديون مثلاً - المترجم).

وحتى تركيا تنتمي إلى مجموعة البلدان التي تدعي أنها تتحدث لغة

واحدة، ولكنها في الواقع من الدول ذات الألسن المتعددة. ومن خلال الصراعات الأثنية في تركيا ازدادت معارفنا عن المقاومة التي يبديها الشعب الكردي غير القريب من الأتراك لغوياً ونسبيّاً، ضد الاحتكار التعليمي والإداري الذي تمارسه الحكومة التركية. وفي الحين الذي ترتبط فيه اللغة التركية وغيرها من اللغات واللهجات التركية مع أسرة اللغات القديمة، تنتمي اللغة الكردية إلى مجموعة اللغات الإيرانية كمجموعة محلية من أسرة اللغات الهندية الأوروبية. (الهندية الأوروبية: أسرة من اللغات تنتظم اللغات المحكية في معظم أوروبا، وفي الأجزاء التي استعمرها الأوروبيون من العالم منذ عام 1500 ميلادي، وفي إيران وشبه القارة الهندية وأجزاء أخرى من قارة آسيا – المترجم). وبالنظر إلى المعارك التي يخوضها الجيش التركي مع الإنفصاليين الأكراد تتناقض في تركيا بالذات مسألة المحافظة على العقيدة القومية مع ما تشهده الحياة اليومية من صراعات عرقية.

ومن الجدير بالذكر أنّ العديد من الدول ذات السكان المتعدد القوميات واللغات يطلقون على دولهم تسميات تشير إلى هذه التركيبة بالذات. على سبيل المثال التسمية الرسمية لروسيا الحديثة هي «الاتحاد الروسي» (باللغة الروسية Federacija Rossijskaja). وهكذا فإنّ الطبيعة الفيدرالية تأخذ بالحسبان هذه الحقيقة المتمثلة في أنّ البلاد لا تضم الروس فقط بل الكثير من الشعوب السلافية والقوميات التركية مثل التتر Tataren، والبشكير Baschkiren أو

التشوفاش Tschuwaschen والشعوب الفنلندية - الأوغرية Finnisch-ugrische مثل الموردويين Mordwinen، الكومي Komi، أو الأدمورتيين Udmurten، والمجموعات المغولية مثل الكلموكيين Kalmuken أو البورجاتيون Burjaten والساموديون Samojedische وكذلك شعوب التندرة Tundra الذين يسكنون الأصقاع الشمالية من سيبيريا. الاتحاد الروسي مقسم إدارياً إلى مقاطعات روسية ومقاطعات غير روسية (على سبيل المثال: تترستان، الكاريلين، جمهورية الكومي، بورجات).

ويظهر خداع المصطلح الفيدرالي لدولة متعددة الشعوب في مثال يوغسلافيا الحديثة. فبعد أن انفصلت الدول الاتحادية السابقة وهي سلوفينيا، وكرواتيا، والبوسنة والهرسك ومقدونيا عن نظام دولة يوغوسلافيا القديم وحصلت على استقلالها بعد خوض حروب دموية مع الجيش اليوغسلافي (1991 في سلوفينيا وكرواتيا، 1992-1995 في البوسنة والهرسك) لم يبق من يوغوسلافيا القديمة سوى دولتين اتحاديتين هما صربيا والجبل الأسود اللتين أسستا في عام 1991 اتحاداً جديداً هو يوغوسلافيا الجديدة. غير أنّ الطبيعة الفيدرالية لا تشمل إلاّ الفيدرالية القائمة بين صربيا والجبل الأسود اللذين تملك الأغلبية الأثنية في كل منهما (الصرب وسكان الجبل الأسود كشعبين شقيقين) من يمثلها سياسياً في حكومة بلغراد.

الشعوب الأخرى في يوغوسلافيا الجديدة هي أقليات قومية ولغوية

بقيت حتى نهاية عام 2000 دون مكانة سياسية خاصة بها. ينطبق هذا على الهنغاريين في فويفودينا (شمال صربيا) وعلى الألبان في كوسوفو[1] (جنوب صربيا). لقد اندلعت أزمة كوسوفو عندما أمر سلوبودان ميلوسوفيتش (الرئيس اليوغوسلافي) في عام 1989 بإلغاء الحكم الذاتي لألبان كوسوفو ساري المفعول حتى ذلك الحين، مما أدى في حينه إلى قيام حركة انفصالية ألبانية تصدى لها الجيش الصربي بضراوة شديدة. وتذكرنا التصفيات الأثنية التي مارسها جيش وميليشيات وشرطة صربيا في عامي 1998 و1999 بأفعال الصرب الفظيعة ضد الكروات والمسلمين في البوسنة والهرسك قبل ذلك بأعوام قليلة. لذا راهن التحالف العسكري الغربي (حلف شمال الأطلسي) على أنّ الحرب في كوسوفو هي الوسيلة الوحيدة المتبقية لقطع دابر الإبادة الجماعية للألبان وإنهاء مأساة تهجيرهم من ديارهم.

كانت أزمة كوسوفو أزمة أثنية لم تسوّ بعد وفق عقلية وطموحات الأطراف المعنية بالأمر. لقد تولدت بين الصرب والألبان الذين يتصارعون تاريخياً وثقافياً على أقليم كوسوفو منذ زمن بعيد عداوات متنوعة حدثت نتيجة الإنسلاخ الفعلي للمنطقة عن يوغوسلافيا (صربيا). كانت الرموز اللغوية للهيمنة الصربية والقمع الممارس بحق الألبان جزءاً لا يتجزأ من هذه الأزمة. ثم إنّ عدم منح الألبان في

---

(١) ايضاً كوصوفو، أطلس التاريخ، هـ. و. هازارد، وآخرون، جامعة برنستون، ١٩٥٤؛ نقله إلى العربية وحققه ابراهيم زكي خورشيد وراجعه محمد مصطفى زيادة، محمد عوض محمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٣ - المراجع.

كوسوفو حق ممارسة حقوقهم الشرعية ما يتعلق باستخدام لغتهم الأم دفعهم إلى استخدامها داخل منازلهم فقط. أما في التعليم المدرسي وفي أماكن العمل والحياة الوظيفية فكان الألبان يعتمدون على وسيلة تواصل غريبة، على لغة «عدوهم اللدود»، اللغة الصربية.

بالنظر إلى هذا الجو المشحون بالأزمات، ليس من العجب أن نرى أنّ اللغة الصربية ما زال يُنظر إليها من قبل ألبان كوسوفو على أنها أداة قمعية تستخدم ضدهم. لقد كانت اللغة في كوسوفو أكثر من مجرد أداة سياسية. فبالنسبة إلى الطرف الأول (الصرب) كانت اللغة (الصربية) تعتبر رمزاً لممارسة مطلقة للسلطة الوطنية، أما بالنسبة للطرف الثاني (الألبان) فإنّ اللغة (الألبانية) تعتبر رمزاً للبقاء الجسدي والمقاومة الثقافية ضد سياسة الانصهار الصربية.

توزع اللغات في المناطق الكبرى من العالم

مَن يشغل نفسه بتوزع اللغات في العالم يُواجه بالسؤال التالي: هل يستطيع المرء عدّ اللغات؟ الجواب المعقول على هذا السؤال هو: يعتمد الأمر على الغاية المقصودة من هذا التعداد. بيد أنّ هذه الإجابة تولّد السؤال التالي: ما المقصود من عبارة (يعتمد الأمر على الغاية المقصودة؟). يعتمد الأمر برمته على المعايير التي يجري وفقها قياس مكانة اللغة والمرتبة التي تشغلها. ونظراً لوجود العديد من المعايير اللازمة من أجل تقرير مكانة اللغة، نرى أنّ الأمر يعتمد دوماً لأغراض عملية تتعلق بتصنيف اللغات - وفي المقام الأول عند تعلق

الأمر بإجراء مقارنة على نطاق عالمي - على انتقاء جملة من المعايير. ويعتمد هذا الانتقاء من حالة إلى أخرى على أفضليات المراقب المهتم (عالم اللغة، عالم أنثروبولوجي، عالم إثنولوجي).

ومن أبسط المعايير المعتمدة في تصنيف أحد أنواع اللغات لغةً مستقلة قائمة بذاتها هو عائق التفاهم مع أشكال اللغات الأخرى. ويُفضّل معيار العائق اللغوي عادة من قِبَل أنثروبولوجيي الثقافة في تحديد هوية المجموعة اللغوية المحلية. وتعتبر صعوبة التفاهم بين اللغات المحلية مسألة شخصية بحتة ذات علاقة بمواهب الأفراد ومقدراتهم على تعلّم اللغات أو التعاطي معها. بالنسبة لبعض سكان شمال ألمانيا مثلاً تُعد اللهجة البافارية في جنوب ألمانيا غير مفهومة تماماً، في حين أن الآخرين من ذوي المواهب اللغوية المرهفة لا يواجهون أي إشكال في التعاطي مع اللهجة الألمانية في الجنوب.

ويُشكّل البُعد المعجمي الإحصائي المعيار الأكثر موضوعية في تقرير مكانة لغة ما. فحسب حصة العناصر المشتركة في المفردات يجري تصنيف أشكال اللغة إما كلهجات لغة ما (على سبيل المثال عند وجود نسب كثيرة من المفردات المتطابقة) أو كلغات مستقلة قائمة بذاتها (في حال غلبة انحراف المفردات). وفي بحوث النماذج اللغوية يجري منذ عام 1960 تطبيق قياسات تصنيفية من أجل تحديد البعد النسبي بين أشكال اللغات. أما الطرق الأقدم كالطريقة الكلاسيكية المطورة في عام 1963 من قبل جي. إتش. غرينبرغ J.H. Greenberg

فقد جرى صقلها إلى درجة تسمح لنا في الوقت الحاضر بإجراء تشخيصات دقيقة إلى حد ما للإشارات الحدودية بين اللهجات العامية واللغات (على سبيل المثال Goebl 1984).

لكن الأوضاع تزداد تعقيداً عند الاضطرار إلى مراعاة دور اللغة المكتوبة إلى جانب دور اللغة المحكية والمنطقة التي تشملها من أجل تقرير الفروقات اللغوية. في علم اجتماع اللغة تشكّل اتجاه بحثي قائم بذاته، أي علم التفكيك والمقارنة Ausbaukomparatistik الذي أسسه في عام 1978م إتش. كلوس H. Kloss والذي واصل تلامذته من بعده العمل بموجبه (Auburger 1993, Muljacic/Haarmann 1996). حيث يجري وفق هذه الطريقة تجميع اللهجات المحلية وتصنيفها للتأكد إن كانت تنحدر من لغة مكتوبة مشتركة أم لا.

وقد تكون مكانة اللهجة البافارية أو اللهجة الألمانية السويسرية حسب معيار حاجز التفاهم مختلفة كثيراً عن اللهجات الألمانية المحلية الأخرى، إلاّ أنهما مع هذا ونظراً لانحدارهما من اللغة الألمانية القياسية (أي الطريقة فوق المحلية لكتابة اللغة الألمانية) فإنهما تنتميان إلى اللهجات العاميّة الألمانية.

وفي خضم النقاش الدائر حول حقوق الإنسان، تعرّف المرء في الآونة الأخيرة على معيار جديد آخر للتفريق بين ضروب اللغة ومدى مدلولية ذلك، أي الوعي الذاتي باللغة أو بالأحرى التشخيص اللغوي الذاتي للناطقين باللغة. ويعتبر الوعي اللغوي صنفاً من القيم وبالتالي

ذاتي البعد مع كل ما يتصل بذلك من عوامل غير مقررة تتولد من هذه الذاتية (اللاموضوعية). فمن وجهة نظر الوعي الذاتي للناطقين باللغة الميراندية Mirandesische في شمال البرتغال مثلاً تعتبر هذه اللغة مستقلة. أما عند النظر إلى المسألة من ناحية مقومات البعد اللغوي الخالص، نرى أنّ الميراندية ليست إلاّ صنفاً من أصناف اللهجات الدارجة المنحدرة من اللغة البرتغالية.

ونظراً لعدم وجود مقاييس معيارية معترفاً بها من قبل جميع الأطراف المعنية بالأمر، تظهر باستمرار مصاعب مبدئية تتعلق بتصنيف اللغات إما حسب مزيد من المعايير الموضوعية أو تفضيل المعايير الذاتية. وانطلاقاً من هذه الخلفية يصبح مفهوماً أن لا تكون البيانات عن عدد اللغات وانتشارها في العالم سوى محاولات متواضعة للاقتراب بعض الشيء من الوقائع الحقيقية، والتي لا يمكن توضيحها إلا ببعض الخلاصات بسبب تعقيداتها. أما مدى شمولية هذا البعد أو ذاك فيعتمد على الأفضليات التي يعطيها المرء للأمر. في ما يلي أجري محاولة للمقاربة:

يتباين توزع اللغات في المناطق الكبيرة من العالم تبايناً كبيراً جداً، ويظهر اختلالات كبيرة في النسب، ولهذا الاختلال علاقة بالعديد من العوامل الأخرى من بينها الخصائص الذاتية الجغرافية والجيولوجية والوضع العام للقارة أيضاً واتساع رقعتها ومناطقها المناخية وأشكالها الطبيعية التي تؤثر جميعها على الظروف الحياتية الإيكولوجية

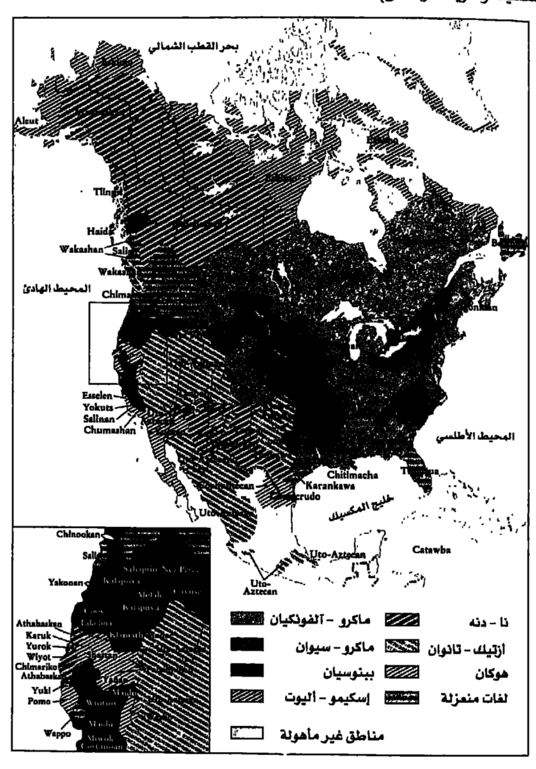
للمجموعات البشرية، وحركة الاستيطان التاريخية ومدى الاتصالات الداخلية، إلى آخره. ونظراً لأنّ أوروبا وآسيا وأفريقيا ترتبط جغرافياً بعضها مع بعض، نرى انتشار اللغات المنفردة والأُسر اللغوية عَبْر حدودها القارية، مثل انتشار اللغات الهندية الأوروبية، والأورالية والقديمة في أوروبا وآسيا، في حين أنّ ممثلي الأسرات اللغوية الأفروآسيوية قد انتشروا - كما تشير التسمية - في أفريقيا وآسيا (راجع الفصل الخامس).

ويعود سبب عدم التمكن من البرهنة على وجود علاقات جينية بين اللغات الموجودة في أمريكا الجنوبية وأستراليا وبين اللغات الأخرى الموجودة خارج نطاق هاتين القارتين الى انعزالهما الجغرافي النسبي. وعند إجراء مقارنة تاريخية لبعض اللغات الموجودة في أمريكا الشمالية، نرى وجود علاقة قرابة بينها وبين لغات نا - دنا Na-Dene في ألاسكا وفي شمال كندا وغرب الولايات المتحدة الأمريكية (راجع الشكل 1). ومن اللغات التي لها علاقة قرابة مع اللغات التنغوسية Tungusisch في شرق سيبيريا، ومع اللغات الصينية - التيبيتية في جنوب آسيا وكذلك مع اللغات القوقاسية، نذكر آياك eyak، وهايدا Haida وتلينغيت Tlingit علاوة على مجموعة اللغات الأثاباسكية Athabaskisch، والتي تعتبر لغة نافاهو Navaho وضروب لغة الأباشي Apache (يتكلمها الهنود الحمر في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية - المترجم) من أشهرها.

ويعتمد انتشار وتوزيع اللغات في المناطق الكبيرة من العالم بشكل

الشكل ١: اللغات المحلية وتجمعاتها في أمريكا الشمالية - الولايات المتحدة الامريكية وكندا (Rood 1992: 111).

تظهر في الشكل أماكن تجمعات بعض شعوب أمريكا الشمالية والوسطى: الأسكيمو في أقصى الشمال (في أراضي كندا وغروئلندا وشعوب وقبائل الهنود الحمر. والآزتيك في المكسيك وأمريكا الوسطى).



خاص على الظروف الجغرافية والمواصلات. حيث نعثر على انفتاحية مرورية لا حدود لها في طرف واحد وعلى انعزالية في طرف آخر في العديد من أجزاء العالم. ولقد أدت الروابط والعلاقات المحلية السائدة في أوروبا منذ العصر الحجري إلى حدوث اندماج بين المناطق الكبيرة والصغيرة، والذي يعبّر عن نفسه جينياً في التوزيع المتساوي للمؤالفات الجينية والذبذبات الجينية وكذلك التاريخية - اللغوية في عدد محدد نسبياً من اللغات المنفردة (Cavalli-Sforza et al. 1994: 263. ff).

وعَبّر اتصالات أثنية داخلية ذات زخم شديد، تطورت خلال العصر الجليدي في المناطق المتحررة من الجليد في القسم الجنوبي من أوروبا علاقات اجتماعية بين أفراد مجموعات أثنية مختلفة شجعت سريان الجينات واتجاهات تعادلية لغوية عَبّرَ ضروب ثنائية اللغة. وفي فترة هجرة الناس من الجنوب إلى الشمال التي حدثت خلال المرحلة التي تلت انصهار الجليد، تقوّت اتجاهات التعادل أكثر وأكثر (على سبيل المثال في منطقة بحر البلطيق نتيجة العلاقات المتينة بين الهندوأوروبيين والفينوأوغريين). وكانت حركة نزوح الهندوأوروبيين من منطقة الفولغا إلى الغرب (نحو وسط وجنوب أوروبا) محركاً رئيسياً لاندماج لغوي - ثقافي من الطراز الأول (haarmann 1996b). ومقابل الأوضاع السائدة في أوروبا، هناك مثال التفكك الكبير المميّز لانعزال العديد من المناطق الجبلية في غينيا الجديدة الخالية من طرق المواصلات وحركة المرور. ثم إنّ الانعزال هو المسؤول أيضاً عن وجود العديد من اللغات الصغيرة في هذه الجزيرة حتى يومنا هذا.

وفي العالم توجد لغات أكثر بكثير من عدد الدول. لقد ارتفع عدد الدول كثيراً إثر تفكك الدول متعددة الشعوب وأفول عهد الامبراطوريات الكولونيالية التاريخية في القرن العشرين، وبصورة خاصة الامبراطورية النمساوية - المجرية، والامبراطورية العثمانية، والامبراطورية البريطانية ومناطق النفوذ الفرنسية وكذلك الاتحاد السوفييتي ومستعمراته الداخلية. وحتى عند القيام بحصر المناطق الخارجية من بعض البلدان على انفراد وذات المكانة الإدارية الخاصة (على سبيل المثال غرونلاند التي تمثلها الدنمارك في شؤون السياسة الخارجية فقط، أو بولونيزيا الفرنسية)، لا يتعدى عدد المناطق ذات الإدارة السياسية المائتين، في حين أنّ هذه المناطق تضم 6417 لغة موزعة بصورة غير متعادلة تماماً.

أكثر تركيز للغات المنفردة في العالم نعثر عليه في غينيا الجديدة، حيث تنتشر 1109 لغات (منها 862 لغة في بابوا - غينيا الجديدة و247 لغة في قسم الجزيرة التابع إلى أندونيسيا في مقاطعة أريان جايا). وإذا أردنا ضم عالم الجزر في جنوب شرق اسيا إلى هذه الإحصائية (أي جزر أندونيسيا وماليزيا)، لا يقل عدد اللغات المتمركزة في هذه المنطقة عن 1500 لغة، أي نحو ربع جميع اللغات الحيّة (راجع الخرائط لدى غريمس (Grimes 1996: 9, 158, 256, 810). ولا يتعدى عدد الذين يتحدثون هذه اللغات عن 201 مليون إنسان. وأقوى اللغات حسب عدد متحدثيها هي الأندونيسية (أي باهاسا أندونيسيا Bahasa Indonesia) التي هي اللغة الأم لنحو 35 مليون إنسان. وتعتبر اللغة

الأندونيسية في منطقة الجزر الكثيرة هذه أكثر اللغات جاذبية كلغة ثانية بالنسبة لنحو 140 مليون إنسان.

في ما يلي توزيع اللغات في المناطق الكبيرة الجغرافية في العالم: أفريقيا (1821)، آسيا (دون عالم جزر جنوب شرق آسيا: 1802)، شمال ووسط أمريكا (692)، أمريكا الجنوبية (659)، الباسيفيك (دون غينيا الجديدة، الفيلبين، تايوان واليابان ٣٣٧)، أستراليا (266)، أوروبا (دون القفقاس 86). وعندما يراقب المرء آسيا برمتها، أي المنطقة التي تشمل أيضاً الجزر غرب الباسيفيك وجنوب شرق آسيا، يرى في هذه القارة ما مجموعه 3302 لغة، أي أكثر بقليل من نصف جميع اللغات في العالم (أي 51,5%). وتبلغ نسبة اللغات المنتشرة في أفريقيا (اللغات المحلية، اللغات الكولونيالية ولغات المهاجرين) 28,4% من جميع اللغات في المنطقة المذكورة. وتبلغ نسبة البقية (لغات أمريكا، وأوروبا، أستراليا، ومنطقة الباسيفيك) 20,1%.

وهكذا نرى أنّ العلاقة القائمة بين عدد الدول وعدد اللغات هي علاقة غير متعادلة بتاتاً نتيجة للاختلال في النسب العددية المذكورة، ناهيك عن الاختلاف في المراتب السياسية للغات. علاوة على ذلك فإنّ عدد السكان والمساحة الكبيرة لدولة ما لا تسمحان كما قد يُظن لأول وهلة بإجراء مسح عام للغات المنتشرة في هذه الدولة والتوصل إلى نتائج حاسمة. ففي دولة مثل بابوا - غينيا الجديدة البالغة مساحتها 462840 كيلومتراً مربعاً، وهذا أكبر بكثير من مساحة ألمانيا، والتي يبلغ عدد سكانها نحو 4 ملايين إنسان، أي ما يعادل عدد سكان

النرويج مثلاً، توجد 862 لغة. وهذا أكبر تمركز منفرد للغات في دولة ما من دول العالم على الإطلاق. وبالمقارنة مع ذلك، نرى أنّ عدد اللغات البالغ «فقط» 168 في دولة ذات مساحة 9,5 مليون كيلومتر مربع وعدد سكانها 1,2 مليار إنسان (الصين)، يبدو قليلاً.

في ما يلي قائمة بالبلدان التي تنتشر فيها أكثر من 100 لغة:

عدد اللغات	الدول
أكثر من ٧٠٠	بابوا ـ غينيا الجديدة (862) أندونيسيا (701)
أكثر من ٤٠٠	نيجيريا (428) الهند (405)
أكثر من ٢٠٠	الكاميرون (278) المكسيك (243) أستراليا (235) زائير (219) البرازيل (209)
أكثر من ١٠٠	الصين (168) الفيلبين (168) الولايات المتحدة الأمريكية (165) السودان (134) تنزانيا (131) تشاد (126) أثيوبيا (112) فانواتو (111) مانيمار (105) النيبال (102)

وتضم قائمة الدول التي لا تنتشر فيها أكثر من 10 لغات، في المقام الأول، الدول الصغيرة والدول القزمة أو المناطق ذات الوضع الخاص (على

سبيل المثال الكثير من الجزر أو الأرخبيلات في الباسيفيك) (راجع الصفحة 43).

وأغلب دول العالم تتميّز بتنوع لغوي يتراوح عدده بين 10 و100 لغة. ومن الملامح المميزة لعالم الدول الحديثة حسب ذلك هو تكوين سكاني متعدد القوميات في مجتمع متعدد الثقافات ذي لغات عديدة، يمكن أن ينتظم الوضع الاجتماعي والسياسي فيه حسب معايير مختلفة كثيراً. إنّ دولاً مثل كوبا، الأوروغواي أو كوريا الشمالية، حيث يعيش شعب متجانس لغوياً، هي بالمقاييس العالمية حالات استثنائية نادرة.

عدد اللغات	الدول والمناطق
10 لغات	كوستاريكا
9 لغات	غينيا الأستوائية، بليز، هوندوراس، بورتو ريكو، طاجكستان، الإمارات العربية المتحدة
8 لغات	موريتانيا، تشيلي، عُمان، المملكة العربية السعودية
7 لغات	نيكاراغوا، هونغ كونغ، الأردن، سريلانكا
6 لغات	اليمن، جزر الكوك
5 لغات	موريشيوس، السلفادور، توباغو، الجزر العذراء التابعة للولايات المتحدة
4 لغات	الرأس الأخضر، جزر القمر، جيبوتي، لسوتو، مدغشقر، سوازيلاند، الأنتيل الهولندي، الكويت، لبنان، ساموا الأمريكية، تونغو
3 لغات	بوروندي، مايوتّ، رواندا، السيشيل، جمهورية الدومينيكان، غرانادا، جاميكا، البحرين، قطر، غوّام، توغلاو، واليس وفتونا
لغتان	المنطقة البريطانية في المحيط الهادي، ريبونيون، ساوتومي وبرنسيب، آنغويلا، آنتيغوا، البهاماس، الجزر العذراء البريطانية، غرب الهند البريطانية، دومينيكا، غرونلاند، غواديلوب، هايتي، مالطا، مارتينيك، سانت بيير ومغليون، سانت كيتس - نفيس، سانت لوتشيا، سانت فينسنت والغرانادين، كوريا الجنوبية، بلاو، كيريباتي، نيو، جزر نورفولك، بتكارين، ساموا، توفالو
لغة واحدة	سانت هيلينا، برباردوس، برمودا، إيسلندا، كوبا، جزر الفوكلاند، أوروغواي، كوريا الشمالية، المالديف، جزر مارشال، جزر مدواي، ماريانن، جزيرة - ويك.

ومن خلفية الحقائق حول العلاقة القائمة بين الدولة واللغة في العالم الحديث، يتبيّن أنّ مبدأ الدولة القومية المتجانسة أثنياً ولغوياً، الذي لا يزال العديد من السياسيين يطبّلون ويزمرون له، ليس سوى سراب Fata Morgana، وفكرة بعيدة عن الواقع لا غرض لها سوى خدمة التلاعبات السياسية. نعم، بهذا المفهوم تملك هذه الفكرة تقاليد طويلة. حيث كانت الحركات الجاهيرية القومية خلال القرن التاسع عشر قد رفعت مبدأ الدولة القومية شعاراً لبناء الإرادة السياسية، وهذا المثل الأعلى طالما أُسيء استخدامه منذئذ من قبل الكثيرين من السياسيين السلطويين.

وبغض النظر عن أن الأسرة الدولية لا تعرف سوى حالات استثنائية قليلة من التجانس اللغوي (أنظر الجدول أعلاه)، تبقى التصورات المثالية حول كيان ذي لغة واحدة موحدة حالة طوبائية لا يمكن الوصول إليها بالنسبة إلى معظم المجموعات اللغوية. وحتى في المناطق التي يتولد فيها من وجهة نظر اللغة الانطباع وكأن هناك لغة واحدة سائدة، نشاهد اختلافات ثقافية أثنية مختبئة في زاوية ما. كانت ألمانيا، على سبيل المثال، تنظر إلى نفسها منذ تأسيس الرايخ القيصري في 1871 على أنها سياسياً ولغوياً وثقافياً دولة قومية.

بيد أنّ الرايخ القيصري ومن بعده جمهورية فايمار وألمانيا النازية لم تكن جميعها دولاً موحدة بمفهوم المبدأ السياسي. علماً أنّ

جمهورية ألمانيا الاتحادية وكذلك جمهورية ألمانيا الديمقراطية كانتا خلال فترة وجودهما تمارسان سياسة الدولة القومية. إلاّ أنّ الأوضاع اللغوية، والثقافية والأثنية في ألمانيا بدأت تقترب تدريجياً من أوضاع الدول متعددة الثقافات واللغات والأثنيات مثل كندا، والولايات المتحدة الأمريكية أو أستراليا.

أن تكون ألمانياً، أو أن تنتمي إلى العرق الألماني، أو الانتماء إلى مجموعة اللغة الألمانية مصطلحات لا يمكن تعريفها حالياً بنفس الطريقة التي كانت عليه في أزمنة ظهور الوعي القومي وما بعده في عصر الدول القومية عندما كانت المصطلحات اللغوية - الثقافية تُستغل لأغراض سياسية بحتة. وعند إمعان النظر في الأمر نرى أن أبعاداً سياسية قومية تحتل الصدارة ما يتعلق بحصر ضروب اللغة الألمانية في ألمانيا، واللهجة الألمانية السويسرية في سويسرا وكذلك اللهجة النمساوية كلغة مستقلة قائمة بذاتها. وكما دلل آمون Ammon في عام 1995 يمكن إدراج جميع هذه الضروب المحلية في كتلة لغوية مشتركة واحدة.

كان المرء في الماضي ينظر إلى مصطلح مجموعة اللغة الألمانية بالاعتماد على طريقة تفكير وطنية (ميالة إلى التعصب القومي)، حيث كان الأمر بمقتضى ذلك يتعلق بمجموعة متجانسة تتكلم اللغة الألمانية جميع أفرادها ألمان بالمنشأ. لكن مثل هذا الرأي ليس سوى رأي تاريخي، وهو ينتمي إلى حلقة التصورات الخيالية التي برزت خلال

عصر التنوير ولا تزال منتشرة حتى الآن. أن تكون ألمانيا حالياً مصطلح متعدد الأثنيات، أي أن مَن يتكلم الألمانية قد يكون أبيض، أو ملوناً أو أوروبيا أوأفريقياً أو آسيوياً. وبهذا يقترب هذا المصطلح من تعريف أن تكون انجليزياً أو فرنسياً أو إسبانياً نظراً لأن هذه المصطلحات أيضاً هي مصطلحات متعددة الأثنيات، ستكون العودة بأنظارنا إلى التاريخ ملائمة تماماً لجعلنا نطلع على التطورات التي شهدها المجتمع الألماني، وكيفية انتقاله من مجتمع كان الناس فيه يتصورون أنه شعب متجانس اللغة إلى مجتمع يتكون من أفراد يتحدثون الألمانية وينحدرون من أثنيات مختلفة.

لقد وضعت حركة التنوير خلال القرن الثامن عشر مقاييس جديدة لتحديد العلاقات الأثنية بين الشعوب الأوروبية. وأخذ المفكرون والفلاسفة وغيرهم من المبدعين الثقافيين يفكرون أكثر من السابق في منشأ الشعب الذي كانوا يشعرون بأنهم ينتمون إليه. وفي ألمانيا كان يوهان غوتفريد هردر Johann Gotfried Herder (1744-1803) أحد المحفزين المهمين جداً للوعي القومي المتبرعم كما ورد في كتابه المشهور حول منشأ اللغة Abhandlung uber den Ursprung der Sprache (1770، الصادر عام 177). حيث ارتبط تعريف ما كان «ألمانياً» ومَن كان يعتبر «ألمانياً» إلى حد كبير باللغة (Haarmann 1993: 242.ff).

وقام ممثلو الحركة القومية الألمانية بصياغة صورة خيالية عن الشعب الألماني كجماعة متجانسة من الناطقين بالألمانية، وعندما

أصبحت في القرن التاسع عشر فكرة الدولة بالنسبة للشعب الألماني (أي اعتماد التعريف اللغوي) تشكّل الاتجاه الرئيس للحركة القومية، بدأ تصور وحدة الجماعة اللغوية يأخذ ملامح سياسية - عقائدية. أحد روّاد هذا التطور كان الإحصائي الألماني البروسي ريشارد بوك Richard Bockh (1824-1907)، الذي ركّز في العديد من المقالات على أهمية لغة الشعب كعلامة ونبراس للقومية. قام بوك (1866: 266ff). بوضع سلسلة من المعادلات التي تخلى عنها جميعها باستثناء معادلة واحدة منها:

القومية = جماعة تاريخية سياسية

(الانتماء الإحصائي أو التاريخي ليس ميزة للدولة القومية).

القومية = جماعة مواطني الدولة

(الجنسية ليست علامة للقومية)

القومية = جماعة ثقافية

(خصوصيات الحياة الخارجية للشعب ليست ملامح كافية للقومية)

القومية = المنتمون إلى العرق نفسه (الرس/ الجنس)

(المميزات البدنية ليست معياراً ذا قيمة للقومية).

القومية = جماعة أفراد من منشأ واحد

(علامات المنشأ غير كافية لتحديد القومية)

القومية = الجماعة اللغوية = الجماعة الشعبية.

وفي هذا التعريف لمصطلح الشعب الألماني المعتمد فقط على المعيار اللغوي، لا توجد أي دلائل تشير إلى أعمال شطط أيديولوجية رسيّة ظهرت في وقت لاحق (العقيدة النازية). بيد أنّ مؤالفة «اللغة مع الأرض» سُرعان ما تحولت في مثل هذه الأوضاع إلى عامل سياسي خطير زاد من صعوبة ترسيم حدود دولة ألمانيا الموحدة الخيالية مع البلدان الناطقة بلغات أخرى. وبعد الحروب التي خاضتها بروسيا مع الدول المجاورة بقي العديد من الطوائف الناطقة بلغات أخرى ضمن الرايخ الألماني القائم منذ 1871. كان البولونيون في غرب بروسيا أكبر المجموعات غير الألمانية الموجودة آنئذ ضمن الرايخ الألماني.

وهكذا أصبح واقع الدولة الألمانية الموحدة بمجموعته الشعبية المتجانسة في الخيال فقط أحد الحوافز المقررة لمصطلح «الأمة الألمانية» المسيّس، حيث تحول تعريف مصطلح أمة ليس من الناحية اللغوية وحسب، بل أصبح اتجاهاً يتعلق بمنشأ الأمة. ومن المؤالفة الأصلية «اللغة والأرض» توسّع الثقافة ذات الطابع الألماني. ثم إنّ الشعار الانتخابي «لينعم العالم بالخصال الألمانية» الذي زرع المستعمرون روحه في المستعمرات الألمانية الواقعة عبر البحار، كان يحتوي إلى جانب الناحية اللغوية - الثقافية تقييماً إثنياً لما كان يدعى «أن تكون ألمانياً» مقابل عبارة «أن تكون غير ذلك».

أدت العقيدة العنصرية النازية وممارسات ملاحقة «الناس من الأجناس الأخرى» وشطط تعصب الإبادة الجماعية «الهولوكوست»، إلى سحب البساط من تحت أقدام نقاش موضوعي أكاديمي حول علاقة اللغة، والأمة

والانتماء الأثني الأنثروبولوجي. وكما يبدو فإن الألمان لا يزالون حتى يومنا هذا يعانون من معالجة موضوع «ما الذي يجعل الألماني ألمانيا؟»، أما الألمان الذين يقيمون في الخارج والذين جمعوا التجارب من العلاقات الثقافية التي أقاموها مع الأجانب فلا يحمّلون هذا الموضوع أكثر مما يستحق (Haarmann 1997b). وفي إطار النقاش الحديث الذي يدور حول مشاكل الهوية، فإن مناقشة موضوع (أن تكون ألمانياً) قد تكون أسهل على الباحثين غير الألمان (Breuilly 1998, Dow 1999). غير أنّ هناك اتجاهات جديدة من العلاقات البيثقافية ذات العلاقة بالألمان والتي تحفزهم لإعطاء الجواب على مسألة البحث عن الهوية. ساهمت في ذلك مناقشة الأوضاع الإقليمية في الاتحاد الأوروبي وبحث مسألة الأجانب في جمهورية ألمانيا الاتحادية.

وإذا ما أراد المرء في يومنا هذا الاسترشاد بالانتمائية اللغوية كمعيار لما هو ألماني، مع تحاشي التورطات الأيديولوجية المعروفة من التاريخ وما يرتبط بها من تراكيب خيالية، حينئذ يظهر أن مصطلح الجماعة اللغوية الألمانية لا يمكن تعريفه من ناحية علاقته بجانب واحد فقط من المسألة. يجب فهم الجماعة اللغوية الألمانية على أنها بوتقة لتفاعل لغوي - ثقافي، علماً بأنّ الذين يرتبطون بهذا التفاعل يتميّزون بمختلف الخصال الاجتماعية الثقافية. إنّ مصطلح المجموعة اللغوية الألمانية معقد والذي يتميّز وفق إحداثيتين رئيسيتين هما البعد الزمني والبعد المكاني.

أولاً: البعد الزمني: العلاقة المتبادلة بين اللغة والثقافة/عامل الزمن
- الثقافة الأحادية منذ أجيال عديدة.
- الناطقون المسنّون بالألمانية المقيمون في محيط محلي الماني اللسان.
(على سبيل المثال: سوابي أصيل) (السوابيون هم جزء من سكان ولاية بادن - فورتمبرغ - المترجم).
- الأسلاف المندمجون في المجتمع من ذوي الأصول الهغونوتية.
(المتحدثون بالألمانية من أصل فرنسي - القرن 17/16).
- اليهود الأشكناز المنصهرون في المجتمع في القرن 19.
- أحفاد «بولونيّو الروهر» (المهاجرون البولونيون إلى منطقة الرور الصناعية الألمانية قبل عام 1914).
- الناطقون القدماء بالألمانية: أقليات مرتبطة بالأرض ذات لغة ثنائية وذات لغة أقلية كلغة أولى والألمانية كلغة ثانية (مثال: الفريزيون الشرقيون، ألمان الراين الأسفل، الصوربيون).
- المهاجرون الأتراك لفرض العمل والمندمجون في هذه الأثناء في المجتمع الألماني.
- الناطقون الجدد بالألمانية من الجيل الثاني والثالث، أطفال عوائل المانية - فنلندية أو ألمانية - فرنسية.
- مهاجرون لغرض العمل ذوو ثقافة ثنائية: ناطقون جدد بالألمانية من أتراك، إيطاليين، إسبان وغيرهم الذين لا تعتبر اللغة الألمانية لغتهم الأم بل لغة ثانية.
- اللاجئون السياسيون: إيرانيون، عراقيون، أكراد، روس، أرمن وما شابه.
- «المهاجرون» من ذوي أصل ألماني: ألمان - بولونيون، البولونية لغتهم الأم، الألمان - الروس، الروسية لغتهم الأم.
- طالبو اللجوء: أفغان، صوماليون، فيتناميون وما شابه.
- أتراك يتحدثون لغة ألمانية بيجن (ألمانية على تركية).
- عمال مهاجرون من الرعيل الأول (السفر إلى ألمانيا في الستينيات).
- العمال المهاجرون غير الشرعيين: مغاربة، أكراد، وما شابه، بولونيون يعملون في ألمانيا وفي بولونيا.

ثانياً: البعد المكاني: العلاقة المتبادلة بين اللغة والثقافة/العامل المكاني
العلاقة الثنائية «اللهجة اللغة الألمانية الفصحى»
ضروب من اللغة شبه وطنية في (1) ألمانيا، (2) النمسا، (3) سويسرا.
العلاقة متعددة الأطراف «اللهجة الألمانية: اللغة الألمانية الفصحى: الفرنسية»
ضروب من اللغة شبه وطنية في (1) لكسمبورغ، (2) بلجيكا.
العلاقة متعددة الأطراف «اللهجة الألمانية: اللغة الألمانية الفصحى: الهنغارية «ضروب من اللغة شبه وطنية في (3) هنغاريا».
العلاقة متعددة الأطراف «اللهجة الألمانية: اللغة الألمانية الفصحى: الروسية».
ضروب من اللغة شبه وطنية في (5) الولايات المتحدة الأمريكية.

وإذا ما أراد المرء فهم العنصرية التاريخية في التاريخ الألماني والنزوات العنصرية الحديثة، حينئذ يصبح إلقاء نظرة على معارف الجينات البشرية من الأمور المفيدة للغاية، إنّ (الصور الجانبية) الجينية للسكان في أوروبا الغربية والوسطى والشرقية لا تختلف عن بعضها البعض إلاّ قليلاً. وفي مجال المصطلحات الفنية الجغرافية شبّه المرء التركيب الجيني للأوروبيين بمنظر طبيعي خال من أي تضاريس تستحق الذكر (Cavalli-Sforza/Piazza 1993:6). يعني هذا أنّ الألمان لا يختلفون من ناحية الجينات كثيراً عن جيرانهم في الغرب والشرق. أما العقيدة النازية القائمة على «نقاء العرق الآري» التي استخدمها هتلر في حساباته السياسية، فليست سوى تركيبة خيالية لا علاقة لها بالواقع على الإطلاق.

ابتداء من العصر الوسيط المبكّر يمكن ملاحقة عمليات الاندماج التي توضح الإنسياب الدائم للجينات في صفوف السكان الأوروبيين، حيث قام أعضاء المجموعات الأثنية من ذوي الثقافات واللغات المختلفة بتأسيس عائلات كان المنحدرون منها في العادة يتأقلمون لغوياً وثقافياً مع غالبية السكان. على هذا المنوال قامت مراكز «ألمانية» و«بولونية» وغيرها من مراكز الجذب التي كانت تتداخل فيها الحدود الجغرافية. إنّ عامل الخليط الأثني في تأسيس العائلات كان على سبيل المثال خلال ما كان يُدعى «الاستعمار الاستيطاني الألماني للشرق» في العصر الوسيط مسؤولاً إلى حد كبير عن اتجاهات التعادلات الجينية البشرية.

وهكذا يُعتبر «الألمان منتوجات إندماج جينية» مثل «الفرنسيين» أو «البولونيين» أو «الروس»؛ ولا تزال عمليات الاندماج هذه أو ما يشابهها فعالة حتى يومنا هذا. ففي عروقُ الألمان القدماء والجدد على حد سواء ينساب دم كثير: جرماني، سلافي، كلتي، روماني، إسكندنافي، فنلندي، تركي، إيراني، إلى آخره. يمر المجتمع الألماني حالياً في مرحلة من إعادة التركيب التي تتجه نحو التعددية الثقافية، ولا يتعلق الأمر في هذا السياق بتعايش مختلف الثقافات في نوع من أنواع الوضع الراهن للتعددية الثقافية، بل بتفاعل ثقافات متعددة، يجري فيه استخدام اللغة الألمانية وسيلة اتصالات عامة.

العلاقة بين لغة الأغلبية والأقلية (الأقليات) في دول العالم

بصرف النظر عن تلك البلدان القليلة التي تضم شعباً متجانساً لغوياً (مثل إيسلندا)، يتميّز البروفيل الأثني لدول العالم عادة بالتعددية الثقافية واللغوية. يعني هذا وجودُ العديد من المجموعات اللغوية في معظم بلدان العالم، مع العلم بأنّ العلاقة بين الأغلبية اللغوية والأقلية اللغوية تتباين بشدّة من دولة إلى أخرى. ففي مجموعة من الدول توجد أغلبيات لغوية واضحة، حيث تقوم أغلبية السكان باستخدام لغة ما إمّا كلغة رئيسية أو كلغة ثانية، في حين أنّ لغات أخرى يتم استعمالها من قبل مجموعات سكانية صغيرة.

وتعتبر أستراليا من الحالات المتطرفة للغاية بما يتعلق بالأغلبية اللغوية، حيث يتحدث 17,841 مليون شخص من سكانها (أكثر من 98%)

الإنجليزية كلغة أم، في حين أنّ بقية اللغات البالغ عددها 265 تتوزع على مجموعات لا يتجاوز عدد أفرادها عشرة آلاف شخص فقط. وحتى الدنمارك تعتبر من البلدان ذات الأغلبية اللغوية الواضحة، حيث يبلغ عدد الدنماركيين الذين يتحدثون الدنماركية كلغة أم 96,5% من السكان، غير أنّ المقارنة بين أستراليا والدنمارك تقتصر على كمية اللغات فقط، إذ لا يوجد في الدنمارك، على عكس أستراليا، سوى بضع لغات أقلية (الألمانية، الفرنغيّة Faringisch، والسويدية).

ومن البلدان التي تشبه أستراليا من ناحية الانتشار الواضح للغة الأكثرية على الرغم من وجود أعداد كبيرة من لغات الأقلية، نخص بالذكر الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والبرازيل. ومن البلدان التي تشبه الدنمارك من ناحية التفاوت الكبير بين لغة الأكثرية ولغات أقليات قليلة نذكر فنلندا وبولونيا واليابان. فعلى الرغم من طبيعتها ذات اللغات المتعددة، اقتربت هذه البلدان من الناحية الديموغرافية (السكانية) من المثل الأعلى لفكرة الدولة القومية. لكن مثل هذه الكيانات حالة استثنائية نادرة في عالم الأمم الحديثة، تماماً مثل ندرة حالة الدول ذات اللغة المنسجمة.

ثم إنّ أوضاع لغة الغالبية في العديد من الدول أقل وضوحاً مما هو موجود في أستراليا والولايات المتحدة الأمريكية، ومن الأمثلة على ذلك المغرب الذي لا يشكّل العرب سوى نصف سكانه تقريباً. وهؤلاء هم في الواقع عرب أقحاح، أي أنهم أحفاد العرب الذين نزحوا إلى

المغرب خلال العصور الوسطى، والبربر المندمجين في المجتمع وأحفاد عائلات عربية وبربرية. نحو 40% من السكان يتحدثون إحدى لغات البربر المتعددة، وإن كانت حالة لغة الأكثرية في المغرب تتجه على المدى البعيد نحو تكاثر عدد الناطقين بالعربية نظراً لزيادة وتيرة عملية اندماج غير العرب في المجتمع المغربي.

هناك سلسلة من الدول لا تتعدى فيها نسبة الأغلبية اللغوية سوى 50% بقليل. ينطبق هذا على النيبال حيث يشكل عدد الناطقين بالنيبالية 52% من مجموع السكان، والنيجر حيث لا يشكل عدد الناطقين بالهوسا Haussa سوى أغلبية ضئيلة (53,6%) أو في لاوس، إذ تصل نسبة المتحدثين باللاوسية إلى 55% فقط. ومن بين الحالات الخاصة في أوروبا نذكر لاتفيا ذات الأغلبية اللاتفية البالغة 54,2%.

في هذه الدولة (لاتفيا) ذات الأقلية الروسية الكبيرة العدد إلى حد ما، منعت انعطافة عرضية في التاريخ السوسيوديموغرافي (الاجتماعي - السكاني) السوفييتي من حدث تحوّل كبير في تركيبة السكان الأثنية واللغوية للبلاد. خلال الحقبة السوفييتية في الستينيات كان هناك خطط لبناء شبكة من قطارات المترو في ريغا. ولو كان هذا المشروع قد بدأ العمل لكان الآلاف من العمال الفنيين الروس وعائلاتهم سينقلون للإقامة في لاتفيا، وكانوا سيرفعون بهذا عدد الروس القاطنين هناك بصورة واضحة. غير أنّ المشروع لم يتحقق لأسباب تتعلق بالتكاليف مما منع زيادة عدد الروس في لاتفيا.

ومن ناحية أخرى تتمثل العلاقات اللغوية في العديد من الدول بوجود الكثير من اللغات من مختلف الأحجام دون أن تتمكن هذه اللغة أو تلك من فرض نفسها وتشكيل الأغلبية اللغوية. معظم الدول الخالية من الأغلبية اللغوية هي بلدان أفريقية، ومن بينها أثيوبيا، ساحل العاج، كينيا، جمهورية الكونغو الديمقراطية (حتى 1997 زائير)، مالي، ناميبيا، نيجيريا، زامبيا، السنغال، سيراليون، تنزانيا، تشاد، أوغندا، جمهورية أفريقيا الوسطى.

ولا توجد أي معلومات ثابتة عن انتشار لغة ثانية في صفوف الغالبية العظمى من السكان إلا في القليل من الدول الأفريقية ذات الانقسامات الإثنية والتي تنتشر فيها لغات أصلية كثيرة. في أنغولا وموزامبيق على سبيل المثال لا تعتبر البرتغالية اللغة المحلية الرسمية وحسب، بل إنّ غالبية سكان الريف يتحدثونها. وباستثناء ذلك فإن القاعدة المتعارف عليها في أفريقيا هي عدم انتشار اللغة الرسمية في جميع أنحاء البلاد ذات الإثنيات المختلفة، بل إنها تقتصر كلغة تعليم على عدد محدود من أفراد النخب في البلاد.

تسوية مسائل اللغات الرسمية وتعدد اللغات

في كل دولة من الدول متعددة اللغات يتولّد السؤال المتعلق باختيار اللغة الرسمية. لقد أظهرت التجارب التاريخية في التعامل مع الكثير من اللغات الرسمية أنّ تعدد اللغات الرسمية مُكلف جداً ويؤثر سلباً على سلسلة التواصل في الحياة العامة. ومع أنّ عدد الدول في العالم

التي تستخدم لغة رسمية واحدة أكثر بكثير من عدد الدول التي تستعمل لغات رسمية عديدة، فإنّ انتشار تعدد اللغات الرسمية موجود أيضاً في بعض الدول التي يتميّز سكانها بالانسجام اللغوي إلى درجة عالية. ينطبق هذا مثلاً على مالطا التي يتحدث سكانها بلغة واحدة. اللغة الرسمية لسكان الجزيرة الواقعة في الأرخبيل هي اللغة المالطية التي تُعتبر أحد ضروب اللغة العربية الشمالية. وكإرث من الفترة الكولونيالية، تنتشر الانجليزية بكونها لغة رسمية خارجية (لغة تستخدم لأغراض السياسة الخارجية) التي تستخدمها مالطا في علاقاتها الرسمية مع الدول الأخرى.

إنّ وجود لغتين رسميتين (الفنلندية، السويدية) في بلد مثل فنلندا يعتبر حالة خاصة نظراً لأنّ هذه الثنائية اللغوية لا تعود بالنفع إلاّ على نحو 4% من سكان البلاد. فوفق تركيبته الديموغرافية يعتبر سكان فنلندا من السويديين أقلية لغوية، لكن لغتهم تحتل مرتبة اللغة الفنلندية نفسها في الإدارة ومعاملات الدولة. حيث تصدر جميع الوثائق الحكومية بلغتين. يمكن تفسير المكانة المتميّزة للغة السويدية إنطلاقاً من المكانة التي كانت تحتلها في السابق كلغة للنخب الاقتصادية والثقافية والسياسية في البلاد.

يعود هذا التقليد إلى الفترة التي كانت فيها فنلندا منطقة تابعة للمملكة السويدية. وحتى بعد أن خسرت السويد في عام 1809 الحرب ضد روسيا واضطرت إلى التخلي عن فنلندا، فإنّ مكانة اللغة

السويدية كلغة رسمية لم تتغير في فنلندا. كانت فنلندا المنطقة الوحيدة في الإمبراطورية الروسية التي تتمتع على المدى الطويل بحكم ذاتي سياسي وثقافي. وحصلت فنلندا على مكانة دوقية كبيرة، وحصل الإمبراطور على لقب قيصر فنلندا الكبير (باللغة الروسية: knjaz'velikij Finljandii). بهذا يتابع المرء العمل بتقليد روسي قديم، حيث كان دوق موسكو الكبير يطلق على نفسه في آن لقب دوق المنطقة التي كانت جيوشه تحتلها. فبعد أن انتصر إيفان السادس على خانيّة قازان أطلق على نفسه لقب دوق قازان الكبير. لكن اقتطاع فنلندا اختلف كثيراً وبطريقة تدعو إلى الملاحظة عن حالات الاقتطاع والاحتلال الأخرى التي كان الأباطرة الروس يقومون بها في الماضي، فالمكانة الخاصة لفنلندا أدت إلى استحداث حالة تاريخية خاصة.

إنّ المؤسسات التي كانت قد أُقيمت في فنلندا عندما كانت جزءاً من الإمبراطورية السويدية تمت المحافظة عليها وجرى تثبيتها من قبل القيصر ألكسندر الأول (1801-1825). وبمناسبة افتتاح برلمان الولاية في بورغا Borga (بالفنلندية بورفو Porvoo) في عام 1809 ألقى القيصر كلمة باللغة الفرنسية خاطب بها فنلندا بعبارة «الأمة المحترمة» (بالفرنسية: nation respectable). ووعد ألكسندر الأول بمراعاة «عواطف الأمة» (sentiments de la nation). وأكد على رفع مرتبة فنلندا إلى «مصاف الأمم» (rang des nationes).

أكدت النخب السويدية في فنلندا على دورها القيادي في السياسة

الداخلية، والاقتصاد وثقافة البلاد، وبقيت السويدية كما في فترة هيمنة السويد، لغة رسمية داخلية ولغة التعلّم واللغة المكتوبة الرفيعة المقام، واستمر القانون السويدي ساري المفعول في فنلندا. وكانت اللغة الفنلندية هي اللهجة الدارجة للقسم الأكبر من أبناء الشعب الفنلندي، حيث كانت تُستخدم في المواعظ الدينية، وكان يوجد أدب ديني متواضع ومجموعات من الأشعار الشعبية. ولم يكن للغة الروسية داخل فنلندا أي وظائف. وكانت المراسيم القيصرية المتعلقة بالدوقية الكبيرة تترجم جميعها إلى اللغة السويدية.

بقيت الإدارة في فنلندا منظمة وفق النموذج السويدي ولم «تروّس»، ولم يكن نظام القنانة على عكس الوطن الأم الروسي موجوداً. كانت فنلندا تملك وحدات عسكرية خاصة بها. مع هذا فإن الفنلنديين وسويديي فنلندا كانوا يخدمون في الجيش القيصري الروسي. وكان القيصر وحده يمثل مصالح السياسة الخارجية للجزء الفنلندي من الإمبراطورية الروسية. ولم تظهر التطورات الثقافية خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر أي تدخلات للقيصر أو مجموعات المصالح في البلاط في الشؤون الداخلية للدوقية الكبيرة.

كانت هذه الفترة بالنسبة إلى فنلندا تمثل زمن التحولات من الهيمنة الثقافية لسويد فنلندا واللغة السويدية والانتقال إلى المنافسة التي بدأت غالبية أبناء الشعب الفنلندي تبديها تجاه كل ما هو سويدي إنطلاقاً من زيادة الوعي بالمصالح الثقافية (Haarmann 1993: 264. ff).

ونظراً لعدم المساس بوضع اللغة الرسمية، استمرت العملية الصعبة لمعادلة المكانة السوسيوثقافية للغة الفنلندية مع اللغة السويدية (Schoolfield 1996: 139. ff). وفي جو ملائم تماماً للمصالح الفنلندية جرى التطرق إلى بحث هذه المشكلة. حيث أصدر القيصر ألكسندر الثاني في عام 1863 (فترة الحكم: 1855-1881) بناء على اقتراحات المصلح الوطني جي. في. سنلمان J.V. Snellmann - مرسوماً ملكياً يقضي بمعادلة اللغة السويدية خلال عشرين عاماً مع اللغة الفنلندية في جميع المعاملات الرسمية.

إلاّ أنّ استخدام اللغة الرسمية لم يكن في واقع الأمر سوى جزء من جملة المشاكل الاجتماعية والسياسية التي كانت موضع نزاع بين الـFennomanen، أي الممثلين الراديكاليين للمصالح الفنلندية، والـSvekomannen، أي الدعاة الراديكاليين للمحافظة على الامتيازات السويدية - الفنلندية (Liikanen 1995: 124. ff). ومن الناحية اللغوية حقق الفينومانيون بواسطة المعادلة الرسمية للغة الفنلندية مع اللغة السويدية إثر المقاومة الحادة التي أبداها سويديو فنلندا في مجلس الشيوخ وصدور القانون المنظم لمكانة اللغة في عام 1883، حققوا خرقاً كبيراً.

وعلى الرغم من أنّ السويدية كانت حتى استقلال البلاد عام 1917 أهم لغة رسمية لمجلس الشيوخ (كانت وظائفه تماثل وظائف الحكومة المحلية للدوقية الكبيرة). استطاعت اللغة الفنلندية ترسيخ أقدامها

في كل مكان وفي جميع الشؤون الإدارية والمعاملات الرسمية، فأصبحت تُستخدم جنباً إلى جنب مع اللغة السويدية. ورسخ دستور فنلندا المستقلة عام 1919 استخدام اللغة الفنلندية المعاصرة، علماً بأنّ الأحكام القانونية حول الاستخدام الرسمي للغتين لم تتغيّر حتى الآن وإن كانت الفنلندية قد أصبحت في هذه الأثناء اللغة الأهم للبرلمان والإدارة. أمّا المراسلات فلا تزال، في التعامل الرسمي، تجري باللغتين.

يمكن مقارنة اللغات ذات الوظائف الرسمية من ناحية دورها الاجتماعي بالنُخب الاجتماعية. غالبية عدد اللغات في العالم لا تملك وضعاً رسمياً. ومن الجدير بالذكر أنّ عدد اللغات التي يجري بها ومعها إنهاء المعاملات الرسمية لا يتجاوز بضع مئات فقط. كما أنّ عدد وسائل الاتصال المستخدمة في المعاملات الرسمية أكبر من العدد الإجمالي لدول العالم. يتضح هذا من حقيقة عدم استخدام لغة رسمية واحدة في الكثير من دول العالم، بل لغات عديدة. ثم إنّ التطور السياسي الخاص بمنطقة ما يقرر اللغة الرسمية المستخدمة وسبب ذلك. ويعتمد إدراك وفهم العلاقة القائمة بين اللغات التي لها والتي ليس لها وظائف رسمية، على معرفة السياسة الثقافية لكل دولة من الدول المعنية.

أكدنا على فنلندا كمثال حي على التطور الذي شهدته اللغات الرسمية عَبّر التاريخ. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى مهدت

السياسة اللغوية التي مارستها هذه البلاد عبر التاريخ الطريق أمام استخدام اللغة الزاميّة Saamisch لغة رسمية اختيارية في مقاطعة لابلاند (لابي بالفنلندية). هذه التسوية القائمة منذ عام 1991 فريدة في نوعها بالمقياس العالمي. حيث تملك اللغة الأصلية (أي اللغة الزاميّة بضروبها وأنواعها المحلية) في مجموعة لا يتعدى عدد أفرادها 2400 شخص وظائف رسمية.

وعند الطلب يجب على إدارة البلدة، وكذلك حكومة المقاطعة في لابلاند، تدبير قضايا وأمور الشعب الزاميّ بلغته الأصلية وتنفيذ جميع المراسلات التحريرية بأحد الضروب الثلاثة من اللغة المكتوبة. لا توجد أية دولة أخرى في العالم تم فيها منح لغة مجموعة أثنية بهذا الحجم الصغير حقوقاً رسمية خاصة. ومنذ السبعينيات يجري استعمال اللغة الزامية أيضاً كحصة تدريس وكوسيلة للامتحان التحريري المخصص للقبول في الجامعة.

أمّا المثال الآخر فهو جنوب أفريقيا حيث شهدت اللغة مع استلام حكومة البيض والسود مقاليد الحكم بقيادة نيلسون مانديلا Mandela (ينتمي مانديلا إلى شعب الخوسا Xhosa) تبدلاً جذرياً حدث في عام 1994. قبل ذلك كانت لغتان رسميتان (الأفريقانية والإنجليزية) تستخدمان وحسب، في حين توجد حالياً أحد عشر لغة ذات وضع رسمي هي: الإنجليزية، الأفريقانية، نديبله، سوثو الشمالية، سوثو الجنوبية، ستسوانا، سواتي، تسونغا، فندا، خوسا، زولو. إن امتناع

الحكومات العنصرية السابقة عن الاعتراف باللغات المحلية لغالبية أبناء الشعب من المواطنين السود (76,1%) واستخدامها للأغراض الرسمية انقلب إلى ضده تماماً منذ الانعطافة السياسية التي حدثت في عام 1994 حيث أخذت الدولة تفضل استخدام لغات رسمية عديدة.

لا تمثّل اللغات الرسمية الأحد عشرة في جنوب أفريقيا سوى اللغات الأصلية لأكبر المجموعات اللغوية (Desai 1995). أما بقية اللغات والبالغ عددها 22 لغة ومن بينها اللغات المحلية (فاناغولو Fanagolo، ناما Nama، رونغا Ronga) ولغات المهاجرين (الألمانية، التاميل Tamil، أوردو Urdu) فلا تتمتع بأية مرتبة رسمية. وإذا أردنا الحكم على الأمر من ناحية النسب السكانية (السود 76,1%)، البيض (12,8%)، (الآسيويون 2,6%)، والهجين (8,5% يبقى العديد من لغات المهاجرين البيض والآسيويين (على سبيل المثال الألمانية، الهندية، الكوجاراتية) مستثناة من المعاملات الرسمية. وينطبق هذا أيضاً على لغات الخويسان Khoisan، أي لغات أخلاف الشعب الأصلي في جنوب أفريقيا، وعلى الرغم من صفر عدد الناطقين بغالبية هذه اللغات، إلاّ أنّ هناك لغات أخرى لا يمكن الاستهانة بعدد الناطقين بها بأي حال من الأحوال (على سبيل المثال ناما البالغ عدد المتحدثين بها أكثر من 40,000 إنسان). الناما لغة تعليم وتُستخدم أيضاً في البث الإذاعي.

وفي تركيا تتستر سياسة لغوية وطنية تركز على اللغة التركية على

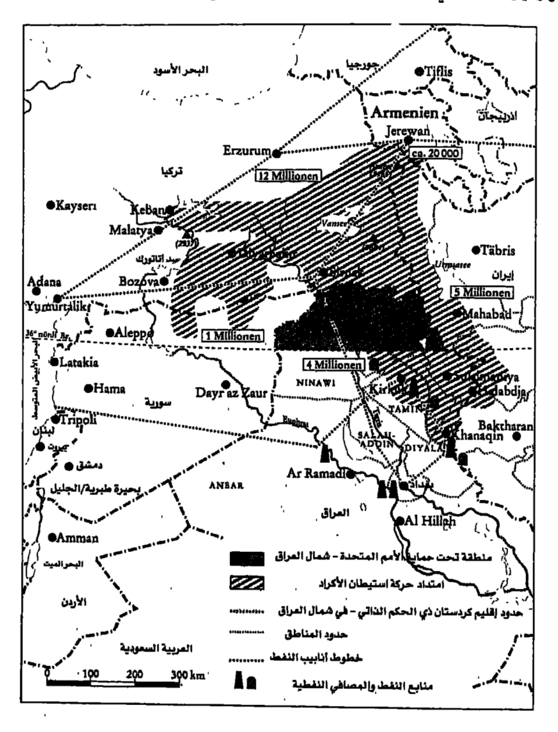
الواقع الديموغرافي الحقيقي للبلاد والمتمثل بدولة ذات شعب متعدد القوميات ومتعدد الثقافات ومتعدد اللغات، حيث لا يتجاوز عدد الأتراك 70% من إجمالي عدد السكان. وتبلغ نسبة الأكراد 20% من الشعب (راجع الشكل 2) في حين تصل نسبة المجموعات اللغوية الأخرى إلى 10% (الأرمن، الجورجيون، الشركس وما شابه، ومنهم الناطقون باللغة العربية أيضاً - المراجع). واللغة التركية هي اللغة الرسمية ولغة الدولة الوحيدة منذ قيام الجمهورية التركية (أي منذ 1923)، ولا تملك اللغة الكردية أي وظائف رسمية ولا تلعب أي دور يذكر في شؤون التربية والتعليم. والتركيب السياسي التركي هو تركيب الدولة الموحدة الذي لا يسمح لأية منطقة كانت بالتمتع بأي حقوق خاصة متميّزة، مما يعني أنّ لغة الدولة هي اللغة الرسمية الوحيدة المعتمدة دون منافسة اللغات المحلية الأخرى. وهناك مبادىء مشابهة تعتمد استخدام لغة واحدة في دول أخرى متعددة اللغات من دول العالم مثل فرنسا، والمغرب، وأندونيسيا أو فيتنام.

ويتعمق اختلال نسب اللغات المعترف بها رسمياً واللغات غير الرسمية بصورة خاصة في الدول متعددة اللغات والمتميّزة بكثرة اللغات. وبغض النظر عن اتجاهات الدمقرطة يبقى عدد اللغات الرسمية في دولة متعددة الشعوب والأثنيات محدوداً بالضرورة نظراً لأنّ استخدام اللغة الرسمية يصطدم بحدود تنظيمية واقتصادية. وفي دولة فيها أكثر من مائة لغة ليس من الممكن السماح لجميع وسائل

الشكل 2: مناطق سكن الأكراد وانتشارهم الاستيطاني في دول الشرق الأوسط

(Fischer Weltalmanach 96: 1132-33)

يظهر في هذا الشكل المصور توسع حركة الاستيطان الكردية في شرقي تركيا وشمال العراق نحو إيران وعبر الحدود السورية الشمالية، وتظهر على الشكل مواقع انتاج النفط وأرمينيا والمصافي وخطوط الأنابيب الممتدة نحو موانىء البحر المتوسط.



الاتصال (اللغات) لتأخذ طريقها إلى المعاملات الرسمية، نظراً لعدم وجود دولة تملك أموالاً تمكنها من جعل مثل هذه التسوية قادرة على العمل والتطبيق، ناهيك عن التصورات العملية المؤيدة لاستخدام عدد محدد من اللغات للأغراض الرسمية. لهذا فإنّ اختيار اللغة الانجليزية لغةً رسمية وحيدة في نيجيريا البالغ عدد اللغات الموجودة فيها أكثر من 400 لغة محلية، يعتمد على مثل هذه المعطيات.

وبالمقارنة على الصعيد الدولي، تعتبر الهند الدولة الوحيدة التي تطبق الاجراءات الكفيلة بتشجيع لغاتها المحلية. في هذا البلد هناك أكثر من 400 لغة من بينها 16 لغة فقط لها مكانة رسمية، حيث تنتشر الانجليزية والهندي في طول البلاد وعرضها، في حين أنّ اللغات الأخرى مثل البنغالية Bengali، الماراتية Marathi، أوردو Urdu، غوجاراتية Gujarati، بيهاري Bihari، أوريجا Orija، بنجابي Panjabi، أسامي Assami، راجاستاني Rajastani، كشميري Kashmiri، تلوغو Telugu، تاميل Tamil، مالايالام Malayalam، وكانّادا Kannada لغات رسمية إقليمية. علاوة على ذلك هناك لغات رسمية اختيارية أخرى معترف بها (النيبالية Nepali، ميزو Mizo وما شابه).

إنّ استخدام مجموعة من اللغات الرسمية الإقليمية هو أخيرا وليس آخراً مسألة تتعلق برعاية السمعة الوطنية كما يحدث في لجان الاتحاد الأوروبي التي كانت حتى عام 1994 تستخدم تسع لغات ذات مرتبة رسمية، ومنذ عام 1995 هناك 11 لغة رسمية مستخدمة من قبل

الاتحاد الأوروبي (Haarmann 1995, b: 44. ff). تملك اللغة الإيرلندية وضعاً خاصاً ولا تُستخدم في المفوضية الأوروبية ولا في البرلمان الأوروبي، ومع هذا فهي معترف بها من قبل محكمة العدل الأوروبية في لكسمبورغ. يعني هذا أنّ جميع المعاملات الرسمية للمحكمة التي تعتمد الفرنسية لغة عمل، تُصاغ في جميع اللغات الرسمية للاتحاد الأوروبي ومن بينها اللغة الإيرلندية أيضاً.

ومن الجدير بالذكر أنّ قسم اللغات والترجمة في الاتحاد الأوروبي يواجه أعباء إضافية نتيجة اللغات الرسمية للأعضاء الجدد في الاتحاد الأوروبي، ويصطدم بحدوده التنظيمية. كما أنّ الاعتراف بلغات رسمية أخرى سيؤدي إلى انفجار في التكاليف لا يمكن تحمله أبداً مما قد يؤدي في النتيجة إلى انهيارات وظيفية داخل الاتحاد الأوروبي. هنا بالذات تتولّد وظيفة ملحّة تتمثل في ضرورة معادلة التأثير الجماعي للغات الوطنية كرموز للهوية الذاتية، التي قد لا تريد أية دولة من الدول في خضم حركة الاندماج الجارية التخلي عنها طواعية، مع المصالح العملية لإدارة متعددة القوميات: وعلى الرغم من أنّ النقاش الذي يجري منذ السبعينيات حول تخفيض عدد اللغات الرسمية داخل الاتحاد الأوروبي على غرار نموذج استخدام اللغة في الأمم المتحدة، فإنّ البدائل العملية لم يكن لها حتى أية فرصة لأنّ تُطبق سياسياً.

وبصورة عامة تقوم الدولة بتطبيق اللغة الرسمية المفهومة من قبل

الأغلبية الساحقة للسكان (في حال اللغات الرسمية المحلية من قبل أغلبية سكان المناطق الإدارية المعنية). لكن هناك حالات استثنائية مثل بابوا - غينيا الجديدة. من بين اللغات الرسمية الثلاث تعتبر لغة توك بيسين Tok Pisin لغة الأغلبية (50,000 يتحدثونها كلغة أولى مقابل مليونين يتحدثونها كلغة ثانية) في حين أنّ 50,000 شخص من بابوا يتحدثون الانجليزية وهناك 15,000 يتحدثون لغة موتو Motu. وهكذا فإنّ هذه اللغات الرسمية الثلاث ليست منتشرة لا كلغة أولى ولا كلغة ثانية في صفوف غالبية سكان البلاد.

تسوية مسألة اللغات الرسمية والمبدأ الإقليمي

هناك علاقة مباشرة أو غير مباشرة بين كل تسوية تتعلق بمسألة استخدام اللغات الرسمية في دولة متعددة اللغات وبين المبدأ الإقليمي. يعني هذا أنّ الكيفية التي تجري فيها تسوية استخدام اللغة في دولة ما، يجب أن تتضمن معلومات كافية عن مدى الانتشار الإقليمي للغة (اللغات) المعنية بالأمر. أمّا حيث يسود مبدأ لغة الدولة، أي عندما لا تتمتع سوى لغة واحدة فقط بمرتبة رسمية، يكون الانتشار الإقليمي للغة الرسمية مطابقاً للرقعة الإقليمية التي تشملها سيادة الدولة.

تسود مثل هذه الأوضاع في دول متعددة اللغات مثل فرنسا، ويوغوسلافيا (الجديدة)، وتركيا، وإيران، واليابان، وفي معظم بلدان أمريكا اللاتينية. أمّا اللغات الأخرى فلا تملك إلى جانب لغة الدولة أي

وظائف رسمية لأنّ لغة الدولة هي أيضاً اللغة الرسمية الوحيدة في المناطق التي تسكنها مجموعات تتحدث لغات أخرى (على سبيل المثال الفرنسية لغة رسمية في بريتانيا، والصربية لغة رسمية في منطقة فويفودينا ذات الأغلبية الهنغارية، والتركية لغة رسمية في منطقة شرقي تركيا حيث تقطن أغلبية كردية، والفارسية لغة رسمية في لورستان، والإسبانية لغة رسمية في ولاية أوكساكا الاتحادية المكسيكية حيث تسكن غالبية من الهنود «الأمريكيين»).

وفي الدول التي يجري فيها استخدام لغات رسمية عديدة، يتولّد تلقائياً السؤال المتعلق بروابطها الإقليمية. مبدئياً هناك بديلان: من الناحية النظرية تستطيع كل لغة من اللغات الرسمية في الدول متعددة اللغات الحصول على نفوذ إقليمي داخلي، أو أنّ لغة رسمية هي لغة أولى بين لغات أوائل، حيث تبقى وسائل الاتصال الرسمية الأخرى المعترف بها محدودة إقليمياً.

في التطبيق العملي للسياسة اللغوية نجد العديد من أنظمة الخلط التي لا تمثل هذا الحد المتطرف ولا ذاك، بل تقوم بربط عناصر المبدأين المذكورين بعضهما مع بعض. وإذا ما انطلق المرء من أنّ الاعتراف بلغات رسمية متعددة في دولة متعددة اللغات له دوافع ذرائعية - برغماطية، أي أنه يخدم المحافظة على السلم الاجتماعي للمجموعات مختلفة اللغات من أبناء الشعب، حينئذ يصبح المبدأ الإقليمي مقرراً لعملية التوصل إلى توازن عادل ممكن.

إنّ الأمثلة التالية لأنظمة اللغات الرسمية ربما تكون ملائمة لإيضاح أُطر الظروف المعقدة لتسوية مسألة اللغات في البلدان المنفردة.

أ) تسوية مسألة اللغات الرسمية حسب مبدأ الوضع الإقليمي الراهن

تقدم مسألة تسوية اللغات الرسمية في بلجيكا مثالاً لمبدأ تطبيق المعايير (الستاتية) الثابتة، والمتمثل في عدم اعتماد استخدام اللغة داخل المناطق الإدارية على تقلّب السكان ونسب اللغات (راجع الشكل 3).

هناك مبدئياً ثلاث مناطق لكل واحدة منها لغتها الرسمية .(Rossillon 1995: 55 ff)

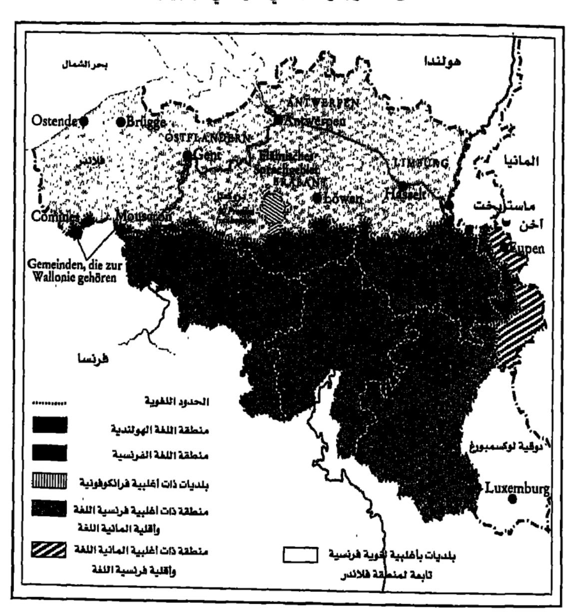
* منطقة فلاندرن Flandern (من أصول لغوية صوتية جرمانية) ذات اللغة الواحدة في القسم الشمالي من بلجيكا (استخدام الهولندية لغة رسمية حصراً). ينتمي إلى ذلك أيضاً منطقة سانت مارتنس - فورن St-Martens-Voeren المنفصلة عن بقية منطقة فلاندرن. وفي جنوب منطقة فلاندرن توجد بلدات تسكنها أقلية فرانكوفونية (فالونية) تستعمل الفرنسية التي تتمتع بالحماية.

* مقاطعة فالوني Wallonie (فرانكوفونية) وحيدة اللغة في القسم الجنوبي من بلجيكا (استخدام اللغة الفرنسية حصراً). في شرقي فالوني (في المنطقة الحدودية المتاخمة للمنطقة الناطقة بالألمانية) توجد بلدات سكانها من الألمان (في نواحي مالمدي Malmedy). وفي المحيط الفرنسي السائد تملك الألمانية وضع لغة الأقلية. وفي شمال غرب فالوني هناك بلدات يقطنها الفلاميون (الفلامان) يكفل فيها القانون حماية اللغة

الهولندية واستخدامها لغة للأقلية. وهناك بعض البلدات المفصولة عن مقاطعة فالوني حول كومينيس Comines ذات التركيب السكاني الفرانكوفوني والجرمانوفوني. وتنتمي هذه المنطقة من الناحية الإدارية إلى فالوني حيث تتمتع الهولندية هنا بوضع لغة الأقلية.

الشكل 3: المناطق الإدارية ومناطق لغات بلجيكا (Rossillon 1995: 56)

يظهر في الشكل مناطق انتشار اللغات الهولندية والفرنسية والألمانية ومدى تداخل الشعوب ولغاتها في الأراضي البلجيكية.



وتتبع المنطقة الجرمانوفونية وسكانها من الألمان في شرق بلجيكا (الفرنسية والألمانية لغتان رسميتان فيها) إدارياً إلى فالوني. ويتمتع سكان هذه المنطقة الجرمانوفونية (أويبن Eupen وسانت فيث St. Vith) والسكان فيها فرنسيون وناطقون بالفرنسية بوضع لغة الأقلية.

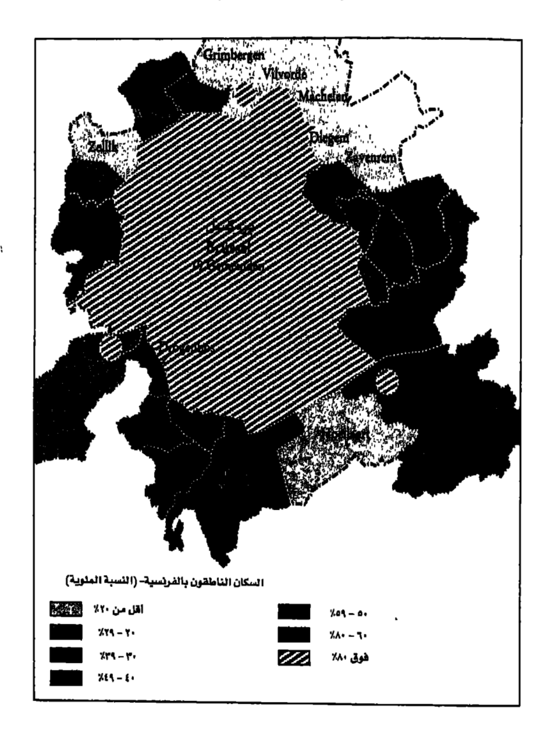
* منطقة بروكسل الكبيرة ذات اللغتين (الفرنسية والهولندية فيها لغتان رسميتان). تعود تسوية مسألة اللغة الرسمية لمنطقة بروكسل الكبيرة كمنطقة ذات حكم ذاتي إلى عام 1989. إلاّ أنّ هذا التوزيع اللغوي على سكان المنطقة الكبيرة مختل النسب إلى أقصى حد. ففي مركز بروكسل مثلاً تنتشر الفرنسية في صفوف أكثر من 80% من السكان، في حين أنّ حصة سكان بروكسل الذين يتحدثون الهولندية غير مرتفع إلاّ في الدوائر الخارجية. تبلغ حصة الفرانكوفونيين في غالبية الدوائر الخارجية أقل من 50% وفي بعض الأحيان حتى أقل من 20% (راجع الشكل 4).

منذ عام 1932 تجري محاولة تسوية مسألة تعدد اللغات في بلجيكا دستورياً وقانونياً. إذ كان وضع اللغة الهولندية كلغة ثقافية في حينه متدنياً جداً مقارنة باللغة الفرنسية. ووفق المبدأ الإقليمي المرن تم الاعتراف بلغتين في بلدة من البلدات عندما تصل لغة الأقلية فيها إلى نسبة 30%. وفي الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات ارتفعت حصة الشعب الفرانكوفوني باطّراد، وأخذت الحدود الإدارية للفلاندرن ذوي اللغة الواحدة تُدفع تدريجياً نحو الشمال.

الشكل 4: نسب توزع السكان الفرانكوفونيين (الناطقين بالفرنسية)

والجرمانوفونيين (الناطقين بالألمانية - الجرمانية) في منطقة بروكسل الكبرى

(Rossillon 1995: 58)



أدت احتجاجات السكان الفلاميين ضد ضغط اللغة الفرنسية وضد السياسة اللغوية الممارسة حتى ذلك الحين إلى إجراء إصلاحات قانونية في الأعوام 1962، 1963، 1966، التي تم بموجبها تعزيز الحدود الإدارية وحيدة اللغة (Kloss 1969: 345 f. 371). وهكذا أقرّ الإصلاح الدستوري لعام 1993 الوضع الفيدرالي لمناطق الحكم الذاتي البلجيكية (entites federees) إدارياً وثقافياً ولغوياً.

ب) تسوية مسألة اللغات الرسمية حسب المبدأ المرن الإقليمي

يتضح هذا المبدأ بأجلى صوره بتسوية مسألة اللغة الرسمية كما فعلت فنلندا. حيث تم تسوية ظروف وجود اللغات في الحياة الثقافية لهذه الدولة مبدئياً بموجب دستور 1919 بالاعتماد على المبدأ الإقليمي. يتم تطبيق هذا المبدأ بالنوعين الستاتي (الوضع الراهن الثابت) والمرن (McRae 1997).

* المبدأ الستاتي الإقليمي في جزر آلاند Aland (بالفنلندية: Ahvenanmaa) منذ عام 1919:

تعتبر جزر آلاند (481كم2، 1996: عدد السكان 25257) المنطقة الوحيدة في فنلندا التي تتمتع بحكم ذاتيٍ إداري وثقافي. اللغة الوحيدة المستخدمة في مجموعة هذه الجزر هي السويدية، وهي أيضاً اللغة الأصلية لمعظم سكان الجزيرة.

* المبدأ المرن الإقليمي: في البلدات القارية ذات اللغتين منذ 1922:

تتمركز المنطقة النواة لانتشار السكان الفنلنديين – السويديين داخل البلاد في المنطقة الساحلية الجنوبية (بضمن منطقة الحيد البحري) وفي غرب البلاد. وفي هاتين المنطقتين المنفصلتين عن بعضهما البعض بواسطة منطقة سكن فنلندية خالصة. تعيش جماعات تتحدث السويدية والفنلندية. وعندما تصل نسبة السكان المقيمين في بلدة معينة إلى 6%من المتحدثين بلغة تختلف عن لغة الأكثرية، يتم اعتماد مبدأ اللغتين في المنطقة المعنية. ويتعلق هذا باستخدام اللغة في الحياة العامة أيضاً.

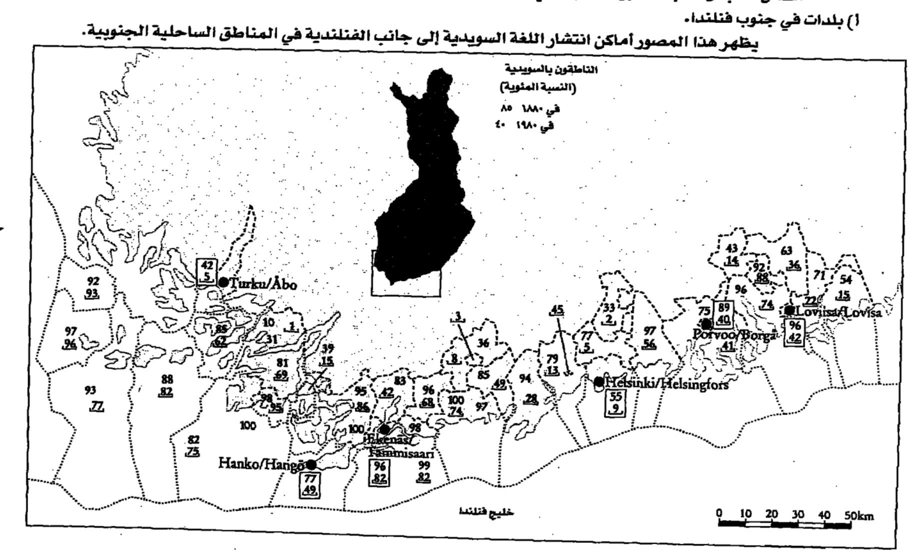
ثم إنّ الاستخدام الداخلي للغة من قبل الدوائر الرسمية المحلية يعتمد على نسب الأغلبية اللغوية. لذا فإنّ لغة الغالبية في بلدة ما هي أيضاً اللغة الرسمية لأجهزة الإدارة، مما يعني أن الحياة العامة في محيط مدينة هلسنكي/هلسنغورس ذات الأغلبية السويدية البالغة 9% ثنائية اللغة، وإن كانت لغة العمل الداخلية للدوائر الرسمية هي الفنلندية. ومن ناحية أخرى تعتبر اللغة السويدية في بلدة أخرى مثل أكيناس/ تاميساري Ekenas/Tammisaari لغة الإدارة الوحيدة نظراً لأنّ أغلبية السكان البالغة نسبتها 82% هم من أبناء الشعب السويدي.

إنّ مبدأ حق اللغة الإقليمي مرن بالنسبة إلى المنطقتين القاريتين ذاتي السكان الذين يتحدثون السويدية نظراً لتماشي استخدام اللغة الرسمية مع التبدلات التي يتم التوصل إليها عَبّر عملية إحصاء السكان التي تجري كل عشر سنوات. ونتيجة لتهافت الناس الناطقين

الشكل 5: تبدل نسب الأغلبية اللغوية في بلدات فنلندا ذات اللغتين في قرن من 1880 حتى 1980 (McRae 1998: 2,3).

أ) بلدات في جنوب فنلندا.

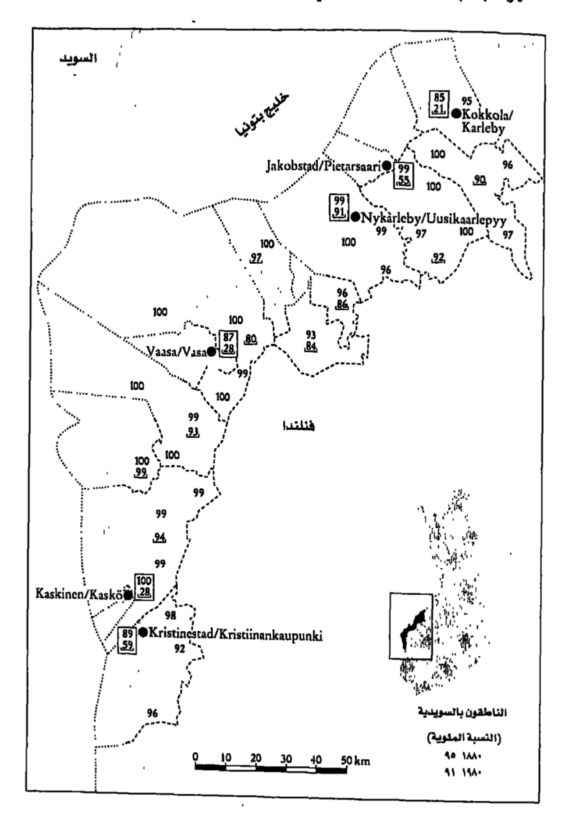
يظهر هذا المصور أماكن انتشار اللغة السويدية إلى جانب الفنلندية في المناطق الساحلية الجنوبية.



الشكل 5: تبدل الأغلبية اللغوية في البلدات الغربية

ب) بلدات في غرب فنلندا.

تظهر نسبة انتشار اللغة السويدية في مناطق ساحلية فنلندية مقابلة لساحل السويد.



بالفنلندية على البلدات المأهولة في السابق من غالبية سويدي فنلندا حدث تبدل كبير في وضع اللغة. وإذا ما قارنا نسب المتحدثين بالسويدية والفنلندية خلال الأعوام المئة المنصرمة، نرى تحوّل العديد من البلدات من أغلبية ناطقة بالسويدية إلى أقلية (راجع الشكل 5 a/b). وفي المدن الكبيرة مثل هلسنكي Helsinki (1880: 55% يتحدثون السويدية - 1990: 9%)، فاسّا Vaasa (1880: 87% - 1990: 28%) أو كوكولا Kokkola (1880: 85% - 1990: 21%)، تراجعت نسبة الناطقين بالسويدية بصورة دراماتيكية. وفي توركو Turku (بالسويدية: Abo) تراجعت النسبة من 42% (1880) إلى 5% (1990)، مما يعني وفق المبدأ الإقليمي أن الحياة العامة هناك تسود فيها حالياً لغة واحدة هي الفنلندية.

* وضع لابلاند الخاص في ما يتعلق باللغة الرسمية: في عام 1991 تم توسيع التشريعات اللغوية لتشمل منطقة لابلاند (بالفنلندية: لابي)، حيث تُستخدم الفنلندية منذ البداية لغةً رسمية. ووفق التسوية الجديدة تملك اللغة الزاميّة أيضاً وضعاً رسمياً ويعترف بها حالياً لغةً رسمية اختيارية. يعني هذا أنه عند الحاجة تجري معالجة الشؤون الرسمية باللغة الزامية أيضاً. تظهر هذه الحاجات عند رغبة أحد سكان لابلاند من الناطقين باللغة الزاميّة في استخدام لغته الأصلية في التعامل مع الدوائر الرسمية.

إنّ الكتابات الموجودة على جميع المباني العامة، والإشارات الدالّة

على المراكز الإدارية، واليافطات والعلامات في الشوارع والطرق العامة مكتوبة جميعها بلغتين (الفنلندية + الزاميّة). غير أنّ التسوية الجديدة ولّدت الكثير من المشاكل الكبيرة. فنظراً لأنّ الشعب الزاميّ يتحدث اللغة الزاميّة بلهجات تختلف بعضها عن بعض كثيراً والتي يتميّز كل واحد منها بطريقة كتابية معيّنة، أصبح من الضروري تأهيل العديد من العناصر المطلعة على هذه الضروب من اللغة الزاميّة من أجل العمل في الدوائر الرسمية في مختلف بلدات المقاطعة. بعد مرور فترة معينة تم إعداد الشروط اللازمة لتحقيق استخدام اللغة الرسمية الاختيارية. ثم إنّ الوضع الخاص الذي تتمتع به لابلاند لا يقتصر فقط على معالجة المعايير اللغوية بل أيضاً على الحكم الذاتي الثقافي للطائفة الزاميّة (Myntti 1999).

ومنذ بداية عام 1999 دخلت حيّز التنفيذ في جميع أرجاء فنلندا تسوية إضافية ذات علاقة بحماية ثقافة ولغة الأقليات اللغوية بغض النظر عن الأهمية الإقليمية لهذه اللغات. تنتمي فنلندا إلى الدول الموقعة على الميثاق الأوروبي للغات الإقليمية أو (لغات الأقلية) (European Charter for Regional or Minority Languages) المصادق عليه في فبراير/ شباط 1998. وتتعلق مسألة حماية الأقليات التي ليس لها ارتباطات محلية والمذكورة في الميثاق، بالمقام الأول بالروماني Romani، أي لغة الغجر الفنلنديين. ومن ناحية أخرى تنتفع بهذه التسوية أيضاً اللهجات المحلية من اللغة الزاميّة.

حول العلاقة بين اللغات الرسمية الداخلية والخارجية

ننظر نحن معشر الأوروبيين إلى أنّ اللغات الرسمية في دول أوروبا هي لغات محلية وأنّ وسائل الاتصال التي لها مكانة رسمية في الدول المعنية، منتشرة في هذه البلدان كلغات أصلية. وهذه الأوضاع مميّزة لتسوية لغوية إندوغلوسية endoglossisch (باليونانية: endo – «داخلي، محلي» + glossa «لغة، لسان»)، وإذا ما أجرينا مقارنة على نطاق عالمي نرى أنّ الاستخدام الرسمي الإندوغلوسي ليس القاعدة. لقد تركت الفترة الكولونيالية آثارها في جميع أرجاء العالم، حيث شمل ذلك أيضاً انتقاء اللغات الرسمية في العديد من الدول التي حصلت على استقلالها بعد عام 1945. ولا تزال هذه اللغات قيد الاستخدام في جميع المناطق التي كانت اللغات الكولونيالية الأوروبية قد ثبتت أقدامها فيها. ومن الأمثلة الحديثة على ذلك نذكر التسوية اللغوية في ناميبيا التي حصلت على استقلالها عام 1990، حيث تُستخدم الانجليزية لغة رسمية وحيدة في هذا البلد الذي يضم 28 لغة منفردة، علماً بأنّ اللغة الإنجليزية هي اللغة الأم لأقل من 100,000 مواطن ناميبي فقط. وهكذا فإنّ تسوية اللغة الرسمية في ناميبيا المعتمدة على استيراد اللغة من الفترة الكولونيالية الأوروبية هي تسوية خارجية (exoglossisch) (باليونانية exo – «خارجي، خارج» – + glossa «لغة، لسان»).

للوهلة الأولى تبدو تسوية مسألة اللغة الرسمية في ناميبيا تنحرف

تماماً عن المبدأ الأساسي القاضي باعتماد لغة الغالبية العددية من السكان لغة رسمية، وفي ناميبيا كان من المفروض أن تكون لغة ندونغا Ndonga (لغة البانتو Bantu) التي يتحدثها ربع مليون إنسان من جماعة أوفامبو Ovambo. علماً أنّ ناما Nama، وهي إحدى اللغات المنحدرة من أُسرة خويسان Khoisan، وكوانياما Kwanyama، وهي من لغات البانتو، تنتشران في صفوف الناميبيين أكثر من انتشار اللغة الانجليزية. ومع هذا فإن جميع هذه اللغات تبقى بعيدة عن الحصول على مرتبة اللغة الرسمية.

يعود سبب انتقاء لغة خارجية واستخدامها لغة رسمية إلى تاريخ كل بلد من البلدان. كانت ناميبيا مثلاً مستعمرة للرايخ القيصري الألماني والتي كان الألمان يسمونها (Deutsch-Sudwest-Afrika)، ثم تحولت بعدئذ إلى مستعمرة بريطانية وكانت تُدار من قبل جنوب أفريقيا (وهي من دول الكومونولث البريطاني). وبعد استقلال جنوب أفريقيا في عام 1961 بقيت ناميبيا محمية تابعة لنظام التمييز العنصري (Apartheid-Regime) في جنوب أفريقيا. وعلى الرغم من اللغتين الرسميتين الموجودتين في جنوب أفريقيا منذ 1994، وهما الإنجليزية والأفريقانية Afrikaans، فإنّ الأخيرة ما كانت تُستعمل في ناميبيا إلاّ لأغراض التعليم وليس كلغة لإجراء المعاملات الرسمية، مماجعل الإنجليزية اللغة الوحيدة المستعملة في هذا البلد.

وبعد أن استقر في الثمانينات أكثر من نصف مليون جندي من

جنوب أفريقيا مع أفراد عائلاتهم في ناميبيا (القاعدة العسكرية في خليج ولفِس Walvis Bay)، رسخت اللغة الإنجليزية مكانتها على جميع أصعدة الحياة العامة، في الإدارة، والشؤون التعليمية، ووسائل الإعلام، وعندماحصلت ناميبيا على استقلالها اعتمدت هذا التطور الذي شهدته اللغة الرسمية.

وإذا ما دققنا النظر في عالم الدول الأفريقية من أجل المقارنة، فإنّ ناميبيا لا تعتبر، في ما يتعلق بتسوية مسألة اللغة الرسمية، حالة استثنائية بأي حال من الأحوال. على العكس، في غالبية الدول نجد تسوية خارجية. في السنغال (الفرنسية)، وفي مالي (الفرنسية) أو في موزامبيق (البرتغالية) حيث تُستخدم اللغات الكولونيالية الأوروبية السابقة لغات رسمية. وفي البلدان الأخرى مثل سواسيلاند، كينيا أو أوغندا تتمتع اللغات المحلية أيضاً إلى جانب اللغة الإنجليزية بوضع رسمي. وهذه أمثلة على بعض نظم الخلط اللغوي، أي التسوية الداخلية - الخارجية. إن عدد الدول الأفريقية التي اعتمدت التسوية اللغوية الداخلية (على سبيل المثال الجزائر، السودان، تنزانيا) هو أصغر بكثير من عدد الدول ذات التسوية الخارجية أو البلدان ذات النظم المختلطة.

وفي ما يتعلق بالسياسة اللغوية للدول الأفريقية، فإنّ التعامل مع المصطلح الفني (إندوغلوسي وإكسوغلوسي) ليس بالأمر السهل على الإطلاق. وبصورة عامة تدعى الحالات التي تسود بها اللغة الأوروبية

الحالات الخارجية. علماً بأنّ التسويات التي تعتمد استخدام اللغة العربية لا تعتبر حالات خارجية، وإن كانت العربية هي الأخرى لغة مستوردة من الخارج ولم تكن لغة محلية أفريقية، لأنها دخلت أفريقيا مع انتشار الدين الإسلامي في هذه القارة. (دخلت اللغة العربية إلى أفريقية قبل الإسلام، وتوجد شواهد على ذلك في مصر وشرقي أفريقيا وعثر على شواهد بلغة عربية في مصر منذ القرن الخامس ق. م، وانتشرت العربية بعد الإسلام على قاعدة لغوية مشتركة بين العربية الجنوبية ولغات الحبشة. وبين هذه اللغات عناصر مشتركة في إطار أسرة اللغات الآسيوية الأفريقية. كيف يذهب المهاجرون المسلمون إلى الحبشة ومصر في فجر الإسلام، لو لم تكن العربية مفهومة فيهما؟ - المراجع). لكن اللغة العربية موجودة في أفريقيا منذ زمن طويل، والتي تستعملها غالبية سكان القسم الشمالي من القارة كلغة أم، حيث لا يمكن اعتبارها لغة مستوردة في أي حال من الأحوال. وما يتعلق بهوية الناطقين بالعربية كلغة أم، فإنّ العربية لغة محلية شأنها شأن جميع اللغات الأفريقية الأخرى. لهذا يتم تصنيف المكانة الرسمية المتميّزة للغة العربية في مصر، وليبيا والجزائر وموريتانيا، وتونس والمغرب على أنها لغة إندوغلوسية (داخلية).

ولا تشكّلُ تسوية مسألة اللغة الرسمية في دولة من الدول ما يتعلق بالوظيفة العامة للغة، سوى قمة جبل الجليد المنغمر في البحر، لأنّ الوظائف الرسمية المعنية في هذا السياق هي أرفع الوظائف في

مجالات الحياة العامة. كما أنّ اختيار اللغات في الشؤون التعليمية وتطبيقها على المؤسسات التعليمية يعتبر أساسياً بالنسبة للسياسة التي تمارسها الدولة تجاه اللغات الرسمية، ومما يثير المشاكل أيضاً هو القرارات المتخذة في مسألة استخدام اللغات في مراتب التعليم المختلفة (المرحلة الابتدائية، أو الثانوية، أو في التعليم الجامعي) التي يجب اعتماد المبدأ الإندوغلوسي (لغة داخلية) أو الإكسوغلوسي (لغة خارجية) بشأنها.

وعند إدراج مسألة لغة التدريس في سياسة اللغات للدول الأفريقية، تتوسع رقعة الخصام بين الإندوغلوسية والإكسوغلوسية وتتحول إلى موضوع شديد التعقيد (راجع الشكل 6). ويتعلق الحقل الذي يدور حول «الاستخدام المهم» أو «المراعاة الهامة» بالجزء الإضافي لانتقاء لغات التدريس.

هناك منطقة كبيرة أخرى في العالم يكون فيهاالتناقض بين تسوية المسألة الإندوغلوسية والإكسوغلوسية بمثل أهمية ما هو موجود في الدول الأفريقية، كما في عالم دول أوقيانوسيا. أما في آسيا، على العكس، فإن الأوضاع الخارجية نادرة في الدول الحديثة. فعلى الرغم من حضور القوى الكولونيالية الأوروبية خلال مئات السنين في جنوب وشرق آسيا، بقيت اللغات الرسمية الحديثة في هذه المناطق على الأغلب لغات محلية. أما دور الإنجليزية باعتبارها لغة رسمية في الهند أو سنغافورة، فينتمي إلى الحالات الاستثنائية. وما يتعلق بأمريكا، لا

يُنظر إلى اللغات الكولونيالية التاريخية في يومنا الحالي كاستيراد أجنبي. فمنذ مئات السنين والإنجليزية والفرنسية تعتبران في القسم الشمالي (الولايات المتحدة الأمريكية وكندا) لغتين محليتين، تماماً مثل الإسبانية التي تعتبر اللغة الأم للقسم الأعظم من سكان دول أمريكا اللاتينية والبرتغالية في البرازيل. وهنا يمكن مقارنة الوضع الإندوغلوسي والإكسوغلوسي بحالة اللغة العربية في أفريقيا.

وإذا ما كنّا قد قدمنا أمثلة على تسوية مسألة اللغات إندوغلوسياً أو إكسوغلوسياً من قبل الدول غير الأوروبية، فإنّ هذا لا يعني بتاتاً أنّ مثل هذه الأمور غير موجودة في أوروبا أيضاً، وإن كانت تاريخية في هذه القارة. هناك دولة حديثة واحدة فقط لها نظام إندوغلوسي - إكسوغلوسي هي مالطا. إذ تستخدم اللغة المالطية المحلية (ذات الأصل العربي) لغة رسمية في جميع المعاملات الرسمية الداخلية، في حين أنّ الانجليزية، وهي اللغة الكولونيالية السابقة في الجزيرة الأرخبيلية، تقوم بدور اللغة الإكسوغلوسية، أي في علاقات مالطا الرسمية الخارجية مع الدول الأخرى.

لقد سادت الأوضاع الإكسوغلوسية منذ عام 1991 في المستعمرات السابقة للإمبراطورية السوفييتية، أي في الجمهوريات السوفييتية غير الروسية وفي المناطق الغربية والجنوبية. في استونيا ولاتفيا ومولدافيا أو جورجيا كانت اللغة الكولونيالية الروسية معتمدة كلغة رسمية إلى جانب اللغات الرسمية لغالبية السكان المحليين. وحتى في

الشكل ٦: تسوية أوضاع اللغات الادراية في دول إفريقية (عن Reh 1981:552)؛ مع إضافات

حالة لغوية داخلية		تفاعل اللغات	حالة لغوية خارجية	
تأثير فعّال ←	مع استخدام ملموس للغة أوربية		تأثير فعّال ←	مع مراعاة للغات المحلية
1 مصر الجزائر الحبشة ليبيا المغرب الصومال السودان تانزانيا تونس	2 بوتسوانا بوروندي ليزوتو مالاوي رواندا تشاد إفريقية الجنوبية (منذ ١٩٩٤)	مع وسيلة تفاهم محلية وطنية	1.a السنغال مالي	1.b كينيا موريتانيا سوازيلاند - (جنوب أفريقيا) أوغندا إفريقية الوسطى
	↑	مع لغة سائدة وحيدة	2.a أنغولا غابون النيجر غانا	2.b بنين غامبيا ناميبيا فولتا العليا (توغو)
			3.a كونغو (زائير) (زامبيا)	3.b غينيا نيجيريا سيراليون زمبابوي جنوب إفريقيا (قبل ١٩٩٤)
		بدون لغة سائدة	4.a ساحل العاج غينيا - بيساو كامرون ليبريا موزامبيق ناميبيا	4.b

المناطق الإدارية للاتحاد الروسي نرى - على الأقل بناء على أقوال السكان غير الروس - تسويات إكسوغلوسية.

فالشيشان مثلاً ينظرون إلى اللغة الشيشانية المحلية على أنها اللغة الرسمية الشرعية الوحيدة للجمهورية الشيشانية، علماً أنّ وضع الجمهورية الشيشانية كان في الواقع حتى خريف عام 1999 وضع دولة مستقلة ذات سيادة. أما الإدارة الروسية في موسكو فكانت، على العكس، تعتبر الشيشان من الجمهوريات التابعة للاتحاد الروسي. لكن هذا الجزء من البلاد سُرعان ما طغت عليه الحرب منذ سبتمبر/ أيلول 1999 من أجل ترويضه. فبعد أن كانت اللغة الشيشانية مهيمنة خلال الفترة ما بين 1996 و1999، مع بقاء دور اللغة الروسية مقصوراً على الاتصالات الخارجية بين حكومتي غروزني وموسكو، عادت اللغة الروسية بحكم الأمر الواقع السياسي - العسكري، لتهيمن كلغة رسمية من جديد على الحياة العامة في الشيشان.

الفصل الثاني

العمالقة والأقزام: عمالقة الاتصالات العالميون واللغات القزمة في حقل توتر الاتصالات الثقافية البينية

لا تظهر لغات العالم تنوّعا كبيراً في انتشارها الجغرافي، أو في قرابتها التاريخية أو في مكانتها السياسية وحسب، بل في عدد الناطقين بها أيضاً. ومن أجل الإطلاع على مجموعات اللغات والتوصل الى بعض الوضوح في ما يتعلق بأعدادها وحجمها. يتعيّن على مراقب مسرح اللغات مواجهة نوع من التحدي في تصنيفها النوعي.

هناك لغات «كبيرة» ينطق بها الملايين من البشر، ولغات أخرى لا تتقنها إلا حفنة من الناس. ومع هذا فإن تصنيف لغة ما يبلغ عدد الناطقين بها نحو 600,000 إنسان، كلغة الباسك مثلاً، بأنها «صغيرة» أو «متوسطة»، يعتمد في المقام الأول على المعيار الذي يجري بموجبه الحكم على حجم ومكانة هذه اللغة أو تلك. فلا يوجد، مثلاً، من يصنف لغة الباسك على أنها لغة كبيرة أو لغة قزمة. وبغض النظر عن

الكيفية التي يتم فيها تصنيف اللغة على أنها «كبيرة» أو «صغيرة»، فإنّ عدد اللغات الصغيرة يفوق على أي حال عدد اللغات التي تنطق بها الملايين من البشر (راجع الشكل 7).

الجدول 7: اللغات حسب تصنيفها وحجمها

المنطقة الجغرافية الكبيرة	العدد الإجمالي للغات	عدد لغات الملايين	عدد اللغات الأصغر	عدد اللغات القزمة
العالم (المجموع)	(%100) 6417	(%4,2) 273	(%64,8) 4162	(%30,8) 1982
آسيا	(%100) 1906	(%6,6) 126	(%81,3) 1549	(%12,1) 231
إفريقيا	(%100) 1821	(%5,1) 92	(%88,2) 1607	(%6,7) 122
الباسيفيك	(%100) 1268	(%0,1) 1	(%400) 507	(%61,1) 775
أمريكا	(%100) 1013	(%0,9) 10	(%42,2) 428	(%56,7) 575
أستراليا	(%100) 273	ـــــ	(%6,6) 18	(%93,4) 255
أوروبا	(%100) 143	(%30,7) 44	(%48.3) 69	(%10,5) 15

ولا يتعلق الأمر بما أخترناه من تصنيفات بتعريف ما هو صغير أو كبير، ناهيك عن تناول ناحية التراكيب اللغوية. ذلك أنّ القيمة الثقافية للغة الملايين من الناس لا تُعتبر أرفع مرتبة من القيمة الثقافية للغات الصغيرة نظراً لكثرة الناس الذين يتحدثونها. ثم إنّ لغة الملايين لا تكون بالضرورة لغة عالمية نتيجة عدد الناطقين بها. أما ما يجعل لغة ما تتحوّل لأن تصبح لغة عالمية فهو شبكة كاملة من المعايير

الوظيفية. إنّ القيمة الثقافية للغة قزمة ليست أقل شأناً من القيمة الثقافية للغة تتحدث بها الملايين، لا بل إنّ ما يقرر ذلك هو المكانة التي تحتلها في العالم. ومع هذا فإنّ غالبية اللغات التي تعود إلى هذا التصنيف تنتمي إلى وسائل الاتصالات المعرضة للخطر، والتي تكون فرص استمرارها على البقاء أقل بكثير من فرص لغات المجموعات الكبيرة من الناس.

يبلغ عدد لغات العالم التي تنتمي إلى صنف لغات الملايين 273 لغة فقط، وهذه نسبة 4,2% من اللغات المنفردة كافة. ومن ناحية أخرى فإنّ بعض هذه المجموعات اللغوية كبيرة وقوية في عددها إلى درجة أنّ الغالبية العظمى من البشر تتحدث بإحدى هذه اللغات، إما لغةً أم أو لغةً رئيسية، أو حتى لغةً ثانية. وعلى الرغم من أنّ جميع اللغات العالمية هي لغات تتحدث بها ملايين الناس، فإنّ غالبية اللغات ذات الأعداد الكبيرة من الناطقين بها لا تتمتع بمرتبة اللغة العالمية.

يظهر توزيع اللغات الكبيرة حسب القارات تفاوتاً كبيراً في النسب المئوية. ففي أوروبا مثلاً نرى أنّ تركيز اللغات التي تنطق بها أعداد كبيرة من الناس قوي جداً بالنسبة إلى المجموع الإجمالي للغات المفردة. حيث تنتشر هنا 44 لغة من لغة الملايين (أي ما يعادل 30,7% من جميع لغات أوروبا). وأغلب اللغات ذات الأعداد الكبيرة من المتحدثين يجدها المرء في آسيا والبالغ عددها 26 لغة، ولكن هذه لا تشكل سوى نسبة 6,6% من جميع لغات القارة. وفي إفريقيا يصل

العدد إلى 92 (ما يعادل 5,1%)، وفي أمريكا إلى 10 (ما يعادل 0,9%). في حين أن منطقة الباسيفيك لا تعرف سوى لغة كبيرة واحدة هي توك بيسين Tok Pisin (ما يعادل 0,1%). ولا تندرج أستراليا في هذا التصنيف نظراً لعدم انتماء أي من لغاتها المحلية إلى صنف لغات الملايين.

وفي أوروبا لا تشكل حصة اللغات القزمة في إجمالي لغات هذه القارة إلاّ نسبة ضئيلة جداً. علماً بأنّ هذه الحصة تشكل وزناً كبيراً بصورة خاصة في منطقة الباسيفيك وفي أمريكا. وتتشابه الأوضاع في آسيا وأفريقيا من ناحية سيطرة الوضع الراهن لصنف اللغات الأصغر في كلتا القارتين، في حين أنّ حصة لغات الملايين تتجاوز قليلاً المعدل الوسطي في العالم، وبالنسبة إلى اللغات القزمة أقل من ذلك بكثير.

وتقدم أوروبا من ناحية أخرى حالات أكثر خصوصية. حيث تتمتع جميع اللغات الكبيرة في هذه القارة بمرتبة اللغات الرسمية. أما في آسيا على عكس ذلك. فلا ترقى جميع اللغات التي يكثر عدد الناطقين بها إلى مرتبة اللغة الرسمية، وهي ليست لغات الغالبية في الدولة (أو بالأحرى في الدول) التي تنتشر فيها (على سبيل المثال: الكردية، البلوشية، البراهوية، البوغونسية، كارن، كاغاني، بوي). لا بل إنّ غالبية لغات الملايين في أفريقيا ليست لغات رسمية ولا تشكل أيضاً لغات الأغلبية في أية دولة من الدول. ولا تزال اللغات الكولونيالية السابقة

تؤدي هذه الوظائف في العديد من الأماكن خلال المرحلة التالية للكولونيالية (راجع الفصل الأول).

وفي غينيا الجديدة وأستراليا هناك تركيز لقسم كبير من جميع اللغات الصغيرة في العالم والبالغ مجموعها 12000 لغة. وعلى الرغم من التشابه الكبير في التطور التاريخي للمنطقتين المتجاورتين، نرى أنّ ظروف وجود مجموعات اللغات الأصغر، وبصورة خاصة اللغات القزمة في أستراليا، تختلف اختلافاً كبيراً عمّا هو قائم في غينيا الجديدة، إذ تحولت أستراليا إلى ما يشبه المقبرة للعديد من اللغات القزمة، وإلى متحف للقليل من اللغات الصغيرة التي لا تزال تصارع من أجل البقاء برغم الضغط الكبير للغة الإنجليزية (Lo Bianco 1995).

أما في غينيا الجديدة على العكس (ينطبق هذا على دولة بابوا - غينيا الجديدة وكذلك على مقاطعة إريان جاوا الأندونيسية) نلاحظ أنّ مجموعة اللغات الصغيرة تتحلى بحيوية كبيرة. فعلى الرغم من الوظائف اللغوية التي تؤديها لغة توك بيسين على صعيد الدولة في القسم الشرقي من الجزيرة، واللغة الأندونيسية في القسم الغربي من الجزيرة، فإنّ مجموعة اللغات المحلية لا تتعرض إلى ضغط لغات أخرى عند المقارنة مع الضغط الذي تمارسه اللغة الانجليزية في أستراليا.

أكثر من ثلاثة أرباع سكان العالم (76,5%) يتحدثون إحدى اللغات الاثني عشر الكبيرة. إما كلغة أولى أو كلغة ثانية. وهذه هي اللغات

التي يتجاوز عدد الناطقين بها المائة مليون إنسان. ومن بين هذه اللغات هناك ست لغات تصل النسبة الإجمالية لعدد الناطقين بها إلى 40% من سكان العالم (أي 2,32 مليار) . ويعود منشأ جميع هذه اللغات إلى آسيا، وهي الصينية والهندية والعربية والبنغالية والأندونيسية واليابانية.

ويبلغ العدد الإجمالي للغات العالم المصنفة كلغة الملايين 273 لغة. حيث تصل النسبة الإجمالية للمتحدثين بهذه اللغات إلى أكثر من 90% من سكان العالم، علماً بأنّ آسيا هي موطن غالبية لغة الملايين والبالغ عددها 126 لغة، أي 46,1% من جميع لغات العالم بحصة مليون متحدث للغة واحدة ما على الأقل. وفي آسيا توجد أيضاً اللغة التي يتحدث بها وبفارق كبير أكثر أعداد سكان العالم، وهي اللغة الصينية. وإذا ما جمعنا عدد المتحدثين بجميع ضروب اللغة الصينية، حينئذ يصل عدد الناس الذين يتحدثون الصينية إلى 1,21 مليار إنسان، أي 23% من سكان العالم. وعلى الرغم من قدرتها العددية فإن الصينية لا تؤدي إلا القليل من وظائف اللغات العالمية، على عكس الانجليزية ذات الإشعاع العالمي التي لا يشكل العدد الإجمالي للناطقين بها (لغة أولى وثانية) سوى نصف عدد الناطقين باللغة الصينية.

ويعود سبب تصنيف بعض اللغات على أنها لغات قزمة إلى أنّ العدد الإجمالي لجميع الناطقين باللغات القزمة في العالم (1982) لا يتجاوز نصف مليون إنسان. هناك المئات والمئات من هذه اللغات التي لا

تعتبر بأي حال من الأحوال وسائل اتصال بالمعنى الدارج للكلمة. فعندما يرتبط مصطلح «لغة» بجماعة من الناس تعتبر فيها هذه اللغة بالنسبة لهم وسيلة للاتصال، حينئذ لا يمكن التحدث عن «لغة» عندما لا يتجاوز عدد الناطقين بها شخصاً واحداً. وعندما لا يوجد أكثر من شخص واحد يتحدث لغة ما فلا يمكن أن تشكّل وسيلة للاتصال دون مساعدة لغة ثانية. وحتى لو كان يوجد في الجماعة الصغيرة أُناس آخرون إلى جانب المتحدثين يفهمون اللغة لكن دون استخدامها بصورة فعالة، فإنّ إمكانات التفاعل اللغوي تكون محدودة جدا.

وهكذا فإنّ لغات المتحدث الواحد التي يمكن العثور على غالبيتها في أستراليا، تشير إلى الحالة الحدية القصوى فيما يتعلق بتعريف لغة ما كوسيلة اتصال عملية. وعلى الرغم من وجود لغات المتحدث الواحد (التي يجري ذكرها أيضاً في قوائم اللغات) فإنها لا تخدم سوى الأغراض الإحصائية دون أن تكون دافعاً لاتخاذ أي إجراءات لإحيائها. ومع موت آخر المتحدثين بمثل هذه اللغات تموت وسيلة الاتصال ذات العلاقة. إنّ اللغة التي يجري إدراجها في الوقت الحاضر في قائمة اللغات القزمة الموجودة قد تنتمي غداً إلى صنف اللغات المنقرضة.

ثم هناك حدود متقلبة أيضاً بين صنف اللغات الأصغر واللغات القزمة. إن مجموعة لغوية يبلغ عدد أفرادها حاليا 1500 إنسان، قد تتراجع خلال بضع سنوات أو حتى أشهر لتندرج في صنف اللغات

القزمة. إن ذات العوامل المسؤولة عن موت اللغات القزمة (على سبيل المثال موت جماعي بسبب الأمراض المعدية أو الحروب أو إلغاء الجماعات بالتهجير أو انعدام اللغة نتيجة المؤثرات الاجتماعية الخارجية المكثفة) قد تؤدي بنفس الدرجة إلى تخفيض قوي لعدد الناطقين بلغات صغيرة إلى مستوى اللغات القزمة.

الشعوب وتفضيلاتها اللغوية

لا يستطيع المرء تقديم إجابة قاطعة أو شافية على سبب كون لغة ما تملك متحدثين أكثر من لغة أخرى. ومع هذا من الممكن، عند إلقاء نظرة تاريخية، التيقن من الكيفية التي تطورت فيها المجموعات اللغوية المنفردة حيث يستطيع المرء في الحالات الفردية ذكر الأسباب الثابتة الكامنة وراء نمو أو إنحسار أعداد الناطقين بلغة من اللغات. وبالاعتماد على قاعدة الملاحظات التطبيقية للحالات المنفردة من الممكن التعرف على بعض الاتجاهات العامة التي تمكن من تقديم بعض البيانات المتعلقة بالتقلبات الحاصلة في المعايير العالمية. وبالنسبة للتطورات التي ستشهدها جماعات لغوية معينة، لا تملك مثل هذه الأقوال التعميمية إلاّ قيمة مشروطة. وانطلاقاً من نظرية الفوضى تستطيع بعض العوامل غير المتوقعة توجيه التطور على المدى القصير في اتجاه آخر. وكم جرى تصحيح العديد من البيانات الصادرة في الماضي مثل تنبؤات التسعينيات حول تطور سكان العالم في المستقبل.

ومن الناحية المبدئية يعتمد تطور المجموعات اللغوية على ظروف

الوجود الديموغرافي للسكان. إذ إنّ كل فرد ينخرط في النسيج الاجتماعي والثقافي للمجتمع يرفع عدد الناطقين بلغة جماعة لغوية ما. وكل فرد يتوفى يقلل من عدد الناطقين بلغة ما من لغات العالم. ثم إنّ الوجود والتكافل الداخلي للسكان بصورة عامة وكذلك للمجموعات اللغوية بصورة خاصة يعتمد على الإحداثيات الطبيعية مثل أحوال نسب الولادة (الخصوبة) وأعداد الموتى (الوفيات) وكذلك تأثير الهجرات (الهجرة إلى الداخل عكس الهجرة إلى الخارج)؛ (Zlotnik 1994). ومن المظاهر المهمة في هذا الصدد أيضاً الهجرة من الريف إلى المدن الكبيرة. فبعد الحرب العالمية الثانية كانت الهجرة من الريف تشكل مشكلة عويصة في العديد من أصقاع أوروبا الغربية، في حين أن التزايد السكاني في مدن الملايين من البلدان النامية يعتبر حالياً من المشاكل السكانية العالية (Bahr 1992: 350 ff; Kidron/Segal 1995: 24 f).

بالإضافة إلى هذه العلاقة المتداخلة في تطور السكان كمجموعات ديموغرافية ومجموعات لغوية. هناك العديد من المتفرقات المعينة التي تمنح تطور المجموعات اللغوية ديناميكية خاصة بها. ومن التأثير المتبادل بين المتفرقات الخاصة ذات التوجهات اللغوية والعوامل الديموغرافية العامة يتكون إيقاع ذو قوانين خاصة به.

ويعتمد نمو سكان العالم أو حتى سكان الدول المنفردة على العديد من العوامل العرضية وكذلك على الكثير من التبدلات الاجتماعية التي لا يمكن اليوم التكهن بها. أما مدى عدم الاعتماد على المصادفة (أي

على الأشياء التي لا يمكن التنبؤ بها) ومدى أهمية التبدلات المرتبطة بها حول مجريات التطور الحاصل فتعتبر ناحية يمكن للمرء التعرف عليها عند اعتماد بعض التكهنات. وفي ما يلي مثال حول التكهنات التي ظهرت في السبعينيات.

في دراستها حول مشاكل القوميات في الاتحاد السوفييتي. قدمت كارّير دانكوس (D'Encausse, Carrere 1979: 92 ff) تكهناتها عن التطورات التي كان المجتمع السوفييتي سيشهدها حتى عام 2000. وفي الحكم على تطور كيان دولة أنحلّ في عام 1990 وغاب عن الوجود في عام 2000، أنطلقت دانكوس مما كان متوفراً في السبعينيات من معطيات. كانت كارير دانكوس قد تكهنت بأن مجموع سكان الدولة السوفييتية سيرتفع بصورة دائمة، علماً بأنّ هذا العدد آخذ بالتراجع في الجمهورية الرئيسية داخل الجمهوريات السوفييتية سابقاً، أي روسيا، نظراً لزيادة عدد الوفيات على عدد الولادات منذ عام 1990 بسبب تردي الرعاية الطبية في البلاد.

ويرتبط النمو السكاني سببياً أيضاً بتطور اللغات، ذلك أن كل إنسان لا بد أن يكون عضواً منتمياً إلى جماعة لغوية واحدة على الأقل. وفي المناطق التي توجد فيها لغات عديدة يتوسع هذا الانتماء اللغوي إلى انتمائية متعددة. أي أن التزايد السكاني بالمعنى الديموغرافي - الإثني يلاحق إيقاعاً ديناميكياً ليس ذا علاقة غير مباشرة فقط بدينامية النمو اللغوي، نظراً لأنّ النمو اللغوي يخضع لقوانينه الخاصة به. وهكذا

نستطيع القول إن النمو اللغوي يعرف تفضيلاته الخاصة به. بهذا المعنى لا يمكن نقل البيانات عن النمو الديموغرافي بسهولة وتطبيقها على أوضاع اللغة ذلك أن سكان إحدى هذه المناطق يزداد على سبيل المثال ولكن المتحدثين باللغة الأم المحلية السائدة يأخذ بالتناقص.

كانت هذه الحالة مميزة للعديد من الشعوب غير الروسية في الاتحاد السوفييتي السابق التي كان عدد سكانها آخذ بالارتفاع ولكن عدد الناطقين باللغة المحلية الأم كان آخذاً بالتراجع نتيجة التحوّل إلى التحدث باللغة الروسية. أما الفجوة الحاصلة بين النمو السكاني والنمو اللغوي فكانت أشد درامية في أمريكا الشمالية. عدد الهنود الحمر (الأمريكيين) الذين يعيشون اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية يعادل العدد الموجود عند وصول كولومبوس إلى أمريكا. وهكذا فإنّ هذا النمو للشعب الأصلي الذي قضي عليه خلال القرون الماضية يتطابق مع دينامية إندماج سريع، أي ما يعني أن الأعداد الكبيرة من الهنود الحمر لم ينخرطوا منذ أجيال عديدة في التربية الاجتماعية بالاعتماد على لغتهم الأم القديمة بل فقدوا هويتهم القبلية السابقة في بوتقة انصهار اللغة الإنجليزية (Hoxie 1996: 333 f).

ويتمثل القاسم المشترك الأعظم بين التطور الديموغرافي والتطور اللغوي في حقيقة مرور السكان والجماعات اللغوية في حالة من التبدل الديناميكي الدائم، علماً بأنّ سكان منطقة ما قد يزداد أو يبقى على حاله أو يتناقص. وينطبق الشيء نفسه على كل جماعة لغوية أيّاً

كانت وإن كان التطور يشير أحياناً إلى الركود. غير أنّ الركود هو في الواقع ضرب من التراجع إذا ما أخذنا بنظر الأعتبار عملية التقدم بالسن والتبدل الحاصل في الأجيال الجديدة. لذا فإنّ ديناميـة الجماعات اللغوية مرتبطة أصلاً بالتطور العام للسكان وإن كانت هذه الدينامية تلاحق قوانينها الخاصة بها.

ويزداد تعقد ارتباط دينامية التطور الديموغرافي والتواصلي في مناطق الارتباط التي تنتمي فيها التعددية اللغوية إلى التجارب اليومية للتفاعل. وبالنسبة إلى بعض مناطق العالم هناك أيضاً مادة إثنية غنية تحت التصرف يقدم تقييمها لنا بعض النتائج حول دينامية المحافظة على اللغة وتبدل اللغة واكتساب معارف لغتين على خلفية التطور العام للسكان. مثل هذه العمليات جرى بحثها بالنسبة للشعوب الروسية في الاتحاد السوفييتي سابقاً (Haarmann 1984: 79 ff; 1986: 119 ff).

وبالنظر إلى العلاقة الطبيعية بين النمو السكاني واللغوي، فإنّ ما يثير الدهشة والعجب هو أن خبراء لا يحصى عددهم قد تطرقوا إلى نمو السكان في العالم لكننا لم نرَ مَن تعرض مباشرة إلى العمليات الديموغرافية ذات التفاعل اللغوي التوجه، ناهيك عن إطلاق تكهنات عامة في هذا الصدد. يدفع هذا العجز إلى بذل مجهودات خاصة للبحث، ولذا سنقوم في ما يلي بإجراء المحاولة الأولى لتسليط الضوء على ظروف النمو اللغوي من خلفية التطور السكاني العالمي.

إذا عرفنا أن الناس في بلد ما يتحدثون سبع لغات أصلية إلى جانب العديد من لغات المهاجرين إلى هذا البلد، وإذا ما عرفنا علاوة على

ذلك أن عدد سكان هذه البلاد قد ارتفع من 50,5 مليون في عام 1975 إلى 57,7 مليون في عام 1995، فإنّ هذا لا يعني بتاتاً أنّ كافة الجماعات اللغوية قد نمت بصورة متساوية بنسبة 14,3% على غرار المعدل المتوسط لنمو سكان البلاد. المثل الذي نضربه هنا هو فرنسا. نما عدد المتحدثين بالفرنسية خلال العقدين الأخيرين بنسبة فوق المعدل.

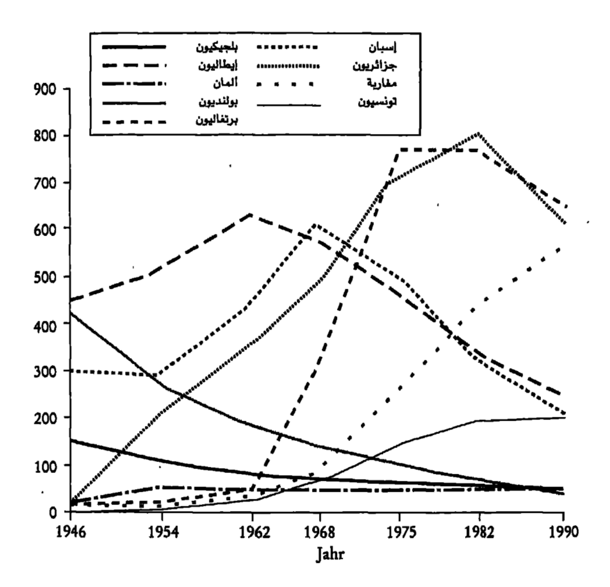
يعود سبب هذا النمو إلى حد ما إلى انخفاض عدد الناطقين باللغات المحلية خلال نفس الفترة الزمنية. كما أن انصهار غير الفرنسيين في جماعة الناطقين باللغة الفرنسية هو اتجاه ينتمي إلى الظواهر الثابتة للتفاضل اللغوي لتطور سكان فرنسا على الأقل منذ زمن الثورة الفرنسية (Kremnitz 1977, 1995b). ويوضح هذا الاتجاه المؤثّر أيضاً في العصر الحديث زيادة الحصة في النمو فوق المعدل المتوسط لمجموعة اللغة الفرنسية (الناطقون بالفرنسية كلغة أولى).

وإذا ما كان عدد الناطقين بالفرنسية قد ارتفع وعدد الناطقين باللغات المحلية الأصلية مثل البرتونية، والباسكية، والأوكيتانية، والكورسيكية إلى آخره قد تناقص، حينئذ يوجد علاوة على عوامل التفاضل اللغوي هذه عامل آخر هوتطور لغات المهاجرين (Tribalat 196)، ومن بينها ضروب اللغة العربية (اللهجة الجزائرية أو المغربية)، والإيطالية، والإسبانية وما شابه.

ومن الجدير بالذكر أن عدد الناطقين بهذه اللغات قد ازداد بسبب تدفق سيول المهاجرين. وعلى الرغم من أنّ اللغات المستوردة ستتعرض هي الأخرى إلى مخاطر الانصهار، إلاّ أنها لن تكون بنفس

درجة الخسارة التي تعرضت إليها اللغات الأصلية المحلية. إن نمو لغة المهاجرين غير منتظم. فبعد أن شهدت السبعينيات والثمانينات نمواً متزايداً نتيجة موجات الهجرة الجديدة. نرى أنّ أعداد المهاجرين قد تراجع كثيراً خلال التسعينيات (راجع الشكل 8).

الشكل 8: تطور عدد المهاجرين إلى فرنسا بحثاً عن العمل
بين 1946 و1990 (Ogden 1995: 291, 293)



يمثل الشكل خطوطاً بيانية توضح تطور حركة الهجرة بالأرقام خلال المدة بين 1946 و1990

ويعتمد دوام واستمرار جماعة لغوية كبيرة (مثل الصينية) على متغيرات تختلف عن تلك الخاصة بالمحافظة على جماعة لغوية صغيرة. لذا فإن هناك عوامل أخرى مقررة للتطور الطبيعي لجماعة لغوية كبيرة كالصينية التي ينطق بها أكثر من مليار إنسان أكثر مما هو الحال عليه بالنسبة لوجود اللغة الليفية Liwisch في كورلاند الواقعة على الحافة الجنوبية الغربية لخليج ريغا في لاتفيا. إن نمو الولادات في صفوف الشعب من الأصول الليفية لا علاقة له إلاّ قليلاً بالظروف الحياتية للغة الليفية التي لا ينطق بها سوى نفر من المسنين لا يتجاوز عددهم 24 شخصاً.

وفي الحين الذي يتم فيه نقل اللغة الصينية داخل محيط صيني بكل بداهة من جيل إلى آخر، فإنّ هذا لم يعد ينطبق منذ زمن بعيد على اللغة الليفية الخاضعة في جميع المناطق السكنية الليفية إلى ضغط اللغة اللاتفية (في الماضي ضغط اللغة الروسية أيضاً). وفي الجماعة اللغوية الليفية لم يحدث منذ سنوات طويلة أي تبدل طبيعي في الأجيال من الناحية اللغوية نظراً لأن أفراد الجيل الجديد اكتسبوا اللغة اللاتفية كلغة أم.

ثم إنّ حيوية اللغات تعتمد على اتجاهات معينة، علماً أنّ التنبؤات المتعلقة بنمو السكان في العالم تنعكس في ذلك بطريقة غير متناسبة. ويتقرر تطور عدد الناطقين بلغة ما بصورة رئيسية تماماً عبر العوامل الموجودة في حقل التوترات القائمة بين المحافظة على

اللغة أو تغييرها. ثم إن وتيرة نمو المتحدثين داخل الجماعات اللغوية يبتعد عن النمو الديموغرافي الصافي لعدة أسباب من بينها أنّ نمو جماعة لغوية لا يعتمد على تبدل الأجيال، أي على معدل الخصوبة. إن نمو المتحدثين قد ينتج عن عملية انصهار دائمة وعن الجاذبية التي تمارسها لغة ما كلغة ثانية على مختلف أنواع اللغات الأم.

وتقدم الانجليزية مثالاً حيّاً على النمو المفرط الذي تشهده لغة ما. في عام 1596 كان عدد الناطقين بهذه اللغة لا يتجاوز أربعة ملايين إنسان، وكان انتشارها محصوراً بالجزر البريطانية (Houston et al. 1997: 370 f). وفي عام 1996 بلغ عدد الناطقين بالإنجليزية 573 مليون إنسان، علماً أنّ الإنجليزية - كما هو معروف - هي اللغة ذات الانتشار الجيوبوليتيكي الأوسع في العالم (Crystal 1997: 57 f). وتصل نسبة النمو خلال الأربعمائة سنة الماضية إلى 7162%(١). وإذا ما أراد المرء التعبير عن العدد الذي تضاعف فيه عدد الناطقين بالإنجليزية، فلا يمكن العثور في الواقع على مصطلح مناسب، لأنّ العدد قد وصل إلى 143 ضعفاً. ويضم 573 مليون 337,4 مليوناً منهم يتكلمون الإنجليزية كلغة أصلية و235,4 مليون يتحدثونها كلغة ثانية. وتصل نسبة النمو في صفوف أصحاب اللغة الأم إلى 4217%، ولدى أصحابها كلغة ثانية إلى 2942%.

وما أن حلّ عام 1850 حتى كان عدد متكلمي الإنجليزية كلغة أم في جميع أرجاء العالم قد وصل إلى 60 مليون إنسان، أي أنّ النمو

الحقيقي المطلق للمتكلمين قد سجلته هذه اللغة خلال القرن ونصف القرن الماضيين بنسبة زيادة قدرها 562%. ومن الجدير بالذكر عدم وجود أي شعب في العالم استطاع ديموغرافياً أن يُسجِّلَ مثل هذه النسبة الكبيرة من النمو خلال القرون الأربعة المنصرمة. فمن ناحية حققت الإنجليزية نموها الحقيقي عَبْر عملية الانصهار (الواليزيون في ويلز، الإيرلنديون في إيرلندا، أفراد مختلف قبائل الهنود الحمر في شمال أمريكا، الأبوروجينيس في أستراليا)، ومن ناحية أخرى عَبْر الضغط الذي مارسته الإنجليزية كلغة المستعمر على الرعايا الأفارقة والآسيويين في الإمبراطورية البريطانية العالمية السابقة، أيّ على الأفارقة والآسيويين الذين تعلموا الإنجليزية كلغة ثانية (كيكويو Kikuyu ولو Lou في كينيا، يوروبا Yoruba وإغبو Igbo في نيجيريا، زولو Zulu وخوسا Xhosa في جنوب أفريقيا، الهندوستانيين Hindustani والتاميل Tamil في الهند، الصينيون في هونغ كونغ وسنغافورا، المالاويون في ماليزيا).

إن دينامية الاستيعاب التي تتميّز بها الإنجليزية وجاذبيتها كلغة ثانية لن تفقد في المستقبل زخمها ولا انطلاقتها نحو الأمام، خاصة وأنّ قدرة هذه اللغة على التواصل – والخبرة في خدمتها ونشرها – قد ازدادت قوة خلال الأعوام الماضية. مع هذا من المنتظر حدوث انحراف في نسب الناطقين بالإنجليزية ضمن إطار لغات العالم. إن المرتبة الثانية التي تحتلها حالياً الإنجليزية في العالم من ناحية المتحدثين بها بعد الصينية (أي المتحدثون بها كلغة أصلية +

المتحدثون بها كلغة ثانية) ستتبدل خلال العقود القليلة القادمة. فمن ناحية، ونتيجة لضغط النمو السكاني في الهند، ومن ناحية أخرى ونتيجة للانصهار المتزايد للغات الأصغر، سترتفع نسبة المتحدثين بالهندي Hindi (لغة أولى وثانية) لتحتل خلال العقود القليلة القادمة بعد الصينية المرتبة الثانية تليها الإنجليزية في المرتبة الثالثة.

سينعكس النمو السكاني المطّرد المتوقع في القارة السمراء وفي جنوب آسيا في زيادة تباين نسب عدد المتكلمين باللغة الإنجليزية. أمّا الفائز الحقيقي فستكون تلك اللغات التي توصف في هذه المناطق بأنها لغات الملايين، والتي سيكون نموها على حساب الانحلال المتزايد الذي سيصيب اللغات الأصغر، مما يعني أنّ نسب النمو الديموغرافي ستنعكس في التباين الكبير في نسب نمو اللغات.

أكبر نسب النمو في القارة الأفريقية ستسجلها لغات مثل الهاوسا Haussa (38 مليون: 1995)، والسواحلي Swahili (25 مليون: 1989)، وكيكويو Kikuyu (5,4.مليون: 1994)، وخوسا Xhosa (6,8 مليون: 1995)، أو الزولو Zulu (8,8 مليون: 1995). علاوة على ذلك سيرتفع عدد الناطقين بالكثير من اللغات التي لا يتكلمها حالياً سوى أفراد لا يتجاوز عددهم المليون لتحتل مرتبة لغات الملايين. ومن الأمثلة التي من المتوقع أن ينطبق عليها مثل هذا التطور نذكر اللغات التالية: ماخوا – شيريما Makhuwa-Shirima وشوبي Chopi في موزامبيق، وغباغي Gbagyh وإيغالا Igala في نيجيريا، وفولفولدا Fulfulde (سوكوتو Sokoto) في النيجر، ودوغون Dogon في مالي وبوركينا فاسو،

وغن – غبا Gen-Gbe في توغو وبنين، وماكينا Macina في مالي وغانا وساحل العاج، ونغباكا Ngbaka في جمهورية كونغو الديمقراطية (سابقاً زائير)، وسريره – سنيه Serere - Sine في السنغال.

وفي جنوب آسيا ستكون هذه اللغات: الهندي Hindi (418 مليون: 1995)، والباشتو Pashto (9,7%: 1993)، والفارسي Farsi (26,5%: 1992)، والأندونيسية (170 مليون: 1992). وسيرتفع عدد المتحدثين بهذه اللغات فوق المعدل المتوسط بكثير. وحتى في هذه المنطقة يتوقع أن تتوسع حلقة لغات الملايين. ومن اللغات التي ستنتمي إلى دائرة لغات الملايين ستكون آيماغ Aimaq في شرق إيران وبعض لغات الهند مثل مينا Mina في الولايتين الاتحاديتين مادهيا – براديش Madhya Pradesh وراجستان Rajastan، ومانيبوري Manipuri (مايتاي Maithel) فيماينبور أو هو Ho في بيهار وأُوريسا. وستكون اللغات ذات النسب المتزايدة في أمريكا في المقام الأول الإسبانية والبرتغالية ومن ثم الإنجليزية وبعض ضروب لغات كويشوا Quechua ومايا Maya مثل كويشيه Quichê ويوكاتكو Yucateco.

وفي أوروبا سيبقى التطور مستقراً نسبياً. فمن ناحية لن تتغيّر دائرة لغات الملايين إلا قليلاً، ومن ناحية أخرى لن يقلل عدد اللغات القِزمة. في حالة اللغتين الليفية Liwische والووتية Wotische فقط يُنتظر أن ينخفض عدد المتحدثين بهما إلى الصفر. وعلى الرغم من النسب المعتدلة التي يسجلها نمو السكان في أوروبا، مما سيجعل هذه

النسبة في عدد سكان العالم تتراجع في المستقبل، فإنّ حصة المتحدثين باللغات الأوروبية الكبيرة لن ينخفض بنفس نسبة تراجع عدد السكان.

كما ستُسجل اللغات الأوروبية العالمية مثل الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية نسب ارتفاع كبيرة جداً من ناحية عدد الناطقين بها في دول ما يُدعى العالم الثالث، في حين أن عدد الناطقين باللغتين الروسية والألمانية، أي اللغات المنتشرة على الأغلب في القسم الشمالي من الكرة الأرضية، لن ينمو على العكس من ذلك، بل إنه سيبقى على حاله على أكثر احتمال.

وعلى الرغم من جميع البيانات المتوفرة عن التطورات التي ستشهدها اللغات في المستقبل وعدد المتحدثين بهذه اللغات المختلفة، يجب ألاّ يغيب عن أذهاننا حقيقة عدم وجود أي مصادر موثوقة يمكن الاعتماد عليها في تحديد عدد الناطقين بهذه اللغة أو تلك في الوقت الحاضر. لأنّ البيانات المتضمنة في الإحصائيات الإثنية الرسمية وعمليات تعداد السكان الموجودة تحت تصرف بعض الدول لم يجرِ حصرها وفق نفس المعايير. لا عجب إذن أن نرى بيانات مختلفة جداً في ما يتعلق بأعداد الناطقين باللغات الصغيرة والكبيرة. ومن الأمثلة الصارخة على صعوبة تحديد التعداد الدقيق ما نجده عند آمّون (Ammon 1991: 41 f) الذي جمع من ستة مصادر الإحصائيات المتعلقة باثنتي عشرة لغة من أكبر لغات العالم من ناحية عدد الناطقين بها.

لا توجد أي أعداد متطابقة حول أية لغة من اللغات. في الفترة الزمنية من 1980 وحتى 1990 تراوح عدد الناطقين بالإنجليزية مثلاً ما بين 310 ملايين و415 مليون إنسان. وتتراوح أعداد المتكلمين بالصينية بين 700 مليون ومليار إنسان. والألمانية ما بين 92 مليونا و119 مليون إنسان. أما الاختلافات الكبيرة جداً بالنسبة إلى بعض اللغات (على سبيل المثال: الإنجليزية، الهندي، أو الروسية) فتتضح من ناحية جميع مستعمليها كلغة أولى (مع استثناء مستعمليها كلغة ثانية)، ومن ناحية أخرى من جميع الذين يستخدمونها كلغة أولى مع أولئك الذين يستخدمونها كلغة ثانية.

وتتعرض ظروف النمو الطبيعية لجماعة لغوية معينة في العديد من المناطق إلى الضرر نتيجة الظروف السياسية أو الاجتماعية. حيث تتعرض اللغات الأصغر غير المتمتعة بمكانة سياسية متميّزة غالباً إلى الضغط الذي تمارسه اللغات المهيمنة ذات الوظائف الرسمية. وتكون النتيجة تثاقف واستيعاب المنتمين إلى الجماعات اللغوية الأصغر من قبل اللغات المهيمنة. ينطبق هذا على متكلمي اللغات الصغيرة في البرازيل مثل انطباقه على الأوضاع في الولايات المتحدة الأمريكية، والصين، والهند، وأستراليا، أو روسيا. ثم إنّ نمو جماعة لغوية يستقر عندما تستخدم لغتها كوسيلة للتعليم المدرسي وعندما تحصل أيضاً على وزن سياسي، بغض النظر إن حدث هذا عَبْر مكانة لغة رسمية محلية مثل اللغة الفريزية في هولندا، أو عَبْر مكانة لغة الدولة مثل اللغة الأيسلندية في إيسلندا.

ولا يعتمد الاستيعاب فقط على الضغط الذي تمارسه لغة مهيمنة على لغة غير مهيمنة. ففي عالمنا الذي يتميّز بالعلاقات الإثنية المتبادلة، تنشأ علاقات وروابط اجتماعية عديدة بين المنتمين إلى مختلف المجموعات الثقافية واللغوية، وبالاعتماد على الظروف الحياتية المحلية يتم الاستيعاب على شكل قرار طوعي يتخذه الأبوان في عوائل تتقن لغات عديدة في ما يتعلق بدمج أطفالهما في النسيج الاجتماعي باستعمال لغة واحدة فقط.

بالنسبة إلى الكثيرين من الفنلنديين المقيمين في الخارج، كالذين يعيشون في ألمانيا، أو فرنسا أو انجلترا، أو المتزوجين من مواطني هذه البلدان، يقع الاختيار على لغة البلد فيما يتعلق بتربية أطفالهم. وغالباً ما تكون أسباب الاستغناء عن اللغة الفنلندية كوسيلة لغوية ثانية عائدة إلى عدم وجود أي روابط مع فنلندا، ولندرة قيام الأطفال بزيارة وطن الأم (أو الأب)، هذا إن حدثت مثل هذه الزيارة بصحبة الأبوين على الإطلاق.

ومن الأمثلة على مثل عمليات الانصهار الطوعي هذه ما نشاهده في صفوف الجيل الثاني أو الثالث من العائلات التركية التي كانت قد هاجرت في الخمسينيات والستينيات إلى ألمانيا بحثاً عن عمل حيث بقيت واندمجت في المجتمع الألماني. فالعديد من الأتراك المولودين في ألمانيا يتحدثون الألمانية وليس التركية. مع هذا فإنّ الانصهار لا يُعتبر اتجاهاً غالباً في أوساط الجالية التركية، على العكس يمكن

ملاحظة وجود تزايد في الوعي الذاتي في صفوف الأتراك المولودين في ألمانيا في السبعينيات والثمانينيات، نظراً لأن اللغة والثقافة التركيتين تعتبران بالنسبة إلى هؤلاء الأتراك - كما بالنسبة إلى أجدادهم - جزءاً رئيسياً لا ينفصل عن تكوين هويتهم الذاتية. مع هذا فإنّ التشخيص الذاتي للأتراك الذين يعيشون في الجيل الثالث خارج تركيا - على عكس حالة جيل الأجداد - له ارتباطات قوية جداً باللغة الألمانية وبثقافة المحيط الذي يعيشون فيه في ألمانيا. لذا يتحدث المرء حالياً عمّا يُدعى بالهوية الذاتية للمهاجرين الأتراك.

وفي بعض المجتمعات يجري تشجيع التزاوج بين الإثنيات المختلفة من أجل الاندماج في الأغلبية السكانية. هكذا كان الحال في الاتحاد السوفييتي السابق عندما كانت الزيجات بين الإثنيات المختلفة من الأفضليات التي كان التخطيط المأدلج للمجتمع حتى نهاية الحقبة السوفييتية يهتم بها كثيراً (Perevedencev 1975: 27 f). انطلاقاً من هذا المفهوم سيطرت فكرة تشجيع الروابط العائلية بين الروس وغير الروس، وكيف أن تشجيعها سيؤدي إلى «تقارب الأمم الإشتراكية» (Chanazarov 1964).

هناك بعض البيانات التي توضح أنّ عقد الزيجات البيعرقية (بين الأعراق) لم يكن عاملاً هامشياً. فلقد ارتفع عدد الزيجات بين الروس وغير الروس من 5,2 مليون عام 1959 إلى 12,8 مليون في عام 1989. وفي عام 1959 بلغ عدد الزيجات بين الإثنيات المختلفة في مدن أوكرانيا، وبيلاروسيا وجورجيا أربعة أضعاف هذا العدد في الأرياف.

وفي لاتفيا واستونيا وأوزبكستان كانت النسبة 1:3 (Kozlov 1975: 235). يميل الروس عادة إلى عقد الزيجات الإثنية المختلطة.

أغلب حالات الزواج كانت بين الروس والأوكرانيين والروس البيض واللاتفيين. وبعد أن سجل عقد الزيجات البيعرقية (بين الأعراق) في المناطق غير الروسية ارتفاعاً مستمراً حتى عام 1970، تراجع العدد قليلاً ثم واصل ارتفاعه من جديد في الثمانينيات (Arutjunjan 1992: 192). ومع تفكك الاتحاد السوفييتي تبدلت العلاقات السائدة بين الجماعات العرقية المختلفة جملة وتفصيلاً، وبدأت الاتجاهات في مجال الروابط الاجتماعية البيعرقية تأخذ طابعاً محلياً.

يتقرر التطور السكاني في منطقة ما نتيجة كثير من العوامل الخاصة مثل الكوارث الطبيعية (الزلازل الأرضية، الجفاف، الفيضانات، المجاعة، تفشي الأمراض وانتشار الأوباء، الحروب، التهجير، الضم القسري، أو الإبادة الجماعية). حيث خلت مناطق بكاملها من سكانها نتيجة مثل هذه العوامل وتفككت جماعات سكانية آمنة. على سبيل المثال أدت كارثة الطوفان التي أصابت في صيف عام 1998 الساحل الشمالي الشرقي من پاپوا - غينيا الجديدة، والتي خلفت أكثر من 8000 ضحية، إلى تغيير الخارطة العرقية لسكان تلك المنطقة الساحلية بصورة مستديمة.

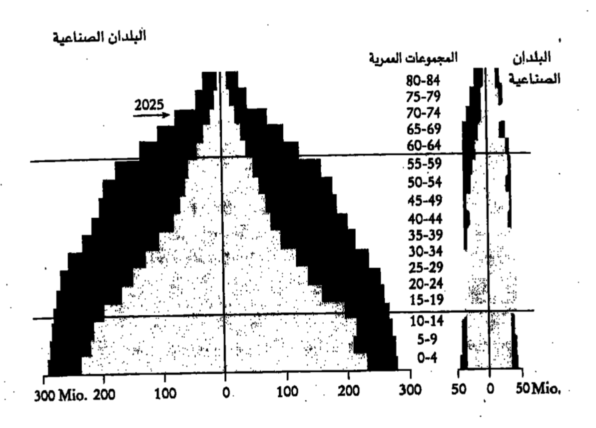
إن «التصفيات العرقية» في البوسنة والهرسك، وفي وقت لاحق في كوسوفا، والقتل الجماعي في صفوف الهوتو والتوتسي في رواندا

وبوروندي وفي شرقي زائير سابقاً، وملايين الناس الذين ذهبوا ضحية النظام الهتلري والستاليني وأتباع بول بوت (في كمبوديا)، وفقدان النفوس البشرية (أفراد الجيش والسكان المدنيين) التي خلفتها الحروب والحروب الأهلية، والتي تشكل جميعها أحداثاً جساماً مثلت تحديات صارخة للعقل البشري، تتناقض هذه جميعها مع عقلانية الإحصاءات ذات الأرقام المجردة التي تدون تطور سكان العالم والجماعات اللغوية.

ولا تتميّز الجماعات اللغوية عن بعضها البعض بأعداد متكلميها وأحجامها العددية وحسب، بل بواسطة طريقة ونوعية تراكيبها العمرية أيضاً. في محيط ذي ظروف نمو طبيعية مثلاً يتطور مع تتابع الأجيال تركيب هرمي للسكان. بالاعتماد على قاعدة عريضة (يمثلها الجيل الجديد) يتشبشب الهرم تدريجياً نحو الأعلى، وتمثل القمة المجموعة العمرية للمسنّين في المجموعة السكانية ذات الأعداد الصغيرة بطبيعة الحال. هذه الأوضاع كانت تميّز معظم الجماعات قبل خمسين عاماً. بيد إنّ هذا التطور أخذ يختلف في هذه الأثناء بوضوح بارز في الدول الصناعية عمّا هو قائم في البلدان النامية (أنظر الشكل 9).

ومن الجدير بالذكر أنّ معدلات الأعمار ترتفع في المناطق التي تتوفر فيها الرعاية الطبية الكافية (Pearson 1998: 26 f). وفي المجتمعات ذات المستوى المعيشي الاجتماعي المرتفع يكون عدد

الشكل 9: التركيب العمري لسكان العالم: الهرم العمري لعامي 1985 و2025



المصدر: Fischer Weltalmanach 96: 1125-26

الأطفال منخفضاً بصورة عامة مقارنة بالمجتمعات الأقل تطوراً. في يومنا هذا مثلاً يعيش في مدن أوروبا وشمال أمريكا أُناس تعدت أعمارهم المائة عام، مما أدى إلى تطور اتجاهات في البحث العلمي في مجالات الطب وعلم النفس وعلم الاجتماع، تهتم في المقام الأول بعمليات طول العمر وما ينتج عن ذلك من مشاكل (على سبيل المثال: Pratt/Norris 1994).

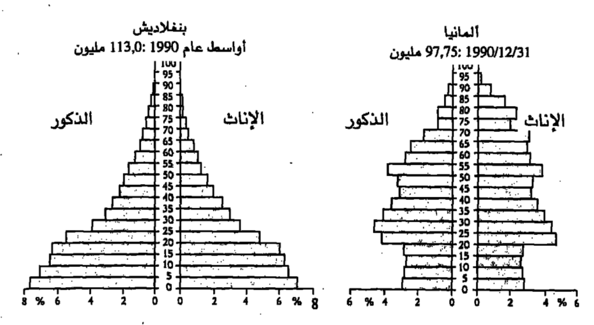
وفي دول العالم التي تكفل فيها البنية التحتية الاجتماعية الضمان الاجتماعي، حيث لا يعتبر الأطفال عماد المحافظة على معيشة أفراد العائلة المسنّين، أي في الأماكن التي يكون فيها المستوى المعيشي

أرفع بكثير مما هو موجود في بلدان العالم الثالث، وحيث أصبحت العائلات الغنية بالأطفال حالة نادرة، وحيث يتزايد عدد المسنّين زيادة مطّردة، لا يبدو الرسم البياني لتوزيع المجموعات العمرية على شكل هرم، بل كعمود غير منتظم. وإحصائياً يمكن لمثل هذه الحالة أن تشير إلى ركود في أعداد السكان خلال فترات طويلة من الزمن. لكن الطبيعة العملياتية للتطور السكاني تعبّر عن نفسها هنا في إعادة هيكلة دينامية داخلية لبنية الشعب من ناحية توزيع مجموعاته العمرية.

ويوضّح إجراء مقارنة لتركيبة أعمار السكان في دولة صناعية (مثل: ألمانيا) وفي بلد نام (مثال: بنغلاديش)، أنّ سبب النمو السريع يمكن العثور عليه في المنصة العريضة لقاعدة الهرم (راجع الشكل 10). كلما صغر سنّ المجموعة العمرية ازداد عدد المنتسبين إليها. ففي مجتمع مسنّ، كما هو الحال في جمهورية ألمانيا الاتحادية التي يعود فضل نموها السكاني إلى عوائل المهاجرين الغنية بالأطفال وليس إلى تكاثر السكان الأصليين، نرى أنّ أقوى المجموعات العمرية ليست في الأطفال والشبيبة كما في بنغلاديش، وإنما في المراتب العمرية المتقدمة. وبالنسبة إلى المتكلمين بالألمانية في وسط أوروبا، يتعلق الأمر على الأغلب بالكبار المنتمين إلى مجموعات الأعمار المسنّة.

وعلى عكس ذلك، فإنّ الناطقين بالبنغالية ينتمون إلى أصناف الأعمار التي تتراوح بين 20 و25 عاماً وكذلك الشبيبة تحت سن العشرين.

الشكل 10: التركيب العمري للسكان بالمقارنة: بنغلاديش - ألمانيا
(المقياس بالنسبة إلى مجموعات الأعمار لكل خمس سنوات)



المصدر: Fischer Weltalmanach 94: 262.

يدل المخطط البياني على معدلات الأعمار في كل من البلدين لدى الذكور والإناث، وعلى اتساع القاعدة السكانية للأعمار الفتية في بنغلاديش، وارتفاع العمر الوسطي في المانيا بالمقارنة مع بنغلاديش.

وعند مواصلة هذا الاتجاه منواله كما هو متوقع، سيكون معظم الناطقين بالألمانية من المتقدمين بالسن. ثم إنّ الارتفاع المستمر لمعدل العمر في غرب أوروبا يساهم من جانبه في تكثيف المجموعة السكانية الألمانية في القسم الأعلى من الرسم البياني. لذا فإنّ انصهار عائلات المهاجرين الفنية بالأطفال هو عامل يساهم في شيشبة الجماعة اللغوية الألمانية الميّالة إلى الشيخوخة. و«الألمان الجُدد» ينحدرون عادة من البلدان النامية، حيث تعطى الأهمية إلى كثرة أعداد الأطفال في العائلة. وفي حال استمرار هذه العقلية والمحافظة عليها من قبل الأجيال القادمة لهذه العائلات من الذين

يولدون ويترعرعون في الموطن الجديد، يبقى عامل الشبشبة قائماً على قدم وساق.

وتظهر التقديرات العامة المتعلقة بتوزيع أعمار سكان العالم الإبقاء على التركيبة الهرمية في البلدان النامية في حين أنّ ارتفاع الأعمار في الدول الصناعية قد تعزز شكله العمودي المميّز (دون قاعدة عريضة) في هذه الأثناء، والذي يظهر بعض الانتفاخات الضئيلة، علماً أنّ الزيادة في مجموعة الأعمار المرتفعة (من الخمسين فما فوق) تشكّل في هذا السياق عامل النمو الرئيسي. لكن هذا الاتجاه سيحافظ على وضعه كما هو متوقع في البلدان النامية أيضاً، إذ سيتعدى عدد الناس من الأربعين فما فوق المعدل المتوسط بفضل تحسن الرعاية الطبية. وفي القريب العاجل ستزداد المجموعات اللغوية في البلدان النامية شباباً، مما سيعبّر عن نفسه في توسّع قاعدة الهرم للرسم البياني حول مجموعة الأعمار.

وإذا ما أخذنا بالاعتبار دينامية مجموعة الأعمار في المجموعات اللغوية، يصبح اتجاه التطور المقبل واضحاً بشكل خاص. وما يتعلّق بتطور لغات العالم بالنظر إلى حجمها، فلا تنتقل إلى صنف آخر (على سبيل المثال من صنف اللغات المتوسطة الحجم إلى صنف لغات الملايين) إلاّ تلك اللغات التي يتميّز توزيع مجموعة الأعمار فيها بارتفاع عدد الشباب. مثل هذه الفرص متوفرة للغات التي يبلغ عدد المتحدثين بها حالياً أقل من مليون والمتوقع أن تجتاز حاجز المليون في القريب العاجل (راجع الأمثلة المذكورة أعلاه).

يبلغ عدد الذين يتحدثون الباسكية Baskisch والبروتونية Bretonisch أكثر من نصف مليون إنسان. مع هذا لا توجد فرص حقيقية لانتقال هاتين اللغتين إلى صنف لغة الملايين لأن المجموعتين اللغويتين المذكورتين تفتقران إلى مجموعة الأعمار الشابة.

على العكس، عدد الناطقين بهما آخذ منذ سنوات عديدة بالتراجع. وعلى الرغم من أنّ الحكم الذاتي السياسي والثقافي في بلاد الباسك الإسبانية والتضامن الذي تظهره المجموعة الناطقة بالباسكية في الطرف الفرنسي مع الجانب الإسباني قد تساهم في إبطاء وتيرة هذا التطور السلبي، لا بل وحتى الحد منه، فإنّ الزيادة غير واردة على الإطلاق. وينطبق الشيء نفسه على اللغة البروتونية غير المعرضة إلى الانقراض وإن كانت وظائفها واقعة تحت ضغط اللغة الفرنسية بشكل دائم.

إنّ نمو لغات الملايين مضمون على المدى البعيد نظراً لأنّ هذه اللغات تملك من ناحية قوة مقاومة كافية للمحافظة على حيويتها، ومن ناحية أخرى فإنها تولّد إشعاعات جذب جبارة تساعدها على استقطاب اللغات الأصغر التي تتعامل معها ودمجها. وتولّد لغات الملايين التي لها مكانة لغة الدولة قوة جذب كلغات ثانية. ينطبق هذا على اللغات التي يصل عدد المتحدثين بها إلى الحدود الدنيا للغات الملايين.

المثال الحديث على ذلك هو اللغة الأستونية البالغ عدد الناطقين بها المليون تقريباً. ومع رفع الأستونية إلى مرتبة اللغة الرسمية في

أستونيا المستقلة في عام 1991، ونتيجة للقوانين المتحجرة لحصول غير الأستونيين على الجنسية الأستونية (في المقام الأول الروس) يصبح اتقان قواعد اللغة الأستونية من قبل غير الأستونيين الجدد أمراً لا بد منه (Haarmann/Holman 1997). بهذا تم التغلب على الركود الذي كان قد أصاب اللغة الأستونية خلال المرحلة السوفييتية.

عمالقة اتصالات عالميون: اللغات العالمية، وظائفها ومكانتها

يعد اصطلاح «لغة عالمية» (Weltsprache) من العبارات الثابتة في مفردات اللغة الألمانية المستخدمة في الحياة اليومية. فعندما نتحدث عن لغات عالمية، نعتمد غالباً على لغات مفردة معينة ذات علاقة بوظائف مع وظائف اتصالات معينة. ومن أبرز الأمثلة على ذلك اللغة الإنجليزية التي تمكنت بفضل مكانتها الدولية من ترسيخ فكرة اللغة العالمية. وحتى في البحوث السوسيولوجية للغة يستخدم المرء هذه اللغة، نظراً لأننا عند محاولة تعريف دور لغة عالمية ما، نتوجه عن طيب خاطر إلى اللغة الإنجليزية ونستخلص من شروط وجودها المعايير المعتمدة في تحديد مكانة لغة عالمية معينة (Crystal 1997). لا مجال أبداً للجدل حول دور الإنجليزية كلغة عالمية. لكن، من ناحية أخرى، هل تعتبر اليابانية والألمانية لغتين عالميتين أم لا؟ سؤال لا يمكن الرد عليه بسهولة خاصة إذا ما انطلق المرء في مراقبة مسألة اللغات العالمية دون استثناء من موقف ووجهة نظر المجموعة التي تتحدث اللغة الإنجليزية.

إنّ المكانة الدولية للغة الإنجليزية محاطة بشبكة معقدة من المتغيرات اللغوية الإيكولوجية. ثم إنّ الطريقة التي تتعامل فيها المتغيّرات مع بعضها البعض والإفصاح عن التأثير الإجمالي للإشعاع العالمي هو ناحية مميّزة للغة الإنجليزية. وبالنسبة إلى اللغات العالمية الأخرى تعمل المتغيرات اللغوية الإيكولوجية بطريقة تختلف عمّا ينطبق على الإنجليزية. لذا فإنه من الأفضل عند وصف اللغات العالمية عدم الاعتماد مباشرة على ظروف اللغة الإنجليزية، بل التحري عنها من موقع مستقل. تكمن مهمة الأسطر التالية في إظهار العوامل المشتركة بين لغات العالم، والأمور المعينة بالنسبة إلى تلك اللغات المرشحة لأن تصبح لغات عالمية.

ومن الطبيعي أن يهتم تحليل المكانة التي تشغلها لغة عالمية بالوظائف الدولية لوسائل الاتصالات. ففي عالمنا الحديث الذي شهد تغيّرات جبارة خلال العقود القليلة الماضية، أصبحت الموازين التي تُقاس بها هذه الوظائف الدولية أيضاً عرضة للتغيير. فلقد كان تعريف مكانة لغة عالمية حتى السبعينيات مطبوعاً إلى حد بعيد بأصناف تقليدية من الأوصاف مثل لغة التعليم، أو لغة الوظائف الاقتصادية، مكانة اللغة الرسمية (على سبيل المثال: Ross 1972, Kloss 1974a, Haarmann 1975: 236 ff). أما اليوم فإنّ الأمر يتعلّق أيضاً بالقدرة الكامنة بالبيانات في مجتمع المعلومات، وبعمليات التسويق العالمية وبالعناصر غير العقلانية وخرافة تحديث العصر الإلكتروني (راجع ما بعده).

ولا تقل أهمية تفصيلات المعايير المفردة المطبقة على مكانة لغة عالمية عن أهمية مناقشة محتوى المصطلح المستخدم. وهنا تكون مقارنة مصطلح لغة عالمية كما هو مستخدم في اللغات العالمية نفسها عامل مساعد. فالمصطلحات الألمانية مثل لغة عالمية (Weltsprache)، أو لغة عامة الأغراض/لغة شاملة (Universalsprache)، أو لغة دولية (Internationale Sprache) ليست سواسية في القيمة، لأنّ معنى «لغة عالمية» أشمل بكثير من المصطلحات الأخرى التي تشير من جانبها إلى الأوجه المعينة لمكانة اللغة العالمية.

في غرب ووسط أوروبا على سبيل المثال كانت اللغة اللاتينية قد بدأت منذ نهاية الأزمنة القديمة وحتى الفترات المبكرة من العصور الحديثة تلعب دور «اللغة الشاملة، عامة الأغراض/ اللغة العمومية» (Bausani 1970: 92 ff). وذلك لاعتبارها لغة وحيدة للمسيحية الغربية، أو كلغة للوثائق والمواعظ الدينية، وكلغة للتربية والتعليم أيضاً. غير أنّ اللغة اللاتينية بقيت طيلة حياتها لغة عامة متعددة الأغراض، لغة «ميتة»، أي أنها لم تكن تُستخدم في الاتصالات اليومية، بل على الأغلب وسيلةً للكتابة المخصصة لأداء وظائف معينة. ثم إنّ اللاتينية كانت بكونها لغة تَخَاطُب مقصورة على نفر قليل من النخب المثقفة فقط، ومن بينهم ممثلو الكنيسة والأدباء والكتّاب. أما بالنسبة إلى مكانة اللغات العالمية – مثل اللغة الإنجليزية – فإنّ أول ما يتوارد إلى الذهن هو استخدامها من قبل جماعاتٍ مختلفة كاللغة الأم (على

سبيل المثال الإنجليزية بالنسبة لأغلبية الأستراليين)، أو كاللغة الثانية (على سبيل المثال الإنجليزية بالنسبة إلى المهاجرين من أمريكا اللاتينية إلى الولايات المتحدة الأمريكية)، أو لغةً أجنبية (على سبيل المثال الإنجليزية كما يتعلمها تلاميذ المدارس الألمانية).

وحتى مصطلح «لغة دولية» له علاقة بوظائف اتصالاتية. وتملك لغة عالمية إشعاعات دولية بوصفها لغةً للعلم (على سبيل المثال: الإنجليزية في تحديث العلم)، ولغةً للدبلوماسية الدولية (على سبيل المثال الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى)، ولغةً مفضلة في العلاقات التجارية الدولية (على سبيل المثال الألمانية في منطقة بحر البلطيق في زمن الهانزا)، أو لغةً رسمية في منظمة دولية (على سبيل المثال الروسية في منظمة الأمم المتحدة). وفي مصطلحات اللغات الأوروبية هناك ترجمة واحدة فقط لمصطلح (دولي: International)، في حين هناك ترجمتان لهذه الكلمة في اللغة الروسية. إن كلمة mezdunarodnyi <international$_1$> تعادل المصطلح المتعارف عليه في الغرب، في حين أنّ كلمة meznacional'nyj <international$_2$> (حرفياً: «بين الدولي») تشير إلى ظروف الاتصالات الداخلية في روسيا. خلال الفترة السوفييتية كان المرء يفرّق عن وعي بين العلاقات القائمة بين القوميات الروسية وغير الروسية، والعلاقات مع الدول الأخرى في العالم. منذ توسع امبراطورية موسكو كانت الروسية تعتبر لغة دولية (mezancional'nyj jazyk) بمعنى مصطلح <international$_2$>، أما كلفة

دولية بمعنى <international$_1$> فتم استخدامها منذ عام 1945 بعد الاعتراف بها لغة رسمية في منظمة الأمم المتحدة. كما أنّ ترجمة المصطلح الألماني Weltsprache (لغة عالمية) إلى لغة عالمية أخرى ليست بالأمر الهيّن والواضح. في اللغة الفرنسية مثلاً هناك الاصطلاحات المماثلة التالية: langue mondiale (لغة عالمية)، langue à diffusion intercontinentale (لغة منتشرة بين القارات)، langue universelle (لغة كونية). أما في الإنجليزية فيتنافس المصطلح القديم world language (لغة عالمية) مع المصطلح الأجدّ globale language (لغة كونية). وهكذا فإنّ إبراز بُعد العولمة في تشكيل المصطلح يراعي التطور الراهن الحاصل في تبادل المعلومات على نطاق عالمي الذي يقوم بالمقام الأول على أكتاف اللغات العالمية. هناك لغات عالمية أوروبية ولغات عالمية غير أوروبية. وبالنظر إلى عدد الدول في أوروبا والعدد الإجمالي لسكانها، وكذلك بالنسبة إلى عدد اللغات المنتشرة في هذه القارة، يكون تركيز اللغات ذات مكانة اللغات العالمية شديداً للغاية عند المقارنة مع القارات الأخرى. أن العوامل التالية تشارك في التشابك التواصلي الكوني لعالمنا.

الأبعاد الديموغرافية العامة لمكانة لغة عالمية

في الواقع هناك بيانات ثابتة وقيم معينة تميّز اللغات العالمية وتجعلها تختلف اختلافاً جوهرياً عن اللغات الأخرى، حتى عن لغات الملايين التي هي لغات غير عالمية. وإنطلاقاً من الملاحظات

التطبيقية حول أعداد الذين يتكلمون اللغات «الكبيرة»، يتبيّن أنّ معظم اللغات العالمية هي تلك اللغات التي يتجاوز عدد متكلميها المائة مليون إنسان. بيد أنّ هذا العدد لم تكن له قبل خمسين عاماً أي أهمية ديموغرافية، نظراً لأنّ الكثير من اللغات العالمية لم يكن لديها مثل هذا العدد الكبير من المتكلمين. لذا فإنّ حدود المائة مليون هي في الواقع معيار لتحديد وضع اللغات العالمية نسبياً من ناحية الارتباط بتطور سكان المعمورة.

مع هذا فإنّ اعتماد حقيقة عدد المتكلمين وقصره على حاجز المائة مليون لا يجعل من لغة ما لغةً عالميةً بأي حال من الأحوال. فالهندي Hindi مثلاً لغة يتحدثها بشر يفوق عددهم المتكلمين بالإسبانية والعربية والفرنسية وغيرها من اللغات العالمية، ومع هذا فإنها لا تنتمي إلى هذا الصنف. وينطبق هذا أيضاً على اللغة البنغالية التي يفوق عدد الناطقين بها أعداد متكلمي الفرنسية أو البرتغالية. مع هذا فإنّ غالبية لغات المائة مليون هي لغات عالمية نظراً لأنّه مع هذا العدد الكبير نسبياً ترتبط معايير وظيفية معينة من معايير استخدام اللغة. إلاّ أنّ مثل هذه المعايير الوظيفية لم تطورها لغة الهندي ولا اللغة البنغالية.

تملك اللغتان المذكورتان مكانة رسمية (الهندي في الهند، والبنغالية لغة الدولة في بنغلاديش وكلغة محلية في الهند)، ولكنهما لا تملكان أي إشعاع يتعدى حدود الدولتين. ولا تؤدي الهندية ولا البنغالية أي دور

يستحق الذكر في التجارة الدولية، ولا أهمية لهما بوصفهما لغتين عالميتين في مجال التعليم والعلوم، وليستا لغتين رسميتين أو لغتي عمل في المنظمات الدولية. إنّ فقدان الوظائف التواصلية الدولية يميّز الهندية والبنغالية عن لغات المائة مليون الأخرى.

ولا تعد الإندونيسية أيضاً لغة عالمية، وإن كان عدد متكلميها يفوق بالمقارنة عدد متكلمي الفرنسية، أواليابانية أو الألمانية. وبغض النظر عن مكانتها كلغة رسمية، لا تملك اللغة الإندونيسية أي وظائف اتصالاتية على الصعيد الدولي.

حصص اللغات الأولى والثانية

اللغات العالمية لا تُحكى فقط كلغات أم (لغات أولى) بل إنها تملك جاذبية لتكون لغة ثانية (راجع الشكل 11). ثم إنّ اللغة العالمية تطور بالاعتماد على أهميتها فوق المحلية عادة قوة جذب تحفّز المتحدثين بلغات أصلية أخرى على تعلم اللغة العالمية كلغة ثانية. يمكن مقارنة جاذبية اللغة العالمية كلغة ثانية مع قوة الجاذبية المنطلقة من الأجسام الكبيرة كالأجرام السماوية على سبيل المثال. فكلما ازداد وزن الجرم السماوي، كلما ازدادت قوة جاذبيته للأجرام الأخرى الأصغر حجماً. وكلما ازدادت أهمية الدور الذي تقوم به لغة عالمية ازدادت قوة جاذبيتها للغات الأخرى. وتتميّز أقوى لغتين عالميتين، الانجليزية والفرنسية، عن جميع اللغات العالمية الأخرى، بنسب عالية كلغتين أولى وثانية (58,9% : 41,1% للإنجليزية، 58,0% : 42,0% للفرنسية).

وتظهر نسب المتحدثين ببقية اللغات العالمية الأخرى كلغة أولى أو ثانية تفاوتات كبيرة جداً. حيث تتشابه العربية والألمانية والبرتغالية بنسبة الذين يتكلمونها كلغة أولى والبالغة 90%. وتحتل الإسبانية والروسية مكانة متوسطة، إذ تبلغ نسبة المتكلمين بهاتين اللغتين كلغة

الشكل 11: لغات يتكلمها أكثر من ١٠٠ مليون إنسان
والعلاقة التناسبية بين متكلميها كلغة أولى ولغة ثانية.

اللغة	عدد المتكلمين	المتكلمين بها كلغة أولى		المتكلمين بها كلغة ثانية	
	(بالملايين)	بالملايين	النسبة ٪	بالملايين	النسبة ٪
الصينية	1210	1139	%94.1	71.0	%5.9
الإنجليزية	573	337.4	%58.9	235.6	%41.1
الهندية	418	182.0	%43.5	236.0	%56.5
الإسبانية	352	266.0	%75.6	86.0	%24.4
الروسية	242	170.0	%70.2	72.0	%29.8
العربية	209	202.0	%96.6	7.0	%3.4
البنغالية	196	189.0	%96.4	7.0	%3.6
البرتغالية	182	170.0	%93.4	12.0	%6.6
الإندونيسية	162	21.0	%12.9	141.0	%87.1
الفرنسية	131	76.0	%58.0	55.0	%42.0
الألمانية	101	96.5	%95.6	4.5	%4.4

أولى 70%، في حين أنّ الألمانية تحتل مكانة خاصة. ويعود سبب المكانة الخاصة إلى أنّ غالبية الذين يستعملون الألمانية كلغة ثانية يعيشون داخل ألمانيا، وهم من ذرية العمال المهاجرين الذين تبنوا اللغة الألمانية كلغة ثانية داخل منازلهم أو عن طريق التعليم المدرسي.

الشكل 12: نظرة عامة على الجماعات الخارجية الألمانية

(المتحدثون بالألمانية خارج نطاق الدول الناطقة بالألمانية، أي ألمانيا والنمسا وسويسرا)

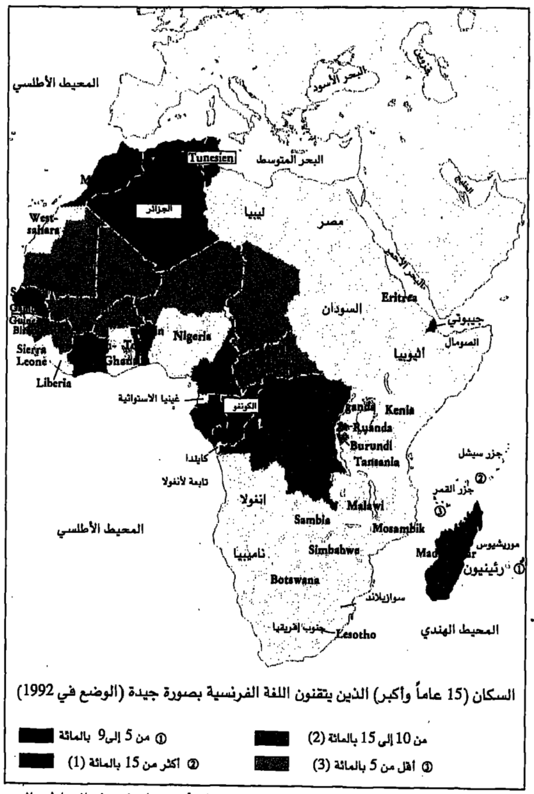
الدولة (المنطقة)	أفراد المجموعات الخارجية	
فرنسا (ألزاس)	نحو 1200000	
بولندا	نحو 1100000	
الولايات المتحدة	نحو 1100000	(ما يعادل 57% من جميع الناس ذوي الأصول الألمانية في البلاد: 958.000)
قازاخستان	456000	
كندا	450000	
روسيا	352000	(جنوب سيبيريا، ما يعادل 41.8% من جميع الناس ذوي الأصول الألمانية في البلاد: 842000)
إيطاليا	280000	(تيرول الجنوبي)
هنغاريا	220000	
رومانيا	119000	
أستراليا	109000	
إسرائيل	96000	
بلجيكا	66000	
جنوب إفريقيا	41000	
تشيكيا	32000	
ليشتنشتاين	28000	
ناميبيا	25000	
الدنمارك	22000	(شمال شليزفيغ)
وغيرها		

وفي الجماعات الخارجية من السكان الذين يتكلمون الألمانية (راجع الشكل 12). تنتشر اللغة الألمانية كما هو معروف كلغة أولى، لكنها لا تولّد أي جاذبية كلغة ثانية تستحق الذكر (Born/Dickgiesser 1989).

البيانات المذكورة هنا عن حصص الذين يستعملون اللغة كلغة ثانية هي في الواقع بيانات دنيا. إذ هناك العديد من الناس من ذوي اللغات الأم المختلفة الذين يفهمون على سبيل المثال الإنجليزية أو الفرنسية إلى حد ما، ولكنهم لا يتحدثونها بصورة فعّالة. ينطبق هذا على العاملين في فرع السياحة في العديد من بلدان العالم، مثل جنوب أفريقيا، تايلاند، أو تاهيتي. وما دام هولاء الناس لا يتقنون لغة ما كلغة ثانية، لا يمكننا إدخالهم في البيانات الإحصائية المتعلقة بمستخدمي لغتين. وعلى قدر الإمكان يجري تقديم بيانات بديلة في بعض المصادر، إما مع إدغام أو إقصاء الذين يتحدثون لغتين من غير القادرين على التحكم بهما تماماً.

وانطلاقاً من التفريق بين كفاءة اتقان لغتين بالنسبة إلى مجموعة سكانية محلية، يمكن إجراء بعض التدريج في مراتب اللغات. على سبيل المثال هناك بيانات كافية حول انتشار ونوعية معارف الفرنسية كلغة ثانية في البلدان الإفريقية (راجع الشكل 13). وبالنسبة إلى البيانات الموجودة في الخارطة لم نراع أصحاب اللغتين من الذين لهم كفاءة لغوية جيدة.

الشكل 13: انتشار الفرنسية كلغة ثانية في أفريقيا (Rossillon 1995: 80)



يلاحظ انتشار اللغة الفرنسية بدرجات مختلفة في شمال أفريقيا وغربها والمناطق الوسطى التي تأثرت بالثقافة الفرنسية إبان العصر الكولونيالي الفرنسي البلجيكي في القرن الماضي.

الانتشار الدولي لمجموعات الناطقين باللغات العالمية وطبيعة المجتمعات المتعددة الإثنيات

تتميّز جميع اللغات العالمية بانتشار المجموعات التي تتحدثها في قارات العالم كافة. علماً أنّ الذين يتحدثون هذه اللغات كلغة أولى أو كلغة ثانية ليسوا موجودين في منطقة معينة أو في قارة معينة، بل في مختلف أصقاع العالم. وبالمقارنة فإنّ أكبر درجة من التركيز موجودة في الأسرة اللغوية اليابانية لأنّ القسم الأكبر من الذين يتحدثون اليابانية لغةً أولى أو ثانية يعيشون في اليابان. ولا توجد مجموعات خارجية يابانية تستحق الذكر سوى في هاواي وفي المنطقة القارية للولايات المتحدة الأمريكية. واليابانيون يعيشون عادة داخل مجموعات صغيرة في الكثير من بلدان العالم، وهؤلاء هم عبارة عن مجموعات حضرية نشأت نتيجة توسع علاقات اليابان التجارية مع العالم.

أما موطن الذين يتكلمون الروسية فموجود في القسم الشرقي من أوروبا وفي آسيا الوسطى وسيبيريا. وإذا ما أضفنا إليهم أولئك الروس الذين كانوا قد غادروا البلاد بعد الانقلاب الذي قام به الشيوعيون في روسيا عام 1917 وذريتهم من بعدهم، نرى وجود مجموعات خارجية تتحدث الروسية في أوروبا الغربية وأمريكا، وفي المقام الأول في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا.

وبالمقارنة فإنّ الجماعات التي تتحدث الألمانية الموجودة في

العديد من مناطق العالم أكثر من الجماعات التي تتحدث الروسية، نتيجة هجرة الألمان من أوروبا إلى آسيا (روسيا السيبيرية)، وأمريكا (الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، والأرجنتين وتشيلي)، وأفريقيا (ناميبيا، جنوب أفريقيا)، وأستراليا. أما الجماعة الخارجية الألمانية الموجودة في قازاخستان فلا تقوم على الهجرة الطوعية، إذ لم تتأسس المناطق السكنية الألمانية في هذه البلاد إلاّ بعد أن تمّ تهجير سكان الفولغا الألمان في نهاية صيف عام 1941 بالكامل إلى آسيا الوسطى.

وتنتشر الصينية كلغة أم على نطاق عالمي إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الجاليات الصينية العديدة الموجودة في دول كافة قارات العالم، إذ يندر وجود مدينة كبيرة في أوروبا أو أمريكا تخلو من الجاليات الصينية.

والمجموعات اللغوية التي تستخدم فيها اللغات العالمية كلغة أولى أو ثانية هي في العادة مجموعات متعددة الإثنيات. وفي تقاليد أيديولوجية اللغة القومية ينطلق المرء من أنّ المجموعة التي تُستعمل فيها اللغة نفسها هي في العادة مجموعة منسجمة إثنياً. لكن مثل هذه التصورات لا تصمد أمام الواقع من وجهة نظر التطور التاريخي للغة، وأحسن مثال على ذلك هو مجموعة الناطقين بالألمانية كلغة أصلية التي لم تكن في أي وقت من الأوقات مجموعة متجانسة إثنياً بتاتاً. في وسط وشرق أوروبا هناك عامل اللغة السلافية الموجود منذ العصور

الوسطى. ومن الأمثلة على دمج العامل السلافي في الحياة الألمانية كما يدلل التاريخ الحديث هو عملية اندماج العمال البولنديين المهاجرين مع بداية القرن العشرين إلى مناطق مناجم الفحم والمراكز الصناعية في منطقة الروهر الصناعية الألمانية وانخراطهم في الحياة الثقافية فيها. وبعد الجيل الثالث لا يوجد ما يذكّر بالمنشأ البولندي سوى الاسم العائلي.

ومن المظاهر التي صاحبت توسع الأوروبيين اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً في العالم، كان نزوح المستوطنين الأوروبيين إلى المناطق الواقعة عبر البحار ونقل المؤسسات الثقافية من أوروبا إلى المناطق الكولونيالية. وفي خضم احتكاك مجموعات المستوطنين الأوروبين وأفراد الإدارات الكولونيالية مع أبناء الشعب الأصليين بدأت تدريجياً تظهر عملية اندماج لغوي - ثقافي أثرت في نقل لغة المستوطنين إلى غير الأوروبيين، وبدأ هؤلاء يندمجون تدريجياً أو أخذوا يتعلمون لغة المستوطنين كلغة ثانية. وفي العديد من المناطق أسس الأوروبيون وغير الأوروبيين أُسراً وسعت ذريتها المختلطة عرقياً الهيكل الأنثروبولوجي لسكان العالم.

في اللغة الفرنسية يُسمّى أولئك المنحدرين من أبوين من أصل أوروبي وبولونيزي demis (حرفياً: «نصف»). وفي جنوب أفريقيا أقام المستوطنون البيض روابط اجتماعية مع المهاجرين من العمال الآسيويين كانت ذريتهم خلال مرحلة الآبارتهايد (سياسة التمييز

العنصري) محسوبة على مجموعة الملونين (coulored people)، على عكس السكان الأفارقة السود (blacks)، علماً بأنّ البعض يستخدم الإنجليزية والبعض الآخر يستعمل الأفريقانية لغة أم. وحتى بعد إلغاء الفصل العنصري ما زال مواطنو جنوب أفريقيا من ذوي الأصول الأوروبية – الأفريقية يشعرون بانتمائهم إلى معشر الملونين وليس إلى مجموعة البيض أو السود، وإن كان ذلك يحدث حالياً بناء على حق طوعي في انتقاء الهوية الذاتية.

لقد كانت الزيجات المختلطة إثنياً تحظى، كعامل من عوامل التخطيط الاجتماعي، بالأفضلية من قبل المنظرين العقائديين السوفييت (راجع الفصل الرابع) لأنّ العلاقات الاجتماعية الإثنية المتداخلة كانت تشكّل في الوقت نفسه نقطة تبلور للاندماج الثقافي – اللغوي للشعوب السوفييتية في «أمة سوفييتية اشتراكية» من نسج الخيال!. هناك الملايين من أبناء الزيجات المختلطة بين القوقاسيين والقازاخيين والكوريين والمنتمين إلى الشعوب السيبيرية والروس والذين يختلفون أنثروبولوجيا بوضوح عن الروس ذوي الملامح الأوروبية وإن كانوا يستخدمون الروسية كلغة أم.

بيد أنّ الزيجات المختلطة إثنياً لم تُعقد فقط بين الروس وغيرهم من الإثنيات غير الروسية، بل بين الأوروبيين من الانتماءات الإثنية المختلفة، كالزيجات بين الروس واللثوانيين، الروس والأوكرانيين، الروس والكاراليين. وعندما نلتقي اليوم شخصاً يتحدث الروسية كلغة

أم، فقد يكون هذا الشخص روسياً، أو غير روسي، مواطناً روسياً أو مواطن إحدى الدول العديدة المحيطة بروسيا.

لم تكن عمليات الاندماج البيعرقية (بين الأعراق) التي أصبحت مؤثرة خلال المرحلة الكولونيالية في جميع أنحاء العالم عاملاً ثانوياً. على العكس، فلقد نشأت في بعض المناطق المعينة من العالم خلال هذا الاندماج مجموعات سكانية جديدة ذات طبيعة ومميزات أنثروبولوجية خاصة بها تشكّل حالياً غالبية السكان في الكثير من دول العالم. حيث تعتبر الهجينية التي نشأت من اندماج الأوروبيين مع هنود أمريكا العامل الديموغرافي السائد في أمريكا اللاتينية، إذ يفوق عدد هؤلاء من الذين يتحدثون الإسبانية والبرتغالية متحدثي هاتين اللغتين من الأوروبيين. إنّ شخصاً لغته الأم البرتغالية قد يكون أفريقيا أسود من أنغولا، أو غينيا - بيساو أو موزامبيق.

وكلما ازداد انتشار لغة عالمية ما ازداد التنوع الإثني للمتحدثين بها، وأكثر درجات هذا التنوع يوجد في الإنجليزية بطبيعة الحال. ولا توجد أي لغة عالمية أخرى - ولا حتى الفرنسية - يجري التحدث بها من قبل هذا الكم الهائل من المجموعات الإثنية المختلفة كالإنجليزية التي تنتشر كلغة أولى أو ثانية في صفوف مختلف الشعوب والإثنيات في جميع قارات العالم (راجع الشكل 14). وفي بعض الدول تهيمن الإنجليزية كلغة أولى، وفي البعض الآخر كلغة ثانية.

ومما يميّز غالبية اللغات العالمية الأوروبية المنشأ، هو أنّ القسم

الشكل 14: انتشار الإنجليزية كلغة أولى وثانية في بلدان العالم

(حسب Crystal 1997: 57. ff)

الدولة	السكان (1995) (بالملايين)	الناطقون بالإنجليزية كلغة أصلية (بالملايين)
الولايات المتحدة	263.1	%86,2
بريطانيا	58.7	%97,4
كندا	29.463	%66,8
أستراليا	18.025	%84,9
جنوب أفريقيا	41.465	%8,6
إيرلندا	3.590	%94,6
نيوزيلندا	3.568	%95,1
جامايكا	2.52	%95,2
ترينيداد وتوباغو	1.265	%94,8
غويانا	0.77	%90,9
سيرا ليونا	4.509	%9,9
ماليزيا	19.948	%1,8
الهند	935.744	%0,03
سنغافورة	2.989	%10,0
سورينام	0.43	%60,0
بريادوس	0.265	%100,0
زمبابوي	11.261	%2,2
البهاماس	0.276	%90,5

(علاوة على ذلك يوجد الذين يتحدثون الإنجليزية لغة ثانية في الدول التالية: بيليز 135000، هونغ كونغ 125000، پاپوا – غينيا الجديدة 120000، بورتوريكو 110000، سانت فينسنت وغرينادين 111000، غرنادا 91000، جزر فيرجن التابعة للولايات المتحدة 79000، آنتيغوا وباربودا 61000، ليبيريا 60000، برمودا 60000، غوام 56000، زامبيا 50000، سانت كيتس ونيفيس 39000، سانت لوتشيا 29000، جزر كايمان 29000، جبل طارق 25000، جزر فيرجن البريطانية 17000، الفيلبين 15000، ناميبيا 13000، مونتسرات 11000، بروناي 10000، سريلانكا 10000، مالطا 8000، فيجي 5000، ميكرونيزيا 4000، ماريانن الشمالية 3000، دومينيكا 3000، ساموا الأمريكية 2000، سالومون 2000، فانواتو 2000، موريشيوس 2000، سيشيل 2000، جزر كوك 1000، ساموا الغربية 1000، ناورو 800، پالاو 500)

الشكل (14b) انتشار الإنجليزية كلغة ثانية

الدولة	عدد المتحدثين كلغة أولى	عدد المتحدثين كلغة ثانية	النسبة أولى/ثانية
نيجيريا	95,434	43,0	%45,0
الهند	935,744	37,0	%3,9
الفيلبين	70,011	36,4	%51,9
الولايات المتحدة	263,057	30,0	%11,4
باكستان	140,497	16,0	%11,4
جنوب أفريقيا	41,465	10,0	%24,1
الكاميرون	13,233	6,6	%49,8
كندا	29,463	6,0	%20,3
ماليزيا	19,948	5,984	%29,9
نيبال	20,093	5,927	%29,4
سيراليون	4,509	3,83	%84,9
زمبابوي	11,261	3,3	%29,3
بنغلاديش	120,093	3,1	%2,5
تنزانيا	28,072	3,0	%10,6
بابوا - غينيا الجديدة	4,302	2,8	%65,1
كينيا	28,626	2,576	%8,9
أستراليا	18,025	2,084	%11,5
ليبيريا	2,380	2,0	%84,0
أوغندا	18,659	2,0	%10,7
هونغ كونغ	6,205	1,86	%29,9
سريلانكا	18,09	1,85	%10,2
بورتوريكو	3,725	1,746	%46,8
غانا	16,472	1,153	%6,9
بريطانيا	58,7	1,1	%1,8
سنغافورا	2,989	1,046	%34,9
زامبيا	9,456	1,0	%10,5

(علاوة على ذلك يوجد الذين يتحدثون الإنجليزية لغة ثانية في الدول التالية أيضاً: بوتسوانا 620000، ملاوي 517000، لسوتو 488000، ناميبيا 300000، إيرلندا 190000، موريشيوس 167000، فيجي 160000، فانواتو 160000، سورينام 150000، نيوزيلندا 150000، سالومون 135000، بروناي 104000، غوام 92000، ساموا الغربية 86000، مالطا 86000، بوتان 60000، ساموا التابعة للولايات المتحدة 56000، ماريانن الشمالية 50000، جامايكا 50000، سواسيلاند 40000، غامبيا 33000، تونغا 30000، بيليز 30000، غويانا 30000، جزر مرشال 28000، البهاماس 25000، رواندا 24000، سانت لوتشيا 22000، كيريباتي 20000، بالاو 163000، ميكرونيزيا 15000، دومينيكا 120000، سيشيل 11000، جزر فيرجن التابعة للولايات المتحدة 10000، ناورو 9400، آنتيغوا وباربودا 2000، جزر كوك 2000، جبل طارق 2000، توفالو 6000.

الشكل (14c) نسب عدد متحدثي الإنجليزية كلغة أولى أو ثانية في دول العالم

الدولة	عدد المتحدثين كلغة أولى	عدد المتحدثين كلغة ثانية	النسبة أولى/ثانية
أ) هيمنة أولى	(بالملايين)	(بالملايين)	
بريطانيا			1:15,8
جامايكا	56,99	1,1	1:48
نيوزيلندا	2,4	0,05	1:22,6
إيرلندا	3,396	0,15	1:17.8
الولايات المتحدة	3,4	0,19	1:8,7
أستراليا	263,057	30,0	1:7,3
كندا	15,136	2,084	1:3,2
	19,7	6,0	
ب) هيمنة ثانية			
سريلانكا			185:1
الهند	0,01	1,85	115,6:1
بابوا - غينيا الجديدة	0,32	37,0	23,3:1
بورتوريكو	0,12	2,8	15,8:1
هونغ كونغ	0,11	1,746	14,8:1
سنغافورا	0,125	1,86	3,4:1
جنوب أفريقيا	0,3	1,046	2,7:1

الأكبر من متحدثيها يعيشون خارج أوروبا. ينطبق هذا على الإنجليزية مثل انطباقه على الفرنسية والإسبانية والبرتغالية، باستثناء الألمانية والروسية التي يعيش معظم الناطقين بهما في أوروبا.

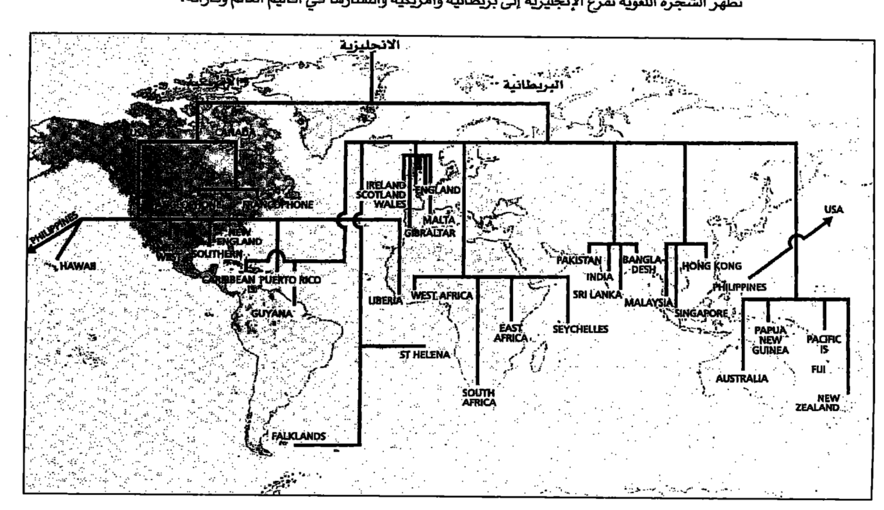
ونتيجة للاختلافات الإثنية - الثقافية التي تتميّز بها الجماعات التي تتحدث الإنجليزية محلياً، ظهرت ضروب متعددة من اللغة

الإنجليزية (راجع الشكل 15). وإضافة الى الفرق المعروف بين الإنجليزية الأوروبية (البريطانية) والإنجليزية الأمريكية، يوجد في العالم العديد من الأشكال المحلية لهذه اللغة التي يُطلق عليها تسمية «الأسلوب الإثني» مثل الإنجليزية في الهند (الهنديش Hindish)، أو في أستراليا، أو نيجيريا، ولغة الابونيكس Ebonics للسود من مواطني الولايات المتحدة الأمريكية، والإسبانجليزية Spanglisch لجماعة اللاتينوس Latinos في الولايات المتحدة الأمريكية (Kachru 1982). وفي الحالات القصوى فإنّ درجة التفاهم بين متحدثي اللهجات العرقية المختلفة (مثل التواصل بين شخص من قوم الأبورجينيس من المندمجين في المجتمع الأسترالي وبين هندي يتكلم الهندية كاللغة الأم أو الإنجليزية لغةً ثانية) تكاد تكون معدومة.

وعند النظر إلى جميع اللغات العالمية نرى أنّ البرتغالية تسجل أكبر نسب من الاختلالات في أعداد متحدثيها في أوروبا أو خارج أوروبا. وبالمقارنة مع العدد الإجمالي لجميع الناطقين بالبرتغالية في العالم لا يشَكّل عدد المتحدثين بالبرتغالية في البرتغال نفسها (المتحدثون بها لغة أولى وثانية) سوى 5,4% فقط. وتأتي الإنجليزية بنسبة 10,7% بالنسبة لمتحدثي الإنجليزية (المتحدثون بها كلغة أولى وثانية) في بريطانيا كوطن أصلي للغة، في المرتبة الثانية، والإسبانية بنسبة 11,2% في المرتبة الثالثة. ويتوزع القسم الأكبر من الناطقين بالإسبانية على سكان الدول التي تستخدم الإسبانية لغة

الشكل 15: ضروب اللغة الإنجليزية وانتشارها الجغرافي في مناطق العالم (Crystal 1997: 62)

تظهر الشجرة اللغوية تفرع الإنجليزية إلى بريطانية وأمريكية وانتشارها في أقاليم العالم وقاراته.



الشكل 16: انتشار المتحدثين بالإسبانية (متحدثون بها لغة أولى أو لغة ثانية)

في العالم (Moreno Fernàndesz/Otero 1998: 73, 78)

أ) الإسبانية في الدول التي تستخدم الإسبانية لغة رسمية

الدولة	عدد المتحدثين	السكان	النسبة
الأرجنتين	34895000	34995000	%99,7
بوليفيا	6660000	7593000	%87,7
تشيلي	12940000	14375000	%90,0
كولومبيا	35300000	35652000	%99,0
كوستاريكا	3315000	3400000	%97,5
كوبا	11117000	11117000	%100,0
إكوادور	10880000	11698000	%93,0
السلفادور	5897000	5897000	%100,0
إسبانيا	38930000	3927000	%99,1
غواتيمالا	7070000	10928000	%64,7
غينيا الإستوائية	406000	406000	%100,0
هونduras	5564000	5666000	%98,2
المكسيك	91270000	92711000	%98,4
نيكاراغوا	4112000	4272000	%96,3
بنما	2069000	2674000	%77,4
بارغواي	2736000	4964000	%55,1
البيرو	19110000	23947000	%79,8
بورتريكو	3699000	3766000	%98,2
جمهورية الدومينيكان	7350000	7502000	%98,0
أوروغواي	21610000	22311000	%98,4
فنزويلا	21610000	22311000	%96,9
العدد الإجمالي (الناطقون بالإسبانية)	327956000	436284000	%94,7

الشكل 16b: الإسبانية في البلدان ذات المهاجرين الناطقين بالإسبانية

الدولة	عدد المتحدثين
ألمانيا	140000
أندورا	33000
الأنتيل الهولندي (بونير إي كوراساو)	189602
آروبا	4946
استراليا	101000
بلجيكا	5000
بليز(١)	69000
البرازيل	43901
كندا	177425
الولايات المتحدة الأمريكية	19970000
فرنسا	220000
الفيلبين	1816389
جبل طارق	10061
غويانا(٢)	793
إسرائيل	50000
لكسمبورغ	3000
موريشيوس	200000
تركيا	23175
سويقا(٣)	55000
جزر فرجين	11983
سويسرا	123708

(1) Belice = Belize: هندوراس البريطانية سابقاً – المراجع.

(2) Guyana: من دول الكومونولث البريطاني – المراجع.

(3) Sueca: Sueeca سويقا مدينة على الساحل الإسباني على المتوسط – المراجع.

رسمية، أي دول أمريكا اللاتينية (راجع الشكل 16a). إضافة إلى ذلك هناك الملايين من متحدثي الإسبانية في البلدان التي تؤوي المهاجرين الإسبان. في الولايات المتحدة الأمريكية لوحدها يوجد نحو 20 مليون من اللاتينوس Latinos الذين يتحدثون الإسبانية (راجع الشكل 16b).

الآفاق الجيوبوليتية: اللغات العالمية لغات للدولة أو رسمية

تتميّز اللغات العالمية من الناحية الجيوبوليتية بأنها تؤدي وظائف رسمية في العديد من الدول، باستثناء اليابانية التي لا تؤدي وظيفتها للدولة إلا داخل الوطن الأم اليابان. ومما يميّز مكانة اللغة العالمية من الناحية الجيوبوليتية أيضاً هو انتشارها على مستوى جميع قارات العالم. كما تتميّز اللغة العالمية أيضاً بأنها لغة رسمية في دول ومناطق مختلفة من العالم، مع استثناء واحد يتعلق باللغتين الألمانية والصينية. فعلى الرغم من أن اللغتين تؤديان في العديد من البلدان وظائف اللغة الرسمية، إلاّ أنّ ذلك ينحصر في قارة واحدة، بالنسبة إلى ألمانيا في أوروبا، وبالنسبة إلى الصينية في آسيا.

لغاية عام 1991 كانت اللغة الروسية أيضاً تنتمي إلى هذه الحالة الاستثنائية، وإن كان ذلك لأسباب رسمية فقط (Haarmann 1992b). حتى ذلك الحين كانت الروسية لغة رسمية في دولة واحدة هي الاتحاد السوفييتي. وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي حافظت اللغة الروسية على وضعها السابق داخل الاتحاد الروسي فقط، أما في الدول المستقلة

حديثاً، «المستعمرات الداخلية سابقاً» للإمبراطورية السوفييتية، ففقدت اللغة الروسية من الناحية الإسمية جميع الوظائف التي كانت تقوم بها. لكن المكانة الرسمية للغة الروسية أُعيدت عام 1995 إلى ما كانت عليه في السابق في بلاروسيا وأصبحت الروسية لغة رسمية اختيارية إلى جانب اللغة الأصلية في بلاروسيا. وما زالت الروسية تؤدي وظائف رسمية في قازاخستان على الرغم من عدم الاعتراف بها رسمياً، حيث ما تزال الروسية منتشرة في صفوف النخبة القازاخية كاللغة الوطنية، مما سيجعل اللغة الكولونيالية السابقة ضرورية لإدارة شؤون البلاد في المستقبل أيضاً.

وما تزال صورة الملامح الجيوبوليتية للمكانة الرسمية للغات العالمية الكبيرة يعكس حتى يومنا هذا الوقائع التاريخية لمكانة اللغات

الشكل 17: اللغات العالمية المستعملة كلغة رسمية

لغات ذات وضع رسمي	عدد الدول المنفردة	التوزع على القارات
الإنجليزية		5
الفرنسية	59	4
العربية	28	2
الإسبانية	24	3
البرتغالية	21	4
الألمانية	7	1
الصينية	5	1
الروسية	3	2
اليابانية	2	1

الكولونيالية. وما زالت اللغة أيضاً تنتمي إلى الإرث الكولونيالي في غالبية المناطق والأقاليم التي شيّدت فيها القوى الكولونيالية الأوروبية بنيتها الثقافية التحتية. مع هذا فإنّ الصورة الإجمالية تنحرف قليلاً عند النظر إلى بعض التحولات الإقليمية التي حدثت مع مرور الزمن. إذ لم يعد الإشعاع السابق الذي كانت الفرنسية تمارسه كونها لغة كولونيالية سابقة ظاهراً في الهند الصينية في الوضع اللغوي للدول الحديثة مثل فيتنام، وكمبوديا ولاوس كما تدلل على ذلك لغاتها القومية. ومن ناحية أخرى هناك أماكن لم تتمكن اللغات العالمية من ترسيخ أقدامها فيها خلال الفترة التي تلت عصر الكولونيالية. ومن الأمثلة على ذلك ناميبيا حيث أصبح المتحدثون بالإنجليزية كاللغة الأم يشكلون أقلية لا تستحق الذكر بعد تزايد الاهتمام باللغة الألمانية وعدد الناطقين بها (كانت ناميبيا في 85/1884 محميّة ألمانية - المترجم).

وبالإشارة إلى المكانة الرسمية للغة يتشكّل الوضع الدولي للغة ما من العلاقة بين عاملين: عدد الدول المنفردة التي تعمل بها ومدى انتشارها في قارات العالم (راجع الشكل 17). فكلما ازداد عدد الدول المنفردة التي تعتمد فيها إحدى اللغات العالمية لغة رسمية، وكلما ازداد انتشارها في قارات العالم (interkontinentale Dispersion) ازدادت أهميتها دولياً. وفي هذا المجال أيضاً تحتل الإنجليزية المرتبة الأولى، فهي اللغة الوحيدة بين جميع اللغات العالمية التي تُستخدم لغةً رسمية في قارات العالم كافة، حيث يبلغ عدد الدول التي تستخدم الإنجليزية

لغة رسمية 59 دولة، أي أكثر من ضعف عدد الدول التي تستعمل اللغة العالمية الثانية وهي الفرنسية 28.

وتوضّح اللغة البرتغالية بما تملكه من مكانة جيوبوليتية خاصة كيف أنّ معيار الانتشار في قارات العالم لم تُعد، كما يبدو، مقرراً لأهمية اللغة العالمية. لقد كان الاندفاع التاريخي الذي حققه التوسع الكولونيالي البرتغالي في العالم مسؤولاً عن الانتشار الكبير للبرتغالية في أربع قارات في العالم. ونظراً لأنّ البرتغالية لا تتمتع بمكانة اللغة الرسمية إلاّ في سبع دول من دول العالم هي البرتغال، والبرازيل، والرأس الأخضر، وأنغولا، وغينيا - بيساو، وساوتوميه وبرنسيبه، وموزامبيق، يبقى الوزن الجيوبوليتي العام لهذه اللغة العالمية على الرغم من انتشارها دولياً، محدوداً بالمقارنة مع الشبكة الكثيفة للدول التي تستخدم الإنجليزية والفرنسية والإسبانية لغاتٍ رسمية.

اللغات العالمية في الاقتصاد والتسويق

لا تعد اللغة كما هو معروف وسيلة لمعالجة المعلومات ونقلها فقط. ثم إنها ليست رمزاً وحسب يتبلور فيه بحث الأفراد ومجموعات الناطقين بهذه اللغة عن هويتهم الثقافية. اللغة عامل اقتصادي أيضاً (Coulas 1992). وتتميّز الطاقة الاجتماعية الاقتصادية الكامنة في اللغات العالمية عن اللغات الأخرى (اللغات غير العالمية) من ناحية النوعية والحجم أيضاً، أي ناحية الكمية. لذا فإنّ البعدين المذكورين مهمان جداً في مجال البحث عن تفسير لسيطرة الإنجليزية كأهم

وسيلة اتصالات دولية في فرع الإلكترونيات، أو في نقل المعلومات وكذلك في فروع الإدارة والتسويق. يُسّر هذا الوضع في حقيقة تركيز عمليات تطوير وإنتاج السلع الإلكترونية في البلدان الناطقة بالإنجليزية كما تشير إلى ذلك حصص هذه البلدان في أسواق العالم.

ويتعلق البعد النوعي لمكانة اللغة العالمية الاجتماعية الاقتصادية بحالة التطور الاقتصادي للدول التي يجري فيها استخدام اللغة العالمية. وكما هو معروف فإنّ الدول الصناعية الرئيسية في العالم مثل الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وكندا، وأستراليا تنتمي إلى مجموعة الدول التي تستخدم الإنجليزية لغة رسمية. ثم هناك طاقات جبّارة من البراعات التقنية - التكنولوجية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمستوى الرفيع للتطور في الأمم الصناعية الإنجليزية اللسان، علماً بأنّ محصّل هذه البراعات الفنية مشفّر بلغة عالمية. وللقوة الاقتصادية علاقة بالقوة المالية. لذا فإنّ الإنجليزية مرتبطة بمتانة بالغة بجريان وتوزيع المصادر المالية في العالم.

بناء على جميع وجهات النظر النوعية المذكورة آنفاً، تسود الإنجليزية على نطاق عالمي، في حين تحتل اللغات العالمية الأخرى، وبفارق كبير، مراتب تالية للغة الإنجليزية. إنّ القوة الاقتصادية للبلدان المصدّرة عامل مهم بالنسبة للمكانة الدولية للغة مثل الألمانية أو اليابانية، إلاّ أنهما لا تملكان باستثناء ذلك أي إشعاعات كلغتين تجاريتين.

هناك أيضاً البعد النوعي للمكانة الاجتماعية الاقتصادية للغة العالمية، حيث يتعلق الأمر هنا بالحجم الاقتصادي والمالي وكذلك بنسب حجم السلع المتداولة دولياً. فعندما نجمع مجمل الإنتاج الصناعي والزراعي لجميع الدول التي تملك فيها لغة عالمية مكانة اللغة الرسمية، حينئذ نصل إلى حجم يتجاوز 90%من الإنتاج العالمي. ومن بين هذه الدول توجد الدول التي لها أرفع حصص من الناتج القومي الإجمالي للفرد الواحد في العالم، سويسرا: 37180 دولاراً، اليابان: 34630 دولاراً، الولايات المتحدة الأمريكية: 25860 دولاراً، ألمانيا: 25580 دولاراً، النمسا: 24950 دولاراً، فرنسا: 23470 دولاراً، سنغافورة: 23360 دولاراً.

وعند مراعاة الطاقة الاقتصادية للدول ذات اللغات العالمية. يتبيّن بشكل مميّز المدى الكبير الذي تختلف فيه اللغات العالمية بعضها عن بعض. فالإنجليزية والفرنسية مثلاً ممثلتان في دول ذات ناتج قومي إجمالي مرتفع إلى جانب انتشارهما في البلدان النامية. أما النسبة الكبرى من مستخدمي الألمانية كلغة أولى وثانية فتتركز فقط في الدول ذات الناتج القومي الإجمالي المرتفع. ومن ناحية أخرى فإنّ معظم متكلمي الإسبانية يعيشون في دول ذات مستوى الدول النامية. وتمثل البرتغالية الحالة المتطرفة للغة عالمية، حيث لا يوجد من يتحدثها إلا في الدول ذات الناتج القومي الإجمالي المتدني جداً (البرازيل: 2930 دولاراً، أنغولا: 950 دولاراً، ساوتوميه وبرنسبا: 350 دولاراً، غينيا - بيساو: 240 دولاراً، موزامبيق: 90 دولاراً). ولا يوجد إلا

البلد الأم للغة البرتغالية، أي البرتغال، الذي يبلغ فيه الناتج القومي الإجمالي للفرد الواحد 9130 دولاراً،مما يعني أنه يمثل مستوى متوسط في المقياس العالمي.

ثم إنّ سيطرة الإنجليزية غير متنازع عليها في عمليات التسويق العالمية أيضاً، لعدم التمكن من الاستغناء عن هذه اللغة في هذا المجال من الحياة الاقتصادية، ما يؤدي في المحصلة إلى حيّز ضيق تشغله اللغات العالمية الأخرى في هذا الحقل بالذات. وعندما تقيم شركة ما اتصالات وعلاقات تجارية عالمية - في الإنجليزية يستخدم المرء في هذه الحالة عبارة a company goes global فإنّ هذا لا يعني دوماً وفي كل مكان تحوّلاً جبرياً نحو الإنجليزية (Thomas 1996). في البلدان الفرانكوفونية مثلاً حافظت الفرنسية حتى في عصر الاتصالات العالمية على وضعها كشريك تجاري. وينطبق الشيء نفسه على الروابط التجارية القائمة بين بلدان أمريكا اللاتينية المعتمدة في المقام الأول على اللغة الإسبانية التي تعد هنا اللغة التجارية المفضلة.

وبنفس الدرجة تجد الألمانية مكانتها في شبكة العلاقات التجارية الدولية (Ammon 1991: 150ff)، وإن كانت أهميتها بعد انعطافة عام 1989 (عام سقوط جدار برلين: المترجم) قد ازدادت بوصفها لغة للتجارة زيادة ملحوظة جداً في العلاقات مع الدول المحيطة بها مثل بولندا، وتشكيا، وهنغاريا وسلوفينيا. وتملك الروسية أهمية عملية في نطاق العلاقات الاقتصادية القائمة بين شركات في روسيا وبين تلك الموجودة في الدول المحيطة المستقلة منذ عهد قريب. وفي عالم

التسويق الإقليمي ينطبق المبدأ التالي: كلما ازدادت قوة اقتصاد السوق الحرة في الدول المحيطة بروسيا، كلما ازداد ابتعادها عن الروسية كلغة للاتصالات التجارية وبدأت بالتحوّل إلى اللغة الإنجليزية، وهذا ما يميّز أيضاً العلاقات التجارية بين جمهوريات بحر البلطيق وروسيا. أما في الحالات التي ما زال الاقتصاد الإقليمي يعتمد فيها على روسيا فإنّ الروسية تبقى دون منازع لغة للارتباطات كما هو الحال مثلاً في عالم دول آسيا الوسطى مثل قازاخستان.

وبصورة عامة يمكن القول إنّ سمعة لغة الشريك الأقوى اقتصادياً (أو بالأحرى الشريك الذي يتوقع الطرف الآخر الحصول منه على منافع) في العلاقات التجارية الثنائية تشهد عادة تحسناً ملحوظاً. ليس من البديهي مثلاً استخدام اللغة الإنجليزية وسيلة تفاهم مشتركة في العلاقات القائمة بين شركة ألمانية وشركة فنلندية، لأن الشركة الفنلندية تحاول في هذا المجال قدر الإمكان مراعاة لغة شريكها التجاري، أي استخدام اللغة الألمانية. وينطبق هذا أيضاً على العلاقات القائمة بين الشركات الروسية والفنلندية، حيث يقوم العديد من الشركات الفنلندية المتعاملة تجارياً مع الشرق بتعيين موظفين يحسنون اللغة الروسية. لقد عادت المرونة الاتصالاتية التي تقيم الشركات الفنلندية بموجبها العلاقات التجارية الدولية، عادت عليها بالنفع الكبير، خاصة لأنّ الشركاء التجاريين يقدرون البراعات الفنية التنظيمية للشركات الفنلندية على صعيد الاتصالات أيضاً.

وتعتبر مرونة التواصل والتنازلات المقدمة في اختيار اللغة من الخصائص التي تميّز استراتيجيات التسويق التي يعتمدها الكثير من الشركات الأجنبية في تعاملها مع الشركاء التجاريين اليابانيين. فلقد ازداد بوضوح بادٍ للعيان منذ الثمانينيات نشر معارف اللغة اليابانية عَبْر العلاقات الاقتصادية في بلدان كوريا الجنوبية، وتايوان، والصين القارية، والفيلبين وجنوب شرق آسيا (على سبيل المثال ماليزيا وتايلاند). تمارس الحكومة اليابانية سياسة مفتوحة لنشر اللغة اليابانية، والمتمثلة في توجيه معونات التنمية صوب تلك البلدان التي يتم فيها تعلّم اليابانية كثيراً وحيث تُرعى الثقافة اليابانية.

ومن هذه البلدان نذكر الفيلبين والصين وأندونيسيا وتايلاند. وتحتل اليابان بالسياسة التي تمارسها حيال اللغة اليابانية مكانة مميّزة، إذ لا توجد باستثناء اليابان أي دولة أخرى في العالم تربط بصورة مباشرة تقديم معونات التنمية بالسياسة الثقافية للبلد المستلم، ينال المثل الياباني في القياس العالمي وزناً كبيراً إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أنّ اليابان كانت تحتل في التسعينيات المرتبة الأولى في حقل تقديم معونات التنمية، أي أنها كانت كبلد منفرد تقدم خمس الحجم الإجمالي لمعونات التنمية المدفوعة على نطاق عالمي (Söderberg 1996).

مكانة اللغات العالمية في المنظمات الدولية

تؤدي اللغات العالمية مهمة الاتصال في المنظمات الدولية. وعلى الرغم من أنّ جميع اللغات العالمية لا تملك مثل هذه المكانة -

اليابانية على سبيل المثال ليست لغة رسمية أو لغة عمل في أي منظمة دولية – فإنّ جميع المنظمات فوق الإقليمية في العالم تستخدم إحدى هذه اللغات العالمية أو مجموعة منها. وتتوزع المكانة الرسمية للغة ما في منظمة دولية على مهمتين رئيسيتين، أي في المراسلات التحريرية أو استخدامها كلغة عمل شفاهية. ثم إنّ جميع اللغات العالمية التي تُستخدم حالياً كلغات رسمية في المنظمات الدولية (أو سبق استخدامها) تُستعمل أيضاً كوسائل لصياغة الاتفاقات الدولية (Ostrower 1965). ومن اللغات التي لعبت في الماضي دور لغة للدبلوماسية نذكر العربية والألمانية. وقبل عشرات السنين تمكنت الإنجليزية من إزاحة منافستها اللغة الفرنسية عن الطريق وتغلبت عليها في شغل مكانة لغة الدبلوماسية الحديثة.

وتملك الإنجليزية أكبر طاقات التواصل على الإطلاق في ما يتعلق بالمهام الرسمية داخل المنظمات الدولية. يتعلق هذا من ناحية بعدد المنظمات التي تتمتع بها الإنجليزية بمكانة اللغة الرسمية، ومن ناحية أخرى بكثرة خصالها التي تميّزها عن بقية اللغات. إذ لا توجد أي لغة عالمية أخرى كالإنجليزية التي تعمل بمثل هذه الطريقة المميزة، أي دون الحاجة إلى لغات عالمية أخرى. علماً بأن هناك منظمات قليلة جداً تستطيع العمل دون الحاجة إلى الإنجليزية مثل حلف آندن Andenpakt (الإسبانية لغة رسمية) القائم منذ عام 1969، والسوق المشتركة في جنوب أمريكا اللاتينية القائمة منذ عام 1991 المدعوة مركوسور Mercosur (اللغتان الرسميتان: الإسبانية والبرتغالية).

وغالبية اللغات العالمية ممثلة في بانوراما اللغات الرسمية ولغات العمل المعتمدة لدى منظمة الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها: العربية، الصينية، الإنجليزية، الفرنسية، الروسية، الإسبانية.

وتتمتع الألمانية في منظمة الأمم المتحدة بوضع خاص، فعلى الرغم من عدم كونها لغة رسمية أو لغة عمل، إلاّ أنّ جميع وثائق المنظمة الدولية تتم ترجمتها بانتظام إلى اللغة الألمانية، حيث تتحمل الخزانة الاتحادية الألمانية جميع تكاليف خدمات الترجمة المذكورة. وفي المجلس الأوروبي تستخدم الألمانية كلغة عمل، وهو دور تتقاسمه مع اللغة الإيطالية التي هي لغة أوروبية مميّزة (Ammon 1997: 22f). وبغض النظر عن المكانة الرسمية للغة الألمانية في الاتحاد الأوروبي، لا تملك هذه اللغة في أي منظمة عالمية مكانة معادلة لمكانة اللغات العالمية الأخرى.

وفي داخل هيئات الاتحاد الأوروبي تقوم الألمانية بدور معيّن كلغة عمل شفاهية وتسجل حضوراً متواضعاً جداً مقارنة بحيويّة اللغتين الكبيرتين الفرنسية والإنجليزية. علاوة على ذلك يجري استخدام اللغة الألمانية في مراسلات محكمة العدل الأوروبية في لكسمبورغ، علماً أنّ لغة العمل الرسمية للمحكمة هي الفرنسية. لكن الأحكام الصادرة عنها تُترجم إلى جميع اللغات الرسمية في الاتحاد الأوروبي.

لقد شهد التوزع الوظيفي للغات العالمية في المنظمات الدولية خلال الأعوام الماضية تحولاً دراميا. فخلال مرحلة «الحرب الباردة»

التي باتت أحفورة سياسية منذ عام الثورات التي اندلعت في أوروبا الشرقية (1989)، كان المعسكران الأيديولوجيان المدججان بالسلاح يقفان وجهاً لوجه، حيث تمت المحافظة على التوازن العسكري بينهما بواسطة الردع النووي. وكانت البراعات الفنية التكنولوجية للتسلّح الاستراتيجي الرفيع متركزة داخل أهم منظمتين عسكريتين في العالم هما الناتو Nato وحلف وارسو Warschauer Pakt. لقد شهد تقسيم العالم إلى معسكرين متخاصمين أيديولوجياً انعكاساته اللغوية في استقطاب الإنجليزية (وسيلة الاتصال الوحيدة داخل منظمة حلف شمال الأطلسي/ الناتو) مقابل الروسية (وسيلة الاتصال الوحيدة في حلف وارسو).

لقد أفقد حلّ حلف وارسو في عام 1989 اللغة الروسية وظيفة مفتاحية على الصعيد الدولي. وأدى قيام الناتو بإطلاق تعريف جديد للمهام التي يريد الإضطلاع بها في المستقبل، وتحويل الحلف العسكري المخصص سابقاً للدفاع عن العالم الغربي إلى منظمة لتأمين السلام العالمي، أدى إلى توسيع الوظائف السابقة التي كانت تؤديها الإنجليزية كلغة الناتو الوحيدة.

لقد تم بنجاح اختبار المهمة الجديدة لتأمين السلام العالمي خلال حرب الخليج الثانية (1991) حيث استُخدمت الإنجليزية آنئذ من قبل جميع جيوش الائتلاف لمحاربة العراق كلغة اتصال مع القيادة العامة بغض النظر عن عدد لغات القيادات المستخدمة داخل صفوف القوات

الوطنية المشتركة في التحالف الدولي. وإلى جانب الإنجليزية تم استخدام الفرنسية، والإيطالية، والعربية، والباشتو. كما أسفر ضم أعضاء جُدد إلى الناتو في صيف عام 1997 مثل بولندا، وتشيكيا وهنغاريا عن تصدير الإنجليزية لغةً عسكرية إلى مناطق «المعسكر المعادي» سابقاً. وحتى خلال العمليات العسكرية الأخيرة للناتو (مارس/ آذار - مايو/ أيار 1999) الموجهة إلى إجبار حكومة بلغراد على الاعتراف بالحكم الذاتي للألبان واحترام حقوقهم الثقافية في منطقة كوسوفو، برهنت الإنجليزية مجدداً، على صلاحها التام كلغة قيادة موحدة للقوات الجوية والبحرية للبلدان ذات اللغات المختلفة.

تعليم اللغات العالمية في دروس اللغات الأجنبية

تُطور كل لغة عالمية ديناميه ذاتية معيّنة تجعل منها لغة أجنبية جذابة. إنّ الاستعمال العملي التواصلي للغة ما من أجل استخدامها في التفاعل العالمي، لا يُعدُّ بالضرورة المحفّز لاختيار لغة عالمية لغة أجنبية في النظم التعليمية لدولة من الدول، وإن كان الموقف البراغماطي (الذرائعي أو الوصولي) من مكانة اللغة العالمية يشجع تحديث برامج التعليم. وتعد تقاليد تعليم اللغات مشابهة في أهميتها لأهمية تدريس اللغات الأجنيبة من قبل الدولة (Schröder 1992, Finkenstaedt/Schröder 1992, Ammon 1997: 31f).

وإذا ما تعلّق الأمر فقط بالأفضليات البراغماطية الممنوحة للغات العالمية، حينئذ لا يحتاج التلاميذ في بريطانيا وإيرلندا إلى تعلم أي

لغة عالمية لأنهم يتحدثون أهم جميع اللغات العالمية ألا وهي الإنجليزية. علاوة على أنّ اعتماد هذا المبدأ في أوروبا القارية سيجعل الإنجليزية أولى اللغات الأجنبية لا بل والوحيدة. وفي الواقع فإنّ مثل هذه التصورات التي تبدو براغماطية ما يتعلق بقيمة اعتماد لغة عالمية في حصص تدريس اللغات الأجنبية قد أدت إلى تناقص حاد في تعلّم اللغات الأجنبية في الكثير من ولايات جمهورية ألمانيا الاتحادية. ومن ناحية أخرى هناك العديد من اللغات الأجنبية إلى جانب الإنجليزية التي تُدرّس في الكثير من المدارس الألمانية، على الأغلب كلغة اختيارية. لقد توسعت بانوراما اللغات المعروضة تقليدياً لتشمل إلى جانب الفرنسية واللاتينية والإنجليزية منذ عام 1980 لغة عالمية أخرى هي اليابانية.

وفي الدول الصغيرة، أي في البلدان التي لا تنتشر فيها أي لغة عالمية، توجد ضرورة كبيرة لاستخدام تدريس اللغات الأجنبية من أجل الاشتراك في تدفق المعلومات الدولية. في فنلندا، على سبيل المثال، لا يعتبر عرض اللغات الأجنبية أوسع انتشاراً من ألمانيا أو فرنسا وحسب، لكن الاستعداد الفعّال لتطبيق معارف اللغات الأجنبية هنا أكبر مما هو موجود عند المقارنة مع البلدين المذكورين. ونظراً لأنّ فنلندا تعتمد لغتين رسميتين - متساويتين إسمياً (الفنلندية والسويدية) - ، يتعلّم الفنلنديون اللغة السويدية كأول لغة أجنبية، ويتعلم سويديو - فنلندا اللغة الفنلندية وتأتي الإنجليزية كلغة أجنبية ثانية. وفي مراتب التعليم العالي تأتي لغة أجنبية إضافية أخرى.

ومن جملة هذه اللغات الأجنبية التي يجري اختيارها نذكر الفرنسية، والألمانية، والروسية أو اللاتينية. وعلى الرغم من أن اللغتين الفنلندية والسويدية لغتان ناضجتان تماماً تصدر بهما مجموعة عريضة من المطبوعات العلمية والاختصاصية، فإنّ العديد من المعلومات غير متوفرة إلاّ في الأعمال الصادرة باللغات الأجنبية التي لا يُترجم منها نسبياً إلاّ القليل فقط. وفي الحين الذي يطغى فيه سيل الترجمة (في المقام الأول عن الإنجليزية) على سوق الكتب الألمانية والفرنسية، فإنّ سوق الكتب الفنلندية لا يشهد نتيجة صغره مثل هذا السيل.

تتواجد فنلندا كدولة حديثة - مثل الدول الأخرى التي تمر في مرحلة ما بعد الصناعة - في مرحلة من التطور ستجعلها تتحوّل إلى مجتمع معلوماتي مفتوح. لذا فإنّ الوصول إلى البيانات المتشابكة عالمياً، والتي يعتبر التحكم بها ضرورياً بالنسبة إلى التقدم الاجتماعي والتكنولوجي، يعتمد على إعطاء الأفضلية لاستخدام اللغات الأجنبية الفعالة. ففي كل فرع من الفروع المهنية - العمل كموظف في مكتب إحدى الشركات أو في دائرة المالية، طبيب/ طبيبة، مهندس/ مهندسة، كرئيس شركة أو سياسي - ، يتقن الفنلندي لغة أجنبية واحدة على الأقل (إن لم يكن لغتين أو حتى ثلاث لغات)، مما يعني أن الإنسان الفنلندي قد تعلّم في مجال عمله أكثر مما تعلمه بالمقارنة الألماني أو الفرنسي.

لقد اندهش الكثير من مواطني بلدان وسط أوروبا من الحضور القوي جداً الذي سجله الفنلنديون في لجان الاتحاد الأوروبي بعد أن انضم هذا البلد الصغير الذي لا يتجاوز عدد سكانه خمسة ملايين إلى الاتحاد في عام 1995. يتضح هذا من وضعية الإنطلاق الملائمة في ما يتعلق بتوزيع، وانتشار ومؤالفة اللغات الأوروبية لدى العناصر الذين أرسلتهم فنلندا للعمل في البيروقراطية الأوروبية. لقد تم العثور على عناصر فنلندية مؤهلة تماما لملء جميع المناصب الشاغرة في لجان الاتحاد الأوروبي. ولقد استطاعت العناصر الفنلندية المرشحة لملء الشواغر (حقوقيون مؤهلون، موظفون إداريون، اختصاصيون اقتصاديون) - بالإضافة إلى مؤهلاتها الاختصاصية - تقديم مؤالفات لغوية مهدت الطريق أمام هذه العناصر نحو بروكسل، ولكسمبورغ وستراسبورغ. ثم إنّ المؤهلات الاختصاصية العالية المقرونة باتقان اللغات الأجنبية تجعل من الفنلنديين العاملين في الاتحاد الأوروبي عناصر مرنة ومفضلة للغاية. إنطلاقاً من هذه الخلفية لا عجب أن نرى انتخاب شخصين فنلنديين لإشغال منصبين قياديين في البنك المركزي الأوروبي.

اللغات العالمية كوسيلة للعلوم

أدت القومية المرتبطة باللغة في أوروبا الغربية على المدى البعيد إلى إزاحة اللاتينية من الطريق كلغة للعلوم من الطراز الأول.. في القرن السابع عشر كانت اللاتينية مهيمنة كلغة علمية تقليدية عند

مقارنتها باللغات العلمية الفتية آنذاك مثل الإنجليزية والفرنسية. وخلال القرن الثامن عشر حدث نوع من التحوّل. إذ ساهمت حركة التنوير بقسط كبير في انحسار دور اللغة اللاتينية وندرة استخدامها منذ عام 1800 بالذات في تأليف المجلدات العلمية أو كلغة للتدريس الأكاديمي. مع هذا يمكن العثور على بعض المقالات المنفردة باللغة اللاتينية في ملفات أكاديمية بطرسبورغ للعلوم تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر.

ولقد أدى انتشار اللغات الأوروبية في العالم إلى تقوية عملية شطب اللاتينية نظراً للمعلومات الغزيرة التي حصل عليها الأوروبيون عن بلدان وشعوب وثقافات كانت حتى ذلك الحين مجهولة من قبل الأوروبيين التي كانت تُنقل إليهم باللغة اليومية للتجار والمبشرين والمستوطنين والموظفين الإداريين الكولونياليين. وتطلب تحويل هذه المعرفة إلى لغة تعليمية غريبة على الحياة اليومية كاللاتينية، ابتكار مصطلحات جديدة علاوة على الترجمة البسيطة. وعلى الرغم من أنّ اللاتينية أثبتت مرونة كافية حيال المصطلحات الجديدة، فإنها كانت غير عملية في المجالات التي كان فيها مجموع الإطار اللغوي متوجهاً صوب لغة حيّة. تنطبق هذه الحالة على المستعمرات الإسبانية والبرتغالية في أمريكا القرن السادس عشر، حيث شرع المرء منذ البداية باستخدام الإسبانية من أجل صياغة قواعد ونحو لغات الهنود، إضافة إلى استخدامها في إصدار المجلدات عن العالم الجديد، في

حين انحصرت اللاتينية كلغة للدين في الطقوس الدينية أو أنها كانت تُستخدم لأغراض الكنيسة الكاثوليكية.

وهكذا فإنّ تراكم المعارف عن العالم واستخدام هذه المعلومات من أجل البحوث العلمية تم استقطابه منذ القرن الثامن عشر على الأكثر وإدراجه في لغات ما كان يُدعى الأمم «الكبرى» الأوروبية. وفي القرن التاسع عشر هيمنت في المقام الأول لغتان علميتان في أوروبا القارية هما الفرنسية والألمانية، علماً أنّ الألمانية وسعت خلال القرن التاسع عشر نطاقها مقابل الفرنسية كما يستطيع المرء ملاحظته بوضوح تام في روسيا والبلدان الإسكندنافية.

كانت اللغة الفرنسية قد عززت مكانتها حتى الحرب العالمية الأولى لغةً للنخبة الارستقراطية والبرجوازية، لكنها تراجعت بوصفها لغة للعلوم أمام الألمانية. واصل هذا الاتجاه منحاه حتى عام 1920 تقريباً. في ذلك الحين «بلغت اللغة الألمانية من ناحية كمية المطبوعات (...) قمتها بكونها لغة لنشر العلوم الطبيعية» (Ammon 1991: 253).

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تقدمت الإنجليزية الصفوف لتصبح لغة العلوم القيادية على الصعيد العالمي. وما بين 1920 و1930 حققت الإنجليزية اختراقاً كبيراً في هذا المجال (راجع الشكل 18). ولا تزال الإنجليزية منذئذ محتفظة بمكانتها القيادية مخلفة كل اللغات المنافسة الأخرى في جميع المجالات العلمية وراءها بفارق كبير. وفي السبعينيات من القرن الماضي حققت اللغة

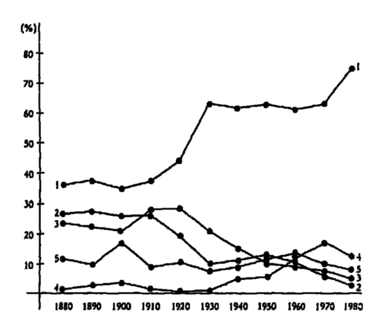
الإنجليزية أحدث وأكبر طفراتها التي ظهرت في الأفق إحصائيا بوضوح. قام آمّون (Ammon 1997: 146 ff) بتوثيق هذا التطور منذ عام 1980، حيث تبيّن أنّ سيطرة اللغة الإنجليزية كانت في العلوم الطبيعية على أشدها، وازدادت النسبة هنا من 74,6% (1980) إلى 90,7% (1996). وفي العلوم الاجتماعية والإنسانية كانتس حصة اللغة الإنجليزية أقل، حيث ارتفعت النسبة هنا من 69,9% (1982) إلى 82,5% (1995).

وفي روسيا بدأ نفوذ اللغة الروسية (لغة منافسة للغتين العلميتين التقليديتين غير الروسية: الألمانية والفرنسية) يتزايد منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فمع تبدل السلطة في 1917 – 1918 تصدّرت اللغة الروسية لأسباب أيديولوجية وأصبحت لغة العلوم الوحيدة في الاتحاد السوفييتي، ومع هذا احتفظت الألمانية بمفعولها كلغة ثقافية وبقيت اللغة الأجنبية المفضلة في النظم التعليمية الروسية. غير أنّ الهجوم الألماني على الاتحاد السوفييتي في صيف 1941 قلب الأمور رأساً على عقب، مما دفع إلى إبعاد الألمانية مدة سنوات طويلة جداً عن النظم التعليمية السوفييتية أيضاً.

حافظت اللغة الألمانية حتى الحرب العالمية الثانية على مكانتها كاللغة الأجنبية الأولى في التعليم المدرسي للسويد وفنلندا، وفي مجال العلوم الإنسانية كانت، إلى جانب اللغتين المذكورتين، أكثر اللغات العلمية استخداماً في البلاد. وبعد الحرب بدأت نقطة الثقل

الشكل 18: حصة اللغات في مطبوعات العلوم الطبيعية

بين 1880 و1980 (Mackey 1989: 11)



1- الإنجليزية 2- الفرنسية، 3- الألمانية، 4- الروسية، 5- لغات أخرى.

تتأرجح تدريجياً واستمرت اللغة الألمانية تُستخدم حتى عام 1970 في نشر المطبوعات العلمية في فنلندا؛ لكن الإنجليزية سُرعان ما فاقتها مكانةً خلال سنوات قليلة فقط. وأصبحت الإنجليزية التي كانت قبل عام 1945 تُستعمل بصورة متقطعة. اللغة العلمية المفضلة، وبعد فترة وجيزة سيطرت في بعض مجالات العلوم الطبيعية سيطرة تامة (التكنولوجيا، الكيمياء الحيوية، الطب، الفيزياء)، لا بل وتفوقت حتى على اللغة الوطنية (أي الفنلندية في فنلندا، والسويدية في السويد) (Haatmann/Holman 2000).

مع هذا ما زال حتى اليوم بعض الطلبة يحضّرون إطروحات

الدكتوراه باللغة الألمانية، وخاصة في مجال العلوم الإنسانية وبقيت الألمانية محتفظة بموطىء قدم حيث تصدر بين الفينة والأخرى في هذه اللغة ملاحق لبعض الدراسات العلمية التي يقوم بها علماء فنلنديون وسويديون.

الطاقة الكامنة في اللغات العالمية لبناء مجتمع المعلومات

في الدول الصناعية ذات التصنيع رفيع المستوى حدث انتقال من المجتمع الصناعي التقليدي إلى مجتمع الخدمات، وهنا حدثت أيضاً بدايات التحوّل إلى مجتمع وسائل الإعلام والمعلومات. يصف المصطلح الإنجليزي network society (Castells 1996-98) الوضع الحالي لتطور مجتمع ما بعد الصناعة على أفضل صورة. من الصعب ترجمة هذا المصطلح إلى اللغة الألمانية (ربما: Network-Gesellschaft) (بالعربية: مجتمع الشبكة – المترجم). ثم إنّ مصطلح «مجتمع المعرفة» المستخدم حالياً بكثرة تعبير مليء بالإشكاليات لأنه يتضمن تقييماً إيجابياً وحيد الجانب للسيل العارم من المعلومات الذي يحيط بنا من كل حدب وصوب. وفي الوقت نفسه يوحي المصطلح وكأن تراكم المعرفة في عصرنا يعتبر من الأمور الجديدة للغاية. وفي الحقيقة كانت المعرفة قد تجمعت في المجتمع خلال الحقبات الماضية أيضاً بصورة تزامنية تقريباً مع ظهور التكنولوجيات الجديدة (Meusburger 1998: 67f).

يقوم اتجاه المجتمع الجديد في عالمنا الحديث على أكتاف أهم اللغات العالمية. يعني هذا أنّ القسم الأكبر من المعلومات المعالجة

والمنقولة والمخزنة على صعيد عالمي تمر عَبْر قنوات اللغات العالمية. وفي هذا المجال تحتل الإنجليزية مكانة متميّزة لأنّ طاقاتها في نقل المعلومات عَبْر العالم تحدث دون أي منافس يستحق الذكر. ومن الجدير بالذكر أنّ المرء يستطيع، نظرياً على الأقل، تصور طريقة الانتقال إلى مجتمع المعلومات دون إشراك الإنجليزية في الأمر، حيث يمكن مبدئياً توزيع المعلومات المتوفرة بالإنجليزية على اللغات العالمية الأخرى توزيعاً كاملاً. أما إذا كان سريان المعلومات في العالم يعتمد على اللغات التي لا تملك مكانة اللغات العالمية وحدها فإنّ بناء مجتمع المعلومات دون الدور الإشعاعي للغات العالمية كان أمراً بعيداً عن التفكير.

غالبية اللغات التي يجري استدعاء المعلومات بها في شبكة الإنترنت هي لغات عالمية، إلى جانب ذلك هناك مجموعة من لغات الملايين قيد الاستعمال من التي لا تحظى بمكانة اللغات العالمية مثل الإيطالية، والتشيكية، والسويدية، والدنماركية، أو الفنلندية. لكن طاقة هذه اللغات في نقل المعلومات محدودة محلياً، مما يعني أنّ مستخدم الإنترنت الموجود خارج نطاق وفضاء اللغات العالمية والذي يريد التحرك عَبْر القنوات الدولية لا بد أن يعتمد على لغة عالمية إضافة إلى لغته المحلية. علاوة على ذلك هناك اتجاه يتمثل في أن مستخدمي اللغات الصغيرة يميلون إلى استخدام وسيلة الاتصال الأغلب استعمالاً على الصعيد العالمي، أي الإنجليزية والانتقال إليها،

مثلما يفعل مستخدم الإنترنت في فنلندا الذي له علاقات واتصالات دولية.

تقوم مجتمعات العالم بتحديث نفسها تكنولوجياً وعقائدياً. لقد شهدت بلدان «العالم الثاني». أي بلدان المعسكر الشرقي سابقاً، في بداية التسعينيات تحولاً جذرياً انطلق من الثورة الرأسمالية التي اندلعت داخل الدول التابعة للاتحاد السوفييتي سابقاً، في «المستعمرات الداخلية» للدولة السوفييتية وفي روسيا نفسها. بيد أنّ التطور الاقتصادي في غالبية دول المعسكر البشرقي سابقاً لم يصل إلى المستوى الموجود في دول أوروبا الغربية، مما يعني أن التقسيم إلى عالم أول وعالم ثانٍ له ما يبرره. وعلى الرغم من أنّ العديد من البلدان النامية المحسوبة تقليدياً على «العالم الثالث» قد حققت تطورات رفيعة تفوق الوضع الذي كانت فيه قبل عقدين أو ثلاثة، فإنّ مستواها ما يزال إلى حد بعيد يعتمد كالسابق على التقدم التقني القائم في العالم الأول.

إنّ فصل دول العالم الأول والثاني عن دول العالم الثالث والرابع ليس بالأمر اليسير أبداً إذا ما فكرنا بوجوب مراعاة مختلف المعايير والإحداثيات المطلوبة في هذا المجال. وأحد المعايير الأساسية هو الناتج القومي الإجمالي الذي يشير، من ناحية تعريف الإصطلاح، إلى تدنٍ كبير في دخل الفرد الواحد في البلدان النامية. وإذا ما أردنا تحديد المستوى باعتماد دخل سنوي قدره 1000 دولار أمريكي للفرد

الواحد من السكان، فإنّ الناتج القومي الإجمالي يكون أقل من ذلك بالنسبة إلى 81 دولة من دول العالم على الأقل، ومن بينها القوتين النوويتين الهند (310 دولارات) والباكستان (440 دولاراً).

لم تستطع بعض دول «العالم الثالث» عَبْر نقل التكنولوجيا الحديثة من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية من تحديث بلدانها وحسب، بل تمكنت أيضاً من تسريع وتيرة نموها الاقتصادي بواسطة التعاون الدولي. المنطقة الاقتصادية في جنوب شرق آسيا مثال حيّ للنمو المتسارع. لقد توصلت هذه المنطقة إلى حجم اقتصادي كبير أثّر بعد إصابتها بالركود في نهاية صيف 1990 بصورة غير مباشرة على الموازنات الاقتصادية لأوروبا وأمريكا.

لقد كانت دول ما يُدعى بالعالم الرابع (ومنها بوروندي، ملاوي، موزامبيق، الصومال، تنزانيا وغيرها من البلدان) الخاسر الأكبر في سباق التطور الاقتصادي - التكنولوجي لعدم وجود أي تناسب بين مديونياتها كدول وأداء النظم الاقتصادية الوطنية، مما يعني أنّ فرص تحديث البنيات التحتية للدول والمجتمع غير ملائمة بالمرة. وفي حال الصومال يوجد عامل مقرر آخر يتمثل في تفكك نظام الدولة خلال الحرب الأهلية القائمة بين الفصائل المختلفة، حيث يعيش الشعب في وضع لا وجود فيه للدولة. أما إدارة المناطق فيتحمل مسؤوليتها قادة مختلف الفصائل الصومالية المتقاتلة.

وتقوم اللغات العالمية بتخصيص الأموال المطلوبة للاتصال

والمستخدمة في هذه العملية من التطور الاقتصادي - التكنولوجي، وإعادة التركيبة الاجتماعية - السياسية والتعاون الدولي. وعلى الصعيد العابر للقارات (إنتركونتيننتال) تملك الإنجليزية الحصة الأكبر في تحقيق عملية التحديث المالية، في حين أنّ اللغات الأخرى مثل الفرنسية أو الإسبانية لا تملك سوى إشعاعات محلية. وتحتل اليابانية «مكاناً قصيّاً» في مجال وسائل الاتصال. فعلى الرغم من عدم كونها لغة اتصالات فعالة في مجال المعاملات التجارية الدولية، فإنّ تعلمها يُشجّع عَبْر الاتصالات الاقتصادية. علاوة على ذلك يتم تقييم محاولة فهم اليابانية وتطبيقها بفعالية في الروابط الاجتماعية كإشارة على النيّة الحسنة Good Will التي يبديها الشركاء التجاريون غير اليابانيين.

وتُرافق عولمة العالم الاقتصادية والاجتماعية من قبل عمليات تحديث لغوية - ثقافية تعتبر في الواقع أكثر تعقيداً من الظواهر التي يمكن مشاهدتها في كل مكان والمتمثلة في هيمنة الإنجليزية على مفردات اللغات الأصغر والأكبر، أو أمركة أسلوب الحياة في أي محيط ثقافي كان. إن نقل المصطلحات الإنجليزية لا يعرف في الواقع أي حدود. يتم اقتباس الكلمات الإنجليزية من قبل اللغات العالمية مثل الفرنسية والإسبانية، الروسية أو الألمانية، تماماً مثلما تقتبسها لغات أصغر تتحدث بها الملايين (مثال: الدنماركية، الفنلندية، التشيكية). وفي غالبية اللغات التي تُستخدم كوسائل لتطوير تكنولوجيا

المعلومات، تبدو المصطلحات الاختصاصية الحديثة وكأنها خليط عجيب غريب من العناصر المحلية والإنجليزية (Sittek 1997).

ويُرافق استخدام الإنجليزية في عملية التحديث من قبل صور ثقافية نمطية تتمتع بانتشار على نطاق عالمي. ولا تستعمل الإنجليزية فقط وسيلةً للتواصل العالمي، مما يشير إلى طبيعتها التقدمية الجامحة التي لا يمكن الصمود بوجهها. لذا فإنّ الناس الذين يستخدمون الإنجليزية نراهم يبنون هويتهم إلى حد كبير جداً على مكانة اللغة العالمية، حيث أن الإنجليزية لا تعد وسيطاً للمعلومات المطلوبة لبناء مجتمع حديث وحسب، بل تصبح هذه الوسيلة ذاتها ضماناً لهذا البناء. في هذا السياق ينطبق التأكيد الذي صاغه مكلوهان Mcluhan الذي تمثل فيه الوسيلة النبأ. ولا يمكن فصل الإنجليزية عن خرافة الحداثة، وهي في الوقت نفسه أيقونتها اللفظية.

وتجد خرافة الحداثة صداها اللفظي في التطبيقات الرمزية المتعددة للإنجليزية، علماً بأنّ هذه التطبيقات لا تخدم الغرض التواصلي لنقل المعلومات الموضوعية، بل تكون مهمتها خلق الأمزجة ذات الصلة بأسلوب الحياة الحديث أو التقدم التكنولوجي. وهكذا يمكن البحث عن هذه التطبيقات الرمزية في مجال الترفيه لوسائل الإعلام الجماهيرية وفي مختلف قطاعات التسويق وفي الإعلانات

التجارية. ويتعرف المرء على سريان المفعول العالمي لخرافة الحداثة في استخدام الإنجليزية أيضاً في تلك البلدان التي ليس لها أي تقاليد تاريخية ذات صلة بهذه اللغة كما هو الأمر بالنسبة للمناطق المستعمرة في السابق.

ومن الأمثلة الحيّة على ذلك اليابان، البلد الذي يشارك بصورة حاسمة منذ سنوات عديدة في رسم خارطة التطور الاقتصادي العالمي، والذي حقق مجتمعه مستوى معيشياً رفيعاً. في بناء المجتمع الحديث لم يعتمد اليابانيون على الإنجليزية، بل إنّ عملية التحديث تحققت منذ انفتاح اليابان على الغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالاعتماد على اللغة اليابانية. إلاّ أنّ الاستعداد لتبنّي التأثيرات الثقافية الإنجليزية والأمريكية (الولايات المتحدة الأمريكية) كان كبيراً (Haarmann. 1989: 11. ff, 53 ff). إن عنصر الاستعداد لتقبل المستوردات اللغوية والثقافية بالذات غير المفروض على اليابانيين - على عكس الشعوب الآسيوية التي كانت مستعمرة - يجعل من علاقة الاتصالات اللغوية لليابان مقياساً للإشعاع الطبيعي للغة عالمية.

إن الاستعمالات العملية - التواصلية والرمزية للغة الإنجليزية متشابكة بمتانة مع بعضها البعض في الحياة اليومية اليابانية، مما يجعل اليابانية تتراوح في مختلف الوظائف بين قطب الجانب العملي الخالص من ناحية، وبين الجانب الرمزي الخالص من ناحية أخرى.

استعمال الإنجليزية في اليابان

1) يسترعي استخدام الإنجليزية في قطاع الخدمات العامة في اليابان بصورة خاصة انتباه الأجانب (باليابانية gaijin) نظراً لأنّ الكثير من وظائف اللغة الإنجليزية تقدّم في هذا القطاع بالذات الكثير من العون في توجيههم. وينقسم استخدام الإنجليزية إلى وظائف منفردة مختلفة.

1/1 الإنجليزية في الاتصال مع الأجانب

(قوائم باللغتين اليابانية والإنجليزية: شؤون الضرائب، رخص الإقامة، فواتير إدارة البلديات)

2/1 الإنجليزية في حركة المواصلات والنقل العامة

(تسميات باللغتين اليابانية والإنجليزية لوسائل النقل العامة: السكك الحديدية الوطنية، أنفاق المترو، المطارات Narita Airport، إشارات بالإنجليزية في محطات القطار والقطارات: مثل exit, platform, change here تعليمات باللغتين الإنجليزية واليابانية للمسافرين).

3/1 الإنجليزية في وسائل المرور العامة

(إشارات يابانية - انجليزية. مثال: EXPWY، اختصار expressway, thru traffic, slow down).

4/1 استخدام تراجم رسمية لأسماء مبانٍ عامة ومؤسسات يابانية

(Immigration Office, Tokyo Tower, Japan Foundation).

5/1 استخدام الإنجليزية لأغراض العلاقات العامة PR

(على سبيل المثال: شعارات إعلانية بالإنجليزية مثل: save the green - المطالبة بحماية الطبيعة، discover Japan - تحفيز على استعمال السكك الحديدية National Railway في السفر).

6/1 إعلانات رسمية عن إقامة المهرجانات والمعارض

(مثال: 30 Years of Modern Japaneese Traditional Crafts - مرور 30 عاماً على الصناعات الحرفية التقليدية اليابانية).

2) يتم استخدام الإنجليزية بكثرة لمختلف أغراض اتصالات القطاع العام والخاص الداخلية والخارجية. في شوارع المدن اليابانية الكبيرة، وخاصة في طوكيو، تختلط الإنجليزية مع اليابانية في «تكافل بصري»، حيث تظهر الإشارات والكتابات الإنجليزية جلية للعيان عَبْر الأحرف اللاتينية، لا بل وتطغى أحياناً حتى على نظام الكتابة الياباني.

1/2 أسماء إنجليزية للمباني والأحياء التجارية

(Sunshine Building, Seibu department store, Bank of Tokyo)

2/2 أسماء إنجليزية لأحياء سكنية

مثال: (Garden City, Sunshine City, Green Hights, Green Plaza).

3/2 أسماء إنجليزية لشركات يابانية، ومتاجر ومراكز خدمية

المحلات التجارية: (boutique, supermarket, flower shop, ou daily Ladie's bread, clean life, record shop)، مراكز خدمية: (dancing school, beauty clinic, travel bureau).

4/2 أسماء إنجليزية لمطاعم، ومراكز ترفيه وفنادق

المطاعم (crescent house, Orient terrace)، مقاهي (family coffee shop)، مراقص ديسكو (space invader, fun factory)، خمّارات (good luck, house 55)، فنادق (white chapel, prince hotel)

5/2 إعلانات بالإنجليزية في المجالات الخارجية

ملصقات وكراسات (big sale, 20% off, Christmas bazaar)، إشارات في الفترينات (funrniture + interior, healty + beauty, living goods).

3) تعتبر الإنجليزية لغة النخبة والتي يركز عليها دون إستثناء البرنامج التعليمي للعديد من المدارس الخاصة:

(تدريس الإنجليزية في المدارس الخاصة لتعليم اللغات الأجنبية: دورات تعليمية خاصة باللغة الإنجليزية للأطفال في المرحلة ما قبل الابتدائية. مثال - JAPEC (The Japan Association for the Promotion of English for Children).

4) لم يعد من الممكن الاستغناء عن الإنجليزية كلغة اتصال في عالم الأعمال التجارية وخاصة بالنسبة للشركات ذات الزبائن الدوليين:

(دور الإنجليزية كلغة تجارية لشركات التصدير، للعاملين في مكاتب المحاماة المتخصصة بالشؤون القانونية للشركاء التجاريين، للعاملين في متاجر الكتب الكبيرة، محلات السويرماركت).

5) تتعرض النخب الجامعية لضغط خاص يمارسه عليها العالم الأكاديمي من أجل قراءة الإنجليزية والحصول على معلومات عن التطورات العالمية عَبْر وسيلة اللغة الإنجليزية. وفي الوقت الذي يشارك فيه الأوروبيون الملمون بالفرنسية أو الألمانية في المناقشات الأكاديمية الدولية واستخدام لغتهما، يبقى الأكاديمّي الياباني معزولاً عن العلاقات الدولية إذا ما أراد استخدام لغته الأم. ومن المهم أيضاً تطوير كفاءات للتعبير عمّا يراود الياباني من أفكار باللغة الإنجليزية:

(دور الإنجليزية في أعمال البحوث: كفاءة قراءة المطبوعات والمنشورات الصادرة بالإنجليزية تعتبر شروطاً أساسية في جميع المجالات، دور الإنجليزية في المنتديات العالمية: معارف وإلمام كافٍ باللغة الإنجليزية للمشاركين اليابانيين في المؤتمرات الدولية، كفاءة في كتابة النصوص العلمية بالإنجليزية).

6) يعتبر تحريك المعارف الفعالة للغة الإنجليزية مهماً جداً في البحوث العلمية في المقام الأول من أجل تقديم المعارف الجديدة لمنتدى عالمي معين، العلماء اليابانيون يعتمدون على الإنجليزية كوسيلة فعالة في إنتاج المقالات والكتب:

(نشر الكتب باللغة الإنجليزية عن موضوعات ذات صلة بقضايا يابانية من قبل دور النشر اليابانية؛ نشر المطبوعات العلمية في مختلف المجالات من قبل دور النشر التابعة للجامعات مثل مطبعة جامعة طوكيو Tokyo University Press.

7) استخدام وسائل الإعلام الإنجليزية واليابانية (قطاع المعلومات). تحذو اليابان حذو مثال الدول الآسيوية الأخرى التي تقدم وسائل إعلامها معلومات باللغة الإنجليزية. ولا تختلف الأوضاع اليابانية في هذا الصدد عن العديد من البلدان الأخرى باستثناء أنّ اليابان لم تكن في أي وقت من الأوقات مستعمرة لبلد يتكلم الإنجليزية كما هو الحال بالنسبة للهند أو سريلانكا.

1/7 الإنجليزية في التلفزيون

(برامج إخبارية/ أخبار قصيرة باللغتين اليابانية والإنجليزية؛ نشرات إخبارية مسائية باللغة الإنجليزية: أخبار عالمية مع التركيز على الأحداث اليومية المهمة بالنسبة لليابانيين؛ أسماء إنجليزية لبرامج يابانية: على سبيل المثال (just news, today, sports news, weather show).

2/7 صحف بالإنجليزية صادرة في اليابان

صحف يومية بالإنجليزية: (The Japan Times, Ashai Evening News, The Daily Mainichi) مجلات أسبوعية بالإنجليزية: (The Japan Times Weekly).

3/7 مجلة بالإنجليزية

مجلة شهرية بالإنجليزية (Japalish).

4/7 عناصر ذات توجهات معلوماتية باللغة الإنجليزية في المجالات اليابانية (عناصر تصميم إنجليزية، عناوين رئيسية لمقالات باليابانية).

8) على اختلاف ما يحدث في قطاع الترفيه والتسلية لوسائل الإعلام للبلدان الأخرى غير الناطقة بالإنجليزية مثل ألمانيا، مصر أو المكسيك، يجري استخدام الإنجليزية في وسائل الإعلام اليابانية بصورة ممجوجة كرمز للحداثة اليابانية.

1/8 الإنجليزية في التلفزيون والراديو

(أسماء إنجليزية لبرامج يابانية شعبية: على سبيل المثال: 11 P.M الذي يُنطق eleven pm, best 10, tonight؛ مفردات إنجليزية في البرامج الترفيهية اليابانية. على سبيل المثال في الأغاني الأكثر شعبية، في برامج الحزورات أو الأحاجي، الحوار، ترديدات إنجليزية في أغاني يابانية).

2/8 الإنجليزية في المجلات اليابانية

(عناوين الأعمدة، البنط العريض، ملاحظات على الحواشي).

9) استخدام الإنجليزية في وسائل الإعلام اليابانية

(مجال الإعلانات التجارية). الإعلان التجاري بالإنجليزية في اليابان أقوى منه في البلدان الأخرى.

1/9 الإنجليزية في نصوص الإعلانات

(نصوص بالإنجليزية فقط، نصوص باللغتين اليابانية والإنجليزية؛ نصوص يابانية مع كلمات إنجليزية تتعلق بالأوصاف والنعوت وما شابه).

2/9 أسماء إنجليزية لمنتوجات يابانية صناعية

(أسماء إنجليزية خالصة. على سبيل المثال: bluebird, challenge, mild seven؛ أسماء هجينة ذات مقاطع يابانية ولغات أخرى. على سبيل المثال Machen knit, lancer fiore, bon step؛ أسماء خيالية بالاعتماد على قاعدة إنجليزية. على سبيل المثال: Mr. tact, love love).

3/9 الإنجليزية كمصدر للإشارات في النصوص الإعلانية

(تحديد المنتوجات عَبْر عناصر باللغة الإنجليزية. على سبيل المثال: new, gift, present؛ تحديدات بالإنجليزية على حواشي النصوص. على سبيل المثال: new models, new goods).

4/9 الإنجليزية في إعلانات الشركات والمحلات التجارية

(معلومات عامة وخاصة عن مواعيد الافتتاح أو المناسبات اليوبيلية، على سبيل المثال: 7 days a week, 03th anniversary, open 24 hours).

5/9 الإنجليزية في كتابة العناوين

(كتابة أرقام الهاتف، على سبيل المثال: ....phone, tel؛ تعليم الطوابق في المباني، على سبيل المثال: 1F للدور الأول و2F للدور الثاني إلخ..).

10) استخدام الإنجليزية في المجالات الداخلية (القطاع التجاري)

الكتابة الداخلية بالإنجليزية تقدم للغرباء عوناً في توجههم وتقدم للسكان المحليين (اليابانيين) نفساً كوسموبوليتياً: (مدنياً كونياً).

(يافطات الأقسام في المحلات التجارية وأقسام المتاجر الكبيرة. على سبيل المثال: bread corner, hair + make, records + tapes).

11) استخدام الإنجليزية في الكراسات والكاتالوجات (القطاع التجاري) – تطغى الاستراتيجيات المعتمدة لجعل اليابانيين يشاركون بطريقة ما بالعولمة المشوشة على ناحية تقديم المعلومات الخالصة:

(إشارات إلى السلع، على سبيل المثال: imported goods, soft dress؛ شعارات. على سبيل المثال: dress up, nice day - nice smoking, summer sale).

12) يوضح استخدام الإنجليزية في كتابة مختلف أنواع المواد الاستهلاكية (في المقام الأول لأغراض تجارية) الدور الإيحائي الذي تلعبه كرمز للعالمية:

(عناصر إنجليزية على ورق التغليف والأكياس البلاستيكية والملبوسات، الألعاب، الشارات، جميع أنواع المواد التذكارية).

13) الإنجليزية كأيقونة خالصة للحداثة. يظهر ذلك في استخدام الإنجليزية في اللغة الحديثة المستعملة من قبل الشبيبة (وخاصة اللهجة العامية للتلاميذ والطلبة):

(عبارات وتعابير مفردة. على سبيل المثال: all right, let's start, fine, great؛ استخدام تعابير من الخليط الإنجليزي الياباني (Japenglish). على سبيل المثال: bye-nara (إلى اللقاء) والمكونة من: bye (كما في الإنجليزية bye - bye) وnara (كما في اليابانية sayonara أي إلى اللقاء)؛ أو inshinjiraburu (لا يصدق) والمكونة من in + الكلمة اليابانية shinjiru (تصديق) + aburu (بالإنجليزية able).

وتحصل الوظائف الرمزية للغة الإنجليزية على بروفيلها الفعلي نتيجة المكانة التي حجزتها لنفسها لغات عالمية أخرى مثل الفرنسية، والألمانية والإسبانية في مسرح العلاقات اللغوية الحضرية في اليابان. ففي الإعلان التجاري، وبصورة خاصة في وسائل الإعلام، تتخذ الإنجليزية وضعاً ثقافياً رمزياً متعارضاً مع اللغات العالمية الأخرى. وعلى غرار الإنجليزية التي تمثل صورة ثقافية نمطية متميّزة، أي الحداثة، هناك أيضاً مسحة ثقافية معينة ذات علاقة مع اللغات العالمية الأخرى.

الفرنسية مثلاً تتألق في الجو عندما يتعلق الأمر بالأناقة والأزياء، وخاصة الأزياء التي تظهر الأناقة الأنثوية وفتنتها، حيث حافظت المرأة الفرنسية، وخاصة المرأة الباريسية الأنيقة للغاية، بعناد على مكانتها في عالم الموضة اليابانية. ويعود تاريخ الصورة النمطية للأناقة الفرنسية في الواقع إلى مائة عام خلت. ولا يزال الانطباع الذي خلفه عالم الموضة الباريسية للحقبة الجميلة Belle Epoque لعام 1900 يؤدي مفعوله ويجري تأصيله في استراتيجية الإعلان التجاري الياباني.

ثم إنّ الألمانية أيضاً احتلت مكاناً محترماً ثقافياً خاصاً بها. فعند تتبع مجموعة المنتوجات اليابانية ذات الأسماء والتسميات الألمانية وانتقاء الشعارات الألمانية في الإعلانات التجارية، نرى تبلوراً لناحية الميل إلى الراحة والاسترخاء والدعة. إلى هذا الاتجاه مثلاً ينتمي

التلذذ باحتساء الجعة، ولذا ليس من العجب أن نرى مصنعاً يابانياً لإنتاج البيرة يطلق على الماركة التي ينتجها اسماً ألمانياً (Märzen) ويتحدث عنها بنص إعلاني باللغة الألمانية.

وكلما قل استعمال لغة عالمية ما كلما ضعفت صورتها الثقافية النمطية. ومن الأمثلة على ذلك اللغة الإسبانية. وما يحفز على استخدام اللغة الإسبانية في الإعلان التجاري الياباني هو الروح المرحة لأمريكا اللاتينية. في الإعلان عن موديلات السيارات ذات الأسماء الإسبانية (على سبيل المثال: Subaru domingo, super gran turismo) يظهر مكسيكيون يرقصون ويغنون على أنغام الموسيقى المكسيكية. وهناك مجلة شبابية للمراهقات تحمل اسماً يابانياً (bonita) «فتاة جميلة».

إلاّ أنه لا توجد أي لغة عالمية أخرى مثل الإنجليزية لها مثل هذا الحضور المركزي في الحياة اليابانية اليومية، والتي تؤالف الوظائف العملية والرمزية في وحدة غير قابلة للإنقسام. وعَبْر حضور اللغة الإنجليزية أصبحت الكتابة بالأحرف اللاتينية إحدى السمات الرئيسية التي لا يمكن الاستغناء عنها من قبل اليابان الحديثة.

وبالإضافة إلى المعايير المتعلقة بوضع اللغات العالمية ووظائف الاتصالات المتعلقة بانتشارها التي قمنا باستعراضها حتى الآن، هناك عنصر آخر لا يجد صداه في أي موضع كان على الرغم من حضوره في كل زمان ومكان يجري فيهما استخدام لغة عالمية ما، وهذا العامل

هو السمعة Prestige التي تتمتع بها اللغات العالمية. وسمعة اللغة العالمية هو قيمتها الذاتية كما يتخيلها أصحابها، وكذلك حصيلة كافة التوقعات البديهية ذات العلاقة باستخدام اللغة. وتضم هذه التوقعات سمعة لغة عالمية كضامنة للارتقاء الاجتماعي، ولمراقبة سريان المعلومات العالمية والبراعات الفنية التكنولوجية وبالتالي التقدم التنموي.

كما وتلف هذه السمعة اللغة العالمية بنوع من المسحة العطرة المخفية. حيث يشترك مستخدمو اللغات العالمية في موقف أساسي مشترك، أي قبولهم غير المعلن للدور الذي تلعبه اللغة العالمية في التواصل العالمي. إن استخدام الإنجليزية وسيلةً للاتصالات الدبلوماسية الدولية. ولغة تجارة وعلم ما كان ليتحقق دون الاعتراف الصامت من قبل الأطراف المشاركة بحقيقة عدم مناقشة أمر هيمنة وسيطرة الإنجليزية في أداء هذه الوظائف.

وعندما يقوم المدافعون عن الحضارة الفرنسية civilisation française بالدعاية للتعددية اللغوية في أوروبا وعلى نطاق عالمي، فإنّ ما يرمون إليه في الواقع هو الدفاع عن هيبة اللغة الفرنسية ودورها كالحامل لشعلة الثقافة وزجها في معمعة مواجهة اللغة الإنجليزية والتصدي لها. إذن لا يتعلق الأمر في المقام الأول بوظائف الاتصالات أو معايير مكانة اللغة، قدر تعلقه بمسحة من التمدن الأوروبي، وهو عنصر غير موجود في خرافة الحداثة للغة الإنجليزية.

وبالنظر إلى حقيقة تعبير السمعة عن نفسها بمجموعة من المضامين التي تؤدّي مجتمعة إلى تقييم ذي نفع، ينطلق السؤال المتعلق بكيفية تصنيف قيم السمعة. وفي مجال البحوث اللغوية برهنت طريقة التفضيل اللغوي على نجاحها وجدارتها في هذا المجال. فعند تقييم حجم سمعة لغة من اللغات يقوم المرء وفق هذه الطريقة بتحديد معيار من التقييمات يجري بموجبه مقارنة سمات قيم هذه اللغة مع سمات اللغات الأخرى بالاعتماد على استقراء الآراء. بهذه الطريقة يستطيع المرء أيضاً تحديد وقياس سمعة اللغات العالمية من الناحية الموضوعية.

وبمعونة هذه الطريقة قمتُ في عامي 1985/1984 بإجراء استقراء شامل في صفوف الطلبة اليابانيين في الجامعات الموجودة في المنطقة الكبرى لمدينة طوكيو، ركزت فيه على مقارنة الإنجليزية والفرنسية مع اليابانية. وقمت بتدوين جميع البيانات التي توصلت إليها في رسم بياني (راجع الشكل 19a/b). بهذه الوسيلة تتكون سمات من الملامح. ونظرا لأن سمات ملامح كل لغة من اللغات هي صور معينة، توصلنا إلى حقيقة مفادها أنّ كل لغة من اللغات تشغل مكانتها الخاصة بها في سلم سمعة اللغة.

وجاء تقييم الإنجليزية من جانب اليابانيين إيجابياً بصورة عامة، فاندرجت جميع التقييمات في الجانب الإيجابي. ويعتبر بروفيل الإنجليزية أكثر تجانساً من بروفيل الفرنسية أو اليابانية لما تظهره

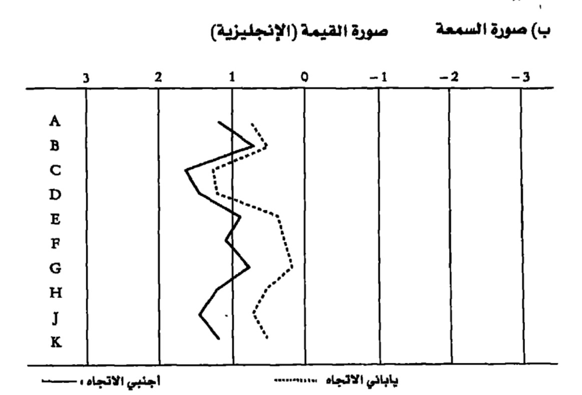
الشكل 19: بروفيل سمعة اللغات الإنجليزية والفرنسية واليابانية
(Haarmann 1989: 140, 150 ff)

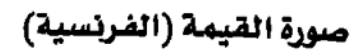
أ) ملامح سيمانتية (علم دلالات الألفاظ وتطورها) - تفاضلية.
في قائمة الأسئلة المكتوبة باللغة اليابانية التي تم تقديمها للطلبة اليابانيين للرد عليها، جرى توزيع النواحي المميزة السيمانتية - التفاضلية على الطريقة التالية:

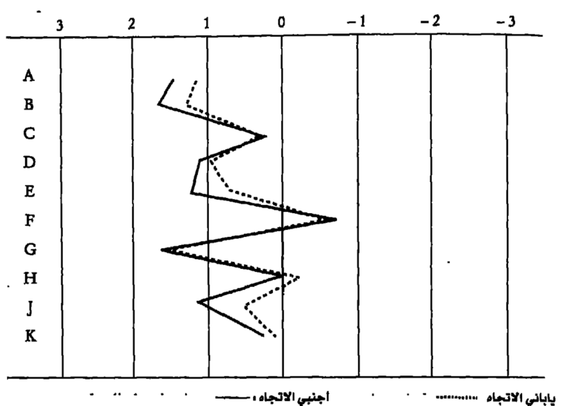
	3+	2+	1+	0	1-	2-	3-	
A. رنّان								قبيح
B. ناعم								قاسي
C. مترنّم								رخيم
D. أنيق								خشن
E. رفيع								سوقي
F. مألوف								غريب
G. مؤثر								عادي
H. حديث								قديم
J. لطيف								فظ
K. يروق لي								لا يروق لي

التدرجات الثلاثة المختارة تمّ تعليمها كالتالي: جداً لـ (+3/-3)، تقريباً (+2/-2) وأقل (+1/-1)

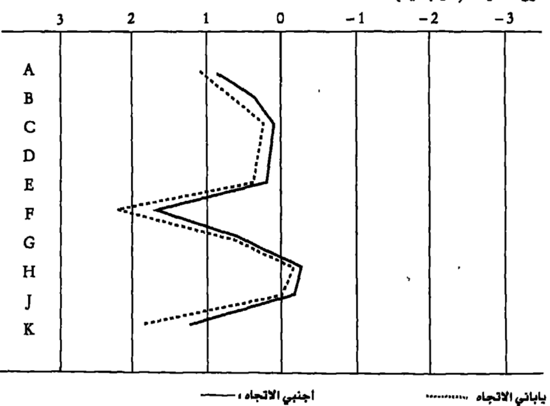
ب) صورة السمعة صورة القيمة (الإنجليزية)







صورة القيمة (اليابانية)



كلتا اللغتين من تقييمات سلبية. وتنظر غالبية الطلبة اليابانيين بنوع من الريبة إلى الفرنسية (العلامة المميزة F). في حين تبدو اليابانية «قديمة إلى حد ما»، لا بل «وخشنة قليلاً». وعند مقارنة بروفيلات سمعة اللغات الثلاث تبيّن أن الإنجليزية تملك أعلى مراتب القيم ما يتعلق بالحداثة (العلامة المميزة H).

ثم إنّ التقييمات لها بالطبع علاقة بالمكان الذي يقيم فيه الناس الذين توجه إليهم الأسئلة، أي بالمحيط الثقافي – اللغوي الذي يعيش فيه هؤلاء الناس أنفسهم. واليابانية لغة بديهية ومألوفة بالنسبة لليابانيين إلى درجة يصعب عليهم التخلي عنها في حياتهم اليومية. في حين أنّ البُعدً عن اللغتين العالميتين الإنجليزية والفرنسية «الغريبتين» والمألوفتين مع هذا في المحيط الثقافي الكوني الياباني، أكبر والذي يتوضح في التقييمات الإيجابية. وهكذا فإنّ نظام القيم ذا التوجه اللغوي للناس الذي يعتبر أداة متعددة الأوجه إلى حد كبير هو الذي يقرر القرب والأهمية لوسائل الاتصال المحلية والعالمية.

اللغات الصغيرة بين التهديد بالإنقراض وفرص البقاء

تختلف المسائل المتعلقة بوضع اللغات العالمية اختلافاً جوهرياً عن مسائل اللغات الصغيرة في مختلف المناطق. أكثر من نصف لغات العالم هي وسائل اتصالات لجماعات صغيرة وصغيرة جداً لا يتحدثها سوى أُناس لا يتجاوز عددهم الألف (Haarmann 2001). وهناك ما يقرب من 2000 لغة تنتمي إلى صنف اللغات القزمة التي يتراوح عدد

الناطقين بها بين 1 و2000 شخص (راجع للمقارنة الشكل 7). وبغض النظر عن بعض الحالات المنفردة، فإنّ عدد الذين يتحدثون لغات المجموعات الصغيرة لن يتزايد على أكثر احتمال. إلاّ أننا سنتسرّع لو أقدمنا على اعتماد هذه الحقيقة للوصول إلى نتيجة مفادها أن الجماعات اللغوية الصغيرة في طريقها إلى الانحلال، وكيف أن انقراض هذه اللغات القزمة قد بات قاب قوسين أو أدنى. وعلى الرغم من أنّ عدد المتحدثين في العديد من المجموعات اللغوية الصغيرة آخذ بالتراجع منذ فترة طويلة، نرى من ناحية أخرى وجود مجموعات بقيت محافظة على استقرارها. وفي هذا المجال يمكن تقييم حالة ركود عدد المتحدثين كعلامة حيوية للمحافظة على اللغة.

إنّ غالبية هذه المجموعات غير المسيطرة خاضعة لضغط لغة مسيطرة محلياً أو للغة إقليمية داخلية مسيطرة. ويتميّز التطور اللاحق بالانتقال من الاستعمال المنتظم للغة إلى الاستعمال المتقطع لها، نظراً لبقاء معارف اللغة غير المهيمنة مقصورة على حلقة ضيقة من المتحدثين المسنين، مما يجعل اللغة تتحول في نهاية المطاف إلى وسيلة خاصة تتحدث بها مجموعة ضيّقة جداً من الناس. أما المرحلة النهائية فهي توفر معارف لغوية سلبية في صفوف قلة من المسنين الذين لا يقومون بدورهم باستخدام اللغة غير المهيمنة إلا قليلاً، حيث يؤدي موتهم في المحصلة إلى وفاة اللغة نفسها. ومن الأمثلة على لغة قزمة في مثل هذه المرحلة النهائية نذكر لغة آينو Ainu في اليابان (Alpatov 1996).

وهناك عدد من اللغات في العالم يمكن متابعة نهاية مرحلة وجودها في مجرياته الديناميكية. ينطبق هذا على الآلنغيث Alngith في أستراليا (كوينزلاند)، والسرّانوا Serrano في الولايات المتحدة الأمريكية (أقصى جنوب كاليفورنيا) وكسيتا Xetà في البرازيل (بارانا) التي يتحدث بها ثلاثة أشخاص فقط. ومن اللغات التي لا يحسن التفاهم بها أكثر من شخصين نذكر على سبيل المثال آروا Aruà في البرازيل (روندونيا)، وإكسكاتيكو Ixcateco في المكسيك (أوكساكا) وياورو Yawuru (غرب أستراليا). ومن اللغات التي لم تعد وسيلة للتواصل نذكر آورا Aora في نانوآتو (جزيرة مافيا)، وكاتوكينا Katukina في البرازيل (آكره) أو ولنا Wulna في أستراليا (القسم الشمالي).

لقد تقلصت مجموعات اللغات المذكورة ولم يبق سوى شخص واحد فقط يلمّ بهذه اللغة. ونظراً لأنّ هذا المتحدث لا يستطيع التواصل مع إنسان آخر بهذه اللغة، وإنما مع أرواح أسلافه فقط، لا يمكن تعريف هذه اللغات بأنها وسائل اتصال حقيقية، خاصة وأنّ موت المتحدث بها يعني انقراضها إلى الأبد. غالبية اللغات التي يتحدث بها شخص واحد أو شخصان أو ثلاثة موجودة في أستراليا والبرازيل. علماً أنّ هذين البلدين يعتبران «مقبرة اللغات» في عالمنا الحديث.

ويبلغ مجموع عدد اللغات التي لا تلبي أقل الشروط اللازمة التي تتطلبها وسائل الاتصال 105 لغات، ومن بيها 22 لغة من صنف ثلاثة متحدثين و36 لغة من صنف متحدثين إثنين، و47 لغة من صنف

متحدث واحد. ويزداد عدد اللغات التي لم تعد تحظى في الواقع بأي أهمية عملية كوسائل اتصال، حيث لا يتغيّر الحال حتى عندما ندخل في حساباتنا اللغات التي لا يتحدثها سوى ثلاثة أشخاص، أو كأقصى حد بضع عشرات من الناس. وفي وتيرة ديناميكية للتبدل اللغوي أخذ عدد اللغات القزمة التي بدأت تقترب من الحدود الدنيا لوجودها بالازدياد.

اشكال موت اللغات

مع وفاة آخر الناطقين بها تنقرض لغة ما إلى الأبد. ثم إنّ لغة ما قد تخرج عن نطاق الاستخدام عندما يتنازل عنها القوم الذين يتحدثونها ويتحولون للحديث بلغة أخرى. حينئذ لا يموت المتحدثون باللغة وإنما اللغة نفسها. «موت اللغة Sprachentod» هو في الواقع تعبير جناسي، ومع هذا فإنه يصف الأوضاع بصورة دقيقة تماماً (Crystal 2000). الشرط الأساسي لموت اللغة هو تعرضها للخطر. لكن تعريف ذلك الشيء الذي يشكّل عملية التعرض للخطر ليس بالأمر السهل نظراً لأنّ المصطلح يتضمن العديد من التقييمات. وأكثر الشروط الأساسية للتعرض للخطر هو بالتأكيد الفجوة القائمة بين اللغة المهيمنة وغيرها من اللغات. وفي الحالات التي تمتص فيها لغة مهيمنة الوظائف الاجتماعية الأساسية للغة أخرى، يبدأ وجود اللغة الأخيرة بالتعرض إلى الخطر (Bereznak/Campbell 1996).

لقد رافق موت اللغات البشر منذ آلاف السنين. أما ما يميّز حال الفترة الحالية عن المراحل الأقدم فهو وتيرة الإنقراض الذي ازدادت

حدته. في القرن العشرين تضاعفت حالات موت اللغات بصورة درامية. ففي درجة غير معروفة في السابق، قام إنسان الحداثة باستخدام معارفه التكنولوجية من أجل استغلال الطبيعة. وكلما ازدادت رعونة التصرف حيال المحيط الطبيعي، ازداد أيضاً تعرض الشعوب الصغيرة للخطر داخل موئلهم الطبيعي. إن اتلاف البيئة والقضاء على الشعوب الصغيرة في العالم هي عمليات متزامنة مع مزيد الأسف. ثم إنّ عملية القضاء يجب أن تفهم بالمعنى البعيد على أنها عملية قضاء جسدي والتي تتطابق مع العقل الجماعي، وإدماج قسري بناء على القمع السياسي وكذلك فقدان الهوية بمفهوم الإضرار الجسدي.

لا توجد إحصاءات دقيقة حول الآثار التي خلفتها الحداثة على الشعوب الصغيرة واللغات القزمة على نطاق عالمي، بل هناك تقديرات عامة فقط تعتمد مصداقيتها على النظر إليها من وجهة نظر عاطفية أو موضوعية. بالنسبة لبعض مناطق العالم هناك وثائق موجودة تحت التصرّف جرى بموجبها تقييم ملاحظات على المدى الطويل تتعلق بهذه الأمور، وأحد هذه الوثائق هي الدراسة التي أعدها ريبايرو (Ribeiro 1957) حول هنود البرازيل.

يقارن ريبايرو حال الهنود في نحو 1900 مع حالتهم الحالية (أي في نحو منتصف القرن العشرين)، ويستعرض ما مجموعه 230 مجموعة إثنية هندية يجري تصنيف طريقتها في الحياة بالنظر إلى علاقتها مع

غالبية الشعب في البرازيل: (1) الإنعزالية؛ (2) اتصالات متقطعة؛ (3) اتصالات منتظمة؛ (4) اندماج وانصهار؛ (5) انحلال الروابط الثقافية وموت اللغة. وينتمي إلى الصنف الأخير 86 شعباً صغيراً ولغات قزمة انقرضت حتى عام 1950. ويعد ريبايرو أيضاً هنود كاريتيانا Karitiana من جملة الشعوب المنقرضة وإن كان لا يزال يوجد من يتحدث لغتها.

إنّ انقراض اللغات عملية ترافقنا بصورة دائمة. إذ انقرض خلال العقود القليلة الماضية العديد من اللغات القزمة في الكثير من دول العالم. وفي بعض الدول تتكاثر حالات موت اللغة. ومن البلدان التي تملك مثل هذه النسب الكبيرة البرازيل (35 لغة منقرضة)، أستراليا (31)، الولايات المتحدة الأمريكية (26)، وكولومبيا (19). وكان التراجع أقل دراميا في البيرو (12)، الهند (11)، وفي السودان (9). وتأتي النسبة أقل من ذلك في دول أخرى (على سبيل المثال نيجيريا – 7، تايوان – 7، بوليفيا – 6، المكسيك – 5، أثيوبيا – 5، أندونيسيا – 5، پاپو – غينيا الجديدة – 5، جزر السولومون – 5).

هناك بعض الباحثين الذين ينطلقون من أنّ تعرض لغة إلى الخطر يصبح وارداً عندما لا يتم تعليم هذه اللغة، أي عدم تمتع الأجيال الجديدة بتعلم لغتها الأصلية هذه. وعند التحدث بصورة عامة يكون العجز الموجود في الوظائف الأساسية للغة ما مقياساً لتعرضها للخطر، بغض النظر عن عدد المتحدثين بها. في الدراسة الصادرة عن درسلر Dressler ووداك – ليودولتر (Wodak-Leodolter 1997) تجري مناقشة العُجز الوظيفي للغات مختلفة (على سبيل المثال البرتونية)

ولكنها لا تتطرق بأي حال من الأحوال إلى تحويل اهتمام القراء إلى أي من اللغات القِزمة.

ويكون للعجز الوظيفي وزناً ثقيلاً بصورة خاصة عندما يتعلق بتبدّل الأجيال، أي عندما تفقد اللغة وظيفتها كلغة الموطن. وعندما يتوقف الأطفال عن تعلّم لغة آبائهم، وعندما يتبنون لغة غريبة على موطنهم، تتعرض مجموعة اللغة التي لم تعد تُستعمل في تربية الأطفال وإدماجهم في نسيج المجتمع إلى خطر الإصابة بالشيخوخة. وفي دراسة وثائقية أعدها كراوس (Krauss 1997: 32 ff). جرى تطبيق معايير الحيوية على الوضع الحالي الذي تمر به المجموعات اللغوية الصغيرة والأصغر في جنوب وشمال الدائرة القطبية، فاتضح بمعونة هذه الدراسة أنّ الكثير من اللغات الصغيرة تفتقر إلى النمو الطبيعي الذي يعتمد على المتكلمين الشباب. ينطبق هذا على لغات الهنود مثل هان Han، كويكون Koyukon، أو كاسكا Kaska، وعلى لغات سيبيريا مثل الإيتلمنية Itelmenisch، ناناي Nanay أو اليوكاغيريّة Jukagirisch.

وفي نهاية عملية شيخوخة اللغة يتزامن عادة موت الناطقين بها مع موتها. وفي هذه العملية تفقد اللغة غير المهيمنة الموجودة تحت ضغط دائم للغة المهيمنة، بنيوياً أيضاً طبيعتها السابقة. «في مرحلتها النهائية تتقاسم اللغات الآيلة إلى الانقراض مع لغة الأطفال ولغات البيجنس Pidgins خصائص بنيوية غير كاملة بالمقارنة مع الأشكال الكاملة التطور لنفس اللغات» (Dorian 1992: 135 ff).

وعلى الرغم من عدم تعرّض جميع اللغات القزمة إلى خطر الموت اللغوي، فإنّ فرص تقوية حيوية اللغات المنتمية إلى هذا التصنيف ضئيلة جداً، علماً أنّ احتمال انتقال إحدى اللغات القزِمة خلال المائة عام القادمة إلى فئة لغات الملايين أو حصولها على وضع رسمي، يكاد يكون صفراً. ومن ناحية أخرى فإنّ احتمال انقراض غالبية اللغات القزِمة خلال المائة عام القادمة كبيراً جداً. هناك دلائل كافية على أنّ عدداً مهماً من اللغات التي صُنّفت هنا في حقل اللغات «المتوسطة» (أي أن عدد الناطقين بها يتراوح بين 1000 ومليون إنسان) سينتقل خلال القرن الحادي والعشرين إلى صنف اللغات القزِمة.

أما موت اللغة فيبقى في المحصلة النهائية على وضعه. في وقت ما سيموت آخر المتحدثين بواحدة من مثل هذه اللغات ما يعني أنّ المقومات اللغوية الثقافية ستنقرض مع وفاته. وفي الوقت الذي يستطيع فيه المرء متابعة المرحلة النهائية من موت اللغة بصورة إحصائية بالاعتماد على تناقص عدد المتحدثين بها، يكون بالمقارنة من الصعب جداً تشخيص مرحلة بداية هذه العملية. وأكثر المقومات عموميّة المطبقة على تحديد بداية موت اللغة هو في الواقع عدم وجود شروط عامة تشير إلى هذه البداية.

إنّ تعدد العوامل المشتركة في هذه العملية المسببة لموت اللغة منوط بالتنوع الكبير لشروط الوجود المحلي لمجموعة لغوية. لذا فإنّ الشروط اللازمة لإنحلال جماعة لغوية تختلف من مكان إلى آخر. ثم

إنّ استمرارية عملية موت اللغة لها علاقة بالمكان أيضاً. لذا لا حاجة أبداً إلى تقديم نقاط ارتكاز ديموغرافية عامة، أي ما يتعلّق بعدد المتحدثين، عند استفحال تعرض وسيلة اتصال إلى الخطر عَبْر موت اللغة.

تتميّز العوامل المؤدية إلى وفاة اللغة في الواقع بطبيعة فوضوية، وإن كان هذا لا يعني أبداً أنّ جميع الأمور تجري بصورة غير منتظمة. على العكس من ذلك، إننا نواجه ما يتعلق بموت اللغة، ظاهرة معقدة للغاية، لأنّ إطار جميع العوامل التي توجه العلاقات الاجتماعية بين الناس ضمن إطار التفاعل ثنائي اللغة متعدد الأوجه إلى درجة لا تمكن من الإدلاء بتصريحات مؤكدة حول اتجاهات التطوّر.

هناك العديد من الأمثلة التي تشير إلى ما قد يقع من تحوّلات وتبدلات لا يمكن التنبؤ بها مسبقاً، على سبيل المثال التطور الذي شهدته جماعة الناطقين بلغة رابا نوي Rapa Nui، وهي لغة اشتقت اسمها من الجزيرة التي يسكنها هؤلاء القوم. ورابا نوي (الهضبة الصخرية الكبيرة) هو الاسم المحلي الذي يطلق على (جزر الفصح) التي يسكنها حالياً نحو 2000 إنسان. وهناك تقديرات تشير إلى أنّ عدد سكان الجزر كان يصل إلى 10000 شخص عندما كانت ترفل بالرخاء الاقتصادي. غير أنّ الحروب المستعرة بين مختلف العوائل والقبائل من أجل السيطرة على المصادر والموارد الغذائية والتحكم بمقاليد الأمور وممارسة النفوذ السياسي، كانت قد قضت على غالبية

سكان هذه الجزر حتى قبل وصول الأوروبيين إليها في القرن الثامن عشر. وفي عام 1862 مثلاً كان عدد السكان 4500 (حول تطور السكان راجع: Esen-Baur/ Walter 1989: 161 f).

غير أنّ الجزر تعرضت إلى انعطافة حدثت في عام 1860 عندما قام تجار النخاسة من سكان البيرو بنقل القسم الأكبر من سكان الجزر على ظهر العديد من السفن، حيث لم يتبق في نهاية المطاف سوى 900 إنسان. وبفضل تدخل الأسقف ياوسن Jaussen، تمكن بعض هؤلاء المخطوفين من العودة إلى ديارهم. لكنهم جلبوا معهم بعض الأمراض المعدية والسارية التي سُرعان ما فتكت بمعظم سكان الجزر. وفي عام 1877 بلغ عدد سكان هذه الجزر نحو 111 إنساناً. وبلغ عدد سكان رابا نوي الذين هاجروا في عام 1871 إلى تاهيتي نحو 168 شخصاً. ونظراً لعدم وجود مَن كان يهتم بالثقافة واللغة المحليتين، فضلاً عن عدم بذل أي مجهود للمحافظة عليهما، بدت الأمور وكأن لغة رابا نوي كانت ستتعرض إلى الإنقراض مع نهاية القرن التاسع عشر.

لكن عدد سكان الجزر بدأ بالارتفاع، وبالتالي عدد الناطقين بلغة رابا نوي. لم يستقر الأجانب في الجزيرة إلاّ ابتداء من عام (795: 1988, 1950 (115: 1958. وغالبية هؤلاء الأجانب هم تجار من تشيلي مع عائلاتهم. ويشكّل أبناء الشعب الأصلي أكثر من ثلثي الآلاف الثلاثة الذين يسكنون الجزر حالياً. وبكل تأكيد فإنّ ابتعاد الجزر جغرافياً عن الأراضي القارية الأمريكية في الشرق (3760 كم) أو من (جزر المجتمع)

في الشمال الغربي (نحو 4000 كم) قد أدى إلى تعاضد وتكافل أبناء هذه الجماعة اللغوية.

ومن ناحية أخرى فإنّ التطوّر التقدمي مثير للدهشة والعجب إذا ما فكّرنا بأنّ التقاليد الثقافية القديمة (المراتب الاجتماعية للعائلات العريقة، ومعرفة العادات والأعراف القديمة، إتقان الكتابة والقدرة على قراءة نصوص ألواح الرونغورونغو Rongorongo) كانت في الواقع قد تقلّصت مع التهجير المفاجىء للسكان (Lee 1990: 44 ff). وهكذا تأقلمت ثقافة الرابا نوي ولغتهم أيضاً مع معطيات العالم المتغيّر دون الوقوع فريسة عملية التغيّر هذه.

ويمكن التعرّف على تعدد أوجه التطوّر الدينامي في جميع أبعاده ولغاية وفاة اللغة في أنّ العوامل المؤدية إلى ذلك تستطيع أن تعكس اتجاهات متعاكسة للغاية. فمن ناحية، هناك طاقة الضغط الإندماجي الذي تمارسه لغة مهيمنة على لغة غير مهيمنة، علماً بأنّ اللغة غير المهيمنة تمرُّ في مراحل مختلفة من التبدل اللغوي الذي يشمل فقدانها آخر حلقة من حلقات هذه المراحل. ومن ناحية أخرى يمكن أن يحدث موت اللغة أيضاً عَبْر ميل اختياري نحو استبدال لغة بلغة أخرى.

وترتبط هذه العملية في وعي ووجدان الذين يتحدثون لغة غير مهيمنة في أمر مهم للغاية يتمثل في عدم تمكنهم من ارتقاء السلم الاجتماعي إلا بعد اتقانهم لغة مهيمنة منتشرة. في هذا الصدد لا

يلعب الضغط الإندماجي أي دور يستحق الذكر نظراً لأنّ موت اللغة في مثل هذه العملية قد جاء نتيجة تغيير لغوي طوعي.

وعلى الرغم من أنهما ينهلان من ينبوعين مختلفين، فإنّ الاتجاهين المذكورين يمكن أن تكون لهما علاقة متبادلة متينة ويشترطان بالتناوب أو بصورة مؤتلفة فقدان لغة غير مهيمنة معينة. إنّ مفعول هذا الاتجاه أو ذاك يمكن أن يتباين بعد فترات استراحة زمنية، أو أن يكون معتمداً على تيارات اجتماعية سياسية.

وتُظهر عملية الانصهار الطويلة المدى التي خاضتها على سبيل المثال اللغة الليفيّة Liwische خلال الأعوام المائة المنصرمة تقلبات التطور السياسي - الإيديولوجي التي شهدتها لاتفيا. لقد أجبرت سياسة الإندماج التي مارستها روسيا القيصرية الكثير من سكان لاتفيا ممن كانت منطقة سكناهم مقصورة منذ سنوات عديدة على لسان كور الأرضي Kurische Nehrung (غرب خليج ريغا) على تغيير لغتهم، علماً أنّ استقلال لاتفيا بين 1918 و1940 كان وراء تمهيد الطريق أمام التغيير الطوعي للغة.

لقد خضعت دول البلطيق بعد ضمها إلى الدولة السوفييتية للنفوذ المباشر للنظام المركزي الستاليني ما كان يعني إسمياً تطبيق المبادىء اللينينية لسياسة ديمقراطية تجاه اللغات، في حين أنه كان يعني فعلياً سيطرة لغوية روسية على دول البلطيق. لقد كان الضمان الاجتماعي يعتمد إلى حد كبير على الإلمام باللغة الروسية. أما في

حقبة السيادة الجديدة للدولة اللاتفيّة (منذ 1991)، فإنّ السياسة اللغوية الوطنية في لاتفيا لا تلعب أي دور في تأثيرها على الأقلية الروسية للبلاد ولا على أقلية الليفيين. لقد قطع تغيّر اللغة شوطاً بعيداً إلى درجة أنّ غالبية الليفيين لا يتحدثون إلاّ اللاتفيّة وعدم استخدام اللغة الليفية من قبل محدثيها المسنّين إلاّ نادراً (Väari 1995).

وفي ما يتعلق بوضع اللغات القِزمة نود التأكيد على أنّ احتمال تعرضها للخطر وارد تماماً بغض النظر إن كانت اللغة غير المهيمنة حيّة في بعض الجماعات الصغيرة أم لا. وفي مجموعات اللغات القِزمة تعتبر الظروف الاجتماعية السليمة السائدة داخلها أحد الأجزاء المهمة جداً من أجزاء بقائها، على عكس تأثير هذا العامل في الجماعات الأكبر. وعلى الرغم من إندماج بعض الذين تُعتبر الألمانية لغتهم الأم في مجتمعات خارجية معيّنة، فإنّ أماكن العالم المختلفة لا تخلو مِمن يتكلم الألمانية. إنّ الخسارة من الإندماج التي تتعرض لها لغة كبيرة كالألمانية يمكن أن يُعادل بصورة عامة عن طريق إندمامج العمال المهاجرين إلى ألمانيا أو الناس الذين مُنحوا حق اللجوء (الألمان الجُدد) مثلاً. أما إندماج أفراد قلائل فقط من المتحدثين بلغة قِزمة ما فيمكن أن تكون له نتائج عكسية بالنسبة إلى استمرار حياة المجموعة اللغوية الصغيرة.

ثم إنّ المجموعات الصغيرة تعتمد إلى حد كبير على التوازن الإيكولوجي للمنطقة التي تقطنها. فلقد أدت الكوارث التي خلفها تيار

النينو El Nino 1997 - 1998 على الدول الواقعة في الباسيفيك (كوارث فيضانات وجفاف وكذلك حرائق غابات في جنوب شرقي آسيا التي استمرت أشهراً طويلة) إلى إخلاء مناطق بكاملها من سكانها بعد أن قضت هذه الكوارث على المقومات الاقتصادية لهؤلاء الناس. وهكذا يتحمّل النينو مسؤولية اضمحلال بعض الجماعات اللغوية الصغيرة، والانتقال القسري لأفراد هذه الجماعات من مكان إلى آخر وانتشارها في مناطق ذات لغات غريبة عليها تماماً.

ويعتبر الوضع الصحي وعلاقته بالرعاية الطبية عاملاً مهماً في التوازن الإيكولوجي، لأنّ مجموعة لغوية تضم بعض الأفراد القلائل مثلاً قد يتهدد وجودها إثر انتشار بعض الأوبئة في صفوفها، لا بل قد تتعرض إلى الانقراض التام. مثل هذه المخاطر تهدد الشعوب الصغيرة، وخاصة في المناطق التي يكون فيها متحدثو اللغات القِزمة بعيدين عن مراكز المدينة ويعيشون معزولين عن الجماعات الأخرى، في مناطق غابات الأمازون المطرية مثلاً. ثم إنّ المستوطنين البيض أو المبشرين الذين يحتكون بالقبائل المعزولة من الهنود ينقلون لهم بعض الأمراض المعدية والسارية (على سبيل المثال فيروسات الرشح والنزلة الصدرية الحادة ومسببات الجدري) التي لا يتمكن السكان المحليون من إظهار أي مقاومة لها. وفي المناطق البعيدة يفتقد الناس غالباً إلى المعونات الطبية مما يؤدي أحياناً إلى انتشار الأوبئة كانتشار النار في الهشيم.

ومن طريق الأمراض المنقولة تم القضاء نهائياً على الكثير من الشعوب الصغيرة في العديد من مناطق العالم. ومن الأمثلة الحيّة على ذلك نقل مرض الجدري إلى الآلويتيين Aleuten في بداية القرن العشرين، حيث توفي معظم أعضاء هذه الجماعة البالغ عددهم آنذاك نحو 20000 شخص، ولم يبق منهم حالياً سوى 720 شخصاً (1989) الذين ينتشرون في الطرف الروسي ولا يتكلم اللغة الأم منهم سوى 162 شخصاً، في حين أنّ البقية الباقية تعيش في الجانب الأمريكي في ولاية آلاسكا (Kazakevitch 1998: 315).

لقد كثر الحديث في البحوث العلمية ذات العلاقة عن ناحية التهديد الذي تتعرض له الشعوب الصغيرة في أمريكا وإفريقيا نتيجة الأمراض السارية التي ينقلها الرجل الأبيض إلى هذه المناطق. وحتى في قطاع الأفلام التي تتطرق أحداثها منذ الثمانينيات إلى مسألة الشعوب المعزولة، تمّ تصوير هذه الأخطار كما في فيلم Medicine Man لعام 1992 بطولة الممثل العالمي شين كونري Sean Connery.

ويشكل موت اللغات مشكلة حسّاسة للغاية، مما يجعل من المحافظة على التوازن الموضوعي ناحية ذات أهمية كبيرة نظراً لتأجج العواطف كلما دار الحديث عن هذا الموضوع. وفي سياق مثل هذه المبالغات الدرامية يمكن أن يحدث إعلان موت لغات وثقافات صغيرة على الرغم من وجود العشرات لا بل المئات من الناس الذين يتحدثونها. ومن الأمثلة على ذلك بعض لغات الأمازون مثل كاريتيانا

Karitiana، آروا Aruà، مونديه Mondè أو آرارا Arara (الواقعة على مصبّ جي - بارانا) التي أُعلنت وفاتها قبل عشرات السنين (راجع: Loukotka 1968 و1977 Voegelin/ Voegelin) على الرغم من أنّ الباحثين كانوا قد عثروا في عام 1980 على مَن يتحدث هذه اللغات (Derbyshire/ Pullum 1986/I: 10, 13 f).

مشاريع لتشجيع اللغات القِزمة

آفاق تخطيط واقعيّة أم جهود شاقّة لا جدوى منها؟

بالنظر إلى مثل هذه الظروف الصعبة التي تمرّ بها مجموعات اللغات القِزمة، يتولّد السؤال المتعلق بطريقة التخفيف من وطأة المخاطر التي تهدد هذه اللغات. وعلى الرغم من النوعية العفوية لمثل هذه الأسئلة إلاّ أنها مشجعة. فسؤال «كيف» لا يعتبر كثير الأهمية جداً، بل المهم هو سؤال «إن كان واجباً» أو «إن كان المرء قادراً على». وعند التفكير بمشاكل البيئة الكثيرة التي يجب علينا حالياً التصدّي لها ومعالجتها، يميل المرء أحياناً إلى القول بإنّ مسألة تعرض اللغات القِزمة إلى الخطر لا تُعتبر ذات أهمية بتاتاً، خاصة وأن هذه المشكلة لا تهدد وجودنا ولا مستوانا المعيشي نحن سكان الدول الصناعية.

أما عند توجيه السؤال المتعلق باحتمال مساس مشكلة اللغات القِزمة بمستقبلنا العالمي، فإن المرء لا يجد بسهولة جواباً شافياً على ذلك. من المفيد جداً التفكير بالجواب، إذ قد يبدو واقعياً أو برغماطياً أن نعزو من النظرة الأولى، إنحلال المجموعات اللغوية الأصغر أو

إنصهارها أو انقراضها إلى المؤثرات البيئية، وكيف أن موت اللغات القزمة أمر من صنع الطبيعة لا يمكن التحكم به.

في الواقع أن مثل هذه النظرة تعبّر عن تفكير متردد قد يفوّت علينا فرصاً أساسية تتعلق بالسيطرة على مستقبلنا الخاص بنا. إن المساعي المبذولة للمحافظة على اللغات القِزمة وعلى المجموعات التي تنطق بها وعلى ثقافاتها أمور ذات أهمية أساسية بالنسبة لنا لأسباب عديدة وبالتالي وعياً مرتبطاً بذلك الذي يقف في رأي العذميين في ضوء مثالية غريبة على العالم. هناك العديد من الأمور التي تدعو إلى حماية اللغات القِزمة المعرضة للخطر نذكر فيما يلي أهمها:

1) إدراج حماية اللغات والثقافات في الاتفاقيات الدولية

إن فكرة حماية اللغات القِزمة منصوص عليها في الاتفاقيات والمعاهدات الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان (ابتداء بالبيان العام حول حقوق الإنسان لعام 1948)، والأقليات والثقافات المحلية، وإن لم تجر الإشارة مباشرة إلى موضوع اللغات القِزمة وما يتصل بها بالتالي من ثقافات محلية. لقد حدث تفهم عالمي لمشكلة الشعوب الأصلية (Burger 1990)، وأحد الرموز الدالّة على ذلك هو انتباه الرأي العام العالمي للموضوع الذي اختارته منظمة الأمم المتحدة لعام 1993 وتكريس ذلك العام للشعوب الأصلية: International Year for the World's Indigenous People.

إذن مَن يعترف بحقوق الإنسان جملة وتفصيلاً فإنه يقبل

ونوماتيكياً حق المحافظة على اللغات الأصلية والثقافات المحلية وصيانة محيط سكن وإقامة أبناء البشر كافة. إنّ الآراء الأساسية حول حقوق اللغات وحق الوطن لم تتغيّر لكن الذي تغير هو اللهجة التي يتم فيها الحديث عن الشعوب التي تعيش على الفطرة حيث تم الدفاع عنها خلال السنوات القليلة الماضية بصورة متزايدة. لذا فإنّ النظريات الحديثة عن مشاكل حقوق الإنسان تختلف عن النظريات التقليدية في أسلوبها عن طريق إعطاء الأفضليات، أو بواسطة الطريقة التي يمكن فيها مؤالفة المعايير الرئيسية مع عوامل أخرى. إنّ التصنيف الذي أعده كلوس (Kloss (1969: 130 عن حقوق الإنسان المتضمن بصورة خاصة أيضاً حقوق المحافظة والتشجيع ذات الصلة باللغة، لا يزال يُعتمد حتى يومنا هذا في الدراسات ذات العلاقة بالموضوع (راجع الشكل 20).

2) حماية اللغات القِزمة جزء لا ينفصل عن أحكام الحماية لمختلف الدول

توجد في غالبية دول العالم قواعد وأحكام لحماية مواطني هذه الدول والمنصوص عليها في دساتير هذه الدول أو في حقوق وقوانين منفردة. وفي الإطار الذي يتم بموجبه تطوير طريقة تشجيع الحقوق الثقافية للأقليات، توجد أيضاً حماية مبدئية للغات القِزمة والمجموعات التي تتحدثها.

إنّ الإشارات الصادرة عن جهات حيادية خارجية المتعلقة بخرق

الشكل 20: حماية اللغات في نظام لحقوق الإنسان

(Heinz Kloss 1969: 130)

A	B	C	D	E
تصنيفات حقوقية		مبادىء حقوقية	محتويات حقوقية	
		درجات	محتويات	
حقوق الإنتشار	حقوق (غير مباشرة) معينة	12. حرية	11. تقرير المصير 10. مساواة قومية كاملة أو حكم ذاتي (= الحقوق العامة للجماعات)	
لكرامة الإنسان		المساواة	9. حقوق تشجيعية معيّنة (على سبيل المثال استعمال اللغة الأم في الإدارة، والمعاملات الحقوقية، والمدارس العامة) 8. حقوق الصبر على أجزاء من الجماعات (على سبيل المثال استعمال اللغة الأم في الكنائس، الصحافة، المدارس الخاصة) 7. حقوق تسامح فردية معينة (على سبيل المثال استعمال اللغة الأم في إرسال البرقيات أو المحاسبة ومسك الدفاتر)	
لخدمة	حقوق (مباشرة) غير معيّنة	الأمن	6. حقوق تشجيعية غير معينة (على سبيل المثال حق الانتخاب، الترخيص بالعمل في الدوائر الرسمية) 5. حقوق تسامح غير معينة لأجزاء جماعات (على سبيل المثال الحرية الدينية، الحق بالذهاب إلى المدارس الخاصة) 4. حقوق تسامح فردية غير معيّنة (على سبيل المثال الحماية عند التقدم في السن، التعليم، السلام المنزلي)	
حقوق المحافظ			3. الحق في الحرية البدنية. (اللاعبودية) 2. الحق في الموطن. 1. الحق في الحياة.	

حقوق الإنسان في دولة من الدول - مثل معاملة جماعة لغوية صغيرة - غالباً ما ترد عليها الحكومات المعنية بالأمر على أنّه «تدخل سافر في شؤونها الداخلية»، لا يمكن القبول به أبداً. أما عندما توجد قواعد حماية إسمية في الدولة المعنية المتعرضة للانتقاد، حينئذ تسقط حجة التدخل في الشؤون الداخلية.

وعندما لا تقوم جهات خارجية بالدفاع عن مصير اللغات القِزمة في دولة ما، حينئذ يمكن النظر إلى الصمت على أنه صنو لانخفاض الوعي بحقوق الإنسان تحت مستوى المقاييس القائمة والمعتمدة من قبل الدول المنفردة. لذا فإنّ الإشارة إلى خرق حقوق الإنسان تعد بمثابة التحذير لما فيه خير الصالح العام ومعادلة التلكؤات المتعلقة بتطبيق قواعد وأحكام الحماية الموجودة.

3) حماية اللغات القِزمة رديف لحماية الطبيعة

تشبه قواعد حماية اللغات القِزمة أحياناً خطة قواعد لحماية الطبيعة المخصصة للحيوانات والنباتات المهددة بالإنقراض. حيث يمكن حماية أحد أنواع العصافير المهددة بالانقراض مثلاً بالاستنكاف عن قطع أشجار الغابة التي يعشش فيها هذا العصفور. وبهذه الطريقة أيضاً يستطيع المرء حماية جماعة لغوية صغيرة في منطقة الأمازون عند عدم تدمير مجالها الحيوي المتمثل في الغابات المطيرة.

ثم إنّ المرء يحمي الأنواع المختلفة من الحيوانات عند عدم اقتحام نظامها الإيكولوجي، حيث تقوم أنواع الحيوانات بالفرار بمجرد اقتراب الإنسان منها. على هذا المنوال يمكن حماية اللغات القِزمة عند تحاشي الحالات التي يقوم بها ممثلو عالم التكنولوجيا ببث الرعب في قلوب الشعوب الصغيرة بما يتخذونه من خطوات غير حصيفة.

4) استحقاق حماية اللغات القِزمة لأهميتها بوصفها وسيطاً لنقل تجارب التعامل مع الطبيعة

من الجدير بالذكر أن كل ثقافة من الثقافات تملك كنزها الخاص بها من التجارب التي كان أفرادها قد راكموها خلال أجيال عديدة من تعاملهم مع البيئة. وتتضمن مفردات كل لغة من اللغات القِزمة التجارب الجماعية للمجموعة اللغوية وذلك في التراكيب المعجمية للمجالات التي يكوّن فيها المتحدثون شفهياً بيئتهم ودوافع حياتهم. وفي ما يتعلق بالتعامل مع البيئة والطبيعة أضعنا نحن سكان المجتمع الحديث خلال التطور الثقافي، الكثير من المعارف (Sieferle 1997). والكثير منّا يفتقر إلى التجارب اللائقة للعيش مع الطبيعة وفيها. وعلى غرار ما كانت الأجيال السابقة تفعله، ما زالت الأغلبية حتى يومنا هذا تتصرف بصورة لا واعية كما لو أنها مضطرة إلى عزل المجال الحيوي الذاتي عن المؤثرات الطبيعية. علينا إذن أن نستخلص نوعية الحياة من الطبيعة.

إنّ العثور من جديد على المعارف المفقودة المتعلقة بالتعامل مع

الطبيعة وإعادة تقييمها بما يتماشى مع أوضاعنا الحياتية الحالية، هو أحد المهام الرئيسية للإجراءات الإيكولوجية في عصرنا الحالي (Wehrt 1996). وستبقى المساعي التي نبذلها من أجل مراكمة المعارف حول ظروف وجودنا الطبيعية ذات قيمة ما دامت ثقافات اللغات القِزمة موجودة. إن المعرفة المفقودة التي نعتمد عليها من أجل صياغة مستقبل مجتمع المعلومات متعددة الأوجه (Maybury-Lewis, 1992).

يتعلق الأمر في هذا السياق بمعارف عن النباتات المفيدة للإنسان (أعشاب للشفاء، احتياطي غذائي، مواد بناء)، وبالخبرات والتجارب المطبقة في تقفي مصادر المياه العذبة، ولصنع الأجهزة، وحول تقنيات البناء الأساسية، وبصورة عامة حول المعرفة التي يحتاجها الناس من أجل التأقلم بصورة فعالة مع ظروف البيئة (Kemf 1993). إنّ كل لغة قِزمة وكل ثقافة محلية تضيع، تفقدنا كميات من التجارب والخبرات التي قد نحتاج إليها لصياغة حياتنا وتأمين وجودنا.

5) حماية اللغات القِزمة جزء من وعي إيكولوجي (بيئي محيطي) عام

في السنوات الماضية تأكد الرأي القائل بضرورة بذل المساعي للمحافظة على توازن إيكولوجي عالمي. إن البشرية تجد نفسها في الواقع في مرحلة انتقالية من الاستغلال الأعمى للطبيعة إلى مرحلة - كما تدلل على ذلك التنبؤات الباعثة للأمل - يسود فيها وعي الإندماج

مع الطبيعة، أي عدم التقوقع حيالها إنطلاقاً من غطرسة التفوق التكنولوجي أو تدمير توازنها عَبْر إجراءات عشوائية ودون مساءلة.

إنّ الوعي الإيكولوجي متجذر في العديد من المجموعات المحلية في العالم، لكن الوعي العالمي لا ينشأ إلاّ من تشابك تراكيب الوعي الإيكولوجي المحلية. وهكذا فإنّ الطبيعة العالمية لا تشير إلى وضع خيالي تكون فيه طرق تفكير الناس موحدة، بل إلى تعدد تجارب محلية إيكولوجية يجب العمل بها. إن احترام الطبيعة «على نطاق عالمي» (Taylor 1989) يقوم على قاعدة التكوّن المحلي - الجماعي للوعي في الثقافات المحلية ويعبّر عن نفسه باللغات المحلية. تحت وجهة النظر هذه أيضاً يعد الحفاظ على اللغات القزمة وعلى المجموعات الناطقة بها وثقافاتها عنصراً إدماجياً في شبكة تكوين وعي إيكولوجي عالمي.

وإذا ما وجه المرء بالاعتماد على الخلفيات المذكورة أعلاه السؤال المتعلق بالطريقة التي يمكن فيها ضمان هذه الحماية - هذا إن كان من اللازم تقديم الحماية - فإنّ الإجابة الشافية الوافية غير ممكنة أبداً، لأنّ هذا يتعلق في المقام الأول بروح العصر الذي يتخذ اليوم من مشاريع ومبادرات التخطيط مواقف انتقادية أكبر بكثير مما كان يحدث قبل سنوات قليلة. يعني هذا أنّ الإجابة على السؤال أعلاه ستكون في الوقت الحاضر مختلفة تماماً عمّا كانت عليه في الستينيات ومطلع السبعينيات.

لقد كان العالم آنئذ أسير أيديولوجية تقدّم عامة، حيث أدى

التنافس بين القوتين العظميين إلى غزو الفضاء، وكان العقائديون الكبار في الكرملين يعقدون الآمال في أحلامهم على التفوّق الاقتصادي على الولايات المتحدة الأمريكية، ويتحدثون عن الآفاق الوردية التي تنتظر تطور الاقتصاد العالمي. وفي البلدان النامية الفتية لم تكن التجارب المطلوبة لتحقيق التنمية الاقتصادية والسياسية والثقافية قد اكتملت. وبصورة عامة كان المرء ينطلق من أنّ النمو الاقتصادي على النطاق العالمي سيجد صداه في البلدان النامية أيضاً، مما سيؤدي آجلاً أو عاجلاً إلى ارتفاع المستوى المعاشي على نطاق عالمي.

في إطار هذه الفورة الاقتصادية لم يظهر مخططو المجتمع ولا مخططو اللغات أي اهتمام يستحق الذكر بمصير اللغات القِزمة نظراً لأنّ الأمر في حينه كان يدور في المقام الأول حول معادلة الاختلافات الطبقية الاجتماعية، وقيام الدول التي كانت قد حصلت تواً على سيادتها خلال الفترة التالية لمرحلة الاستعمار باعتماد قواعد لغات رسمية تستخدمها في اتصالاتها الدولية وتحقيق تسوية لغوية تؤدي وظيفتها في حقل نظم التعليم. لقد كانت اللغات القِزمة وفق التصورات القديمة السائدة في حينه وسائل اتصالات قديمة لا أمل فيها، والتي كان الناطقون بها سيضطرون آجلاً أو عاجلاً للإنصهار لغوياً وثقافياً والاندماج اجتماعياً. لقد كان التبشير المسيحي مهتماً في كل العالم في تحضير أفراد الثقافات المحلية روحياً للإندماج في

ثقافة الأغلبية. وفي حينه كان المرءِ في الاتحاد السوفييتي وفي الهند قد نفض يده من التصورات المثالية المتمثلة في المحافظة على جميع لغات البلاد من أكبرها وحتى أكثرها صغراً.

بيد أنّ الانتكاسة الاقتصادية بعد أزمة النفط في عام 1973 هزّت دعائم أيديولوجية التقدّم في جميع أرجاء العالم، وولدت أمزجة كارثية ووعياً مفاده أنّ التطور الاقتصادي السريع الذي كانت البشرية قد شهدته كان قد أرتطم فجأة بحدوده الإيكولوجية، مما دفع إلى إجراء مراجعات نقدية لمشاريع التخطيط للأعوام السابقة والابتعاد عن التصورات المثالية للأهداف المقصودة والعودة إلى أرض الواقع. وسعى التخطيط اللغوي أكثر فأكثر لإجراء حسابات تتعلق بغرض وقيمة الاستفادة من المشاريع المتعلقة باللغة وفي الوقت نفسه أخذ التخطيط يزداد صعوبة منذ أن بدأ المرء يدرك تماماً أنّ القضية قيد البحث لا تتأثر بعوامل موضوعية مثل المكانة الاجتماعية أو الإرادة على المحافظة على اللغة (Haarmann 1986: 83). فعندما تكون إرادة المحافظة على لغة قِزمة ضعيفة التطور في صفوف الناطقين بها فإنّ التخطيط الهادف للمحافظة عليها لا يمكن أن يؤتي مردوده أبداً.

إننا نعيش في الوقت الحاضر حالة من المفارقات. فمن ناحية ازداد الوعي تجاه تعريض اللغات القِزمة للخطر مع التأكيد على ضرورة اتخاذ الاجراءات اللازمة من أجل حمايتها، ومن ناحية أخرى فإنّ التشكك تجاه إمكانات التدخل في الظروف المحيطة بوجود

الثقافات المحلية ازداد هو الآخر أيضاً. توجد حالياً تعاليم لحماية الأقليات أكثر من أي وقت مضى في تاريخ السياسة الإثنية. ومن ناحية أخرى نفض المرء في العديد من الأماكن يده من المفاهيم ذات الشأن بالتخطيط بعد أن توضح أنّ تدخل أُناس من الخارج في المحيط الثقافي لأية ثقافة محدودة سيأتي بالمخاطر معه: صدمة ثقافية وتصادم أنظمة من القيم لا تُعرف عقباها. وبغض النظر إن كان ذلك في تايلاند أو الفيلبين، في البرازيل أو ماليزيا، فإنّ ممثلي الحكومة يحذرون من مغبّة إقامة علاقات غير مدروسة تماماً مع الشعوب الصغيرة ما قد يؤدي إلى زعزعة رتابة حياتهم بصورة غير قابلة للإصلاح أحياناً.

يواجه المخطط (المخطط اللغوي و/ أو الاجتماعي) موقفاً حرجاً في مساعيه التي يبذلها من أجل دعم فعّال للمحافظة على اللغات القِزمة. فمن ناحية، يتطلب الالتحاق بركاب العالم «المتمدن» إجراءات مدرسية وتقديم المعارف عن هذه اللغات والناطقين بها لأغلبية السكان، ومن هذه الإجراءات محاولة تعليم اللغات القِزمة في الحصص المدرسية. ومن ناحية أخرى، فإنّ الاستفادة القصوى من التخطيط قد تكمن في عدم المساس بتاتاً بالتركيب الاجتماعي السليم لشعب صغير، وبالتالي عدم تطوير أي خطط في هذا الصدد. وهكذا فإنّ هذين البديلين المتعلقين بحماية الشعوب الصغيرة واللغات القِزمة - تخطيط فعّال من ناحية وعدم تخطيط (بمفهوم الحماية من

أخطار صِدَام الثقافات) من ناحية أخرى - نجدهما دوماً في أماكن انتشار اللغات القِزمة في العالم.

ومن الوظائف الهامة للتخطيط الفعّال إيجاد خط تكتب به اللغة القِزمة في حال عدم وجود شكل كتابي تعبّر فيه اللغة عن نفسها. ثم إنّ القضاء على الأمية وفتح عالم القراءة والكتابة بوجه أفراد الثقافات الصغيرة يتسهّل أمرهما كثيراً عندما تتم هذه العملية المهمة تدريجياً عَبْر اللغة الأم لهؤلاء القوم أو أولئك. كما إنّ القدرة على القراءة والكتابة في اللغة الأصلية أو في لغة الأغلبية السكانية لا تقوّي هوية اللغة المحلية وحسب، بل أيضاً الطاقات الثقافية الكامنة لأفراد هذه المجموعات الصغيرة للتعاطي والتواصل مع الآخرين عَبْر استخدام أكثر من لغة واحدة (World Education Report 2000, 30. f).

وينتمي تشجيع تعليم لغات الأقليات في المدارس إلى الأهداف التقليدية لمخططي اللغات. لهذا نرى أنّ إدماج اللغات القِزمة في البرامج التشجيعية المدرسية يكون له مغزى فقط حيثما تكون الشروط الإيكولوجية مشجِّعة في ما يتعلق بالاتصال الدائم والمنتظم بين أفراد شعب صغير وأبناء الغالبية العظمى من السكان في دولة ما. ولا يمكن لمخططات استحداث خط لكتابة اللغة القِزمة ولا لوظائفها في القطاع التعليمي أن تعطي ثمارها إلاّ عندما لا تكون الأقلية المعنية بالأمر تعيش متقوقعة على نفسها ومعزولة عن العالم الحديث.

في أستراليا على سبيل المثال سلك المرء هذا الطريق منذ

عشرات السنين، حيث انصهرت غالبية الأبوريجنيس (سكان أستراليا الأصليون) مع مرور الوقت وأخذت تتحدث ضرباً من اللغة الإنجليزية يتكون من الإنجليزية الأسترالية القائمة على الإنجليزية البريطانية، علاوة على أنّ الآلاف من الأبوريجنيس يتحدثون لغات الكريبول Kreol المحلية، مثل الكريول Kriol أو كريول مضايق توريس Torres Strait Creole. معظم لغات الأبوريجنيس لم تكن مكتوبة أبداً. ومن بين اللغات المستعملة حالياً يتم استخدام 30 لغة في المدارس، أي تستخدم كتابياً في المدرسة (راجع الفصل السادس حول مشاكل الكتابة واستخدامها). وهذه اللغات محصورة في برنامج تدريس بلغتين يجري فيه مراعاة اللغة المحلية بشكل أقوى في الصفوف الدنيا، مع تركيز الانتباه على اللغة الإنجليزية في الصفوف العليا. إنّ المدارس ذات اللغتين تأسست في المناطق الشمالية، في غرب أستراليا وجنوب أستراليا (Schmidt 1994).

اللغات القزمة، السكان المحليون والأشكال الاقتصادية الإقليمية

يمكن التعرّف على متانة ارتباط الظروف الإيكولوجية لشعب صغير مع عالم الأغلبية السكانية عند النظر إلى أشكاله الاقتصادية. ويكون الارتباط ضئيلاً في تلك المناطق من سكَن الأقلية التي لا تنتشر فيها سوى الأشكال الاقتصادية التقليدية والمحلية الخالصة. أما في المناطق التي تتجاور فيها الأشكال الاقتصادية الحديثة والتقليدية، فإن التخطيط لا يؤدي إلى تصادم عالمين مختلفين. إن الاندماج

الحاصل بين الظروف الحياتية التقليدية والحديثة نجده في لابلاند في صفوف الزاميين في المنطقة القريبة من إيناري حيث لا تزال كالسابق تسود تربية حيوانات الرنّة وحيث نشأت في الوقت نفسه شركات صناعية حديثة. عالم الزاميين (في فنلندا) أصبح حديثاً. فعلى الرغم من أنّ صاحب قطيع حيوانات الرنّة ما زال كالسابق يقود حيواناته إلى مكان الكشف عليها (عزل الحيوانات المخصصة للنحر، ووسم الحيوانات الصغيرة)، فإنّه لم يعد - كما كان يفعل أجداده مثلاً - يستعمل الزحافات التي تجرها حيوانات الرنّة، بل يستخدم السيارة في حطّه وترحاله.

ومن أجل اللحاق بعالم فنلندا التقني، اضطر الزاميّون في لپلاند الفنلندية إلى دفع ثمن غالٍ حسب رأي التقليديين في الشؤون الثقافية: انصهار لغوي في الفنلندية وفقدان الهوية الزاميّة - الثقافية. لا يوجد حالياً سوى 350 شخصاً تقريباً يحسنون اللغة الإينارية الزاميّة Inari-Saamisch في حين أنّ الأجيال الجديدة لا تتحدث سوى الفنلندية، ما يعني أنّ اللغة الإينارية - الزاميّة لغة قِزمة مهددة بالإنقراض. بيد أنها تنتمي إلى ذلك الصنف من وسائل الاتصال التي يمكن تطبيق عملية التخطيط عليها دون التعرض إلى أي مخاطر تستحق الذكر. تدعم المبرة الثقافية الفنلندية (Suomen Kulttuurirahasto) منذ عام 1997 مشروعاً لخمسة أعوام يهدف إلى زيادة شعبية الإينارية - الزاميّة في صفوف الأطفال الصغار قبل دخول المدرسة. أما إذا كان هذا

المشروع سيتكلل بالنجاح ويفتح الأبواب أمام الأجيال القادمة لتعلّم هذه اللغة فأمر يظهره المستقبل.

أما البديل الآخر من إجراءات حماية الشعوب الصغيرة واللغات القِزمة، أي عدم إجراء أي تخطيط فأمر يجعل الناس يواجهون الكثير من المصاعب نظراً لأننا نعيش في عصر التفاعلات العالمية. مع هذا يجب علينا إعطاء الأولويات لما نقوم به من تصرفات. فعندما يكون التكافل الداخلي ضمن جماعة تنطق بلغة معينة هو الهدف الأعلى لحماية اللغة، يجب علينا أن نتعوّد على فكرة كون الحماية الفعلية للغات القِزمة في العديد من الحالات لا يمكن أن يتحقق إلاّ عند الابتعاد عن طريقة الحياة السائدة في مجتمع المعلومات. لقد أبدع الكاتب بيتر ماتيسن Peter Matthiessen في روايته «سهم مسدد نحو السماء» Ein Pfeil in den Himmel (1992) في وصف دراماتيكي مبالغ فيه للطريقة المتبعة في تمدين الثقافات التقليدية والكيفية التي تجري فيها عمليات التبشير الساذجة للناس «البدائيين» والمخاطر المرتبطة بتقديم أفكار العالم الحديث إلى الشعوب الصغيرة. تحكي الرواية قصة شعب نيارونا Niaruna الذي يجري نزعه من عزلته الجغرافية في منطقة الأكوادور الأمازونية وإقحامه داخل عزلة اجتماعية ما يؤدي إلى تضعضع أحواله الاجتماعية السليمة السابقة. بعد ذلك يتعرض هؤلاء الناس إلى أوضاع غير لائقة بكرامة الإنسان: في الأرياف تنتشر العبودية الحديثة للعمال غير الفنيين الذين يعتمدون اعتماداً اجتماعياً

كاملاً على الإقطاعيين؛ وفي الأحياء الفقيرة من المدن تتعرض الفتيات والنساء لمخاطر الإنزلاق إلى الرذيلة نتيجة الحاجة إلى المال، وينخرط الرجال تحت ضغط البطالة في عالم الإجرام ويقعون فريسة الإدمان على تعاطي المخدرات.

بهذا المفهوم لا يجوز لمساعي حماية اللغات القِزمة أن تأتي وفق تدخل لا يقبل أنصاف الحلول من قبل أُناس بعيدين عن عالم بيئة الجماعات اللغوية. إنّ استحداث خط لكتابة لغة فدا Veddah في مناطق سريلانكا الجبلية مثلاً لا يعود بأي فائدة على متحدثي هذه اللغة لأنّ ثقافتهم تؤدي وظائفها على خير ما يرام دون كتابة منذ آلاف السنين. ثم إنّ علاقة العناصر الخارجية مع الشعوب الصغيرة يجب ألاّ تحدث حتى في الأحوال المثالية إلاّ عَبّر أُناس ثقة يعرفون بعضهم البعض ويتبادلون الاحترام كالشركاء في الحوار. يشير علماء الأنثروبولوجيا في أستراليا إلى أنّ الأبوريجنيس الذين أقاموا معهم علاقات تعاون وشراكة كانوا على استعداد لإحاطة هؤلاء العلماء علماً بأكثر أسرارهم سريّة على أن يتعهدوا لهم بعدم إفشاء هذه الأسرار لأُناس غرباء.

وتصطدم المساعي الفعلية للمحافظة على اللغات القِزمة بحاجز عندما يتعلق الأمر بحميمية العلاقات الاجتماعية للجماعة اللغوية. وأكبر عون يقدمه مجتمع المعلومات الحديث للشعوب الصغيرة هو ضمان سلامة مجالها الحيوي، ولا فائدة على الإطلاق من إعطاء

الشعوب الصغيرة الوعود المعسولة حول دمجهم في وشيجة الأغلبية السكانية إذا لم يتمكن المرء من المحافظة فعلاً على هذه الوعود. أما أولئك الأفراد من الشعوب الصغيرة الذين يقررون سلك طريق الإندماج، فيجب تنبيههم إلى المخاطر التي سيتمخض عنها تأقلمهم.

ومع صدام الثقافات التي تختلف عن بعضها البعض، سواء كان هذا الصدام خصاماً بين جماعات بالاعتماد على قاعدة جماعية (على سبيل المثال أصحاب المزارع ضد هنود الغابات في منطقة الأمازون) أو مجابهة بين أفراد (على سبيل المثال عمال من الأبوريجنيس ضد الإقطاعيين في شمال أستراليا) فإن الصراعات الإثنية تكون مبرمجة سلفاً. وقد تتصاعد أزمة ثقافية معينة تحت ظروف سياسية غير ملائمة لتصبح مجابهة مسلحة (على سبيل المثال الحرب الروسية - الشيشانية، حرب المراعي التي يخوضها المزارعون في منطقة الأمازون ضد هنود الغابات).

تظهر صعوبة التخفيف من درجة تعرّض اللغات القِزمة والناطقين بها إلى الخطر والمحافظة على ضمانات لسلامة المجال الحيوي للشعوب الصغيرة المحيّدة والمؤالفة بين المبادىء الإنسانية الأخلاقية ومتطلبات توازن إيكولوجي في العالم، تظهر في مجابهة مسألة الشعوب الصغيرة التي تعيش على أطراف المحميات الطبيعية أو على تخومها (الشكل 21). وبالاعتماد على خصائص ثقافية محلية معينة يمكن لطريقة حياة الناس في منطقة ما أن تنسجم مع المحيط

الطبيعي، في حين أنّ حقوق المحافظة على شعب صغير يمكن بالمقابل أن تتناقض مع متطلبات وحاجات حماية الطبيعة.

وتعتبر حماية الطبيعة سهلة في تلك الأماكن التي تكون فيها التقاليد الثقافية للسكان معتمدة على الأحكام المحلية ما يتعلق بأمر المحافظة على الطبيعة، لأنّ الناس يظهرون تفهماً لحماية الطبيعة بالاعتماد على مداركهم الثقافية. مثل هذه الحالة نجدها في صفوف البيسنوي Bisnoi، وهو شعب صغير موجود في صحراء «الثار» في وسط راجاستان (في الهند) (Sankhala 1993). فبالاعتماد على الذكريات المتعلقة بحادث تاريخي، أي الغزو الذي قام به الغرباء لمنطقة «الثار» الذين قطعوا الأشجار لا على التعيين وقضوا على الزرع والضرع في المنطقة، قام شعب البيسنوي باعتماد مبدأ إيكولوجي لا يجيز على الإطلاق قطع شجرة أو قتل حيوان. والزراعة هي الشكل الاقتصادي الوحيد لشعب البيسنوي. ونظراً لعدم انتظام كمية الأمطار المتساقطة سنوياً، يتحول البيسنوي في سنوات الجفاف والجدب إلى جمع الثمار والأعشاب.

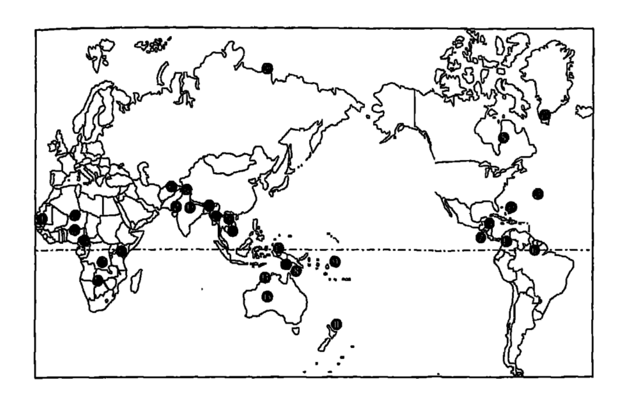
وفي بعض الأحيان تتعارض مبادىء حماية ثقافية محلية مع ضرورات حماية الطبيعة. يندرج هذا على بعض الشعوب الصغيرة في منطقة الساحل جنوب الصحراء. فالطريقة التقليدية في طهي الطعام على النار خالية من المشاكل ما دام الخشب الجاف والأدغال متوفرة للاستعمال كحطب. ثم إنّ عادة قطع الأشجار الحيّة لغرض التزوّد

بالأخشاب واستخدامها حطباً هي السبب الفعلي وراء ظهور منطقة الساحل بكل ما تحتويه من شظف العيش. وكلما ازداد تجرّد البيئة من الأشجار والأعشاب ازدادت صعوبة التزوّد بالحطب. ثم إنّ تقدم رقعة الصحراء باتجاه الجنوب هو خير دليل على أنّ الناس الذين يعيشون في ثقافات تقليدية لا يظهرون بالضرورة تفهماً أكبر للظاهرات الإيكولوجية مما يظهره الناس الذين يسكنون في المجتمعات الصناعية والذين فقدوا معرفة التعامل مع الطبيعة خلال تطورهم المدني. الجماعات الأولى تدمر البيئة بسبب حالة الفاقة والعوز في حين أنّ الجماعات الأخرى تدمرها نتيجة جهلها بقيمتها.

تؤدي كل هذه الأمور إلى حرج شديد في وضع الأوليات لحماية الطبيعة وحماية الثقافة. هل يتوجب على الشعوب الصغيرة الموجودة في مناطق المحميات الطبيعية أن تغيّر عاداتها في جمع الحطب، مما يعني أنّ أفضلية المحافظة على الاستقرار الإيكولوجي تكمن في الطبيعة، أو هل يمكن القبول بأنصاف الحلول والسماح للشعوب الصغيرة بالتدخل في شؤون المعطيات الطبيعية لبيئتهم؟ إنّ التوصل إلى توازن معقول في هذا المجال يتطلب تخطيطاً حصيفاً خاصاً. وبهذا ينفتح أمام معونات التنمية التي تقدمها الدول الصناعية مجال عمل مهم للغاية، أي تنظيم الطاقة البديلة أو تقديم التكنولوجيات التي تكفل تخفيضاً كبيراً للحاجة إلى الوقود.

الشكل 21: شعوب صغيرة في مناطق المحميات الطبيعية

(Kemf 1993b)



1. الإماغرونيون، بانك دارغوين، موريتانيا.
2. بيسنوي، صحراء ثار، الهند.
3. كانوم، مارِيند، ماروري، ياي، واسور، إريان جايا، إندونيسيا.
4. كون داو آيلاندرس، كون داو، فيتنام.
5. كريه، خليج سانت جيمس، كويبك، كندا.
6. شربا، إفرست، نيبال.
7. كونا، محمية كونا يالا، سان بلاس، بنما.
8. سكان مضيق تورس، مضيق تورس، أستراليا.
9. ملانيزيانيون، جزر سولومون وفيجي، جنوب الباسيفيك.
10. شونا، باتونكا، إنديله، كامبفاير، زمبابوي.
11. ماوري، بوهويرورو، الجزيرة الشمالية، نيوزيلندا 12. يانومامي، محمية آلتو أورينوكو بيوسفير.
13. آنانغو/ آبورجيني، أولورو (آيرس روك)، أستراليا.
14. آبورجيني، كاكادو، شمال أستراليا.

15. هاتام، جبال آرفاك، إريان جايا، إندونيسيا.
16. كوغي، آرهواكو، آساريو، سيرا نيفادا، دو سانتا ماتا، كولومبيا.
17. شمشالي، خونجراب، باكستان.
18. قرويون فيتناميون (غير محليين)، محمية ترام شيم، فيتنام.
19. بودو، ماناس، الهند.
20. كارن، هواي خاخينغ، تايلاند، بورما.
21. همونغ، البارك الوطني دو سوثب، شاينغ ماي، تايلاند.
22. فولاني، فولبه، قبائل البانتو، فارو، بوبا - نيجا وبنوي، الكاميرون.
23. الطوارق، إير ترين، النيجر.
24. ميسكيتو، منطقة ميسكيتو كايس المحمية، نيكاراغوا.
25. إنويت، إزابيلا باي ويل سانكتواري، كندا.
26. إفنك، محمية لينا دلتا الطبيعية، سيبيريا.
27. فوكا، نويكا، ملاوي.
28. أقزام با آكا، محمية غابات جانغا - سانغا الكثيفة الطبيعية، جمهورية أفريقية الوسطى.
29. القرويون الهايتيون (غير محليين) الأركاديون، هايتي.
30. ميجيكندا، مغارات كايا المقدسة، كينيا.

الفصل الثالث

تاريخ الثقافة في مرآة الاتصالات اللغوية - اللغات أداة لتسجيل التحوّلات الثقافية التاريخية

لقد تولدت ظاهرة الاتصالات اللغوية منذ أن بدأ الناس الذين يتحدثون مختلف أنواع اللغات ببذل المجهودات الحثيثة من أجل التواصل فيما بينهم. أما أقدم هذه العلاقات فكانت تلك القائمة بين الإنسان النياندرتالي NEANDERTHAL (نسبة إلى وادي النياندرتال قرب مدينة دوسلدورف في ألمانيا حيث وُجدت بقايا هيكل عظمي لإنسان قديم، وتذكّر التسمية عادة بإنسان الكهوف شكلاً أو سلوكاً - المترجم) والإنسان الحديث. ومن المحتمل أن تعود هذه العلاقة إلى فترة تقع قبل ما بين 42000 و27000 عام (BIRABEN 1997: 52F). ومن الممكن أيضاً أن نتصوّر أنّ الإنسان الحديث، ونتيجة لمقدراته المتفوقة ورغبته في البحث عن المسارات الملائمة في بيئته الطبيعية، ومن أجل تطوير استراتيجيات البقاء، كانت له اليد الطولى

في عملية تعايشه مع الإنسان النياندرتالي، وكيف أنّ الإنسان الحديث كان قد استعمر الإنسان القديم على أغلب احتمال.

ليس من الممكن أبداً التعرّف على الآثار التي تركتها لغة الإنسان الحديث في لغة الإنسان القديم لسبب بسيط واحد هو انقراض الإنسان النياندرتالي ومعه لغته. ومن الأمور غير المعروفة أيضاً تلك المتعلقة بلغات الإنسان الحديث من ناحية تضمنها عناصر (على سبيل المثال بعض الكلمات المستعارة) تعود أصولها إلى لغة الإنسان النياندرتالي خاصة وأنّ المرء لا يستطيع دراسة لغة الإنسان القديم لأنها انقرضت معه. ومن ناحية أخرى فإنّ الدينامية المحتملة التي شهدها التطور اللغوي عَبْر التاريخ تنفي وجود كلمات تعود إلى زمن أقدم من 35000 سنة، ناهيك عن توفرها بوضعية تمكننا من التعرف عليها كاقتباسات من لغات قديمة أو كاستعارات غريبة.

إلاّ أنّ هناك لغة يفترض الناس أن تراكيبها تتضمن بعض الأجزاء الموغلة في القِدَم، ألا وهي اللغة الباسكية Baskisch. ويعتقد الباحثون أن أسلاف شعب الباسك كانوا قد عاشوا مع الإنسان النياندرتالي في مجمّعات سكنية مشتركة. ومع هذا لم يجرؤ أي باحث على الإدعاء بجدية بأنه قد اكتشف عناصر من لغة الإنسان النياندرتالي (غير الموجودة أصلاً) في لغة الباسك. أما الشيء المعروف في الوقت الحاضر عن مناشىء هذه اللغة المحفوفة بالأسرار، فيشير إلى علاقات قديمة جداً وطويلة المدى وبالتالي علاقات قوية بين سكان

ذوي لغات متنوعة (Haarmann 1998a). وانطلاقاً من وجهة النظر هذه، فإنّ لغة الباسك ليست فرعاً مستقلاً من أي أسرة لغوية تعود إلى ما قبل التاريخ، بل إنها منتوج اندماجي في محيط من العلاقات لا نستطيع اليوم إعادة تشكيله إلا بصورة ضعيفة نتيجة قلة البيانات المتوفرة لدينا عن علم الآثار وعلم الجينات البشرية ذات الصلة.

ولا يستطيع المرء غير التكهّن بنوع التراكيب والأجزاء المنفردة لهذه اللغة أو تلك واندماجها مع بعض العناصر التي قد تعود إلى عدد من اللغات، والتي تطورت عنها جميعاً في المحصلة، وبعد عملية طويلة من التفاعلات اللغة الباسكية. ثم إنّ إمكانية إقامة العلاقات بين الجماعات اللغوية المحلية كما هو معروف من تاريخ التجمعات السكنية في أوروبا تجعل من المتوقع أن تكون عدة لغات منفردة مسؤولة عن صياغة هذه الصورة الواضحة الملامح للمنتوج المتولد من عملية اندماجية شكلت ما يسمّى اللغة الباسكية. أما الطريقة التي سلكها الاندماج اللغوي فتظهر في بعض المواقف عند دراسة لغات الكرييول الحديثة وعمليات انصهارها (راجع الفصل الخامس).

لقد عثر علماء الآثار والأنثروبولوجيا والجينات البشرية على الكثير من الإشارات التي تدلل على أنّ الناس الموجودين في أماكن السكن المعروفة في عصور ما قبل التاريخ كانت لهم علاقات وروابط كثيرة مع بعضهم البعض وأنهم كانوا يزاولون التعامل التجاري عبر مسافات طويلة وأماكن بعيدة أكثر مما كان المرء يتصوره حتى الآن. فالتعامل

التجاري بأصداف كاوري Kauri على سبيل المثال كان منتشراً في جميع أنحاء شرق آسيا، ومن أقصى شمال الصين إلى تايلاند، ومن شرق الهند إلى غينيا الجديدة. وحتى خلال العصر الجليدي كان الناس في جنوب أوروبا يتعاملون بأصداف سبونديلوس Spondylus التي عُثر عليها في منطقة بحر إيجه وحتى وسط أوروبا (Clark 1989: 128f).

الاتصال اللغوي عامل ثابت في التطور الأنثروبولوجي

لقد شهدت الأماكن التي سكنها الإنسان النياندرتالي والإنسان الحديث دون شك تداخلات لغوية استقرت آثارها في لغات الإنسان النياندرتالي والإنسان الحديث. وفي الوقت الذي لا تفسح فيه وسائل اتصالات الإنسان الحديث المجال للبرهنة على أنّ أوضاعه اللغوية كانت تتميز بـ «البدائيّة» - حتى اللغات في ثقافات الصيادين والجامعين البسيطة التقليدية كانت ذات تراكيب معقدة عجيبة - يمكن التسليم بأنّ لغة الإنسان النياندرتالي كانت قد مرت في مرحلة من التطور البدائي لأنّ مقدراته على التمييز بين الأصوات مثلاً كانت محدودة نسبياً (Deacon 1997: 39f. Trinkaus/Shipman 1992: 391f). ومن المحتمل أن تكون لغة الإنسان النياندرتالي قد تعرضت إلى تغييرات من جراء احتكاكها بلغة الإنسان الحديث. وفي الأعمال الصناعية التي خلفها الإنسان النياندرتالي والتي تعود إلى العصر الحجري، يمكن العثور على بعض آثار التقنيات التي خلفها الإنسان

الحديث. إذن، إنّ الإنسان النياندرتالي قد «تعلّم» من الإنسان الحديث.

من ناحية أخرى يمكن الإنطلاق من أنّ بعض الاصطلاحات الموجودة في لغة (لغات) الإنسان النياندرتالي تمّ تبنيها من قبل الإنسان الحديث. ينطبق هذا على المصطلحات التي كانت معروفة من قبل الإنسان النياندرتالي قبل أن يقتحم الإنسان الحديث عليه بيئته الطبيعية (على سبيل المثال مصطلحات الأعشاب الطبية، أو مصطلحات الظواهر الطبيعية الغريبة مثل تكوّن السلاسل الجبلية أو أماكن تواجد المياه). بطبيعة الحال لم تصلنا أي دلائل أو مواد ذات براهين قاطعة على قيام علاقات لغوية بين هذين النوعين من البشر خلال الفترة الزمنية القديمة نظراً لأن اللغة كانت آنئذ تُحكى فقط ولا تُكتب؛ علاوة على ذلك فإن العديد من المصطلحات المقتبسة قد تغيّرت طريقة نطقها صوتياً إلى درجة يصعب التعرف عليها كعناصر غريبة أصلية ظهرت في مراحل لاحقة. يدفع هذا إلى التفكير بالفرضية المتعلقة بإمكانية العثور على مواد موغلة في القِدَم في بعض مصطلحات اللغات الأوروبية في مرحلة ما قبل الهندية - الأوروبية.

وعلى الرغم من عدم الأهمية العملية لافتراضيات وجود علاقات لغوية بين الإنسان القديم والإنسان الحديث بالنسبة لبحوث العلاقات والاتصالات اللغوية. إلاّ أنها ملائمة لتصوير العمق الزمني لظاهرة

«العلاقة اللغوية» وأهمية هذه الظاهرة في الأفق الزمني. بناء على ذلك يمكن القول إنّ العلاقات اللغوية كانت قائمة منذ 40000 عام على الأقل مما يعني أنّ هذه الظاهرة تميّز التطور البشري على أحسن ما يرام. وعلى الرغم من عدم القدرة على البرهنة على العلاقة اللغوية الموجودة في كل ثقافة من الثقافات وفي كل حقبة من الحقب الزمنية المختلفة، فإنّ هذه العلاقة تقوم بدور هام بالنسبة إلى جميع الثقافات المحلية في العالم، وعلى طيلة الفترات الزمنية التي مرت على وجودها.

وبالإشارة إلى استمرارية التطور الثقافي البشري، تعد العلاقات اللغوية من العوامل الثابتة في هذا التطور. لقد كانت دينامية تطور الحضارات القديمة في العالمين القديم والجديد تعتمد في الكثير من الأماكن على نوعية العلاقات اللغوية المحلية والداخلية. ينطبق هذا على بلاد الرافدين كانطباقه على حضارة الإندوس (وادي السن). وعلى عملية (هندأوروبة) القارة الأوروبية، مثل انطباقه على الحضارة القائمة في أمريكا الوسطى قبل عهد كولومبوس. منذ العصور القديمة لم يعد يوجد في أوروبا ثقافة إلاّ وتأثرت كثيراً بالعلاقات مع الثقافات المجاورة - وبالتالي مع اللغات الأخرى - أما في الزمن الحديث فقد أصبحت العلاقة اللغوية ظاهرة عامة من ظواهر التاريخ الثقافي الأوروبي.

وتتبين العلاقات اللغوية في الواقع في جميع مناحي الحياة، من أرفع المستويات الرسمية ذات الصلة باللغة ومروراً بعمليات التحديث

المعجمية داخل محيط متعدد اللغات، أو عبر وظائف رمزية للغات الأجنبية في الإعلان التجاري وانتهاء ببيئة الثقافات الشعبية.

وتكتسب مسائل العلاقات اللغوية ملامح درامية في تلك الأماكن التي تهيمن فيها الضرورات السياسية. فالتسوية المعقدة التي جرت على المستوى الرسمي لمسألة اللغات الرسمية الإحدى عشرة في جنوب إفريقيا على سبيل المثال. تتضمن أكثر من مجرد علاقات بسيطة بين اللغات المحلية الإفريقية (نديبله Ndebele، سوتو الشمالية Nordliches Sotho، سوتو الجنوبية Sudliches Sotho، ستسوانا Setswana، سواتي Swati، تسونغا Tsonga، فيندا Venda، خوسا Xhosa، زولو Zulu) واللغات المستوردة الأوروبية الأصل (الإنجليزية، الأفريقانية). إنّ النظام اللغوي الجديد في مرحلة ما بعد الآبارتهايد (الفصل العنصري) في البلاد هو إجراء سياسي من الطراز الأول par excellence والذي أصبح بمثابة حجر المحك للتعاون بين المجموعات الأثنية المختلفة في البلاد.

وبالمقارنة مع تسييس العلاقات اللغوية في بيئة مشحونة بالتوترات كما حدث في مجتمع جنوب إفريقيا، تعتبر العلاقات اللغوية الخالية من الصبغة السياسية عادية إلى حد بعيد، وأحسن مثال على ذلك هو ثقافة البوب Pop-Kultur حيث تجري مواجهة الناس الذين لا تعتبر الإنجليزية لغتهم الأم بنصوص (على الأغلب إنجليزية) مكتوبة بلغة غريبة.

ومن الجدير بالذكر أنّ العلاقات اللغوية تتماشى مع الزمن دون أي

تلكؤ. يعني هذا من ناحية، أهمية العلاقات اللغوية في جميع مراحل التطور، وكيف أنها، من ناحية أخرى، تقتحم باستمرار مجالات جديدة في عصر الاتصالات العالمية المتداخلة يُواجه الناس مثلاً بمسألة العلاقات اللغوية على الصعيد الإعلامي الرقمي (Gilster 1997). ثم إنّ المنافسة بين اللغات العالمية من جهة وبينها وبين اللغات المحلية على نطاق عالمي من ناحية أخرى تنعكس في قنوات الاتصالات عَبْر الإنترنت، حيث تتنافس اللغات المفردة مع بعضها البعض على الاستحواذ بأكبر قدر من توفير المعلومات. وبالنسبة إلى أغلبية مستخدمي الإنترنت من متحدثي الإنجليزية تُستعمل الإنجليزية حصراً كاحتكار لغوي، أما بالنسبة إلى غالبية الناطقين بلغات أخرى فإن انتقاء المعلومات المطلوبة يعني التعامل مع لغات عديدة.

إنّ الاتجاه إلى نشر المزيد من الأدبيات الرقمية في الإنترنت بلغات متعددة له علاقة بقدرة هذه اللغات المحلية على تقديم المعلومات بالمقارنة مع هذه المقدرات باللغة الإنجليزية. إنّ احتمال استدعاء شخص تشيكي يستخدم الإنترنت للمعلومات التي يريدها باللغة الإنجليزية أكبر عند المقارنة مع المستخدم الألماني للإنترنت وذلك لسبب بسيط واحد يتمثل في أنّ المعلومات الموجودة باللغة الألمانية في الإنترنت أكثر بكثير مما هو متوفر باللغة التشيكية. مع هذا فإنّ اللغة الإنجليزية، كأهم لغات العالم، مهيمنة في هذا المجال نظراً لأنّ أغلبية المعلومات عن العالم متوفرة بهذه اللغة.

وتظهر هيمنة الإنجليزية بأجلى صورها في أسماء دوائر اختصاصية معينة. في فبراير/ شباط 1997 اقترحت لجنة International Ad Hoc Committee (IAHC) اطلاق تسميات دولية على دوائر الاختصاص المعينة ابتداء من خريف عام 1997 بالاعتماد على قاعدة إنجليزية؛ على سبيل المثال WEB (لخدمات الإنترنت العامة)، COM (للشركات التجارية)، GOV (للمنشآت التابعة للدولة)، EDU (لمراكز التعليم والبحث)، ORG (لمنشآت النفع العام)، INT (للمؤسسات الدولية)، ARTS (للمعلومات الثقافية)، NOM (لأجهزة الكمبيوتر الخاصة)؛ (Carlen-Wendels 1997: 104 ff). لقد أضحت مسألة العلاقات اللغوية في مجال الاتصالات الرقمية حقلاً جديداً من حقول البحث العلمي ومن الموضوعات الراهنة.

يمكن قياس العلاقات اللغوية حسب أهميتها بالنسبة إلى تطور اللغات المفردة عَبْر التاريخ من ناحية كُثافة محتوياتها. بالإشارة إلى حالتين متطرفتين قائمتين في عصرنا الحاضر نود توضيح ما نحن بصدده.

إحدى هاتين الحالتين المتطرفتين هي عبارة عن موضة لغوية شاعت منذ سنوات قليلة في أوساط الأدب الأكاديمي الصادر باللغة الإنجليزية - وخاصة باللغة الإنجليزية المستخدمة في الولايات المتحدة الأمريكية - والمتمثلة في تبنّي كلمات ثقافية ألمانية على سبيل المثال: zeitgeist, letimotiv, gestalt, realpolitik، (وهي بالعربية:

روح العصر، الدافع القيادي، الجشتالت أو صيغة – قالب، السياسة الواقعية). ومن الممكن أيضاً اعتبار هذا الاتجاه الجديد بمثابة تظاهرة تقوم بها الإنتلجنسيا (الصفوة المثقفة) الأنجلوسكسونية للظهور بمظهر حضاري أوروبي. إن بعض المفردات الألمانية التي يصادفها القارىء حالياً في النصوص الإنجليزية كانت قد أُقتبست مسبقاً، إلاّ أنها لم تُستخدم قبلاً على نطاق واسع، مما يجعل استعمالها حالياً نوعاً من «النهضة الحديثة».

ثم إنّ اتصالاً لغوياً يعتمد على اتجاه الموضة يمكن أن يكون مقتصراً على ضرب معين من اللغة، لا بل على صعيد معيّن من الأساليب. ونظراً لأنّ اتجاهاً ما قد ينحسر على المدى القصير، فإنّ مثل هذا الاتصال اللغوي يعتمد على تبدلات عديدة في نطاق اللغة وغير المستقر كثيراً من جانبه.

ولتوضيح الحالة المتطرفة الثانية، نود الإشارة إلى الإنجليزية بكونها لغة للاتصالات (Crystal 1997). فالإنجليزية، كما هو معروف، هي اللغة العالمية الأولى دون منازع والتي لا حدود لإشعاعاتها كما يتبيّن في تأثيرها على جميع اللغات المحلية في العالم والتي تبدو كأن استخدامها ضمانة لإجراء التحديث اللغوي. إن اللغات الكبيرة شأنها شأن اللغات الصغيرة تواجه طوفاناً في تراكيبها المعجمية الذي تسببه المصطلحات الإنجليزية.

ويتعلق تأثير الإنجليزية فعلياً بجميع مناحي الحياة الاجتماعية

لغوياً ومنها مثلاً اللهجة الدارجة (على سبيل المثال في اللهجة الدارجة للشبيبة الروسية: sajz «حجم، على سبيل المثال حجم القميص» بالإنجليزية Size)، واللهجة الدارجة عموماً (على سبيل المثال بالفنلندية fiilis «إحساس» بالإنجليزية feeling)، لغة الكتابة (على سبيل المثال بالألمانية Layout, slogan) والمجموعة العامة للغات الاختصاصية. علماً أنّ «الرطانة» Kauderwelsch اللغوية الإنجليزية المحلية السائدة في مجال التشغيل الحديث للبيانات الإلكترونية، معروفة من قبل جميع الذين لهم علاقة بحواسيب الكتابة (Sittek 1997).

وهكذا فإن عملية التحديث اللغوي التي أطلقتها الإنجليزية لم يعد بمقدور أي جماعة لغوية الوقوف بوجهها خاصة إذا أراد الناطقون بهذه اللغة الولوج إلى عالم الاتصالات الدولية. وتصوّر هذه العيّنة من التبادل الدولي التي لا بديل لها الوضع المتطرف الذي يحدث عندما تتحوّل العلاقات اللغوية إلى ضرورة حتمية لا بد منها Conditio sine qua non بالنسبة إلى قيام استراتيجيات الاتصالات العالمية بأداء وظائفها.

المكوّنات الأساسية لعملية الاتصالات اللغوية

لا تعتبر العلاقة اللغوية مجرد علاقة قائمة بين أنظمة ذات تراكيب معينة، بل إنها علاقة بين الثقافات (Arutjunov 1989). ثم إنّ هذا

التشابك المتين القائم بين الجزئين «اللغة» و«الثقافة» ينتج تلقائياً من المعرفة العامة بأنّ اللغة هي الوسيلة الأهم التي يجري بموجبها تحقيق الإبداع الثقافي، أي الوسيلة التي يستخدمها الناس في صياغة محيطهم الثقافي. ومن ناحية أخرى فإنّ العلاقة اللغوية غير مرتبطة بالضرورة بالتفاعل الموجود بين الناطقين بلغات حقل الاتصالات. وعلى الرغم من أنّ التفاعل وجهاً لوجه Face-to-Face يعتبر حالة طبيعية من حالات العلاقة اللغوية. إلاّ أنّ الاتصال بين اللغات غالباً ما يحدث عَبْر القنوات الإعلامية كما في حال نقل المؤثرات اللغوية في عالم «الأزياء» أو في «فرع الحاسوب».

ثم إنّ العلاقة اللغوية هي مصطلح عام شامل يعبّر عن نفسه في العديد من الحالات الثابتة. ولما كانت لغة الإنسان نظاماً معقداً، فإنّ العلاقة اللغوية هي الأخرى ظاهرة معقدة. علماً أنّ جميع الأنظمة المعقدة لها بنية تحتية مزودة بشكل من أشكال النظام التسلسلي (من أسفل إلى أعلى) بغض النظر عما إذا كان هذا النظام يتعلق بحضارة قديمة تقوم على تقسيم العمل الاجتماعي، أم بنظام المحاكم في دولة القانون، أم بتراكيب سلطوية للأجهزة السياسية في المجتمع الديمقراطي، أم بثنائية اللغة في النظام التعليمي في دولة متعددة اللغات بكل ما يجلبه ذلك من متطلبات مفروضة على كفاءة التلاميذ لتعلم اللغتين.

يجب علينا أن نفهم البنية التحتية لظاهرة «العلاقة اللغوية» المعقدة على أنها نوع من التشابك بين عوامل التأثير ذات الأقطاب المتعددة تتواجد داخلها اللغات في علاقات مع بعضها البعض. هناك عوامل مختلفة الأنواع مسؤولة عن مكوّنات علاقة لغوية التي هي عوامل لغوية داخلية (على سبيل المثال الكفاءة التواصلية للمتحدثين المعنيين بالأمر) وعوامل لغوية خارجية (على سبيل المثال المكانة التي تشغلها لغة أقليات ذات صلة بهذا الموضوع)، وعوامل فردية (على سبيل المثال طبيعة الوسيلة المشاركة، سواء أكانت وسيلة كتابية أم دارجة أم اختصاصية) ومكونات تركيبية بحتة (على سبيل المثال التبني الصوتي للكلمات المقتبسة) ومنوعات مجردة اصطلاحية (على سبيل المثال الصور النمطية الثقافية ذات العلاقة باللغات المشتركة في عملية الاتصال والناطقين بها)، وإلى آخره.

وبالاعتماد على تعدد العوامل المذكورة آنفاً، يبدو من المفيد جداً أن نقوم بإيضاح تشابكها في عملية الاتصال اللغوي وتصوير ذلك في نموذج من التفاعل الداخلي (راجع الشكل 22a). إنّ التركيبة المختارة هنا من الأفراد المتفاعلين مع بعضهم البعض (A_1 وA_2) تمثل نوعاً معيناً من العلاقة اللغوية، أي تلك الموجودة بين لغة الأغلبية ذات المحيط اللغوي - الثقافي E2 وبين لغة الأقلية مع المحيط اللغوي - الثقافي E1. وهذا الضرب من العلاقة اللغوية هو الأكثر انتشاراً على النطاق العالمي، وبالتالي فإنّ التركيبة المقدمة هنا من العناصر

القاعدية هي الأغلب نوعاً أيضاً. ومن الأمثلة التي نود سردها نذكر العلاقات بين أفراد شعب كارن Karen وشعب التاي Thai في جنوب تايلاند، وبين التيبيتيين والصينيين داخل مستعمرات الصين الداخلية في التبيت، والبرجاتيين مع الروس في جنوب سيبيريا، والأرمن مع الإيرانيين في الشمال الغربي من إيران، والكرد مع الأتراك في شرق تركيا، والهنغاريين مع الرومانيين في ترانسلفانيا وما شابه ذلك.

ثم هناك ضرب آخر من العلاقة اللغوية نريد إيضاحه فيما يلي (راجع الشكل 22b). يتعلق الأمر هنا بأقليات تتحدث لغات مختلفة (في النموذج يشار إليها بالمحيط اللغوي - الثقافي E1 وE2) تقرر استخدام لغة ثالثة كلغة مشتركة فيما بينها (المشار إليها بالمحيط اللغوي - الثقافي E3). وهذه الحالة تتميّز بها عادة الدول ذات سكان متعددي الأعراق والقوميات تخدم فيها لغة الدولة الرسمية أو لغة مشتركة غرض التواصل الداخلي بين الناس والأقوام.

وهناك أمثلة على مثل هذه العلاقات اللغوية نراها في جميع أرجاء العالم، على سبيل المثال في الولايات المتحدة الأمريكية (مهاجر فيتنامي يتواصل بالإنجليزية مع شخص من اللاتينوس من أصل مكسيكي)، في البرازيل (غواراني Guarani يتواصل مع كاينغانغي Kaingàng في منطقة ساو پاولو بالبرتغالية)، في كينيا (كامبا Kamba يتحدث مع ماساي Maasai بالإنجليزية أو السواحلية)، في روسيا

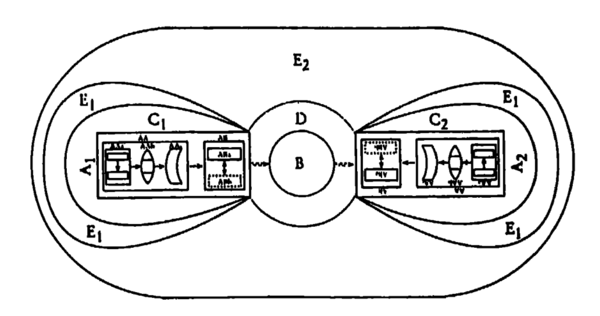
(سورياني Syriäne «لغته السريانية» يتكلم الروسية مع تتري «لغته التترية»)، في يوغوسلافيا الحالية هنغاري من فويفودينا يتواصل مع ألباني من كوسوفا بالصربية).

ومن أجل فهم الظواهر المفردة الموجودة في عملية العلاقة اللغوية والكيفية التي تتداخل بعضها مع بعض، يكون من المهم معرفة الأمور التي يُراد إدخالها في هذه العلاقة (Haarmann 1991: 149ff). كما أن الشرط الأساسي لعملية التفاعل هو قيام الكفاءة التواصلية بأداء وظيفتها على خير ما يرام. وفي هذا المجال بالذات فإنه لا يقدم ولا يؤخر إن كان الاتصال اللغوي قد تحقق في وضعية يتواصل فيها الناطقون بلغات مختلفة مع بعضهم البعض، أو إذا كان مستخدم وسيلة التواصل يستقبل المعلومات المطلوبة رقمياً ويتعامل مع النصوص اللغوية ذات الرموز المختلفة كما في الإنترنت.

إن الكفاءة التواصلية لمتحدث (A) لا تحتوي على فقط القدرة اللغوية بهذا المفهوم (ABa)، بل أيضاً القدرة على التصرف غير الشفهي (ABb) المرتبطة بها. علاوة على ذلك فإن أحد الأمور التي لا يمكن الاستغناء عنها هو تمسك متحدث بمعارفه عن العالم ضمن نموذج داخلي التفاعل (أي محتويات معارفه الاجتماعية والثقافية وذات العلاقة البيئية AAa). ينتمي إلى هذا أيضاً الوعي بالتوزيع الاجتماعي للأدوار، أي في فهم الأدوار التي يقوم بها الفرد ولغته وثقافته في المجتمع.

الشكل 22 : الاتصال في العلاقة اللغوية **(Haarmann 1991: 164, 168)**

أ) العلاقة بين لغة أغلبية ولغة أقلية



شروح

مفاتيح الرمز الأبجدي

A- الكفاءة الاتصالية

يفرّق النموذج أعلاه بين الكفاءة الاتصالية للمتحدث (A1) وللمستمع (A2). الأجزاء الثانوية (Aaa - ABb) مشروحة في التركيب النظري للكفاءة التواصلية (راجع المصدر والصفحة 166).

B . السلوك والتصرف

نظراً لوجود محتويان لوسائل اتصالات (قارن ABa وABb في الكفاءة التواصلية)، ينقسم السلوك إلى الأجزاء ذات العلاقة التالية:

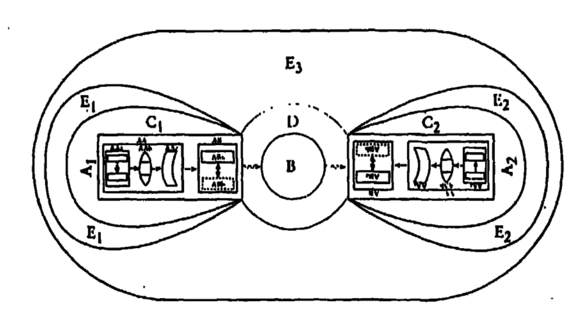
Ba . الكفاءة الاتصالية

أنتجت: خطاباً تم استقباله. التصريح الشفاهي يكون دوماً متناقضاً، لأنه يمثل بالنسبة للمتحدث خطاباً منتوجاً يعد من وجهة نظر المستمع (طرف الحوار) خطاباً مستقبلاً.

Bb . السلوك المرتبط بالقرائن

عناصر الأداء غير الشفهي التي تتفاعل مع إنتاج/ استقبال الخطاب.

الشكل 22b الناطقون بلغات الأقلية يتواصلون بلغة ثالثة



C . الشروط الفردية للتفاعل

هناك أعداد كثيرة من الخصائص المفصلة التي تصبغ عيّنة الشخصية الفردية وكذلك سلوكياتها (C1 – شروط المتحدث، C2 – شروط المستمع). مثل هذه الخصائص تتعلق بالجنس، والعمر، والمكانة الاجتماعية، التعلم، الهوايات، الحركية الاتصالاتية وما شابه.

D . القرينة الحالاتية تتميّز بشروط معينة والتي هي من نوع واحد بالنسبة للمتحدث والمستمع (على سبيل المثال المكان، الوقت أو الأوضاع المحيطة بالحديث).

E . شروط الحياة البيئية لمجموعة المتحدثين.

إنّ الشروط الإيكولوجية العامة لمجموعة المتحدثين تحتوي عدداً من عوامل بيئية تؤثر على الأوضاع الحياتية لأعضائها. وإلى هذه العوامل تنتمي متفرقات إثنوغرافية، وإثنوسوسيولوجية (إثنية - اجتماعية)، وإثنوسياسية (إثنية - سياسية)، وإثنوثقافية (إثنية - ثقافية)، وإثنونفسية (إثنية - نفسية) وغيرها من المتفرقات.

يجري تطبيق هذه المعرفة من أجل تحقيق أهداف تصرّف معينة، والتي تُعدّل بما يتلاءم مع المزايا المعينة للأفراد الذين يتواصلون مع بعضهم البعض، مثل عمر هؤلاء الأشخاص وجنسهم ومكانتهم الاجتماعية وما شابه (C1 وC2). ثم إنّ المعرفة المختارة حسب وضعية المصالح يجري تثبيتها عَبْرَ وسيلة اللغة في وضعية الاتصال (D). وإلاّ فإنّ الكفاءة التواصلية ستعمل دون أجزاء ذخيرة المعرفة المرتبطة بها تكافلياً في الوقت نفسه، وكأنها ماكنة أو آلة لغوية فقط.

تعد مضامين التقييم (AAb)، والاستعداد وفق الأحاسيس والمشاعر (AAc)، وبصورة خاصة نوايا التواصل (AAcb) عوامل متغيّرة، أساسية بالدرجة نفسها بالنسبة إلى قدرة الكفاءة التواصلية على أداء وظيفتها. وهكذا فإنّ تفاعلاً عقلانياً يدخل فيه التصرف اللفظي في استراتيجيات تصرّف غير لفظية، يتحقق فقط عندما تتعامل جميع العوامل المذكورة مع بعضها البعض. وتؤدي الاستراتيجيات الوظيفية دورها في تصرف تواصلي ثابت (B) للفرد. وتتكون قدرته التواصلية في أدائه التواصلي (Ba) في تشابك تكافلي مع استراتيجيات لتضمين التصرّف اللغوي في القرينة المتفاعلة Bb). إنّ التصرف التواصلي يعبّر عن نفسه في حالة معينة من حالات الاتصالات الثابتة.

وعندما يتساءل المرء عن الطريقة التي يمكن فيها توضيح الشروط الأساسية التواصلية لاتصال لغوي ما في نموذج متفاعل موجود، حينئذ تدفع التجارب التطبيقية للتعامل مع عدد من الحالات الفردية إلى

عدم قبول الازدواجية المتطابقة للكفاءة اللفظية. أبعد من ذلك، يظهر في الاتصال اللغوي أن اللغات المشتركة تؤدي دورها في وظائف غير متعادلة. إن توزيع أدوار اللغة «المُعطية» مقابل اللغة «الآخذة» وحده يفرض استخداماً مختلفاً لاستراتيجيات الكفاءة.

وتدفع مراقبة تحويل الشفرة اللغوية في (Heller/Pfadd 1996) Code-switching وكذلك تحوّل تقنيات اللغة إلى عمليات بجننة(*) (من بيجن) وكرولة(**) (من كريبول) إلى الافتراض بأنّ الكفاءة التواصلية ليست إلا بمثابة الجهاز المعقد الذي يُخزّن مبادىء وقواعد لغة واحدة أو لغتين أو ثلاث لغات. يعني هذا أنّ مجمل كفاءة التصرّف (AB) تتوزع في الكفاءة التواصلية لفرد ذي لغات متعددة إلى أقسام كثيرة (AB 1, AB 2, AB n). وفي استدعاء مبادىء وقواعد اللغات المنفردة إما على شاكلة شفرة منفصلة، أو أنها تستطيع - بالاعتماد على نوايا تواصلية معينة للفرد المعالج - أن تواصل أيضاً أو تتدخل. وانطلاقاً من مثل هذه الوظيفة يمكن تفسير تبني اقتباسات، أي أخذ عناصر من نظام لغوي (في الشكل مرتبط مع الحقل 1) إلى نظام آخر (مرتبط مع الحقل 2).

وبالاعتماد على خلفية مثل هذا المفهوم الشمولي عن توظيف

(*) «بيجن» Pidgin و«كريبول» Kireol: لغة مبسطة تستخدم للتفاهم بين الشعوب الناطقة بلغات مختلفة - مثل الرطانة الإنجليزية التي تستخدم في التعامل التجاري في الموانىء الصينية، (المراجع).

(**) في جزر باهاماس وهاواي وفي الهند الغربية وبعض بلاد أفريقية، (المراجع).

القدرة على التواصل، يصبح من المفهوم أيضاً بأنه عند انتقال الشفرة اللغوية تصبح فعلياً كل وسائل التعبير متبادلة (على سبيل المثال عيّنة تركيب الكلمة أو العناصر المعجمية) وكل تقنيات اللغة (على سبيل المثال قواعد تأليف جداول التصريف النحوي، استراتيجيات تركيب الجملة) (Campell 1993). إنّ القابلية على استبدال كل عنصر من العناصر وكل تقنية من التقنيات اللغوية يمكن ملاحظتها في التحويل الفردي للشفرة في مختلف حالات اللغة وفي المحيط المتعدد اللغات.

غير أنّ التحويل الفردي للشفرة Code-switching يصبح في بعض الأحيان مناسباً في التفاعل مع الأفراد ويطوّر تأثيراً واسع الحجم يشمل الغالبية العظمى من السكان. وهذا هو الحال في بعض أساليب اللغة الإنجليزية التي تُدعى «الأساليب الإثنية»؛ على سبيل المثال (Hindi + English) Hindisch في الهند أو Spanglish (Spanish + English)، علماً أنّ السبانغليش عبارة عن لهجة اجتماعية نشأت في مدن الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية والتي تتحدثها جماعة اللاتينوس المهاجرين من أمريكا اللاتينية.

ولا توجد أي تقييدات لاستبدال العناصر في الاتصال اللغوي. ويتعلق هذا بجميع نظم أجزاء اللغة (على الأصوات اللغوية، المعجم، إلى آخره) وكذلك نظم ثانوية (اللغة العامية، اللغة الاختصاصية، إلى آخره). ومن هذه الخلفية تنطلق افتراضات تتعلق بوجود مفردات لغوية «قبلثقافية» (حول أحد الانتقادات راجع Haarmann). ومن الأمثلة على

تأثيرات الاتصالات المتينة على التراكيب اللغوية نذكر اللغة اليهودية الأوروبية الشرقية اليديّة Jiddisch المتأثرة باللغات السلافية واللغة العبرية (Weinreich 1980)، أو الأفينكي Evenki المنحدرة من الياقوتية Jakutisch (Romanova et. al. 1975)، أو المكسيكانو Mexikano، أو ناهوتال Nahutal الحديثة المتأثرة باللغة الإسبانية (Hill/Hill 1986).

وفي العادة تختلف وسائل الاتصال المشاركة بالاتصالات اللغوية بالنظر إلى العديد من المعايير، سواء إن كان للمكانة السياسية للغة، أو كثرة استخدام اللغة، أو كونها لغة كتابية وما شابه. ثم إنّ اللغات تختلف عن بعضها البعض عادة من ناحية وجاهتها. ففي محيط متعدد اللغات لا بد أن توجد لغة تكون الأرفع سمعة والأكثر وجاهة (Nelde 1982: 141). ومن الأشكال النموذجية للاتصالات بين اللغات المختلفة في الوجاهة نذكر العلاقات التي يمكن ملاحظتها في جميع أرجاء العالم بين لغة أغلبية ما (التي يتكلمها غالبية سكان الأرياف ذات المكانة الرسمية) وبين واحدة أو أكثر من واحدة من لغات الأغلبيات (غالباً دون مكانة رسمية). وكلما ازدادت الشقة الاجتماعية الثقافية بين اللغات، ازداد الضغط الاندماجي للغة المهيمنة على الوسائل الأخرى.

ومن الحالات المتطرفة نذكر العلاقة القائمة بين لغة تشمل جميع الوظائف الاجتماعية والتي قطعت جميع مراحل التوسع الممكنة والملبية، بالاعتماد على استخدامها في مجتمع المعلومات، جميع

حاجات ومتطلبات الاتصالات العالمية، وبين لغة أخرى غير مكتوبة ولا تُستخدم في النظم التعليمية ولا في الوظائف الرسمية، بل الموجودة بشكلها المحكي وحسب (راجع حول هذا النوع من العلاقة اللغوية Haarmann 1984).

ومن الأمثلة التي تستحق الذكر في هذا المجال علاقة اللغة الروسية مع الإيشورية Ischorische، وهي لغة غير مكتوبة من لغات بحر البلطيق الفنلندية والمستخدمة في منطقة لينينغراد - سانت بطرسبورغ الإدارية. تؤثر اللغة الروسية المهيمنة على الإيشورية بأشكال متنوعة: كلغة كتابة، أو لغة محلية عامية، وعلى شكل لهجة محلية. ثم إنّ الإيشورية غير المكتوبة لا وجود لها إلاّ بشكلها المحلي الذي يتسم بمؤثرات روسية قوية (Haarmann 2001: 62ff). وفي خضم مثل هذه العلاقات اللغوية فإنّ اللغة المهيمنة لا تؤثر على اللغة غير المهيمنة وحسب بل إنها تولّد عوامل تجذب الأخيرة للإنصهار في الأولى. يعني هذا أنّ المتحدثين باللغة غير المهيمنة يتخلون آجلاً أو عاجلاً عن لغتهم الأم ويتبنون اللغة المهيمنة.

إنّ نحو ثلثي جميع لغات العالم (أي أكثر من 4200 لغة مفردة) هي لغات غير مكتوبة، حيث تشبه الظروف التي تحيط بعلاقاتها مع اللغات الأخرى ظروف الحالة المتطرفة التي أتينا على ذكرها أعلاه. لذا فإنّ ما يميّز غالبية اللغات هو أنها موجودة في محيط من العمليات الاندماجية الجذابة. وما يُقال عن هذه اللغات داخل مجتمعات اللغات

المهيمنة ينطبق أيضاً على الناطقين بمثل هذه اللغات من الذين يعيشون خارج نطاق انتشار مجموعتهم اللغوية والذين لا يستعملون لغتهم الأم كلغة للكتابة (على سبيل المثال الأقلية اليونانية في أوكرانيا، الأقلية التترية في رومانيا، الأقلية التاميلية في جنوب إفريقيا).

أما الكيفية التي تتبدل فيها تراكيب لغة ما عن طريق الاتصال مع لغات أخرى فيظهر على خير وجه في لغات البيجن ولغات الكريبول الحديثة. (راجع الفصل الخامس). وعلى عكس افتراضيات البحوث القديمة القائلة بأنّ تبسيط التراكيب النحوية والمعجميّة قد تشكّل العملية الرئيسية لتحويل لغة مهيمنة إلى لغة كريبولية، يعرف المرء اليوم أنّ العديد من العوامل تطبع لغات الكريبول، علماً أنّ لغات الكريبول هي محصلة عمليات انصهار تصبح خلالها لغة غير مهيمنة مؤثرة بصورة تظهر فيها ملامحها في تراكيب اللغة المهيمنة.

وعلى الرغم من أنّ جميع لغات الكريبول المعروفة تنتشر خارج أوروبا، فإنّ البحوث المتعلقة باللغات والعلاقات القائمة فيما بينها قد عثرت في هذه القارة أيضاً على موضوعات بحث كريبولية. فهل تعتبر الرومانية والألبانية نتيجة لإحدى عمليات الإنصهار المشابهة لعملية الانصهار المؤدية إلى ظهور لغات الكريبول كما رأينا أعلاه؟ إنّ البحوث التقليدية حول الأصول الإثنية لشعوب منطقة البلقان وحول العلاقات القائمة بين لغاتها لم تقدم حتى الآن سوى تفسيرات الية عادية غير لائقة أبداً بالطبيعة الدينامية لعملية الانصهار. إنّ المؤثرات

اللاحقة التي خلفتها اللغة الداكية Dakische في اللغة الرومانية قد تختلف عن مفعول المؤثرات الخارجية العادية؛ وحتى عند دراسة تاريخ اللغة الألبانية يظهر انصهار الإليرية Illyrische مع اللاتينية المحكية، حيث يشكل الجزءان تشابكاً تكافلياً (Haarmann 1999).

مع هذا فإنّ تحليل العلاقات اللغوية تبقى ناقصة إذا لم يجر بحث المؤسسات الثقافية ذات العلاقة باللغة إلى جانب دراسة التراكيب اللغوية. وإحدى هذه المؤسسات الثقافية ذات الأهمية الأساسية هي الكتابة. إن المنافسة بين الكتابات الأصلية في المجتمعات التاريخية لا يعتبر فقط جزءاً من تاريخ الثقافة (Haarmann 1992a: 361 ff)، بل إنه ينتمي أيضاً إلى موضوعات البحث المحتملة لعلاقات اللغة التاريخية.

هناك مناطق يجري فيها دراسة موضوع «الكتابة قيد الاتصال»، أو العلاقة بين الكتابات. فالمشهد الثقافي القديم في منطقة البحر الأبيض المتوسط يعرف الصراع والمنافسة بين نظم الكتابة الإيجية القديمة والأبجدية. وعلى مدى قرون طويلة كانت هناك منافسة حادة جداً بين كتابة المقاطع القبرصية والأبجدية اليونانية. بيد أنّ البحوث الجديدة قدمت الدليل القاطع على أنّ دور قبرص ما يتعلق بالكتابات الإيجية في البحر الأبيض المتوسط كان مهماً للغاية (Haarmann 1997a). وبالفعل فإنّ التطور الحاصل في أغلبية الثقافات السابقة للعهود الرومانية في منطقة البحر الأبيض المتوسط كانت تتسم بالمنافسة بين كتابات المقاطع والكتابات الأبجدية.

أما عدم التمكن من اعتبار العلاقة القائمة بين نُظم الكتابة ظاهرة ثقافية وحسب، وكيف إنّ الكتابة يمكن أن تتحول إلى عامل سياسي أيضاً، فيظهر في الأمثلة التي يسوقها لنا تاريخ السياسة اللغوية السوفييتية. لقد لعبت الكتابة في روسيا أدواراً تاريخية كثيرة، حيث كانت (ولا تزال) تعتبر وسيلة للتعبير عَبْر التقاليد اللغوية (الكيريلّية «نسبة إلى كريلّوس مخترع الأبجدية السلافية»، في الأدب الديني للشعوب غير الروسية قبل 1918، والكتابة العربية لدى المسلمين «من العرب وغيرهم»، والكتابة العبرية لدى اليهود الأشكناز من بلاد أوروبة الشرقية، واليهود الشرقيين «السفارديم»)، وأصبحت لعبة في الاتجاهات الأيديولوجية (الكتابة اللاتينية وسيلةً ثورية للتحديث بالنسبة إلى لينين، والكتابة الكيريلّية أداة لاتجاه سلطوي وحيد في السياسة الداخلية في زمن ستالين)، أو التي تطورت خلال المرحلة التابعة لفترة الحكم السوفييتي لتصبح وسيلة للتحرر المناوىء للسوفييت (كما هو حال اللغة الآذرية، فبعد أن كانت الكيريلّية تُستخدم للكتابة الآذرية في أذربيجان خلال القسم الأكبر من الحكم السوفييتي، استعيض عنها منذ عام 1991 بالكتابة اللاتينية).

وفي التاريخ الثقافي لجنوب شرق أوروبا تطالعنا الأهمية العقائدية لاستخدام الكتابة بأجلى صورها. فبعد أن كانت هذه المنطقة تستخدم منذ القرن الثاني قبل الميلاد الكتابتين اليونانية واللاتينية، حدث في وقت لاحق أن ظهرت كتابات أخرى مثل الغلاغولية Glagolisch، والكيريلّية، والعربية والعبرية التي وسعت الموشور الثقافي

اللغوي الكتابي في هذه المنطقة من العالم. علماً أنّ العربية تعتبر وسيلة كتابة عملية للغاية. وبعد حملة الإبادة التي قام بها المحتلون النازيون ضد اليهود الأشكناز والسفارديم في البلقان في الأعوام 1941 حتى 1944، لا يمكن النظر إلى الإنجازات الثقافية للعبرية إلاّ من الزاوية التاريخية.

ومن الجدير بالذكر أنّ المنافسة بين الكتابات في البلقان لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا. فعلى الرغم من أنّ اللغة اللاتينية لم تكن سوى بضاعة ثقافية نقلها الرومان معهم إلى جنوب شرق أوروبا، فإنها برهنت على حيويتها نظراً لاستخدامها عَبْر مئات السنين في كتابة اللغات في مختلف المناشىء والمنابت. لقد تحولت المنافسة بين الكتابتين الكيريلّية واللاتينية مع اندلاع الحرب في يوغوسلافيا السابقة إلى أداة سياسية. أما في البوسنة والهرسك فإنّ الكتابتين تخوضان حالياً صراعاً ثقافياً حاداً.

وعلى الرغم من أنّ الكيريلّية تعتبر في يوغوسلافيا الحالية الكتابة الرسمية الوحيدة، فإنّ الكتابة اللاتينية استطاعت أن تحجز لنفسها زاوية مريحة لا بأس بها، علماً أنّ العلاقات التجارية الدولية ليوغوسلافيا تجعل من استخدام الكتابة اللاتينية ضرورة لا غنى عنها. وفي وسائل الإعلام، أو في صورة المدينة قامت الكتابة اللاتينية في الإعلان التجاري (أسماء المنتوجات والشركات، الشعارات بالإنجليزية) بترسيخ أقدامها وكذلك في الوسط الثقافي الشعبي (حقل الترفيه).

وبصورة أكثر (عدوانية) تقوم الكتابة اللاتينية بالسيطرة على معابر الجسور في الدوائر الثقافية اليونانية. حيث تسيطر الكتابة اللاتينية في المراكز السياحية في جزر إيجه خلال الموسم السياحي في جميع قطاعات الخدمات. وفي صورة الشارع في فيرا (سانتوريني)، هيراقليون أو آجيوس نيكولاوس (جزيرة كريت)، يجد المرء أسماء وإشارات بالخط اللاتيني أكثر من الخط اليوناني. أما في الجرف القاري فتهيمن الكتابة اليونانية وإن كانت الكتابة اللاتينية قد أصبحت إحدى المكونات التي لم يعد بالإمكان تصور حياة المدن اليونانية (على سبيل المثال أثينا وسالونيك) دونها.

تتعدد آثار عمليات الانصهار المحتملة على تراكيب اللغات ذات العلاقات المتبادلة والتي تتراوح بين تبادل الكلمات الثقافية وإحداث تغييرات جذرية عميقة في اللغة. نحن الأوروبيين مثلاً نعتقد أنّ العلاقات الثقافية واللغوية التي تسود في بعض مناطق قارتنا هي علاقات متعددة الجوانب ومعقدة. إلاّ أنّه عند المقارنة مع التطورات في العديد من المناطق خارج أوروبا، نرى أنّ الأوضاع في أوروبا ما تزال في الواقع محصورة داخل أطر معينة إلى حد بعيد.

ثم إنّ الأوروبيين لا يدركون أن العلاقات اللغوية في الأجزاء الأخرى من العالم أكثر تعقيداً مما هي عليه في أوروبا، لأنهم لا يدركون تماماً وجود لغات غريبة أيضاً (أي لغات مستوردة) تتدخل في هذه العلاقات (على سبيل المثال، الهندي، التاميل أو كانادا التي لها علاقات مع

الإنجليزية في الهند). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنّ الكتابة لا تنحصر فقط في الأنظمة الأبجدية (على سبيل المثال المؤالفة بين الصينية وتقاليد الكتابة في كوريا التي تعتمد الحروف الأبجدية) ولأنّ العلاقات اللغوية غير الأوروبية يمكن أن تعكس تناقضات ثقافية هائلة لا يمكن للأوروبيين استيعابها.

قد يقابل المرء تناقضات ثقافية كبيرة جداً في منطقة محدودة للغاية. فمن يراقب من المرفأ مثلاً خط أفق سنغافورة بكل ناطحات السحاب الحديثة لا يمكنه أن يتصور أبداً أنه على مبعدة ساعة واحدة بالسيارة، في غابات ماليزيا، يقوم السكان الأصليون (جماعة سمانغ Semang) بتثبيت مظلات الريح لحماية أماكن سكنهم كما كانوا يفعلون قبل آلاف السنين. هذا التناقض الصارخ يعبّر عن نفسه لغوياً أيضاً. ففي الوقت الذي تم فيه توسيع اللغة الصينية في سنغافورة وتحويلها إلى وسيلة اتصالات حديثة رفيعة جداً والمزودة مفرداتها بمصطلحات ذات توجهات تكنولوجية مطلوبة لإقامة العلاقات التجارية الدولية، نرى أنّ لغة سكان غابات ماليزيا لا تزال مشبعة بمفردات تعود إلى عصر الصيد وقنص الحيوانات الصغيرة.

ومن أجل أن نستحضر في أذهاننا طاقات التثاقف (تبادل ثقافي بين شعوب مختلفة، وبخاصة تعديلات تطرأ على ثقافة بدائية نتيجة احتكاكها بمجتمع أكثر تقدماً - المترجم) التي تؤثر في العلاقات اللغوية، والمرونة التي تتأقلم فيها اللغات مع مؤثرات العلاقات، يتعيّن

علينا إلقاء نظرة على أحد أكثر المشاهد الثقافية غرابة في عالمنا اليوم: جنوب شرق آسيا. حيث تقدّم هذه المنطقة الكبيرة بطريقة مثالية كل ما له علاقة بالمضمون التاريخي للتطور الثقافي والتفاعل اللغوي. إن ثقافات ولغات منطقة جنوب شرق آسيا لم تتلاش في بوتقة من الانصهار الاعتباطي، بل إنها حافظت على سماتها وخصائصها وتراكيبها على الرغم من الضغوط التي مارستها عليها القوى الكولونيالية الأوروبية. إنّ العولمة والتنوّع اللغوي والثقافي المحلي لا يتناقضان مع بعضهما البعض، بل إنهما اتجاهان لهما توجهات لها آثار متبادلة.

الاتصالات اللغوية وتنوّع الثقافات في جنوب شرق آسيا:

مثال حيّ على التحديث دون فقدان الهوية

يعتبر البرّ القاري لجنوب شرق آسيا، أي الهند الصينية التاريخية، منطقة جغرافية كبيرة تشمل العديد من المجموعات الإثنية – اللغوية (Bruk/Apencenko 1964: 58 - 59, Moseley/Asher, maps 49-51). ويجد هذا التشتت والانقسام صنوه في التناقض الصارخ بين الاتجاهات الثقافية التي أصبحت هذه المنطقة تعج بها عبر التاريخ. إنّ الأرواحية Animismus (مذهب حيوية المادة: الاعتقاد بأنّ الروح والنفس المبدأ الحيوي المنظم للكون، وبأنّ لكل ما في الكون وحتى للكون ذاته، روحاً أو نفساً – المترجم) المرتبطة بالتقاليد المتجذرة في المجتمع والتي تعود إلى ما قبل التاريخ، والبوذية الأصغر سناً، وكذلك النفوذ الثقافي

الأوروبي المنشأ الأحدث عمراً من هذا وذاك، تعتبر عوامل مقررة جداً في تكوين الجماعات الموجودة في منطقة جنوب شرق آسيا الحديثة.

وبغض النظر إن كان المرء ينظر إلى التنوّع الإثني من الموقف التزامني لتوزيع الثقافات المحلية الحديثة، أم أنه يستحضر في ذهنه التتابع الزمني للتأثير الثقافي ومؤثراته، فإنّ ثقافات مجتمعات البر القاري لجنوب شرق آسيا لها في الواقع طبيعة الفسيفساء. ففي الوقت الذي تبدو فيه الأجزاء الخارجية في العديد من الثقافات وكأنها متممة للنواة الداخلية، فإنّ الإنصهار الثقافي في جنوب شرق آسيا كبير إلى درجة تضطرنا إلى مقارنته بلوحة من الفسيفساء التي تتكامل فيها العناصر المحلية الإقليمية مع العناصر المتبناة من العديد من الدوائر الثقافية المختلفة مشكّلة صورة فسيفسائية كاملة الألوان وجميلة للغاية.

وفق التقسيم السياسي الحالي، يشمل البر القاري لجنوب شرق آسيا سبع دول: ميانمار (حتى مايو/ أيار 1989 بورما أو بيرما)، تايلاند، كمبوديا، لاوس، فيتنام، ماليزيا، وسنغافورة. جميع دول جنوب شرق آسيا هذه متعددة الثقافات. ثم إنّ نسب الأغلبيات والأقليات في دول جنوب شرق آسيا ليست بالأمر غير العادي، لا بل إنها تميّز «جنوب شرق آسيا». ومن أجل تصور أفضل للأوضاع القائمة، نود الإشارة في هذا السياق إلى حالة مشابهة في أوروبا (حول الإحصائيات الإثنية في أوروبا راجع: Haarmann 1993: 36 ff).

إنّ كمبوديا ذات الأغلبية السكانية التي تتحدث لغة الخِّمير Khmer والبالغة 87% تشبه هنغاريا التي تصل نسبة متحدثي الهنغارية فيها إلى 88%. ونسب الأغلبية في سنغافورة (76,6% صينيون) يمكن مقارنتها مع بلاروسيا (79,4% روس بيض). ويمكن مقارنة الأغلبية الإثنية في ميانمار/ بورما (75,2% بورميون) مع إسبانيا (72% ناطقون بالإسبانية) وتماثل النسبة في لاوس (66,5% لاوسيون) ما هو موجود في سويسرا (65% ألمان - سويسريون).

وأخيراً تبلغ نسبة سكان تايلاند الأصليين 52,6%، وهذا يشبه الأغلبية الضئيلة الموجودة في لاتفيا (51,8% لاتفيون). ثم إنّ الأغلبية في البلدين أقل بكثير مما هو موجود في بلجيكا (57,6% فلاميون) التي تفتخر بكونها إحدى الدول الوحيدة المتعددة الثقافات دون وجود أغلبيات واضحة تماماً. وتعتبر ماليزيا حالة خاصة، حيث لا يُشكِّلُ السكان الذين تحمل الدولة اسمهم (المالاويون) سوى نصف السكان تقريباً. وهذه النسب لا يمكن مقارنتها إلاّ مع كيان واحد في أوروبا يتمثل في التركيبة التاريخية للاتحاد السوفييتي سابقاً. وحسب آخر الإحصاءات الإثنية السوفييتية لعام 1989، شكّل الروس فقط نصف العدد الإجمالي (50,8%) من سكان الدولة السوفييتية.

وتعتبر فيتنام، وبفارق كبير، أكبر دول الهند الصينية في عدد السكان، وفي الوقت نفسه المنطقة التي تضم أكبر عدد من الأقليات اللغوية. إلى جانب الفيتناميين (Viet أو بالأحرى Kinh)، يعيش في

فيتنام أفراد 54 أقلية إثنية ينتشرون في طول البلاد وعرضها، حيث يظهر الشمال النسبة الأكبر من التنوّع الإثني. ويعادل العدد الإجمالي للأقليات الإثنية في فيتنام العدد الإجمالي لسكان دول مثل كمبوديا. وبالاعتماد على العدد السكاني الكبير للشعب الفيتنامي، فإنّ نسب الأغلبية اللغوية والأقليات موزعة بطريقة تبدو فيها فيتنام ذات الأغلبية الفيتنامية البالغة 87,6% أكثر إنسجاماً من الدول الأخرى في جنوب شرق آسيا.

كما أنّ تنوع الجماعات الإثنية يبدو أحياناً وكأنه يتركز للوهلة الأولى على الاختلافات اللغوية الكبيرة. يمكن إرجاع لغات البر القاري لجنوب شرق آسيا إلى أسرتين لغويتين هما أسرة اللغات الأسترالية الآسيوية وأسرة اللغات الصينية - التيبيتية. وأهم ممثلي الأسرة الأسترالية الآسيوية هي لغات مون - خمير Mon - Khmer (Voegelin/Voegelin 1977: 33, 235 ff). يشير مصطلح Mon (تسميات أخرى: Peguanisch, Talaing) إلى اللغة الموجودة في بورما (المنطقة الشرقية من دلتا إراوادي) وKhmer إلى اللغة الكمبودية الحديثة. ومن اللغات ذات العلاقة الجينية مع أسرة مون - خمير نذكر اللغة الفيتنامية، علماً أنّ لغات مالاكا Malacca في ماليزيا تنتمي إلى الأسرة الأسترالية - الآسيوية.

إلاّ أنّ اللغات الصينية التيبيتية هي الأكثر انتشاراً في منطقة جنوب شرق آسيا (Voegelin/Voegelin 1977: 307 f. 193 ff. 328) والتي تنقسم إلى المجموعة الصينية وتنتمي إليها لغة تاي Thai، ولغات كام - تاي Kam - Thai (على سبيل المثال اللغة اللاوسية)، إضافة إلى لغة مياو

Miao (المسمّاة Meo في تايلاند) وغيرها من لغات الأقليات، وإلى المجموعة التيبيتية - البورمية التي تعتبر اللغة البورمية أكبر ممثل لها في جنوب شرق آسيا. وما يتعلق بمجموعة كام - تاي، فإنّ علاقاتها أمتن مع الأسرة الأسترالية الآسيوية.(أي الملايو - البولونيزية) حسب نظرية بنديكت (Benedict 1967) من علاقاتها مع العائلة الصينية (المجموعة التي يُطلق عليها تسمية Austro-Thai، أي الأسترالية - التايلندية). وبالاعتماد على هذه العلاقات المتداخلة يقترح بنديكت (1973) دمج اللغات الأسترالية الآسيوية والآوسترنيزية (أسرة اللغات الأندونيسية والأوقيانوسية والممتدة من جزيرة مدغشقر في جنوب شرقي أفريقيا حتى جزر الفصح - المترجم) في أسرة اللغة الأسترالية الكبيرة (austric phylum). وقام پايروس :1988 Peiros) (323ff. بفحص واختبار أوجه الشبه المعجمية الموجودة في اللغات الصينية - التيبيتية والآوسترونيزية.

كان التفرّع الجيني للغة الفيتنامية أحد الموضوعات التي كثر التنازع حولها. ففي التصنيفات القديمة تم إدراج الفيتنامية في صفوف اللغات الصينية - التيبيتية. اعتمد هذا التصنيف على جملة من الأمور من بينها العنصر الصيني القوي الموجود في مفردات اللغة الفيتنامية والطبقات الصوتية التي تشترك فيها الفيتنامية مع لغة التاي وغيرها من اللغات الصينية. لكن ما تبيّن كان أن العناصر الصينية الموجودة في المعجم الفيتنامي كانت تعود إلى اقتباسات قديمة جداً .وعدم ظهور أية علاقة من علاقات القرابة اللغوية، وكيف

أن نظام النبرات (الطبقات) الصوتية (في الفيتنامية 6) كان قد تطور خلال الألفية الأولى من تاريخنا، ربما تحت تأثير اللغة الصينية (Campbell 1991: 1435).

مواجهة تقاليد المذهب الأرواحي لحضارات آسيا

كان مبدأ الأرواحية مسيطراً على نظام عالم شعوب جنوب شرق آسيا قبل أن تحدث الإنطلاقة الثقافية الكبرى المعتمدة على الأديان الآسيوية العليا وما يرتبط بها من مواقف تجاه الحياة كما جاء ذلك من الهند والصين. ثم إن إقحام التفاعل الإنساني بأعمال الأرواح الجيدة والشريرة التي تقرر ما يجري من أحداث في البيئة الثقافية قد بقي على حاله في المصطلحات المتعلقة بتفسير الحياة والذي ما يزال – سوية مع الطقوس الأرواحية – قيد الاستعمال حتى يومنا هذا. لغة خمير Khmer مثلاً تعرف الكثير من التعابير التي يمكن استخلاصها من التقاليد الأرواحية. فيما يلي بعض الأمثلة:

banceek (شرح)، (توضيح)، (تدليل)، (تثبيت).

bankak (جلب الحظ)، معنى أقدم: «إعطاء الشيء قوة لتنفيذ الرغبات»، تبريك (على سبيل المثال عبر اغتسال طقسي أو قص الشعر).

te:ey (تنبؤ)، (تكهن).

bo:l (تنبؤ)

praphno:l (نذير)

تمخض الغزو الثقافي الهندي عن رؤية نظام عالمي جديد بوذي الملامح والسمات، تم خلاله تسليط الأضواء من جديد على مسألة تفسير الحياة، علماً أنّ التصورات القديمة (أنظر أعلاه) في هذا المجال لم تدم طويلاً، بل إنها نُقلت بكونها سمةً من سمات الثقافة المحلية. ثم إنّ عالم البوذية ثبت أقدامه عن طريق توسيع المصطلحات المحلية. المصطلحات الأساسية التالية من لغة خمير تعكس هذا التوسع:

nimit (پالي) «علامة (ظاهرة للعيان)»، «نذير»، «نذير جيد»، «ظاهرة»، «صورة»، معنى ثانوي: «سبب»، «مسبب» (أي نذير كمسبب لتطور ما)، ومنه تم اشتقاق كلمة nimitaru:p «رمز» (في المعنى المجرد)، nimitaha:et «أعراض».

ne:em («سنسكريتية») «اسم»، «تسمية»، «وصف»، «كلمة» (أيضاً غرام. «اسم»).

nikhoandasah («سنسكريتية») دلالة «سمانتيك».

ويظهر التكافل المتشابك بين التصورات القديمة والجديدة في نفس المجال الوظيفي. في لغة خمير مثلاً هناك اصطلاح: ci وke:etha، وكلاهما يعني «تميمة». ci هو في الواقع اصطلاح محلّي يصف اللويح المعدني الذي يحمله الأطفال عادة والمرصّع أحياناً بالأحجار الكريمة. أما اصطلاح ke:etha فيعود إلى عالم الكتابة، ويعني تميمة مصنوعة من الذهب أو الفضة ومزدانة بعبارات دينية.

ومع انتشار الكتابات البوذية في اللغة السنسكريتية، ولغة پالي واللغة الصينية، حدثت علاقة بين تطوير التعليم العالي في الثقافات المحلية لجنوب شرق آسيا وبين تقاليد الكتابة في اللغات الثقافية الكبرى. ولا يعتبر تبنّي الأبجدية الهندية في بورما وتايلاند وكمبوديا ولاوس، أو اعتماد الكتابة الصينية في فيتنام وحده تعبيراً عن الاتجاه نحو التنوّع الثقافي في الهند الصينية، بل هناك ناحية التكوين المتعادل للمفردات في اللغات المحلية.

لقد خضعت التراكيب المعجمية في لغات جنوب شرق اسيا منذ ألفي عام إلى مؤثرات اللغة الصينية وإلى لغتي البوذية (السنسكريتية وپالي). كما خلّف عالم الكتابة الهندية آثاره المستديمة في ثقافات جنوب شرق آسيا. ومن الطرق التي عبّرت فيها المستجدات الثقافية عن نفسها كانت صياغة المصطلحات المتعلقة بالتجارب التي كانت بالنسبة للسكان المحليين غير معروفة نهائياً قبلئذ أو أنها كانت محدودة جداً.

وفي مجال تشغيل المعلومات على سبيل المثال كان يوجد قبل زمن الكتابة نظام مبدئي من العلامات المحززة، حيث بقي التقليد القديم محافظاً على نفسه في لغة خمير كما في كلمة khnac التي تعني «الخشب المحزز». لكن تبني الكتابة أحدث جملة من التوسعات في استخدام الرسومات وما يتعلق بهذا الاستخدام من رموز بصرية. المصطلحات التالية من لغة خمير توضح هذا الموضوع:

kat (پالي) «التثبت الخطي من الأمر»

koantha (پالي) «كتاب»

kumpi (پالي) «رسائل مقدسة»

nopon (پالي) «عدد»

banci (سنسكريتية) «قائمة»

chan (سنسكريتية) «شعر»، «بيت شعري»

bat (سنسكريتية) «نص»

وهناك بعض الكلمات التي لها ذبذبات عالية في الاستخدام اللغوي الحالي من ناحية معانيها المتعددة، على سبيل المثال:

ban (پالي) «قصاصة»، «بطاقة»، «تذكرة»، «تذكرة قطار»، «بطاقة الهوية»

ومن كلمة ban تم اشتقاق كلمات كثيرة أخرى تصف جميعها كل ما يشبه البطاقة (على سبيل المثال: إيصال استلام، بطاقة بريدية، قائمة طعام، تذكرة سفر).

أما التأثر بلغات الهند و/أو باللغة الصينية فقد كان كثير الاختلاف. في بعض المجالات أُعيدت صياغة المفردات المحلية وجرى استبدالها بكلمات أخرى (أنظر فيما بعد)، وفي مجالات أخرى تمت المحافظة على عناصر معجمية قديمة، مع العلم أنّ

المصطلحات الجديدة أخذت أوصاف وظائف معينة بالذات من هذه العناصر. على هذا المنوال تولد في خضم المستجدات الاصطلاحية مرادفات متعددة الأوجه.

ومن الأمثلة على ذلك ثنائية أسماء الأعداد الأصلية في لغة خمير. فإلى جانب السلسلة المحلية هناك سلسلة جرى اشتقاق أوصافها من اللغتين السنسكريتية وپالي. إنّ أسماء الأعداد الأخيرة تُثبت ما يتعلق باستخدامها بالترابط مع النصوص أو الصلوات البوذية:

اسم عدد محلي	قيمة العدد	اسم عدد مشتق
pi	اثنان	to:u (سنسكريتية)
bei	ثلاثة	teka (پالي)
bu:en	أربعة	cato (پالي)
pram	خمسة	pan(ca) (سنسكريتية)
pram mu:ej	ستة (حرفيا 5+1)	cha (سنسكريتية)

وخلال الفترة الكولونيالية الأوروبية تم نشر الإشارات واليافطات في كل مكان والتي كانت تأخذ شكل الإشارات العادية. حيث قام الفرنسيون والبريطانيون مثلاً بتنظيم أنظمة المرور والمواصلات الحديثة. وتأقلمت مصطلحات اللغات المحلية مع المستجدات المستوردة مثل كلمة sanal بلغة الخمير وتعني إشارة مرورية (بالفرنسية singnal). وحتى طريقة الكتابة الأوروبية دفعت إلى إحداث

سلوكيات جديدة وطرق تعبير مختلفة. على سبيل المثال في لغة الخمير تعني si:ne توقيع (بالفرنسية signer)، التوقيع si:na:tu:o (بالفرنسية signature).

لقد كانت لغات جنوب شرق اسيا دوماً وأبداً معرضة لتأثيرات عوامل محلية وفوق محلية. ولذا فإنّ التفاعل الديناميكي بين عوامل لغوية متنوعة يؤدي عادة إلى ظهور عيّنات لغوية معينة ومختلفة. وعلى الرغم من أنّ اللغات تبدل طبيعتها وتتحول بصورة دائمة نتيجة لعملية التطور العادية وبسبب المؤثرات الخارجية أيضاً، لا زلنا نرى مجالات كثيرة بقيت على ما كانت عليه منذ زمن طويل ولم تمسها حركة التطور.

هذه المجالات لم تتحدد خلال المرحلة «قبل الثقافية»، بل إنها قائمة ثقافياً في الواقع. وتشكّل الأجزاء المحلية في مفردات اللغات الحديثة التي تمت فيها المحافظة على الاصطلاحات الجديدة للمجتمع الزراعي السابق، تشكل في الوقت نفسه العناصر المطلوبة لاستمرار الحركة الثقافية في جنوب شرق آسيا. أما المصطلحات المركزية للمجتمع الزراعي التقليدي فمثبتة بلغات الخمير، والتاي، أو في اللغة البورمية المحلية وليست واقعة تحت تأثير اللغتين الهندية والصينية.

ونظراً لطول العلاقات مع الصين يعتبر تأثير اللغة الصينية على اللغة الفيتنامية - بالمقارنة مع لغات أخرى من جنوب شرق آسيا - هو

الأقوى. علماً أنّ العلاقات الفيتنامية الصينية تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد. وفي خضم التوسع العسكري الذي قادته مملكة الوسط تمكن أحد القادة العسكريين الصينيين المدعو شاو تو Chao To (بالفيتنامية: Trieu Da) من السيطرة بجحافله على وادي النهر الأحمر. وبعد المعارك الدامية التي انتصر فيها على قبائل الفيّت، والتاي استغل شاو تو الوهن السياسي لسلالة كين Qin وأسس مملكة نام فيت Nam Viet المستقلة (208 - 111 ق.م).

ضمت المملكة الجديدة المناطق الصينية الجنوبية مثل غوانغدونغ Quangdong وكوانكسي Quangxi ودلتا النهر الأحمر ومناطق تان هوا Thanh Hoa ونغا تينه Nghe Tinh في شمال فيتنام. ولم يحاول شاو تو نشر الثقافة الصينية في فيتنام، بل يُحكى أنه نفسه اكتسب التقاليد الفيتنامية (Wulf 1991: 48). وبعد أن قامت أسرة هان الصينية (111 ق.م) باستقطاع فيتنام الشمالية تم ربط جميع الوظائف الثقافية بالأشكال الصينية، وبصورة خاصة بشكل الكتابة.

ويستطيع المرء أن يقول دون أية مبالغة، إنّ اللغة الفيتنامية ما كانت قادرة على أداء وظائفها دون الأجزاء الصينية (الصينية - الفيتنامية) الموجودة في مفرداتها، بغض النظر عن المجهودات التي تبذلها الجهات المسؤولة عن التخطيط اللغوي في فيتنام والهادفة إلى استبدال جميع المصطلحات الصينية بكلمات ومفردات فيتنامية بحتة. وحتى فترة الحكم الكولونيالي الفرنسي بقيت اللغة الصينية أهم وسيلة استُخدمت

لإدخال المصطلحات الجديدة في اللغة الفيتنامية. وفي حينه كانت اللغة الفرنسية تلعب دوراً ثانوياً (DeFrancis 1977: 247). وما يتعلق بالبنية الكاملة للمعجم الفيتنامي، يقدر المرء أنّ حصة الكلمات الصينية في اللغة الفيتنامية تبلغ الثلث تقريباً.

وتتمثل العناصر الصينية الموجودة في النصوص الفيتنامية بالوظائف التي تؤديها وبالأسلوب الإنشائي. وتبلغ حصة المفردات ذات المنشأ الصيني في الوظائف اللغوية الرسمية نحو ستين بالمائة (Nguyen Dinh Hoa 1961: 15). وبما يتلاءم مع وظائفه التاريخية، لا يظهر التأثير الصيني في مفردات الحياة اليومية وحسب، بل بصورة خاصة في العديد من مجالات المصطلحات الاختصاصية (على سبيل المثال الأوضاع الاجتماعية، المصطلحات الأخلاقية، الفلسفة، المفردات السياسية). وحتى عهد قريب كان يوجد مفردات حديثة فنية واسعة تعتمد على قاعة العناصر الصينية - الفيتنامية (على سبيل المثال المصطلح القديم المستخدم للطائرة phico).

وحتى اللغات الأخرى في الهند الصينية، كاللغة اللاوسية ولغة الخمير ولغة تاي، كان تأثير اللغة الصينية فيها مهماً. فالعلاقات الثقافية المتبادلة بين لغة التاي واللغة الصينية كانت قائمة حتى القرن الثالث عشر عندما قامت جحافل قبلاي خان بتحطيم المملكة التايلندية في يونّان Yünnan. وكان الناس يشعرون بالتأثير المغولي -

الصيني في بورما البعيدة أيضاً، وإن كان هذا التأثير يقتصر فقط على بعض الحملات العسكرية بين الحين والآخر. لكن هذا لا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنته مع التأثير على اللغة الفيتنامية. ومن كلمات الخمير المأخوذة من الصينية نذكر cek «عم» (الأخ الأصغر للأب) الذي يستعمل أيضاً عند مخاطبة شخص معروف من المواطنين الصينيين sa:e «اسم العائلة»، ta:e «شاي»، kha:o «بنطال»، pa:y «ترحيب»، tha:ovka:e «صاحب متجر» أو i/ «ملمتر».

ومن المحتمل أن تكون لغة المدن في جنوب بورما قد احتكت في وقت مبكّر جداً بلغات الهند، وبصورة خاصة باللغة السنسكريتية ولغة پالي. وهناك مَن يفترض أنّ مثل هذه العلاقات كانت قد بدأت في القرن الثالث قبل الميلاد، والتي لها علاقة بالرسالة البوذية في سوفانابهومي Suavannabhumi التي كان وراء مبادرتها الملك آسوكا Asoka (فترة الحكم: 272 - 231 ق.م) أهم حكام سلالة موريا Maurya الهندية (U Tin Htway 1983: 371). وأثر المون Mon على ثقافة البورميين الذين بدأوا يستقرون في موطنهم الجديد خلال القرن التاسع قبل الميلاد.

ولربما كان المون قد نقلوا أقدم العناصر الموثرة على المفردات البورمية ذات الأصول الهندية. ومنذ العصور الوسطى تم تطعيم مفردات اللغة البورمية بالآلاف من الكلمات المأخوذة من اللغتين السنسكريتية وپالي، على غرار ما فعلته اللغات الأخرى في الهند

الصينية. وحسب أصولها فإنّ هذه الكلمات تشمل مختلف المجالات؛ المجال الديني والأوضاع الاجتماعية والتقنية الحديثة (على سبيل المثال كلمة sattva بالبورمية «شخص»، وبالسنسكريتية samuddara ; sattva «بحر» بالسنسكريتية samudra ; yanatara «ماكنة» بالسنسكريتية yantra). ومن الجدير بالذكر أنّ عناصر لغة پالي التي كانت تغذي اللغة البورمية بما تحتاجه من كلمات منذ مئات السنين (على سبيل المثال بالبورمية ratana «شيء ثمين ما» بلغة پالي loka; ratana «إنسانية»؛ الكون بلغة پالي surriya ; loka «شمس» بلغة پالي suriya)، قد جرى نقلها إلى المفردات الحديثة في اللغة البورمية.

لقد أدت التأثيرات الآدستراتية adsrat (كلمة ذات أصل لاتيني تعني تأثير لغة بلد مجاور على لغة أخرى والنظر إلى هذا التأثير كجزء لا يتجزأ من اللغة الخاضعة للتأثير الأجنبي - المترجم) والتأثيرات السوبرستراتية Superstrat (لغة شعب خاضع للاحتلال والمتأثرة بلغة المحتل - المترجم) على اللغات الثقافية، أدت إلى تبديل مجموعات كاملة من المفردات والكلمات والأوصاف إلى درجة أنّ التراكيب الأساسية لأصل الكلمات المحورة لم تبق إلا على شكل شظايا. ولإعطاء مثال لظاهرة تراكم المفردات فوق بعضها البعض والخاضعة لتأثير لغات خارجية، نشير إلى المفردات الأساسية في لغة الخمير (راجع: Harrmann 1991: 234 ff). فمن بين مائة كلمة أُختيرت في هذه اللغة نرى أن أكثر من ستين كلمة اقتبست من لغة أخرى، وخاصة من

اللغة السنسكريتية. وبالإشارة إلى المصطلحات الأساسية، تظهر الدرجة العالية من التثاقف التي مرت بها لغة الخمير والتي تتسم تراكيبها بالعناصر الغربية أكثر مما هو موجود في اللغة الإنجليزية.

ثم هناك عناصر عربية تدخل في صلب المفردات الثقافية لبعض لغات الهند الصينية. فقبل دخول الإسلام منطقة جنوب شرق آسيا وخاصة إلى ماليزيا وأندونيسيا، كان التجار العرب يجوبون سواحل المنطقة بسفنهم الشراعية ويقيمون المراكز التجارية فيها كما فعل في وقت لاحق التجار الأوروبيون. غير أنّ التأثير الثقافي واللغوي الحقيقي لم يظهر فعلياً إلاّ مع حركة نشر تعاليم الدين الإسلامي كما ينطبق في المقام الأول على الشعب الماليزي ولغته في جنوب البر القاري ولغة الشعب الأندونيسي في أرخبيل الجزر الأندونيسية. وحتى في لغات البر القاري التي يتحدثها أناس غير مسلمين أقتبس الكثير من العبارات والكلمات العربية الأصل نتيجة العلاقات التجارية في المقام الأول (على سبيل المثال arak بالبورمية «مشروب كحولي»، بالعربية عرق Ka lon; arak «قلم» بالعربية قلم kappali; kalam «ملون» بالعربية kafir أي زنجي كافر.

وعند مقارنة التأثير الطويل المدى الذي خلفته الصينية والهندية على لغات جنوب شرق آسيا، نرى أنّ إشعاع اللغة الأولى كان أقل توهجاً من إشعاع اللغة الثانية خارج منطقة الهند الصينية. ومع هذا فقد أخذت بعض الكلمات الثقافية طريقها إلى الهند. لا بل حتى إلى أوروبا. ومن الأمثلة على ذلك التابل الذي يُسمّى بالألمانية Ingwer

(زنجبيل بالعربية) (Haarmann 1991: 223f). يمكن البحث عن أصل الكلمة التي دخلت عَبْر اللغتين الدرافيدية (الدرافيديون لا ينتمون إلى الشعب الهندي الآري وهم يوجدون في جنوب الهند. ومنهم يشتق اسم اللغات الدرافيدية والتي تشكل بعد الهندية الآرية ثاني أكبر مجموعة لغوية في شبه القارة الهندية والموجودة أيضاً في جنوب شرق آسيا، وباكستان، وسريلانكا وأفريقيا. وتضم هذه الأسرة اللغات التالية: التاميل، المالايالام، كانادا، تلوغو، براهوي، غوندي - المترجم) والهندية إلى اليونانية القديمة (dzingibheris) في الأشكال الأصلية للغات جنوب شرق آسيا (Ross 1958: 148): في اللغة البورمية khyan (يُلفظ: dzin)، بالتاي khin، بالخمير khni، بالفيتنامية gù'ng، إلى آخره. وحتى مصطلح قرفة الذي دخل اللغة اليونانية القديمة (kinnamon) عَبْر اللغة الفينيقية، يعود أصله إلى جنوب شرق آسيا على أكبر احتمال وإن كنا لا نعرف أي شيء عن المنشأ الفعلي للكلمة الذي قد يكون اللغة المالاوية مثلاً (Hofmann 1996: 144).

ومن الأمور التي تمخضت عنها التعاليم الدينية في الهند هو اطلاع السكان المحليين في غرب الهند الصينية منذ بداية عملية التقويم التأريخي الحديث على النصوص الهندوسية والبوذية بفضل الكتابة بهاتين اللغتين. وفي هذه المنطقة كان نظام الكتابة الهندي مهيمناً منذ البداية بصيغة الكتابة البراهمية Brahmi القديمة. وهكذا فإنّ غرب الهند الصينية لم يطلع بهذه الوسيلة على المبدأ الأبجدي للكتابة وحسب، بل إنه اعتمد ذلك نتيجة للتطورات الثقافية الحاصلة.

وعندما بدأ الناس الكتابة في الهند الصينية لم يشكل ذلك قطيعة مع التقاليد الشفهية للأساطير، والحكايات الخرافية، والنصوص الطقسية المتوارثة شفهياً من الأزمنة السابقة. على العكس تماماً: إن حفظ النصوص الطقسية والصلوات استمر يحظى بتقدير كبير وكان يشجع علاوة على ذلك عَبْر تأثير الأديرة البوذية. ولا يزال المرء حتى يومنا هذا يولي الكلمة المحكية ذات الاهتمام الذي يوليه للكلمة المكتوبة.

توجد انعكاسات هذه الإزدواجية، وإلى حد ما التناقض، في الحفظ الشفهي والبصري للمفردات اللغوية؛ على سبيل المثال في لغة الخمير:

pe:ek سنسكريتية:

1. «كلمة»، «تعبير»، «مصطلح»، «خطاب».

2. «رسالة (قصيرة)»، خطاب «مقتضب».

phe:eveene:e (پالي):

1. «تأمل»، «ملاحظة متأنية»، «تفكير عميق».

2. «حفظ عن ظهر قلب»، «تراتيل (دون صوت) (لنصوص دينية)».

وتعود الكتابة الأبجدية المستوردة من الهند إلى شكل أساسي هو الكتابة البراهمية التي كان الناس يطلقون عليها خلال العصور

الوسطى في الهند الصينية تسمية عامة هي «كتابات پالي». وانطلاقاً من وجهة نظر ترتيبها الزمني، نرى أنّ ضروب الكتابة المحلية ذات المنشأ الهندي المنتشرة في جنوب شرق آسيا قد نشأت خلال أوج العصور الوسطى وآخرها. يعني هذا أنّ نظم الكتابة في الشرق (تايلاند، إلى آخره) كانت قد بدأت مترافقة مع تقاليد نوم Nom في شرق (فيتنام) الهند الصينية خلال القرن الحادي عشر وحتى القرن الثالث عشر. وما زال الناس حتى يومنا هذا في غالبية دول البر القاري لجنوب شرق آسيا يستخدمون كتابات معدّلة ومكيّفة مع كتابات پالي القديمة (Haarmann 1992a: 532 ff).

وفي الوقت الذي لم تشهد فيه فيتنام الشمالية أية منافسة بين الكتابات الهندية والصينية أو الأبجدية اللاتينية في ما يتعلق بكتابة اللغة الفيتنامية، كانت الكتابات الهندية تُستخدم في جنوب البلاد. وتعود الكتابات السنسكريتية إلى أواسط العصور الوسطى. إنّ شام Cham (أو بالأحرى لين يي Lin Yi) الذين كانوا منذ القرون الأولى من تاريخنا المدون قد أسسوا في جنوب شرق الهند الصينية ممالك عديدة (مملكة لين يي، نحو القرن 1 حتى القرن 6؛ مملكة آمارافاتي Amaravati، القرن 4 حتى القرن 10؛ مملكة پاندورانغا Panduranga القرن 8 حتى عام 1693، مملكة فيجايا Vijay، نحو 1000 – 1471)، كانوا في فنونهم وديانتهم وكتاباتهم متأثرين جداً بالثقافة والكتابة الهندية (Wulf 1991: 261 ff).

شام Cham شعب أسترالي آسيوي يتحدث المالاوية. وفي الممالك القديمة التاريخية لهؤلاء القوم تم استخدام أحد ضروب الأبجدية الهندية التي وصلتنا على شكل كتابات على الأحجار ونصوص في وقت لاحق. وما يزال هذا النوع من الكتابة الهندية الجنوبية يستخدم من قبل جماعة شام. وفي فيتنام الجنوبية يحافظ حتى الآن على نوع الخط التايلندي المستخدم في كتابة لغة الأقليات التايلندية في البلاد (DeFrancis 1977: 252).

وبإمكان المرء العثور على أسلوب للكتابة يحمل بصمات محلية في كتابات منقوشة بالسنسكريتية في كمبوديا (على سبيل المثال - Phra Pethom) من القرن الثامن. في ذلك الوقت كانت مملكة الخمير ترفل في عهد من الازدهار الثقافي؛ وفي الدين والفن كان شعب الخمير متأثراً بالهندوسية. أما المركز فكان من القرن التاسع آنغكور Angkor، علماً أنّ الإدارة السياسية للمملكة كانت تنطلق من آنغكورثومين Angkorthomin والإشعاعات الدينية من مركز العبادة آنغكور – وات Angkor - Wat الذي تحول لاحقاً إلى مركز عبادة بوذي. أما أقدم أنواع الكتابات المستخدمة في تدوين النصوص البوذية بلغة پالي فهي kyok - tsa المدعوة أيضاً «الكتابة الحجرية» من بورما والموجودة أقدم نقوشها على عمود ميازيدي (النصف الثاني من القرن الحادي عشر). وكانت الكتب تُخطّ في بورما خلال العصور الوسطى بالأحرف المائلة وكذلك «بالخط المدور» tsa - lonh الذي كان ينقش على جريد النخيل.

ومن المتفرعات القديمة نذكر الأبجدية البِغوانية peguanisch

المستخدمة في كتابة لغة المدن في جنوب بورما (الكتابة الپاغوانية القديمة). أما الكتابة القديمة في تايلاند (التي وصلتنا بنصوص بورمات وبنصوص پاتيموكا) والتي يعود العمل بها إلى الملك رام كامهنغ Ram Kamheng من سوخوتاي (كتابة منقوشة على شاهدة في 1292) فمأخوذة من أسلوب الكتابة الأقدم kyok - tsa. وهناك علاقة متينة جداً بين كتابة تايلاند العصور الوسطى وضروب كتابات لاوس وكمبوديا. إنّ الكتابة المدعوة aksar mul استخدمت في كمبوديا لكتابة لغة پالي، في حين تم استخدام الخط المائل (askar crieng) في كتابة لغة الخمير. ومن الجدير بالذكر أنّ ضروب الكتابات الحديثة في بورما وتايلاند وكمبوديا ولاوس تختلف عن سابقاتها من كتابات العصور الوسطى بعد أن تأقلمت مع اللغات الشائعة في هذه البلدان.

حول تحوّل العناصر الأساسية للتثاقف الصيني والهندي

منذ العهود التي توصف في أوروبا بالأزمنة الكلاسيكية القديمة، نرى أنّ منطقة جنوب شرق آسيا قد تعرضت إلى تأثيرات ثقافية خارجية. فمن الشمال استوردت عيّنات من الثقافة الصينية، ومن الغرب بدأ الأثر الهندي يدب في أرجاء هذه المنطقة وإن حدث ذلك مع بعض التأخير. وخير دليل على ذلك أنّ اسم «الهند الصينية» الذي يُطلق على منطقة جنوب شرق آسيا يعكس هذه الحقائق التاريخية بكل وضوح. ومع هذا فإنّ هاتين الموجتين الثقافيتين اللتين انصهرت

مقوماتهما في جنوب شرق آسيا والمتمخضة عن تشكيل وحدة ثقافية متكاملة، كانت لهما دوافع مختلفة كثيراً.

المصالح السياسية مثلاً كانت وراء النفوذ الصيني في شمال فيتنام التي ضُمّت في عام 111 قبل الميلاد كسمتعمرة چياو چي Chiao Chi إلى «مملكة الوسط» (صين سلالة هان Han)، حيث بقيت فيتنام مدة ألف عام (حتى 938 بعد الميلاد) خاضعة مباشرة لنفوذ البيروقراطية الصينية والكتابة الصينية وللمنحى الصيني من البوذية. أما النفوذ الهندي الذي ظهر في بورما وتايلاند خلال القرون الأولى بعد الميلاد، وخلال العصر الوسيط المبكر في كمبوديا وجنوب فيتنام، لم يكن - على عكس المطالب السلطوية الصينية في الهند الصينية - ذا دافع سياسي، إضافة إلى أنّ حكام الهند لم يحاولوا أبداً توسيع رقعة حكمهم في جنوب شرق آسيا بالأساليب العسكرية.

ولم يختلف النفوذ الهندي في غرب منطقة جنوب شرق آسيا عن النفوذ الصيني في شرق المنطقة من ناحية الدوافع التي كانت تقف وراءه وحسب، بل في نوعية العيّنات الثقافية أيضاً. تعود أقدم العلاقات مع الهند إلى التعامل التجاري الهندي القديم عندما كان تجار الهند يبحرون مستعينين برياح الشمال بسفن شراعية عَبْر خليج البنغال وصولاً إلى ملقا. ومنذ القرن الثاني قبل الميلاد كانت هناك علاقات تجارية بين الهند وشبه جزيرة ملايو (Harris/Zainal 1990: 8).

وفي المرافىء المنتشرة على طول ساحل البرّ القاري كان التجار ينتظرون تغيير اتجاه الريح وبداية فترة الرياح الموسمية الصيفية للإبحار إلى مناطق جديدة. وعَبْر هذه المراكز التجارية (على سبيل المثال مولماين وثاتون في مملكة مون Mon في جنوب بورما) كانت البضائع وغيرها من السلع الثقافية (على سبيل المثال المذهب الهندوسي، والمذهب البوذي، والكتابة) تصل إلى المراكز الحضرية السابقة في الهند الصينية.

ومن القرن الأول حتى القرن السادس بعد الميلاد كانت هناك مملكة مطبوعة بالثقافة الهندية هي مملكة فو نان Fu Nan التي كانت تشمل جنوب فيتنام وصولاً إلى المناطق الجبلية المركزية وحتى منطقة پنوم پنه الكمبودية، وكانت عاصمتها تدعى أوك أيو Oc Eo والموجودة في دلتا نهر الميكونغ. في هذه المنطقة الواسعة تم العثور على سلع وبضائع صينية وهندية وغرب آسيوية مما يدل على أنّ طرق التجارة البعيدة كانت آنذاك مسلوكة بصورة منتظمة تماماً (Whitehouse/Whitehouse 1990: 204 f). ومن المحتمل أنّ سكان فو نان كانوا يشكلون مجموعة مندمجة من عشائر ملايو وإندونيسيا من ذوي الثقافة المطبوعة بالمذهب الهندوسي. وفي القرون الأولى من الميلاد أقام شعب البيو Pyu دولة تمركزت في بداية الأمر في وسط بورما، نقلها بعدئذ إلى شمال بورما إثر احتلال مملكة البيو من قبل جماعة مون Mon المندفعين في القرن الثامن من تايلاند باتجاه

بورما. وعَبّر مناطقهم كان يوجد طريق تجاري يمر من الهند نحو جنوب الصين.

وهكذا فإنّ التعامل التجاري مع المناطق النائية، الذي كانت طرقه تتلاقى وتتقاطع في جنوب شرق آسيا، كان يقوّي التعامل التجاري المحلي للسكان الأصليين المقيمين في المنطقة منذ مدة طويلة. إذن كانت التجارة في جنوب شرق آسيا، ومنذ أقدم الأزمنة أكثر من مجرد تبادل للسلع والبضائع وانتقال ملكية البضائع من شخص إلى آخر. وعلى الرغم من أنّ هذا النوع من العلاقات المادية كان يعود في المقام الأول إلى التفاعل بين الناس، فإنّ التجارة تعتبر في الوقت نفسه عقيدة حياتية في عالم ينظر فيه إلى الثروات الدنيوية وتكديسها على أنه تعبير عن رضا الأرواح الخيرة المسؤولة عن التجارة على أصحاب هذه الثروات، أو كما في مذهب الطاوية، كخضوع للمصير الذي يقرره فنغ – شوي Feng - shui. ثم إنّ التجارة هي أيضاً من المجالات الاجتماعية حيث يستطيع الناس، البائعون والمشترون، قياس براعاتهم في التعامل مع بعضهم البعض.

لذا فإنّ عادة المساومة (المفاصلة) على الثمن خلال عملية البيع والشراء في جنوب شرق آسيا هي تعبير طقسي عن هذه العلاقة الاجتماعية التي يجري بموجبها التوصل إلى معرفة مدى تحلي الشريك المفاوض بالصبر واستعداده لقبول أنصاف الحلول وللإطلاع

أيضاً على مزاجه ونفسيته. ومن الأمور المهمة أيضاً في المعاملات التجارية هو الإطلاع على إمكانية المناورة بالنسبة للطرفين من أجل التوصل إلى قرار يكون في صالح البائع والمشتري على حد سواء. ثم إنّ الاستنكاف عن المساومة، أو محاولة الضغط على الأسعار دون أخذ أنصاف الحلول بنظر الاعتبار تعتبر بمثابة الإهانة للشريك التجاري. ولذا نرى كيف أنّ السيّاح الأوروبيين أو الأمريكيين (دون قصد بالطبع) يهينون التجار المحليين بهذه الطريقة أو تلك.

أما الأشكال الطبيعية من الاقتصاد الطبيعي (المقايضة بالسلع) فقد تم تحويلها في عصور ما قبل التاريخ إلى استخدام وسائل الدفع الحقيقية، أي إلى الاقتصاد النقدي، ومن أقدم المقاييس التي كان يجري فيها تحديد القيمة في المنطقة المذكورة نذكر أصداف كاوري التي كانت ربما تستخدم «وسيلة دفع» في الصين خلال الألفية الثانية قبل الميلاد. ومما يدلل على ذلك مقطع في كتاب صيني قديم يعود إلى عصر سلالة شانغ Shang يتحدث عن أصداف كاوري كـ «ثروة» أو «رخاء».

مع مرور الوقت أصبحت أصداف كاوري التي كانت في الأصل تُجمع في جزر المالديف والفيلبين وجزر تونغا، أهم وسيلة للدفع في جنوب شرق اسيا في التعامل التجاري مع الهند والصين البعيدتين. وازداد استخدام هذه الأصداف على يد التجار العرب الذين كانوا يبحرون قادمين من الهند في طول وعرض الطرق البحرية القديمة.

وحتى خلال عهد المغول الهنود العظام، وفي مملكة كوجارات، كانت لأصداف كاوري قيمة العملة، وكانت بهذا تُصرف كأحد أجزاء الروبيّة (Sedillot 1992: 41).

غير أنّ النقود المعدنية كانت هي الأخرى قيد التداول منذ الأزمنة المبكرة من التاريخ. وفي هذا المجال بالذات أعطت الهند والصين القدوة المحتذاة. ومن الأشكال المبكرة الشيّقة لنضج فكرة النقد المعدني في جنوب شرق آسيا نذكر القطع المعدنية الفضية لشعب پيو Pyu في العصر الوسيط المبكر التي عُثر عليها في منطقة وادي إروادي وفي شرق بورما. وفي الوقت الذي كانت فيه القطع المعدنية المستوردة الصينية والهندية مزودة بالكتابات، كانت القطع المعدنية لشعب پيو تحمل رموزاً صورية فقط. وأهم نوع هو صورة عرش محاط برموز قمرية على أحد جوانبه، في حين أنّ الجانب الآخر يحمل علامات ذات علاقة بالحظ (على سبيل المثال السواستيكه Swastka والأصداف والشمس)، (الصليب المعقوف يرمز إلى الشمس أو إلى الحظ السعيد. كان أيضاً شارة للحزب النازي الألماني والرايخ الثالث - المترجم).

وتعود المؤثرات البعيدة للنفوذ الثقافي الهندي إلى أزمنة أقدم بكثير من المؤثرات الثقافية الصينية. حيث انتشرت التقاليد الهندوسية والبوذية في كل حدب وصوب ووصلت إلى عالم الجزر الإندونيسية، وفي الهند الصينية تقاطع الاتجاهان الكبيران للبوذية،

الاتجاه الأقدم هينايانا Hinayana (العجلة الصغيرة) - على سبيل المثال في تايلاند حيث يُدعى هذا الاتجاه ترافادا Theravada - والاتجاه الأحدث ماهايانا Mahayana (العجلة الكبيرة) المهيمن حالياً في غالبية بلدان جنوب شرق آسيا. وقبل انعطافة الأزمنة وصلت بوذية ماهايانا عَبْر آسيا الوسطى إلى الصين، مما يعني أنّ هذا الاتجاه ترك بصماته على ثقافات الهند الصينية بالشكلين الهندي والصيني على حد سواء (على سبيل المثال فيتنام). إنّ اعتناق البوذية من قبل حكّام جنوب شرق آسيا ورعاياهم لم يعنِ تأثير عيّنة ثقافية أجنبية على ديانة الناس بالمفهوم الضيّق أو طريقتهم في الحياة بالمفهوم الواسع.

إنّ البوذية تجسّد أكثر من أفكار دينية، إنها نظام عالمي. ويستطيع المرء التعرف على هذه الحقيقة عند الاطلاع على بعض المقومات المركزية لهذا المذهب. من بين الكلمات التي اشتقتها لغة الخمير من لغة پالي نذكر اصطلاح thoam المتضمن المعاني اللغوية التالية: «قانون، حق؛ فضيلة؛ تعاليم (دينية)، سلوك، طريقة؛ صلاة». وعلى هذه القاعدة تم اشتقاق الكثير من الكلمات حيث يمكن العثور على العديد من المصطلحات المركزية مثل «الواجب»، «الأخلاقيات»، «الطبيعة»، «النمط»، «القانون»، «الدستور»، «العلوم القانونية»، وما شابه (Gaudes 1985: 546 ff).

ويظهر أثر البوذية بأجلى صوره في الهندسة المعمارية الدينية

والعادية، وفي مناحي واتجاهات أساليب الفنون التشكيلية، وفي صناعة الخزف إلى آخره (Dittmar 1989: 74 ff. Wulf 1991: 136 ff) وقبل الغزو الثقافي وما رافقه من آثار ومؤثرات من الهند والصين، لم تكن توجد في جنوب شرق آسيا هندسة معمارية ذات طابع ديني، علماً أنّ تقاليد المذهب الأرواحي تدلنا على أماكن مقدسة تترك أبلغ الأثر في نفس الإنسان بمجرد زيارتها والإطلاع على شكلها الطبيعي (على سبيل المثال جبل ماونت پوپا في وسط بورما). وبحسب السلوك الذي يبيّن كيفية تبنّي العمارة الأجنبية كالشيء المستورد من الخارج، وتحويلها لتلبية الحاجات المحلية، تعتبر منطقة جنوب شرق آسيا الثقافية بوتقة الانصهار الحقيقية للأشكال والطرز المعمارية وأساليب الفن.

ومن الأمثلة التوضيحية على هذه العمارة الدينية نذكر التماثيل البوذية الهندية ستوپا Stupa والتحولات التي شهدتها في جنوب شرق آسيا. وتشاطر هذه المعابد في جنوب شرق آسيا قدواتها الهندية جميع وظائفها وإن كانت تختلف عنها في أشكالها الخارجية. كان الغرض الأصلي من ستوپا الهندية إقامة مزار مقدس جرى تشييده على إحدى آثار بوذا المقدسة.

ويُقال إنّ أقدم أنواع الستوپا التايلندية (المسماة شدي Chedi) والمشيّدة على طراز سوخوتاي Sukhothai (راجع مايلي) تضم بعض الآثار المقدسة التي خلفها بوذا. وفي وقت لاحق كانت شخصيات

بارزة في المجتمع تتبرع بإقامة مثل هذه المعابد، لا بل كانت تُشيّد لتصبح فيما بعد أماكن تضم مقابر هؤلاء المحسنين. وهذا الاتجاه الهندي «لنزع القداسة» يجد مثيلاً له في جنوب شرق آسيا. ويعود أصل الستوپا في جنوب شرق آسيا إلى سيلان (سريلانكا حالياً) حيث يُدعى هناك داغوبا Dagoba ويتألف هذا المبنى من قاعدة مربعة تحمل مبنى نصف كروي يُسمى آندا Anda أو غاربا Gharba إضافة إلى ما يتحلى به من عناصر للزينة تُسمى شاترا Chattra (سارية ذات مظلات على شكل سنابل) والذي يضم أيضاً مذبحاً مكعب الشكل تطلق عليه تسمية هارميكا Harmika. وكانت معابد داغوبا في سيلان قد حافظت مئات السنوات على وظيفتها كمزار مقدس وأصبحت قدوة كلاسيكية تُحتذى. ومن الأمور التي تُثير العجب عدم وجود أي معابد للستوپا في جنوب شرق آسيا شُيِّدت على غرار هذا المبنى الكلاسيكي مائة في المائة.

ومنذ بداية التقاليد المحلية المتبعة في هذا المجال ظهرت تبدلات واضحة في أساليب البناء. وأقدم هذه الأنواع الموجودة في تايلاند هي أبنية ستوپا المشيّدة على طراز مون Mon (القرن 8 - 11) وما تظهره من اختلافات كبيرة عن الأصل. لكن الشيدي التايلندية المتأخرة تطورت إلى روائع كلاسيكية كالمعابد المشيّدة على طراز سوخوتاي (القرن 13 - 15) وعلى طراز آيوتيا Ayuthia. ومما يميّز جميع مباني شيدي التايلندية هي سلسلة أعمدة الهارميكا الموجودة في وسط البناء المدوّر (Dittmar 1989: 57).

ومن التحوّلات المحلية الأخرى التي طرأت على العمارة الدينية نذكر البرانغ Prang التايلندي الذي يمكن التعرّف عليه من مظهره الخارجي عن طريق برج المعبد المشيّد بطراز الخمير. وتعود القدوات الأصلية للمعابد ذات الأبراج إلى آنغكور Angkor حيث دُشن أقدم المعابد البرجية في عام 881. واسم آنغكور مشتق من اصطلاح سنسكريتي يعني «عاصمة». كانت مملكة الخمير وعاصمتها آنغكور إحدى الكيانات ذات التأثيرات السياسية الكبيرة في جنوب شرق آسيا. وفي القرن السادس ظهرت ثقافة حضرية أصبحت مدينة آنغكور قلبها النابض منذ القرن التاسع. وتقوت مملكة الخمير سياسياً خلال حكم تشايافارمان الثاني Dschajavarman (802 - 850)، علماً أنّ حكّام الخمير كانوا يمارسون منذ القرن الثاني عشر سياسة توسعية عدوانية. ومع حلول القرن الرابع عشر كانت هذه المملكة قد آلت إلى السقوط وتلاشت (Chandler 1993: 55 ff).

وكان النفوذ السياسي هو الآخر ينطلق من المركز السياسي آنغكور. حيث تعبّر الهندسة المعمارية ووثائق الفنون التشكيلية في آنغكور التاريخية عن نفسها خير تعبير. وفي نص موجود على إحدى لوحات بنوم ساداك Phnom Sadak يعود إلى عام 967 يمكن قراءة العبارات التالية: «عندما انتهى الخالق من صنع هذا الجمال الأخّاذ السامي، قال مخاطباً ذاته الإلهية: لو أردنا مقارنة هذا العمل بغيره فأي عمل آخر يمكن أن يصمد أمامه في العالم؟» هذا السؤال لا يزال دون جواب

حتى يومنا هذا. إن الكثير من تفصيلات وحيثيات الإبداع الفني وحياة القصور في آنغكور العصور الوسطى موجودة في تقرير مكتوب بكل عناية ودقة أرسله شو تا - كوان Chou Ta - Kuan في عام 1296 إلى الإمبراطور الصيني (راجع نص التقرير المذكور في: Jelen/Hegyi 1991: 7 ff).

ومن الجدير بالذكر أنّ إشعاعات الاتجاهات التقنية الموجودة في عصر عاصمة آنغكور الكمبودية انتقلت إلى تايلاند، حيث هيمن أسلوب الخمير على فن العمارة خلال الفترة الواقعة بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر. ويعتبر المعبد والأبراج من أشكال التعبير الرمزية لجبل مرو Meru كما هو وارد في علم الكون الهندي (الكوزمولوجيا الهندية). وفي وات آرون Wat Arun (wat يعني دير للرهبان) الواقعة على ضفاف نهر منام في أحد أحياء مدينة بانغكوك يوجد أكثر معابد البرانغ زينة على الإطلاق والذي يشكل نقطة الثقل في المنطقة التي يوجد فيها الدير. في الواقع يتعلّق الأمر بمجموعة كاملة من معابد البرانغ التي تضم المبنى المركزي الذي يرمز إلى جبل مرو والمحاط بأربعة معابد صغيرة ذات أبراج، أي أربعة جبال صغيرة. في هذا الحي المقدس يوجد بانتيون (هيكل) واسع هو موئل الأرواح الطيبة والآلهة.

ومن الأشياء التي شملتها التحولات الثقافية المذكورة أيضاً، أكثر رموز التقوى البوذية في جنوب شرق آسيا، أي صور بوذا الشخصانية. وعلى عكس الهندسة المعمارية الدينية (تشييد المعابد والهياكل)

كانت هناك قواعد وأحكام صارمة ذات تفصيلات جمالية - أسلوبية يجب التقيّد بها عند صنع تماثيل بوذا. مع كل هذا تطورت تقاليد أيقونية محلية تبتعد عن التقاليد الهندية والسيلانية. ففي الوقت الذي كان يجري فيه التقيّد مثلاً بشكل عام بصنع أجزاء الجسم بطريقة مثالية (منكبان عريضان، حوض ضيّق، أرنبة أذن طويلة، ذراعان مدوران، ساقان نحيفتان إلى آخره)، كان رأس التمثال يختلف على الأكثر عن القدوة الهندية.

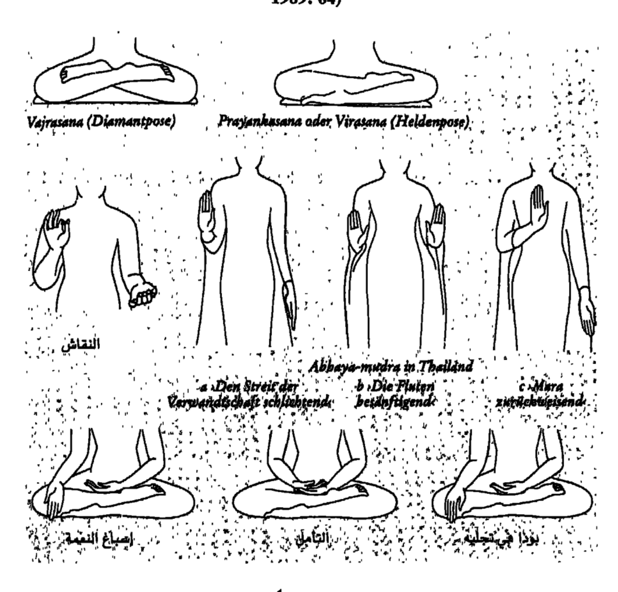
وفي ملامح الوجه يمكن التعرف على الخصائص الأنثروبولوجية لهذا الشعب أو ذاك المتمسك بأرضه وموطنه، أي أنّ تمثال بوذا المصنوع في بورما يشبه في الواقع الإنسان البورمي، وفي تايلاند الإنسان التايلندي، وفي فيتنام الإنسان الفيتنامي. وبدل الشعر الكثيف الموجود بين الحاجبين (urna) الذي يميّز بوذا في أغلب الأحوال، يجد المرء في بورما وتايلاند بوذا بشاربين. أما طبيعة بوذا المرحة الطيبة الموجودة في الهند والتي يتم التعبير عنها ببعض الأشياء الضرورية مثل الهالة النورانية أو الهالة اللوزية الشكل المحيطة بالجسد بأكمله فغير موجودة في تايلاند على الإطلاق، لأنّ الناس يحاولون هنا، عبر طلاء التماثيل بالذهب والإكساء بالملابس الملساء الحريرية، تحقيق الإشعاع المرغوب فيه المنطلق من التمثال.

إن أنواع الإشارات اليدوية (mudra) والحركات الإيمائية (asana) كانت أكثر ما تمت المحافظة عليه في صنع الأيقونات والتماثيل. ويعود

سبب ذلك إلى أنّ هذه الإشارات والحركات الظاهرة في تماثيل بوذا في جنوب شرق آسيا قد جرى تحديدها بطريقة لا تسمح إلا بإجراء تغييرات طفيفة عليها. ويتعلق هذا الأمر بحقيقة كون بعض الحركات الجسدية واليدوية لها علاقة مباشرة مع بعض الأحداث التي شهدتها حياة بوذا. لذا فإن اختيار إشارة يدوية أو حركة معيّنة لتمثال من تماثيل بوذا تقرر الحالة المتميزة للتمثال (راجع الشكل 23). وما يتعلق بوجهة النظر البوذية، فإنّ ما يكمن وراء الإشعاع الجمالي لتمثال بوذا هو أكثر من مجرد إيجاد حكمة ترتبط بالرمز الأساسي لعقيدته، لأن التمثال هو في الوقت نفسه إعداد نفسي للتذكير بأجزاء من تعاليم بوذا.

وتظهر الآثار التي خلفتها الثقافة الهندية والصينية على شعب جنوب شرق آسيا في جميع المجالات؛ في القطاع الخاص مثلاً (الملابس، المنازل، الأعياد العائلية) وفي القطاع العام أيضاً (العمارة الدينية، الأعياد البوذية، الكتابة). ومع البوذية جاء النظام الديني للأعياد والمهرجانات إلى جنوب شرق آسيا وكذلك التقويم البوذي ومصطلحاته. وفي اللغات المحلية تم تبديل اصطلاح تقرير الزمن باستعمال اللغات الهندية (على سبيل المثال اقتباسات في لغة الخمير تعود إلى العصر الوسيط مثل ka:l «الزمن» أو pra(kra)tetin «تقويم» من اللغة السنسكريتية). وحتى في المجال المدني (غير الديني) تم تدويل قياس الزمن.

الشكل 23: إشارات يدوية وحركات إيمائية لتماثيل بوذا من جنوب شرق آسيا (Dittmar 1989: 64)



الإشارات والحركات التالية يمكن رؤيتها غالباً في تماثيل بوذا الجالس في تايلاند

1 - Vitarka-mudra، إشارة النقاش؛

2 - Varada-mudra، إشارة إسباغ النعمة أو منح البركة؛

3 - Samadhi-mudra، إشارة التأمل؛

4 - Abhaya-mudra، عند استخدام اليد اليمنى يعني «نبذ مارا»؛

5 - Bhumisparsa-mudra، تصور غاوتاما Gautama (أحد أسماء بوذا) في لحظة تجليه.

وفي هذا الصدد انطلق من الاستعمار الاستيطاني الصيني لفيتنام تأثير إداري فني خاص تمثل في استيراد مؤسسة صينية كانت قبلئذ قد أعتُمدت من قبل الدول المجاورة للصين في الشمال: التقويم الصيني بحساباته المتآلفة مع العام القمري والشمسي. ومن المحتمل جداً أنّ فيتنام كانت تعمل قبل اعتماد التقويم الصيني كما كان الحال في العديد من دول جنوب شرق آسيا الأخرى بالتقويم القمري. وبالاعتماد على قاعدة قياس الزمن المحلي القديم، تمكن التقويم الصيني القمري بما تضمنه من مصطلحات فرض نفسه، في حين أنّ العمل بالسنة الشمسية لم يكن سوى إجراء ثقافي جديد.

وعلى الرغم من أن حسابات الزمن وفق التقويم القمري يمكن القيام بها ببعض الملاحظات العادية البسيطة، فإنها غير دقيقة في الواقع، إذا ما فكّر المرء بأنّ السنة القمرية (أي المدة الكاملة لإثني عشر تبديلاً قمرياً كاملاً: من الهلال إلى القرص الكامل) بأيامها الثلاثمائة والثلاثة والخمسين أقصر بكثير من السنة الشمسية البالغ عدد أيامها 365 يوماً. وكان العام القمري الصيني يُحسب بإثني عشر شهراً، علماً أنّ تمديد العام بشهر إضافي ثالث عشر كان سيرفع عدد الأيام إلى 383 يوماً، مما كان سيعني المزيد من اختلال التوازن. ومن أجل معادلة اختلالات العام القمري مقابل دورة العام المقررة من قبل الوتيرة الشمسية. تم إدخال شهر ثالث عشر كل بضع سنوات.

ومن أجل إجراء تقسيم دقيق لفصول السنة - حاجة كل مجتمع زراعي لتحديد أوقات زراعة الحقول وجني المحاصيل - تطلب الأمر

إجراء حسابات وفق الدورة الشمسية. بنقطتيها الرئيسيتين، انعطافة الشتاء والصيف. وهكذا فإن التقويم الشمسي الصيني القديم المستخدم كتتمة للتقويم القمري يتضمن إشارات مفصلة عن فصول السنة التي تهتدي بصورة معينة بظروف المناخ وبالتغيرات الحاصلة في الدورات النباتية (راجع الشكل 24).

ثم إنّ النصفين الرئيسيين من السنة الواقعين بين انعطافتي الشمس يجري تقسيم كل منهما إلى اثني عشر مقطعاً ثانوياً يشمل كل واحد منهما أربعة عشر يوماً. وكل فصل سنوي ينقسم إلى ستة مقاطع ثانوية (= أسبوع مزدوجة). وفي القسم الرابع من فصل الصيف تأتي انعطافة شمس الصيف، وفي القسم الرابع من فصل الشتاء تأتي انعطافة شمس الشتاء. وبهذه الوسيلة تمكن الناس من إجراء تحديد الأوقات لإعداد حقول الأرز وزراعتهاوحصاد المحاصيل بصورة أكثر دقة مما كان التقويم القمري يوفره.

أما دورة النهار والليل فتم تحديدها باثنتي عشرة وحدة (= ساعة مضاعفة) كان لكل من هذه الوحدات أسمها الخاص بها: جرذ، ثور، نمر، أرنب، تنين، أفعى، حصان، كبش، قرد، ديك، كلب، خنزير بري. وبهذا فإنّ تقسيم السنة واليوم حسب التقويم الشمسي الصيني القديم يعتمد على نظام عشري مزدوج. وإذا ما فكرنا بأنّ العدد اثني عشر له أربعة مقسمات، وعدد عشرة اثنان فقط، فإنّ الحساب بالنظام الإثنا عشري يعتبر أكثر مرونة (Ifrah 1987: 58f).

الشكل 24 تقسيم السنة حسب التقويم الشمسي الصيني

Chin. Namen	Bedeutung	Assoziationen	Daten des gregorianischen Kalenders
立春	Frühlingsanfang	Das Sonnenjahr beginnt.	4. oder 5.2.
雨水	›Regenwasser‹	Schnee verwandelt sich in Regen.	19. oder 20.2.
啓蟄	›Ende der Insektenüberwinterung‹	Insekten bewegen sich.	5. oder 6.3.
春分	Tagesnachtgleiche (Frühling)		21. oder 22.3.
清明	›rein und klar‹	Südöstliche Winde bringen angenehmes Wetter.	5. oder 6.4.
穀雨	›Regen für das Getreide‹	Das Getreide keimt im Frühlingsregen.	20. oder 21.4.
立夏	Sommeranfang		5. oder 6.5.
小滿	›das kleinere Wachstum‹	Alles wächst.	21. oder 22.5.
芒種	›das Getreide setzt Samen an‹	Die Reispflanzen sind zu setzen.	6. oder 7.6.
夏至	Sommersonnenwende		21. oder 22.6.
小暑	›die kleinere Hitze‹	Es wird heißer.	7. oder 8.7.
大暑	›Die größere Hitze‹	Die Sommerhitze ist am größten	23. oder 24.7.
立秋	Herbstanfang		7. oder 8.8.
處暑	›erträgliche Hitze‹	Die Herbstwinde bringen eine Linderung der Hitze.	23. oder 24.8.
白露	›weißer Tau‹	Herbstwetter; die Zugvögel beginnen ihre Wanderung.	8. oder 9.9.
秋分	Tagesnachtgleiche (Herbst)		23. oder 24.9.
寒露	›kalter Tau‹	Die Blätter färben sich	8. oder 9.10.
霜降	›es gibt Frost‹	Herbstende; der erste Frost tritt auf.	23. oder 24.10.
立冬	Winteranfang		7. oder 8.11.
小雪	›weniger Schnee‹	Der Schneefall ist leicht.	22. oder 23.11.
大雪	›mehr Schnee‹	Der Schneefall ist stark.	7. oder 8.12.
冬至	Wintersonnenwende		21. oder 22.12.
小寒	›die kleinere Kälte‹	Es wird kälter.	5. oder 6.1.
大寒	›die größere Kälte‹	Die Winterkälte ist am stärksten.	20. oder 21.1.

الشكل 24 تقسيم السنة حسب التقويم الشمسي الصيني

الاسم الصيني	المعنى	تداعي الأفكار	التاريخ في التقويم الغريغورياني
1	بداية الربيع	السنة الشمسية تبدأ	4 او 2/5
2	ماء المطر	الثلج يتحول مطراً	19 او 2/20
	نهاية السبات		
	الشتوي للبعوض	الحشرات تتحرك	5 او 3/6
3	تعادل النهار		
	والليل		21 او 3/22
4	(الربيع)	الرياح الجنوبية	
	نقي وصافي	الشرقية تجلب	
		جواً لطيفاً	5 او 4/6
5		الحبوب تنضج في	
	مطر للحبوب	مطر الربيع	20 او 4/21
6			5 او 5/6
7			
8	بداية الصيف	كل شيء ينمو	21 او 5/22
	النمو الأصفر	زرع شتائل الأرز	6 او 6/7
9	الحبوب تحمل		
	بذاراً		21 او 6/22
10			
11	انعطافة شمس	الجو يبدأ بالحر	7 او 7/8
12	الصيف	حرارة الصيف عالية جداً	23 او 7/24
13	الحر الأصغر		7 او 8/8
	الحر الأكبر	رياح الخريف تخفف	23 او 8/24
14			
	بداية الخريف	الحرارة	
15	حرارة مقبولة	جو خريفي، الطيور	8 او 9/9
	الندى الأبيض	النازحة تبدأ رحلتها	
16			
			23 او 9/24
	تعادل الليل		8 او 10/9
17	والنهار	تلوّن أوراق الأشجار	
	(خريف)	نهاية الخريف، الصقيع	23 او 10/24
18			
19	الندى البارد	الأول يبدأ	7 او 11/8
20	بداية الصقيع		22 او 11/23
		سقوط ثلوج ليلة	7 او 12/8
21	بداية الشتاء	سقوط الثلوج بقوة	
22	ثلوج قليلة		21 او 12/22
23	ثلوج أكثر		5 او 1/6
24	انعطافة شمس	الجو يبرد	20 او 1/21

وعلى غرار التقاويم الهندية والبابلية أو حتى الغربية، جرى تغير شكل وطبيعة التقويم في دائرة الثقافة الصينية وفق تصورات فلكية تتعلق بأهمية البروج. إلاّ أنّ توزيع البروج في دائرة الثقافة الصينية لا يتعلق بوتيرة العام، أي من بداية العام حتى نهايته، بل بدورات مدة كل واحدة منها اثني عشر عاماً. وهكذا فإنّ الناس يعيشون مثلاً في عام الجرذ أو التنين، أو القرد. وفي الوقت الذي يهتم فيه الأوروبيين مثلاً بمعرفة الشهر/البرج الذي ولدوا فيه، فإنّ الصيني (والفيتنامي) يربط بين عام ميلاده وبين أحد الأبراج المعينة. فالشخص الذي يعتبر وفق التقاليد الفلكية الغربية من برج «دلو»، يقف ربما حسب التصورات الصينية في ظل برج النمر.

حول دور التأثير الخارجي للغات الأوروبية -

الكولونيالية في جنوب شرق آسيا

منذ بداية القرن السادس عشر والبحارة الأوروبيون يجوبون سواحل جنوب شرق آسيا؛ في البداية البرتغاليون، وفي وقت لاحق الإسبان والهولنديون والفرنسيون والإنجليز. ولا تزال حتى يومنا هذا بعض الآثار اللغوية التي تعود إلى فترات الاحتكاك المبكرة مع الأوروبيين كما في اللغة الإندونيسية (باهاسا إندونيسيا Bahasa Indonesia) أو في اللغة المالاوية لشبه الجزيرة (باهاسا ماليزيا Bahasa Malaysia) وغيرها من اللغات المالاوية (على سبيل المثال لغة إبان Iban) وذلك

على شاكلة كلمات مقتبسة من البرتغالية (على سبيل المثال بالمالاوية minggu «أسبوع» التي تشبه مع تعديل بسيط كلمة يوم الأحد بالبرتغالية domingo؛ شباك janela، بالبرتغالية janela، بالإبان عربة = kerita ذات عجلتين أو أكثر وهي بالبرتغالية carita).

وسّع الفرنسيون نفوذهم في الشرق (فيتنام الجنوبية) منذ القرن السابع عشر (Osbone 997)، وازدادت قوة فرنسا السياسية فشملت كمبوديا التي أصبحت منذ عام 1867 محمية فرنسية. وكانت لاوس المجاورة قد وقعت تحت الاحتلال التايلندي منذ القرن التاسع عشر. وفي عام 1893 أجبرت فرنسا تايلاند على الانسحاب من لاوس ووضعت تحت سيطرة حاكم الهند الصينية. وباستثناء التدخل الياباني خلال الحرب العالمية الثانية فإن تايلاند بقيت مستقلة ولعبت دور المنطقة العازلة بين مناطق النفوذ الفرنسية في الشرق ومناطق النفوذ الإنجليزية في بورما التي كان الإنجليز قد احتلوها قادمين من الهند، والتي بقيت بعد اقتطاعها نهائياً خاضعة للحكم البريطاني من 1824 حتى 1948.

وبموجب التوزيع الجغرافي لمناطق النفوذ الأوروبية، نلاحظ وجود آثار ومخلفات اللغة الفرنسية في اللغة الفيتنامية ولغة الخمير واللاوسية، في حين أنّ الإنجليزية أثرت على لغة بورما. وحسب مفعوله الإجمالي، كان التأثير الأوروبي على أشدّه في فيتنام، حيث لم يجر إعادة هيكلة نظم التعليم الحديثة والتراكيب الإدارية في البلاد

فقط، بل إنّ البلاد شهدت أيضاً تغيرات جذرية أيضاً في المؤسسات الثقافية. ومن «أبرز» العيّنات الثقافية للنفوذ الأوروبي هي كتابة اللغة الفيتنامية بالأبجدية اللاتينية التي أزاحت عن الطريق كل أنواع الخطوط والكتابات السابقة. وعند الحكم على الأمور من وجة نظر أهمية الكتابة، لم يكن النفوذ الفرنسي في كمبوديا ولاوس ولا النفوذ البريطاني في بورما نفوذاً مستديماً نظراً لأنّ هذه البلدان لا تزال تعتمد الكتابة الهندية حتى يومنا هذا.

وعلى الرغم من أنّ السياسة الثقافية للفيتناميين تلاحق منذ سنوات طويلة جداً اتجاهاً مناوئاً للكولونيالية، والذي يتوضح في اتجاه التخطيط اللغوي الحديث في فيتنام، لا يزال حتى يومنا هذا العديد من العناصر الجوهرية من المؤثرات الثقافية الفرنسية موجودة في مفردات اللغة الفيتنامية مع بعض التعديلات. أكثر من مائة وخمسين مصطلحاً من أصل فرنسي موجودة في المفردات الفيتنامية الحديثة الاستعمال (Haarmann 1986b). علاوة على ذلك فإنّ المفردات الاختصاصية في اللغة الفيتنامية مطبوعة حتى يومنا هذا بمصطلحات فرنسية (الكلمات المقتبسة من الأصل الفرنسي موجودة إما على شكل ترجمة أو صياغة بكلمات أخرى على الأغلب في الأنظمة العلمية التطبيقية، في الفيزياء والكيمياء، وفي العلوم الطبيعية، وفي مجال أسماء العلم - تاريخية والمصطلحات الجغرافية) (DeFrancis 1977: 15f). وبفضل عناصرها الفرنسية

حصلت الفيتنامية أيضاً على مدخل إلى علم المصطلحات الدولية، في حين أنّ الاتجاه الوطني للتخطيط اللغوي الحديث يشبه على العكس من ذلك حالة من التقوقع وعدم الانفتاح. وتتوزع الحصة الفرنسية في المفردات اللغوية المستعملة يومياً وكذلك في المفردات الفنية في اللغة الفيتنامية كالتالي:

1) المصطلحات المستعملة في مجال تقنية الإنشاءات والاستخدامات العامة

(على سبيل المثال: bo.m «مضخة»، بالفرنسية pompe ;bu gi «شمعة تحترق» بالفرنسية bougie; phim «فيلم» بالفرنسية film).

2) مصطلحات مواد البناء والإنشاءات، علم المعادن، المواد الكيماوية إلى آخره

(على سبيل المثال be-tong «الأسمنت المسلح»، بالفرنسية phot phat; béton «الفوسفات بالفرنسية xi mang; phosphate «أسمنت» بالفرنسية ciment).

3) مصطلحات نظم النقل والمرور والمواصلات وميكانيك السيارات

(على سبيل المثال ga «محطة القطار» ;o to «سيارة» بالفرنسية vo lang; auto «مقود السيارة» بالفرنسية volant).

4) المصطلحات المستعملة في مجال القياس

(على سبيل المثال gam «غرام» بالفرنسية lit;gramme «ليتر» بالفرنسية ki-lo-mét ;litre «كيلومتر» بالفرنسية kilométre).

5) مصطلحات النقود والبريد

(على سبيل المثال bang «بنك» بالفرنسية tem; banque «طابع بريدي» بالفرنسية séc;timbre «شيك» بالفرنسية chéque).

6) مصطلحات المنظمات التابعة للدولة

(على سبيل المثال dian «دائرة الجمارك» (مصطلح قديم) بالفرنسية ;xà lim

douane «خلية سجن» بالفرنسية sen dam; chalit «شرطي» بالفرنسية gendarme).

7) مصطلحات الموضة (الملابس، الإكسسوارات، المنسوجات، إلى آخره)

(على سبيل المثال bành to «معطف» بالفرنسية mot; manteau «موضة» بالفرنسية xù; mode chieng «حمالة BH» بالفرنسية soutien-gorge).

8) مصطلحات المطاعم

(على سبيل المثال bia «بيرة» بالفرنسية giam-bong;biére «لحم خنزير» بالفرنسية bo; jambon «زيدة» بالفرنسية beurre).

9) مصطلحات الشؤون العسكرية

(على سبيل المثال bom «قنبلة» بالفرنسية bot; bombe «محرس» مكان محصّن، بالفرنسية min;poste «لغم» بالفرنسية mine).

10) مصطلحات سياسية

(على سبيل المثال càn «كادر» بالفرنسية phàt xit;commissaire «فاشستي» بالفرنسية so-vanh;fasciste «شوفيني» بالفرنسية chauviniste).

11) مصطلحات في مجالات أخرى

(على سبيل المثال sam «غرفة» بالفرنسية tàch;chambre «قدح» بالفرنسية xà phong; tasse «صابون» بالفرنسية savon).

ويفضل التخطيط اللغوي الحديث العناصر الفرنسية التي تتلاءم مع اللغة الفيتنامية من ناحية الصوت والنطق والتراكيب المورفولوجية (تصريف الكلمات) واقتصارها على المقطع الواحد (على سبيل المثال xang «وقود» بالفرنسية lop: essence «غطاء العجلة (عجلة سيارة أو دراجية هوائية)» بالفرنسية bop; enveloppe «محفظة نقود» بالفرنسية porte-feuille). ثم هناك مفردت فرنسية دولية الاستعمال تبنتها اللغة

الفيتنامية على الرغم من أنها ليست من أصل فرنسي ولكن اللغة الفرنسية لعبت دوراً مهماً جداً في انتشارها. من هذه الكلمات مثلاً ba le «باليه» (إيطالية الأصل)، cà-phe «قهوة» (عربية الأصل) ca-cao «كاكاو» (مكسيكية الأصل/ من ناهواتل Nahuatl لغة شعب الآزتيك).

وفي كمبوديا التي لم تتأثر بنفوذ اللغة الفرنسية مباشرة سوى مدة أقل من ستة عقود، وعلى الرغم من أنّ المفردات الثقافية الفرنسية الموجودة في لغة البلاد الرئيسية (لغة الخمير) أقل مما هو موجود في اللغة الفيتنامية، إلاّ أنّ المحافظة عليها أحسن مما هو موجود بالفيتنامية. يأتي هذا لعدم القدرة على مقارنة تحديث لغة الخمير في كمبوديا مع مجهود التخطيط اللغوي الكبير في فيتنام. ومن الأمثلة على الكلمات المقتبسة من الفرنسية في لغة الخمير نذكر ما يلي: ta:em «طابع بريدي» بالفرنسية kra;vat;timbre «ربطة عنق» بالفرنسية mo:t;cravate «موضة» بالفرنسية ka-;mode poyra:to «موزع الوقود» بالفرنسية si:man ;carburateur «أسمنت» بالفرنسية sup ;ciment «حساء» بالفرنسية ; prike soupe «ولاعة سجائر» بالفرنسية briqute: إلى آخره.

العمليات الثقافية في المجتمع ما بعد الكولونيالية:

اتجاهات حديثة في فسيفساء ثقافات جنوب شرق آسيا

لقد أصبحت المشاهد الثقافية في جنوب شرق آسيا مع مرور القرون والأزمنة أكثر تنوعاً وتعقيداً. حيث ترك النفوذ الهندي والصيني بصماته على الحياة الثقافية وعلى التفاعل الجاري في

الحياة اليومية لملايين الناس الساكنين في هذه المنطقة المترامية الأطراف. وترك الإسلام آثاره المستديمة أيضاً على حياة شعوب الجنوب، في شبه جزيرة ماليزيا مثلاً. ومع هذا فإنّ جميع المؤثرات الأجنبية لم تستطع طمس الجذور الثقافية للمجموعات الإثنية المتأتية من تقاليدها التي تعود إلى مرحلة ما قبل التاريخ. كما أنّ المقدرة العجيبة على دمج العيّنات الثقافية القديمة مع المؤسسات المدنية الحديثة داخل إطار ثقافي معقد لم تُصَبْ بأي ضعف خلال فترة الكولونيالية الأوروبية.

وإذا ما قارن المرء اليوم أسلوب حياة التايلنديين الذين بقيت بلادهم مستقلة والتي لم تخضع لأي حكم كولونيالي أوروبي على الإطلاق، مع أسلوب حياة الفيتناميين والكمبوديين والبرميين أو المالاويين، فإنّ المرء لن يستطيع مهما بذل من جهود أن يعرف أي من هذه الثقافات تضم مؤثرات ثقافية أوروبية أكثر من غيرها، لأنّ المستعمرات الكونيالية القديمة لم تفقد خلال فترة الحكم الأجنبي هويتها، على العكس لقد توسعت أطرها ومضامينها الثقافية كثيراً.

وتحت التأثير الذي خلفه التطور الثقافي المتعدد الأوجه تمثل المجموعات الإثنية الكبيرة عددياً بما تملكه من ملامح ثقافية مميّزة في جنوب شرق آسيا، فسيفساء ثقافية جميلة للغاية. ثم إنّ مرونتها التي مكنتها من صهر تقاليدها المتوارثة، والمستوردات الأجنبية في بوتقة من العينات الثقافية المتميّزة، تدلل على درجة كبيرة من القدرة

على التأقلم، الذي يمكن الناس من مختلف المناشىء واللغات من الحصول على مرحلة انتقالية ديناميكية تنقلهم إلى العصر الحديث. لقد شهدت الشعوب المتحضرة القديمة في المنطقة مرحلة الانتقال إلى الحداثة دون أن يحدث هذا على حساب التكامل الثقافي المحلي.

بيد أنّ الحال يختلف بالنسبة إلى الأقليات العديدة التي تعيش في المناطق الجبلية الوعرة أو في الغابة المطيرة في شبه جزيرة الملايو والتي حافظت على عاداتها المتوارثة منذ القدمِ. وعندما يحتك هؤلاء القوم، الذين يصنفون عادة من قبل ممثلي الأغلبية السكانية على أنهم جماعة لا ثقافية والذين يتعرضون إلى الاضطهاد في كثير من الأماكن، مع مؤسسات المدنية الحديثة فإنّ الصدمة الثقافية تؤدي غالباً إلى حدوث أعطاب في هويتهم لا شفاء منها.

ثم إنّ الأقليات التي تعيش بعيداً عن المجرى الرئيسي للمدنية تفتقر إلى القدرة على أقلمة أوضاعها الاجتماعية مع معطيات الحداثة بصورة مرنة. فالمذهب الأرواحي القديم الذي اعتادت عليه هذه الأقليات لا يوفّر، على غرار الأديان المتطورة (على سبيل المثال الهندوسية، البوذية، الطاوية «وهي من العقائد الآسيوية القديمة» أو الإسلام) أصنافاً أخلاقية - مذهبية تمكن من قيام توجه عقائدي خالٍ من الصراعات في البيئة الحضرية الحالية.

ومن وجهة نظر التطور الثقافي العام والقدرة الاجتماعية على التأقلم، يمكن تطبيق مصطلح «الفسيفساء الثقافية» على أوضاع

الشعوب القديمة، لكن ليس على الظروف الحياتية لمعظم الأقليات الأصلية من السكان التي لم تشارك في عمليات الانصهار الثقافي خلال الزمن التاريخي إلا بصورة غير مباشرة. وما تزال بعض المجموعات حتى يومنا هذا تحافظ على عيّنات ثقافية مميّزة لدرجات التطور القديمة للمجتمع البشري. إنّ السكان الأصليين ذوي البشرة الداكنة الذين يعيشون في الغابة المطرية في شبه جزيرة الملايو، على سبيل المثال شعب سمانغ Semang، يعيشون حياة رعوية كاملة تشكّل مرحلة الصيد والقنص النوع الاقتصادي السائد في صفوفهم. ولا يوجد أي عامل مشترك مهما كان بين حياتهم اليومية وبين المالاويين القاطنين في المناطق المحيطة الذين يمارسون مع سكان القرى على حافة الغابات الكثيفة «تجارة صماء بكماء». حيث يقوم هؤلاء الناس بوضع ثمارهم (على سبيل المثال ثمار شجرة دوريان) في أماكن قريبة من القرية إلى جانب المنتوجات الأخرى الصالحة للأكل التي يجنونها من الغابة. وبعد مرور بضعة أيام يأتون إلى نفس المكان ليأخذوا السلع التي وضعها لهم بالمقابل سكان القرية (على سبيل المثال الملح، السكاكين، لؤلؤ الزينة). غالبية سكان الغابة لا يرون المدينة خلال حياتهم بأسرها.

إن التناقض بين الثقافات التي ليس بها أنظمة للكتابة والثقافات التي اتخذت أنظمة حديثة للكتابة والموجودة في المنطقة كبير جداً، حيث تقوم لغات جنوب شرق آسيا عَبّر أنظمة الكتابة بتوثيق روابطها

الثقافية مع بقية أنحاء العالم؛ بصورة أدق مع عالم الكتابة الأبجدية. ثم إنّ حقيقة الكتابة بالأحرف الأبجدية في معظم بلدان المنطقة يجب ألاّ يُساء فهمها بمعنى «الاستعمار الأبجدي» لأنّ إدخال أنظمة الكتابة الأبجدية إلى جنوب شرق آسيا لم يكن تظاهرة قوة سياسية لحكام أجانب، بل إنه جاء نتيجة تعزيز مكانة الاتجاهات الثقافية التي أثرت على المنطقة من الغرب (الهند) ومن الجنوب (العالم العربي وأوروبا).

وإلى جانب الكتابات الهندية، ثبتت الكتابة بالحروف اللاتينية هي الأخرى أقدامها في جنوب شرق آسيا. إنّ جذور التقاليد الأبجدية في فيتنام أعمق مما قد يتصوره المرء، علماً أنّ استخدام الأبجدية اللاتينية الذي بدأ مع بزوغ القرن السابع عشر كان مؤسسة ثقافية سابقة للعصر الكولونيالي في فيتنام. وفي ماليزيا تم تبني الأبجدية اللاتينية (رومي Rumi) خلال القرن الماضي من أجل كتابة اللغة المالاوية التي يتطابق شكلها القياسي (باهاسا ماليزيا)، بغض النظر عن بعض المزايا المحلية، مع اللغة الإندونيسية القياسية (باهاسا إندونيسيا).

ولا يشعر المالاويون بأنّ كتابة اللغة الوطنية بأحرف لاتينية تعبير عن الكولونيالية الأوروبية نظراً لأنّ الخط اللاتيني يُنظر إليه في الاتحاد الماليزي كرمز من الرموز الوطنية للبلاد. وإلى جانب الحرف اللاتيني تعتبر الكتابة (الخط) العربية وسيلة هامة في ثقافة الكتابة في جنوب شرق آسيا، وإن كان ذلك مقصوراً على بعض الوظائف القليلة. وعلى

غرار ما هو موجود في كل البلدان العربية تعتبر اللغة العربية (لغة القرآن) والكتابة العربية في صفوف مسلمي جنوب شرق آسيا أحد أركان عقيدتهم الإسلامية. في مدارس تعليم وحفظ القرآن في ماليزيا يجري كتابة اللغة المالاوية وفق التقاليد القديمة بالخط العربي الذي يدعى جاوي (Jawi)، أما في الحياة العامة للدولة فيجري استخدام الكتابة بالأحرف اللاتينية.

لقد واكب تحديث الثقافات الكتابية في جنوب شرق آسيا ركاب التغيّرات الجبّارة في عالم تشغيل البيانات والمعلومات في عصر الحاسوب، إذ تم تطوير برامج لأنظمة كتابة اللغات المعنية، مما يعني العمل على تخزين المعلومات الرقمية والاستفادة منها بعد استدعائها بالخطوط المتعارف عليها محلياً. في السبعينيات من القرن الماضي مثلاً كان اليابانيون يحتكرون هذه البرامج، ومنذ الثمانينيات بدأت شركات أوروبية تعد برامج بالخطوط الأبجدية الهندية ونشرها في جنوب شرق آسيا. وبعد أن تمكن مهندسون يابانيون من إعداد البرامج الحاسوبية باللغات الثلاث المعتمدة في اليابان (كانجي Kanji، هيراغانا Hiragana، كاتاكانا Katakana)، أصبح الطريق مفتوحاً بوجه برامج الكتابة الصينية، علماً أنّ نُظم الحاسوب تعتمد في عالم الأعمال التجارية في سنغافورة إلى حد كبير على مثل هذه المبرمجات.

للوهلة الأولى يخيّل للمرء أنّ نقل نظام الكتابة الهندية إلى بورما،

وتايلاند، وكمبوديا، ولاوس قد أعطى الشعوب المعنية بالأمر مدخلاً مباشراً للبحث عن الذات أكثر مما قدمته الكتابة اللاتينية المستوردة من قبل الأوروبيين إلى فيتنام، نظراً لأنّ التشابكات الثقافية بين الهند وجنوب شرق آسيا تعتبر علامات متميزة. غير أنّ ما يدعو إلى العجب هو أنّ الكتابة اللاتينية قد تطورت في بلد تشهد فيه الحياة الحديثة للمجتمع حملة مضادة للكولونيالية، كرمز فيتنامية كاملة، على أي حال، يتعلق كل نقاش لمسألة تخطيط اللغة في فيتنام الحديثة، ما دام الأمر يتعلق بإصلاح الكتابة، بنوع من الاعتراف الصامت بالمبدأ الأبجدي.

كان نظام كتابة كوك نغو Quoc Ngu الذي يعتمد على طريقة الكتابة التي طورها ألكسندر الرودسي (من رودس) Alexander de Rhodes للمبشرين الفرنسيين في القرن السابع عشر، يعتبر منذ فترة طويلة رمزاً للهوية الوطنية في جميع أرجاء البلاد، إلاّ أنّه (نظام الكتابة) بقي حتى يومنا هذا غير موحد، والذي يتمسك إلى حد ما ببعض الكتابات التاريخية. ومع حصول البلاد على استقلالها (1945 الشمال، 1954 الجنوب، 1975 فيتنام الموحدة) تم إحلال ظروف أكثر ملاءمةً لإجراء الإصلاحات المطلوبة. إلا أنّ عادات الكتابة القديمة كانت في هذه الأثناء قد تقوّت إلى حد أصبحت جزء لا يتجزأ من وعي ثقافي فيتنامي إلى درجة أنّ المحافظين أعاقوا تحقيق إصلاحات بعيدة المدى.

وحتى هو شي منه Ho Chi Minh الذي كان زعيماً للحركة الشيوعية

يتمتع باحترام كبير في صفوف أنصارها، والمدافع عن إجراء إصلاح كتابي (على سبيل المثال استبدال حرف ph بحرف f وحرف d بحرف z) لم يستطع تحقيق أي نجاح على الرغم من الاقتراحات التي كان قد خلفها في وصيته (Nguyen Phu Phong 1983: 9 ff). أما ما يدعو إلى العجب فهو أنّ العديد من لغات الأقليات شهدت بعض الإصلاحات الكتابية (على سبيل المثال في نظام الكتابة تاي - نونغ :Than Ha 1967 129 ff. Tay-Nung). بهذا حدثت المفارقة العجيبة المتمثلة في تحول لغات الأقليات لتصبح أكثر حداثة وأسهل على الاستخدام من اللغة الفيتنامية الوطنية (Haudricourt 1961: 63).

ومن بين المصادر الثلاثة المعتَمَدة في التحديث المعجمي للغة الفيتنامية (تبني الكلمات الأجنبية، واستحداث اصطلاحات مقتبسة من لغات أوروبية (وبصورة خاصة من الفرنسية)، وصياغة مصطلحات جديدة بالاعتماد على عناصر اللغة الفيتنامية) يقوم التخطيط اللغوي الفيتنامي الحديث بالتبشير للمصدر الثالث (Le Kha Ke 1968: 121 ff). ومن بين الإمكانات المتعددة للتقنيات اللغوية المحلية الحديثة نورد فيما يلي أمثلة على تراكيب تتضمن كلمة mày «ماكنة» التي فرضت نفسها في الاستخدام الحديث للغة:

mày anh «كاميرا» (حرفياً «آلة الصورة»).

mày bay «طائرة» (حرفياً «ماكنة للطيران»)، كتعويض لكلمة phi co الصينية الفيتنامية القديمة.

mày ép «مكبس طباعة» (حرفياً «ماكنة للكبس»).

mày càn «محدلة» (لتشكيل الصفيح).

mày chép dang «جهاز استنساخ»

mày ghi am «جهاز تسجيل أصوات»

mày mài «مكنة تجليخ».

mày xuc «حفارة»

إلى آخره

ويعود مثل هذه المصطلحات المركبة على الفيتناميين الذين يستخدمون الفيتنامية كلفة أم بمنفعة الشفافية اللغوية، وهي صفة لا تتميّز بها الكلمات المشتقة من اللغات الأوروبية نتيجة تراكيبها الصوتية المجردة.

وفي الوقت الذي تحاول فيه رعاية اللغة الوطنية في فيتنام منذ سنوات عديدة الحد من تدفق الكلمات المأخوذة من اللغات الغربية، نرى أنّ تأثير اللغة الإنجليزية آخذ بالهيمنة على اللغات الأخرى في جنوب شرق آسيا دون أي قيد. ومن الأمثلة على ذلك تأثير الإنلجيزية على اللغة البورمية الذي لا يزال ساري المفعول حتى اليوم. منذ أكثر من مائة سنة وأثر الإنجليزية آخذ بالتزايد «حيث طغت حالياً الكلمات الإنجليزية والأمثلة الإنجليزية والأفكار الإنجليزية على البورمية (...)» (U Tin Hrway 1983: 373). وفي الكثير من المجالات فاقت المفردات الإنجليزية على أعداد الكلمات

المقتبسة من لغة پالي، لا بل واستعاضت إلى حد ما هذه العناصر القديمة.

ومن الاقتباسات المباشرة من الإنجليزية نود ذكر الكلمات التالية في اللغة البورمية: kumpani «شركة» بالإنجليزية company; moto ka «سيارة» بالإنجليزية motor car; di ga si، «درجة قياس» بالإنجليزية degree; fon fin، «نافورة» بالإنجليزية fountain; re di yui، «راديو» بالإنجليزية radio. يسير التخطيط اللغوي الحديث في بورما باتجاه معتدل، حيث تجري صياغة الكلمات المعجمية الجديدة كاقتباسات من الاصطلاحات الإنجليزية الأصلية؛ على سبيل المثال بالبورمية krok mi; swe «فحم، فحم حجري» حرفياً «فحم حجري - خشبي» وفق الكلمة الإنجليزية coal; jala beda بلغة پالي (علم المحيطات)، حرفياً «علم المياه» وفق الكلمة الإنجليزية oceanography.

وفي حال لغة الخمير في كمبوديا يبدو أنّ تقاليد تركيب الكلمات الجديدة بمعونة عناصر من المفردات الثقافية الهندية بقيت حتى يومنا هذا المحرك الرئيسي لتحديث التراكيب المعجمية. عدد المصطلحات الفنية المقتبسة من الفرنسية محدود (tu; rnevih بالفرنسية tournevis أي مفك براغي)، وفي الحياة اليومية الحديثة تهيمن مصطلحات ذات أجزاء هندية، أي من السنسكريتية أو پالي، على سبيل المثال في لغة الخمير tu; reetoh «تلفزيون»، tu: reele:k «تلغرام»، tu:reesap «تلفون»، rothyon «سيارة».

أما تركيب الكلمات والمصطلحات الجديدة بلغة تاي فلها تقاليد لغوية وطنية. على عكس اللغة البورمية (أنظر أعلاه) تعتمد الكلمات المعجمية الجديدة على كلمات محلية أو على عناصر مقتبسة من لغات التعليم الهندية؛ على سبيل المثال sa nàam bin «مطار»، thoo ra sap (مشابه للتركيب بلغة الخمير، أنظر أعلاه) «تلفون»، rot أو rot jon (مشابه للتركيب بلغة الخمير. أنظر أعلاه) «سيارة». العنصر الإنجليزي في تركيب الكلمات الجديدة التايلندية محدود جداً. وليس من النادر أن توجد كلمة محلية موازية للكلمة الإنجليزية المقتبسة. على سبيل المثال tee vee (بالإنجليزية TV) «تلفاز» إلى جانب الكلمة التايلندية thoo ra that.

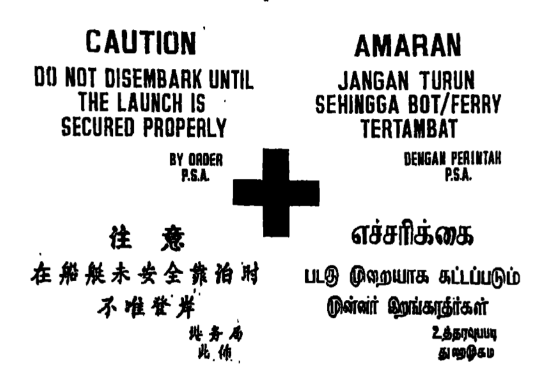
ولا تنعكس عمليات انصهار اللغات الثقافية في التراكيب المعجمية للكثير من لغات الأقليات الذي يقف الناطقون بها خارج نطاق مؤسسات العالم الحديث، وفي الوقت الذي يعكس فيه معجم اللغات الأصغر حتى يومنا هذا أساليب الحياة التقليدية المحافظ عليها، حدث تحديث في مفردات اللغات الثقافية مع تطوير خصوصيات غير قابلة للاستبدال بغيرها.

على عكس مختلف المناطق الأفريقية، حيث حطمت القوى الكولونيالية الجذور الثقافية القديمة للشعوب الأصليين واحتلت اللغات الكولونيالية القديمة مكان اللغة الرسمية، لم تتمكن الإنجليزية ولا الفرنسية - ناهيك عن بعض اللغات الأخرى الأقل أهمية مثل البرتغالية، والهولندية، أو العربية - من الحلول محل اللغات الأم

المحلية على المدى الدائم أو إزاحتها عن الطريق في ما يتعلق بأداء الوظائف الرسمية.

وفي المعاملات والمراسلات الرسمية تملك لغات جنوب شرق اسيا الأفضلية. في بلد واحد فقط هو سنغافورة تمكنت لغة كولونيالية هي الإنجليزية من المحافظة على مكانتها في حلقة وسائل الاتصالات المهمة في الحياة العامة. الإعلانات العامة وإشارات المرور يتم إصدارها بأربع لغات (الإنجليزية، الصينية، المالاوية، التاميلية) وبثلاثة نظم للكتابة هي الكتابة اللاتينية، والعلامات الصينية، والأبجدية الهندية) (راجع الشكل 25). إنّ مثل هذه «الكتل الإعلامية» المتعددة اللغات التي تنعكس فيها العلاقات السائدة في المنطقة، لها في الوقت نفسه طبيعة فسيفساء جميلة من الرموز الثقافية.

الشكل 25: لوحة إشارات في سنغافورة بلغات متعددة



الفصل الرابع

تعدد اللغات - الهوية الثقافية وعوامل النزاعات الإثنية: أوروبا الشرقية مسرحا للتحولات الاجتماعية

إن التعددية الثقافية وتنوع اللغات حقائق قائمة في العديد من مناطق العالم كما أن تعايش الناس من مختلف الأصول والثقافات واللغات الأم لا يستطيع أن يؤدي وظائفه إلا وفق درجة الاستعداد للتعاون الذي تكون المجموعات المختلفة جاهزة للقيام به. ونظرا لما قد يسفر عنه التفاعل القائم بين ممثلي المجموعات اللغوية المختلفة من تناقضات ثقافية أيضا، يصبح النظر إلى مثل هذه التناقضات التي تخص أولئك الناس الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض ومرونتهم وقدرتهم على التسامح. هناك الكثير من العوامل الخارجية التي قد تكون حاسمة في تحول التناقضات اللغوية أو الثقافية إلى أزمات.

لقد ولدت الاضطرابات السياسية المندلعة في ربيع عام 1998 في كينيا قبيل الانتخابات الرئاسية في هذا البلد في صفوف السكان

الأفارقة المحليين صورة للعدو. وتمثل «العدو الخارجي» الذي تم تحريكه في مجموعات معينة من النازحين الهنود (في كينيا) الذين انصبّ عليهم جام غضب الأفارقة. وانتهت العواطف الملتهبة في صدامات دموية عنيفة. وفي خريف 1998 ظهرت فجأة المشاكل الاجتماعية التي ولّدها الركود الاقتصادي في جنوب شرقي آسيا. وجاء في مقدمة هذه المشاكل التناقضات الاجتماعية القائمة بين السكان الأندونيسيين في جاوا وبين الأقلية الصينية الموسرة التي تعرضت إلى حنق أولئك الذين فقدوا فجأة أماكن عملهم وتعرضوا للبطالة. وفي روسيا الحديثة بتوتراتها الاجتماعية تنعكس مؤثرات التيارات الوطنية - الروسية في الحملة المضادة للسامية وفي الهجوم الذي تتعرض له المنشآت اليهودية (المعابد اليهودية، دور النشر اليهودية).

الاتصالات اللغوية وطاقات النزاع الكامنة فيها

تعتبر الاتصالات بين اللغات بكونها ظاهرة من التداخل بين أنظمة معقدة بمثابة الأمر العادي. إلا أن حقيقة تعرض اللغة والثقافة التي تحملها خلال عملية بحث الناطقين بـ (اللغة) وحملتها (الثقافة) إلى تقييمات معينة تحول كل اتصال لغوي إلى موضوع حري بالتقييمات الذاتية. وتعبّر مضامين التقييمات عن نفسها في صور نمطية ثقافية. وفي الحالات التي يؤدي فيها الاختلال في التعرف على الذات (بصورة عامة بالترابط مع تقييمات سلبية من «الذات») والتصنيف الأجنبي

(المرتبط غالبا مع تقييمات سلبية «للآخرين») إلى ظهور تناقضات في التقييمات. في تلك الحالات يمكن النظر إلى العلاقات اللغوية كمصدر للنزاع، ومن الآليات المميزة المطبقة في عملية التعرف على الذات نذكر الخوف من الاختلاط مع الثقافات الغريبة الأجنبية (وبالتالي مع لغاتها)، الذي لا يفسح المجال بسبب طبيعته اللاعقلانية - العاطفية إلى إصدار معايير موضوعية.

ثم إن المجموعة المتألفة الأساسية من التقييمات المشار إليها أعلاه، لا تسمح بأي حال من الأحوال بإعطاء تعريف واضح معين للظروف التي تؤدي فيها الاتصالات من قبل الناطقين باللغة وكأن الأحوال شارفت على الانفجار واندلاع النزاع، وتتولد مشكلة الصراع من تقييمات فردية - ذاتية لحالة معينة من حالات الاتصال اللغوي، علما بأن التقييمات الفردية تتشكل في الوقت نفسه تحت ظروف فوضوية (أي لا يمكن تشخيصها مسبقا بكل تأكيد) مكونة وعيا جماعيا بالصراع، لذلك لا يمكن التنبؤ إلا بصعوبة بالغة بمرحلة بداية النزاعات اللغوية.

غير أن مثل هذا الصراع يكون مبرمجا مسبقا في الواقع إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار مثلاً وجود لغة في الساحة تتمتع بمكانة أفضل بكثير مما تتمتع به اللغة (اللغات) الأخرى الموجودة. وهكذا تتولد حالة تقوم بها لغة مهيمنة بممارسة ضغوط على الوظائف الاجتماعية التي تؤديها لغة (أو لغات عديدة أخرى). لذا ليس من المبالغة بمكان،

إذا ما انطلقنا من وجهة نظر نلده Nelde (1994)، من أن أي اتصال لغوي هو مصدر محتمل لنشوب النزاعات. وفي هذا المجال يجري التأكيد على كلمة «محتمل» أي أن مثل هذا النزاع لا يحدث حتما بالضرورة.

ومن الممكن أن تؤدي المكانة التي تتمتع بها لغة مهيمنة في بعض الأحوال إلى استخدامها من قبل أبناء لغة غير مهيمنة لغرض الدفاع عن أنفسهم، والمثل الراهن الذي نواجهه هو يوغسلافيا. فنتيجة للضغط الذي تمارسه اللغة الصربية على غيرها من لغات الأقليات، تتميز هذه اللغة بمكانة غير قابلة للنزاع والممثلة في أنها تهيىء الأرضية السليمة لكل مواطن يوغسلافي من الذين يتحدثونها لأن يتسلق السلمَ الاجتماعي.

لكن هيمنة «اللغة» الصربية «الكولونيالية» وسمعتها تشوشتا في وعي ألبان كوسوفو وانقلبتا رأسا على عقب، بعد أن تحولت الألبانية إلى محرك رمزي للمقاومة ضد السياسة القمعية التي كانت حكومة بلغراد تمارسها بحق شعب كوسوفو، لا بل أصبحت رمز هوية ذاتية رفيعة القيمة والمقام. وتصور الحالة السائدة في كوسوفو قبل الحرب في 1999 الوضع الذي يمكن أن يشهده صراع اللغات، والتمسك «بسلوكيات ترفض التواصل مع الآخرين» (A.and J. Assmann 1990) وحتى بعد بداية مهمة منظمة الأمم المتحدة في كوسوفو لم يتبدل أي شيء في عقلية السلوك الذي يرفض التواصل مع الآخرين المتمثل في

نظرة الصرب (بعد أن أصبحوا أقلية) إلى التعامل مع الألبان (الأغلبية السكانية في الإقليم).

ولا يستطيع المرء معرفة الأسباب التي تدفع إلى تحول تراكمات من الاتصالات اللغوية إلى صراع مستفحل في حالة ما، وعدمه في حالة أخرى إلا بعد إجراء تحليل إجمالي للعديد من العوامل ويعتمد المرء من أجل الحصول على صورة إجمالية للوضع على معايير لغوية داخلية وخارجية في سياق دراسة العلاقات اللغوية.

ويتبين تنوع البيئة الايكولوجية للاتصالات اللغوية والثقافية، والآثار التي يخلفها التلاعب السياسي بعوامل النزاع الاثني، عند إلقاء نظرة على تعقد الاتصالات اللغوية في روسيا (راجع ما يلي).

ثم إن تحليل الاتصال اللغوي في روسيا يمكن قصره بالطبع على بحث التدخل الروسي في أي لغة من اللغات غير الروسية. ولا يمكن توضيح التأثير الأكثر فعالية الذي تحققه اللغة الروسية على اللغات الأصغر في الأجواء المشحونة بالأزمات إلا عند الاستعانة بالأبعاد الاجتماعية والثقافية لهذه الاتصالات. ويتحول الاتصال اللغوي الروسي - اللاروسي إلى حالة من التأزم عندما تشرع اللغة الروسية بممارسة عملية دمج لغات الأقليات بصورة لا رجعة فيها تقريبا وبشكل يؤثر تأثيرا كبيرا على هوية أصحاب هذه اللغات. ومثل هذه الأوضاع تميز أفراد المجموعات اللغوية الصغيرة في الشمال السيبيري (Helimaski 1997).

إن الطريقة التي قد تعبر بها الاتصالات اللغوية عن أنفسها في حالات معينة بالذات وإمكانية قيام درجة من النزاع المحتمل الموجود داخل كل نوع من أنواع الاتصالات اللغوية هذه، يعتمدان في الواقع على الكثير من العوامل، مثل المكانة السياسية التي تتمتع بها لغة أقلية بالمقارنة مع مكانة لغة الأغلبية. ومن ناحية أخرى قد تحدث أحيانا توترات تنهل من مخزون التقييمات المرتبطة مع طاقة الهوية، التي قد تعبر عن نفسها في السلوك الاجتماعي بشكل مقاومة سلبية للاتصالات (على سبيل المثال كصراع ثقافي لمتحدثي لغة أقلية من أجل الحصول على حقوق تشجيع لغتهم والمحافظة عليها).

ويمكن للتقييمات الفردية بالنظر إلى نفس المؤالفة اللغوية - التي هي قائمة في الكثير من الحالات - أن تكون مختلفة جدا. ومن الأمثلة التي نضربها على ذلك النزاع المحتدم في اليابان منذ عشرات السنين بين التقليديين المحافظين والمحدثين حول دور اللغة الانجليزية في تحديث اللغة اليابانية (Loveday 1996: 157 ff.). إن ما يعتبر بالنسبة لأحد هذ ين الطرفين، أي التقليديين، مصدر أزمة دائمة، يحصل على ترحيب كبير كعملية تحديث في غاية الضرورة من قبل الطرف الآخر. ولا عجب أن يقيّم التقليديون اليابانيون التأثير الانجليزي تقييما سلبيا ويحذرون منه كتأثير دخيل بالغ الخطورة على اللغة اليابانية. ويتقبل الحداثيون اليابانيون إلى حد كبير جميع أبعاد الاتصالات اللغوية التي تكون فيها اللغة اليابانية طرفا مستقبلا جملة وتفصيلا.

وقد تتحول الاتصالات اللغوية إلى حالات من التنازع والتناحر

عندما تقوم لغة الاغلبية بممارسة ضغوط سياسية وثقافية على لغة (لغات) واحدة (أو عديدة) غير مكتوبة مما يؤدي بالمحصلة إلى إصابة هذه اللغة بنوع من التآكل الثقافي واللغوي وتبدأ بإظهار بعض ملامح الانحلال في خضم التفاعل مع اللغة المهيمنة. إن معظم اللغات المفردة في العالم تتواجد في مثل هذه الحالة من الاتصالات (راجع الفصل الثاني). يعني هذا بالقياس العالي أن غالبية الاتصالات اللغوية تمر في حالات متأزمة، علما أن نحو ثلث جميع اللغات هي لغات لا يتحدثها سوى بضع عشرات أو مئات من الأشخاص. إن عمليات الاندماج قد قطعت بالنسبة إلى العديد من المجموعات اللغوية الصغيرة أشواطا بعيدة ستؤدي كما هو متوقع إلى تبدل لغوي كامل مع أول تغير للأجيال.

هذه هي الحال في استراليا على سبيل المثال، حيث لا تسمح اللغة الانجليزية المهيمنة بالكامل لأي من اللغات الأخرى الصغيرة بأي حرية من التصرف مهما كانت. وعلى عكس الأوضاع السائدة في استراليا لا توجد في دولة بابوا – غينيا الجديدة المجاورة لغة أغلبية واحدة. تعتبر توك بيسين، اللغة الرسمية لدولة بابوا – غينيا الجديدة، لغة أصلية ثانية لجميع سكان هذه الدولة (نحو مليوني متحدث)، في حين أن اللغات المحلية الأخرى تبقى لغات أم معترف بها في البلاد. وتعتبر وعورة غالبية الوديان الجبلية في بابوا – غينيا الجديدة عامل استقرار حتى بالنسبة لأصغر اللغات المحلية.

وفي السنوات الماضية شهدت أوروبا الشرقية تبدلات جذرية في تراكيب الاتصالات اللغوية التقليدية، بادىء ذي بدء في أوكرانيا، ومن ثم في البوسنة والهرسك، مع العلم ان المجموعات الإثنية في يوغسلافيا السابقة تسعى إلى الانفصال اللغوي والثقافي بعد ان كان يسودها عبر عشرات السنين جو من التفاعل والتعاون. ومما يشجع هذا الاتجاه الانفصالي هو النظام السياسي الجديد الموجود في المنطقة بأسرها والمكانة الدولية الخاصة بإقليم كوسوفو. هنا بالذات أدى الصراع بين الثقافات واللغات إلى حدوث إفراطات مضرة ما كان المرء يتوقع حدوثها في أوروبا على الإطلاق.

منذ عمليات التهجير والطرد التعسفية الهتلرية والستالينية لم تشهد أوروبا مثل هذه «التصفيات الإثنية» الوحشية التي مارسها الجنود الصرب بحق المناطق الألبانية في كوسوفو. وحسب المعلومات الصادرة عن محكمة العدل الدولية في لاهاي، التي كانت في مايو/ أيار 1999 قد وجهت إلى المجموعة القيادية في حكومة بلغراد، جرى ارتكاب جرائم حرب خلال الفترة الواقعة بين نهاية مارس/ أذار وأواسط مايو/ أيار 1999 وتم طرد وتهجير نحو 740000 ألباني من سكان إقليم كوسوفو (الذين يقارب عددهم مليوني نسمة) بهذا بُعث نوع من حالات الأزمات (التهجير الجماعي) الذي كنا نظن أن الزمن طواه. وحتى اليوم لم يرجع الكثير من الألبان المهجرين إلى ديارهم نظرا لأن قراهم لا تزال غير قابلة للسكن.

وفي الوقت الذي فُككت فيه عرى اتصالات مستقرة كانت قائمة في الكثير من المناطق (مثل الاتصالات بين السلوفينيين والصرب، بين الكرواتيين والصرب، بين البوسنيين والصرب)، برزت في مكان آخر أزمات جديدة غير متوقعة خلفتها مأساة تهجير الألبان، إلا أن الاتصالات اللغوية وما تسببه أحيانا من تعقيدات لا تتعلق فقط بلغات البلقان ولا تنحصر فقط في منطقة جنوب شرق أوروبا بل تتعدى ذلك إلى المناطق الأخرى من أوروبا.

إننا نقابل مشكلة اتصالات وأزمة لغات البلقان في جميع بلدان أوروبا الغربية التي استقبلت المهاجرين من مناطق الحروب المستعرة في جنوب أوروبا. وهكذا فإن اللغتين الألبانية والبوسنية وهي اللغة الصربكرواتية كما يتحدثها البوسنيون بكونهما لغتين للاجئين، بدأتا تحتكان وتولدان أزمات في علاقتهما مع اللغة الألمانية في ألمانيا ومع الإيطالية في إيطاليا ومع الفرنسية في فرنسا، لا بل ان مشكلة كوسوفو قد انتقلت مع نزوح اللاجئين الألبان إلى أقصى الشمال الأوروبي مثل السويد وفنلندا.

اللغة عامل سياسي في عمليات التحولات الاجتماعية

اللغة ليست فقط وسيلة اتصال، ولا وسيلة تتبلور فيها الهوية الثقافية: إن اللغة أيضا وإلى حد بعيد، عامل سياسي نظرا لأن الناس والمؤسسات قد حولوها إلى ذلك. على سبيل المثال لقد اقترنت

التبدلات الحاصلة في جنوب افريقيا المتمثلة في عام 1994 بنقل الإرادة السياسية من السكان البيض إلى جميع مجموعات الشعب (الأسقف دزموند توتو DESMOND TUTU كان أول من استخدم اصطلاح «أمة قوس قزح») وإلغاء سياسة التمييز العنصري (آبارتهايد) اقترنت أيضا بسلسلة من القرارات السياسية الأخرى تتعلق باستخدام اللغة. وهنا لم تكن وراء هذه القرارات معايير عملية - موضوعية بل طموحات وأماني شعوب افريقيا السوداء في أن ترى لغاتها الأم الأصلية تؤدي الوظائف الرسمية في البلاد.

غير أنه لا يوجد أي مكان آخر في العالم الحديث أحدثت فيه التغييرات السياسية تقلبات جبارة وبهذا القدر الكبير كما حدث في شرق أوروبا، حيث لم يجر زج الأفراد فقط، بل شعوب بأسرها مع هويتها الجماعية ولغاتها في حضن التوترات السياسية. وفي هذه الدول المستقلة التي حققت سيادتها شاهدنا جميع الاستراتيجيات السلوكية التي يمكن تصورها على الإطلاق، ابتداء من سلوكيات التواصل في الحوار السياسي السلمي ومرورا ببناء المجتمعات الديمقراطية، وانتهاء بالاضطرابات المتطرفة العنيفة (على سبيل المثال في الشيشان). لم تكن نتيجة تفكيك النظام السوفييتي وايديولوجيته، على سبيل المثال، تحريرا روحيا شمل جميع الجهات، بل ان العواطف المكبوتة والأحكام المسبقة الاثنية نراها تندلع في جميع تلك الأماكن التي كان العهد السوفييتي قد أبقاها مستورة.

وعلى الرغم من مرور سنوات قليلة فقط على تفكك الاتحاد السوفييتي، فإن العهد السوفييتي يبدو وكأنه قد تلاشى منذ زمن طويل، ويعود سبب هذا الانطباع (الزمني) إلى حد كبير إلى سرعة الأحداث المتعاقبة التي شهدتها المنطقة مثل الاتجاهات غير المستقرة في التطور السياسي الصاخب للدول الفتية التي ظهرت بعد غياب الامبراطورية السوفييتية. على سبيل المثال لقد طرح النقاش المفتوح الدائر حول الآفاق السياسية الوطنية في روسيا العديد من الأسئلة التي تفتقر حتى الآن إلى إجابات شافية (على سبيل المثال (Moiseev/lordanskih 1995 Zaslavskaja 1995,1996) منذ سنوات والسياسة تتراوح بين الحرب والسلام بين الديمقراطية والدكتاتورية (Mommsen 1996).

إن الاقتصاد غير مستقر في أغلبية هذه الدول ولا يزال يظهر الكثير من الفوضى بدل الانتظام والشيء الوحيد الذي طبع التنمية الاقتصادية في جميع دول أوروبا الشرقية كان اندلاع الثورة الرأسمالية والتوغل في مستقبل غير آمن بعد اعتماد اقتصاد السوق الحر (Csaba 1995). وفي معرض التنافس على المنافع الاقتصادية والحصص في الاسواق كان وضع روسيا هو الأسوأ. لقد أدى الانهيار الاقتصادي وتراجع قيمة العملة في خريف 1998 إلى إصابة المجتمع الروسي بمرض انتشر كانتشار الأوبئة أما التشخيص الفعلي لمسببات هذا المرض فهو انعدام الثقة وخلل التوجه الاجتماعي.

وفي كثير من الحالات نرى ان التيارات الثقافية تمر في مرحلة من التناقضات دون العمل على إيجاد حل وسط. وفي هذا السياق يشبه الوضع القائم في روسيا حاليا ذلك الوضع الذي كان يسود خلال حكم كاترين الثانية الكبيرة – فترة حكمها (1762-1796). لقد دللت البحوث العلاماتية الجديدة (نظم العلامات مثل إشارات المرور وعناوين الصور والمعادلات واللغة وعلاقة هذه العلامات بالموضوعات المعروضة – المترجم) على أن النهضة الثقافية التي شهدتها روسيا آنئذ كانت قد تولدت من دينامية قوى مضادة (التعلق الروسي بالتقاليد ضد التكيف مع أفكار عصر التنوير في أوروبا الغربية) (Lotman/Uspenskij 1996: 445).

علاوة على ذلك فإن روسيا والدول الأخرى المنبثقة عن الاتحاد السوفييتي السابق تقدم أمثلة على العديد من التطورات المملوءة بالمفارقات. فعلى الرغم من غياب الهيمنة الروسية في المناطق الواقعة خارج نطاق سيادة روسيا. نرى اندلاع صراعات كانت محرمة خلال الحقبة السوفييتية (على سبيل المثال الأزمة الأرمينية – الأذرية في منطقة جبل قاراباخ. (Furman 1995) وتم تأجيج بعض الأزمات والصراعات القديمة الموجودة خلال العهد السوفييتي ونقلها إلى واجهة الأحداث، إضافة إلى حدوث أزمات جديدة نتيجة الخلل الحاصل في موازين القوى (على سبيل المثال الحرب الأهلية في مولدافيا وانسلاخ المقاطعات الروسية في ترانسنستريا – Kirikkov 1995 انفصال أبخازيا عن جورجيا نتيجة الصراعات المسلحة – Trofimov 1995). ولا

يمكن فهم أصل نشوء هذه الأزمات إلا عند إمعان النظر بما حدث من عمليات اثنية خلال العهد السوفييتي. ولضرورة تفسير التطورات الراهنة سنتطرق إلى الاتجاهات التي كانت سائدة خلال العهد السوفييتي.

لا يزال الغرب يعاني من نقص حاد في المعلومات المتعلقة بالعلاقات القائمة بين الاثنيات المختلفة في ذلك الزمن فعلى الرغم من ان الاتحاد السوفييتي كان دولة متعددة القوميات، فإن علاقة السكان الروس وغير الروس والأزمات اللغوية القائمة بينهم واتجاهات السياسات القومية السائدة في ذلك البلد لا تزال غير معروفة إلى حد بعيد حتى يومنا هذا سوى من قبل بعض الخبراء و أهل الاختصاص.

على سبيل المثال: يولدّ العدد الأخير من مجلة Ethnologue الانطباع وكأن استونيا بلد ذو لغة واحدة فإلى جانب الاستونية لا تتطرق المجلة إلى ذكر أي لغة أخرى (Grimes 1996, 475). ولا يتم ذكر اللغة الروسية عند التحدث عن أية دولة من الدول القومية الجديدة خارج روسيا. لذا يبدو محتوى المعلومات المتعلقة بقائمة اللغات في هذه البلدان مشوش الصورة بعض الشيء، ففي حال قازاخستان مثلا لا ذكر للروسية والكورية كلغتي أقلية، في حين ان اللغة الألمانية مذكورة كلغة من لغات الأقليات الموجودة في البلاد (Griemes 1996: 989 f.).

أما طبيعة المؤثرات التي قد تخلفها العملية الجارية حاليا في حقل التبدلات السياسية والبحث عن الاتجاه الصحيح لظروف التفاعلات

داخل المسرح الجيوبوليتي الذي تأسس إثر إشهار العهد السوفييتي إفلاسه فلا يمكن التنبؤ بها في الوقت الحاضر بأي شكل من الأشكال. ولا يعتبر التصور بأن التطور سيجري بصورة سلمية إلا بمثابة أمل وليس كتشخيص مطلق يمكن استخلاصه من مراقبة الأوضاع الراهنة. إن تزايد حدة الحرب الأولى في الشيشان (1994-1996) فاجأ الناس العاديين والخبراء العسكريين على حد سواء. وفي صيف عام 1999 بدأت في الأفق نذر اضطرابات جديدة في هذه المنطقة تمثلت في الحرب المندلعة مجددا في الشيشان منذ سبتمبر/ أيلول 1999 والتي لم تنته بعد على الرغم من تأكيدات موسكو الكثيرة في هذا الشأن والتي ستستمر إلى أجل غير مسمى كما يبدو.

وتواجه البحوث العلمية مصاعب جمة في معالجة الأوضاع الجديدة التي تمخضت عن تفكك الاتحاد السوفييتي وحلول الدول القومية الجديدة محله، وبغض النظر عن تقارير الحال والوثائق المتعلقة بالأحداث التاريخية التي وقعت مؤخرا، فلا يوجد حتى الآن سوى بعض التحليلات النقدية - المقارنة ومحاولات تتعلق بإلقاء نظرة عامة على تاريخ الاتحاد السوفييتي فقط (Kappeler 1992, Thompson 1994) أما مشكلة العلاقات اللغوية والصراعات اللغوية الراهنة فلم تعالج للآن إلا في دراسات مفردة تتعلق بحالات محلية (على سبيل المثال: Lallukka 1995 Balzer/Vinokurova 1996) ناهيك عن البحوث المقارنة المتعلقة بأوضاع الاثنيات السوفييتية السابقة، في العهد التالي للعهد

السوفييتي، التي لا تعتبر سوى حالات نادرة (على سبيل المثال (Shoji/Janhunen 1997, Funk/Sillanpaa 1999) ولا يوجد سوى محاولات قليلة جدا تتطرق إلى وصف الاهتزازات التي جرت نتيجة التخلص من التخطيط اللغوي السوفييتي أو تصوير إرث أزمات العهد السوفييتي (على سبيل المثال: Kreindler 1997). وفي هذا الصدد تؤدي آليات التخطيط اللغوي وظيفة مهمة كمقياس للأزمات الموجودة داخل العلاقات الاثنية المتبادلة.

ولا يزال من المبكر جدا تفسير اتجاهات لغوية عامة. وهذا لن يتكلل بالنجاح نظرا لأن السياسة اللغوية في الدول الجديدة كانت ولا تزال خاضعة لتأرجحات كبيرة جدا. والاتجاه الوحيد الذي لا يزال يهيمن دون منازع هو أن كل الأمور موجودة قيد التحول، وكيف أن مكانة اللغات - في خضم تضارب مصالح لغات الاغلبية والاقلية - غير مستقرة في أي مكان كان، لذلك يكون من المفيد و المعقول جدا ان يُقدم المرء بصورة خاصة على الانشغال بعملية تخلص السياسة اللغوية الراهنة من النموذج السوفييتي.

المتغيرات الجيوبوليتية للتعددية الثقافية في شرق أوروبا

إن تفكك الاتحاد السوفييتي وقيام دول مستقلة كاملة السيادة في عام 1999 جرى تفسيره في خضم التقييمات العاطفية للانعطافة السياسية آنئذ كتجاوز للنظام الشمولي وكانطلاقة إلى عصر يتسم بتحقيق الذات وطنيا. من الناحية المبدئية يجري في الدول الجديدة، وإن كان بدرجات

مختلفة، استغلال فرص إقامة ديمقراطيات برلمانية حديثة والانتقال من الاقتصاد المخطط التابع للدولة إلى اقتصاد السوق.

وبذلك فإن الاتجاه السياسي الموجه لتحقيق السيادة الوطنية قد شارك في التخفيف من حدة التوترات الاثنية المتولدة من الضغط الذي كانت النزعة الشوفينية الثقافية الروسية تمارسه على المجموعات اللغوية غير الروسية في الدولة السوفييتية. ومن الناحية الأخرى أثبت الاتجاه السياسي الوطني الفتي في الدول الجديدة انه مانع يحول دون توازن العلاقات بين الاغلبيات القومية الجديدة وبين الاقليات الجديدة.

كان الاتحاد السوفييتي السابق دولة متعددة القوميات، ومتعددة اللغات - وعلى الرغم من الأيديولوجية السوفييتية - متعددة في الثقافات أيضا، ينطبق هذا التصنيف أيضا على جميع الدول المنبثقة من الاتحاد السوفييتي السابق. يعني هذا ان المحافظة على الطبيعة ذات القوميات المتعددة لم تبق مقتصرة على البلد النواة، أي روسيا، خاصة ان جميع كيانات الدول القومية ذات السيادة التي تشكلت في المناطق غير الروسية سابقا، أي في «المستعمرات الداخلية» للامبراطورية السوفييتية، تضم سكانا يتكونون من قوميات مختلفة. ومع هذا فإن الدولة الوحيدة التي تستطيع أن تدعي سياسيا انها دولة متعددة القوميات هي روسيا.

خلال العهد السوفييتي كان الاسم الرسمي لهذا الجزء من الجمهورية

Russkaja socialisticeskaja federativnaja sovestskaja republika (الجمهورية الروسية الاشتراكية الفيدرالية السوفييتية): الاسم الحالي هو الاتحاد الروسي Rossijskaja Federacija (باختصار Rossija). وتشير كلمة (rossijski إلى المؤسسات التابعة للدولة، علما بأن هذه التسمية كانت محظورة على أيام الدولة السوفييتية لارتباطها مع روسيا القديمة وهو تقليد له علاقة مقصودة مع الاسم الجديد. وتتكون الفيدرالية الروسية من 16 جمهورية تتمتع بالحكم الذاتي و٥ أقاليم تتمتع بالحكم الذاتي و10 مناطق تتمتع بالحكم الذاتي (The Russian Federation 1994:15).

ويراعي العنصر الفيدرالي في الاسم دون شك طبيعة البلاد التي تضم أكثر من 120 من الاجناس وتصل نسبة الروس إلى 81,5% (120 مليون إنسان). ونسبة غير الروس 18,5% (27 مليون إنسان). وأقوى الاثنيات غير الروسية عددا هم تتر فولغا البالغ 6 ملايين. ويشكل العدد المطلق لغير الروس نسبة تدعو للملاحظة بالنسبة للأوضاع الأوروبية. فهذا العدد أكبر من عدد سكان رومانيا، أو من عدد سكان الدول الاسكندنافية مجتمعة، وتعتبر التعددية اللغوية في روسيا الحديثة - كما في السابق في عهد الدولة السوفييتية - ظاهرة جماعية وليس هامشا اجتماعيا.

وعلى غرار الماضي فإن العلاقات الاثنية بين الروس وغير الروس لا تخلو في الوقت الحاضر أيضا من التوترات. وهذه حقيقة برهنتها

بوضوح تام الحرب الشيشانية (Panfilov.Simonov 1997) على الرغم من أن الاثنية الشيشانية لا تضم إلا ما يقرب من مليون إنسان لم يشارك في الحرب منهم سوى بضعة آلاف شخص فقط، ومع هذا فإن الآلة العسكرية الروسية المدججة بالسلاح لم تتمكن من دحر إرادة المتمردين الشيشان والقضاء على مقاومتهم وكسر عزيمتهم. إن الأمل في تحقيق حل سلمي للمسألة الشيشانية الذي ظهر في الأفق في صيف عام 1996 عندما باشرت القوات الروسية بالانسحاب من الشيشان سرعان ما تلاشى. أما الحرب الشيشانية الثانية (منذ سبتمبر/ ايلول 1999) فقد وصلت من الناحية العسكرية إلى حالة لا غالب ولا مغلوب، مع العلم ان الجيش الروسي يحتل بلدا لا تبدو فيه آفاق التوصل إلى سلام حقيقي واقعية أبدا.

وينظر الشيشانيون إلى هذه الحرب على أنها جهاد مقدس ضد معتد شائن هو القوة الكولونيالية سابقا. في حين ان رد الفعل الروسي على ذلك كان في كلا الحربين بمثابة حملة سياسية موتورة موجهة ليس ضد الشيشان وحسب، بل ضد جميع القوقازيين. وبهذا فإن الأجواء اللائقة لإجراء اتصالات اثنية متبادلة بين الروس وغير الروس في جنوب أوروبا قد تسممت نتيجة هذه الحرب، ولا يمكن التكهن بالعواقب الوخيمة للعلاقات بين الروس والقوقازيين وبين الروس وغير الروس.

على أي حال لقد تراكمت لدى الطرفين المتنازعين أحقاد اثنية وثقافية كما يظهر في اللغة الروسية الدارجة من نعوت وأوصاف

سلبية تطلق على القوقازيين، حيث يطلق على غير الروس من القوقازيين تسمة zver (في الواقع حيوان شرس) أو (cernozopy) إست أسود أو sasly شاشليك (الشاشليك نوع من الكباب أو اللحم المشوي - المترجم) (Shlyakhov/Adler 1995:81, 236, 243) إن مراقبة مثل هذه الصور النمطية والأحكام المسبقة لا بل ومحاولة التخفيف منها قد تكون أصعب وأعقد بكثير من عملية رفع أنقاض غروزني الملوثة بمختلف أنواع المتفجرات.

ثم إن الدول المحيطة بروسيا يقطنها أيضا سكان من قوميات ولغات متعددة. وفي التناسب بين الأغلبية والأقلية هناك أوجه شبه بين الأذريين واللثوانيين والروس، في حين ان أرمينيا تختلف عن جميع الدول الأخرى نظرا لأن نسبة الأرمن تبلغ 93%، كما أن الأغلبيات في الدول الجديدة الأخرى أقل بكثير مما هو موجود في روسيا من أغلبية روسية. وحسب علاقة التناسب بين الأغلبية الاثنية للسكان المحليين نود ذكر التسلسل التالي: بيلاروس/ روسيا البيضاء (79% روس بيض)، أوزبكستان (73% أوزبيك)، تركمنستان (73% تركمنستانيون)، أوكرانيا (70% أوكرانيون)، جيورجيا (70% جورجيون)، مولدوفا/ مولدافيا (64% مولدافيون يتحدثون اللغة الرومانية)، طاجيكستان (62% طاجيكيون) استونيا (61% استونيون)، قرغيزستان (56% قرغيز)، لتوانيا (51% لتوانيون)، قازاخستان (44% قازاخيون).

وتشكل قازاخستان حالة خاصة من حالات الدول القومية التي لا

تشكل فيها الأمة التي تحمل البلاد اسمها غالبية السكان، لأن أقوى الاثنيات الموجودة في البلاد بنسبة 26%(5,9 مليون) هم روس وهذه ثاني أكبر مجموعة روسية تعيش خارج روسيا بعد المجموعة الموجودة في أوكرانيا والبالغ عددها 11,3 مليون روسي، علما بأن الروس ينتشرون في جميع المناطق غير الروسية، خاصة وأن نزوح الروس إلى المناطق غير الروسية كان جزءا لا يتجزأ من التخطيط السوفييتي للمجتمع الذي استمر يؤثر حتى الثمانينيات من القرن الماضي.

وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي لم تتم إعادة إلا جزء ضئيل جدا من هؤلاء المهاجرين الروس إلى وطنهم الأم روسيا، علما بأن الآلاف من الروس يغادرون البلدان المحيطة بروسيا سنويا (راجع حول عمليات النزوح من دول البلطيق Geistlinger 1997:3) وفي الكثير من الأماكن لا يمكن الاستغناء بأي شكل من الأشكال عن الاختصاصيين الروس مما يعيق مغادرة الروس المناطق غير الروسية وعودتهم إلى روسيا وعلى المدى البعيد يمكن الانطلاق من أن معظم الروس الموجودين في الخارج سيبقون مقيمين في «مواطنهم» الجديدة.

ردود الفعل على إلغاء الأيديولوجية السوفييتية

في توجه السياسة اللغوية للدول القومية

تختلف اتجاهات سياسة اللغة التي تمارسها الدول المنبثقة عن الاتحاد السوفييتي السابق نتيجة تباين ردود الفعل الإقليمية على

الطريقة السوفييتية في صياغة الحياة الثقافية في كل بلد من هذه البلدان والتي كان لها آثار لاحقة مختلفة. وبالنظر إلى ما كان يحدث خلال العهد السوفييتي يجب التفريق أيضا بين التسويات الاسمية والمكانة الفعلية للغة. ولا يقتصر الأمر على أن مكانة الدولة القومية في المناطق الجديدة التي استقلت وحققت سيادتها تستر على طبيعة هذه البلدان المتعددة القوميات، بل ان السكان كما يبدو لم يستوعبوا حتى الآن الثنائيات اللغوية الموجودة في بلدانهم لانشغالهم بمكانة اللغات الوطنية الإقليمية. ولا حاجة للسؤال عن أسباب الاتجاه القومي والتطرف اللغوي القومي في الدول المحيطة بروسيا بعد الأخذ بنظر الاعتبار كل سلبيات العهد السوفييتي.

لقد أظهرت مساعي السيطرة الفعلية لثقافة اللغة الروسية التي كانت تتستر بعباءة الايديولوجية السوفييتية (يوتوبيا إحلال المساواة الاجتماعية وجعل جميع شعوب الاتحاد السوفييتي سواسية في ناحية ثقافتها القومية)، والتي كانت فعالة في جميع المناطق غير الروسية، أظهرت مؤثرات بعيدة المدى وكان ضغط اللغة الروسية على الإثنيات غير الروسية يولد التوترات التي يمكن للمرء وصفها بأنها كانت عجزاً في التحقيق الذاتي الثقافي واللغوي في صفوف غير الروس، علما بأن هذا العجز المتكاثف باستمرار سرعان ما انتشر في كل مناحي حياة السكان غير الروس.

إن فكرة التآخي بين شعوب الاتحاد السوفييتي (بالروسية:

(bratstvo narodovsssr) التي كان ستالين يدعو إلى تحقيقها، لم تلاق أي صدى في صفوف أوساط غير الروس ،على العكس تثبتت في أذهانهم صورة الروسي القبيح الشوفيني المتعالي، ويطلق غير الروس ، وخاصة الأوكرانيون، تسمية ازدرائية على الروس هي kacapy (أي الروسيون) (Shlyakhov.Adler 1995:90). ولا يخلو الجانب الروسي من تسميات مماثلة كانت تطلق على «الآخرين» فغير الروسي يدعى nacmen (كلمة مركبة من nacional'noe men'sistov، أقلية قومية) أو urjuk (غير روسي من آسيا الوسطى) (في الواقع: مشمش جاف) أو cukca (متخلف) - (في الواقع ساذج أو مغفل: Teshuktsche) :(Shlyakhov/Adler 1995: 128,214,240) ولقد شارك الحكم الإداري المركزي في الدولة السوفييتية بقسطه في عملية التقزيم السياسي للمناطق، مما أدى إلى حدوث عجز في عملية تحقيق الذات والاعتداد بالنفس على المستوى السياسي المحلي. لذا فإن الليبرالية التي حدثت في نهاية الثمانينيات كانت بمثابة الفتيل الذي أشعل التوترات المتراكمة على كثير من الأصعدة. ويكون رد الفعل الجماعي في مثل هذه الحالة التي يُرفع فيها الغم السياسي الرفض القاطع للممارسات الجارية حتى الآن والتي يحاول الناس التغلب على عواقبها السلبية.

وبالنسبة لمجال السياسات اللغوية يعني هذا رفض جميع المثل العليا والأهداف ذات العلاقة بالعهد السوفييتي رفضا قاطعا. وفي

معظم الأحيان دون القيام بتفحص موضوعي لناحية الاستفادة من بعض منافع عملية التخطيط اللغوي السوفييتي في السابق. إن تأمين مكانة اللغات الرسمية غير الروسية أي تلميع صورتها الثقافية كان بمثابة الحاجة الماسة للتصدي لضغط اللغة الروسية الذي كان يُمارس حتى ذلك الحين. وعلى الصعيد الاسمي حدث في جميع الدول الجديدة تبدل لغوي مع إقدام كل أمة من الأمم المعنية بالأمر على الابتعاد عن اللغة الروسية وطبيعة الحياة الروسية.

حسب التفسير السوفييتي للعلاقات اللغوية القائمة في الاتحاد السوفييتي لم تكن توجد هناك لغة الدولة (بالروسية: gosudarstvennyi jazyk) بل لغات قومية متساوية في المكانة والحقوق. وفي ابريل/ نيسان 1990 صدر قانون لغوي تم بموجبه إقرار الروسية لغة رسمية للاتحاد السوفييتي (Isaev 1990). وبهذا جرى تثبيت مكانة اللغة الروسية كلغة للدولة بفترة قصيرة جدا قبل نهاية الدولة السوفييتية.

ومع وجود المساواة الرسمية في المراتب كانت الروسية تحتل مكانة الصدارة كـ «لغة الاتحاد بكامله» (بالروسية: vesesojuznyi jazyk). وبهذا تم فعليا تأمين مكانة اللغة الرسمية للدولة وإن كان ذلك يشبه إضفاء زينة مجازية عليها (Haarmann 1992 b). إن رفع شأن اللغات غير الروسية إلى مصاف لغات الدولة يماثل الحاجة إلى المساواة بين اللغات. من الناحية الاسمية أصبحت لغات الدول التابعة سابقا للاتحاد السوفييتي، أي القوميات التي كان اسمها يُطلق على

الجمهوريات التي كانت تسكنها، متساوية في المرتبة في عالم الدول الجديدة. أما من الناحية العملية فإن الروسية ما زالت تتولى وظيفة اللغة الرسمية في بعض الدول الواقعة خارج نطاق روسيا (راجع ما بعد).

ويمكن التأكد أيضا من وجود تيار سياسي محلي مناوىء للمكانة المميزة التي تحتلها اللغة الروسية في نظم وشؤون التعليم والإدارة في المناطق غير الروسية الموجودة ضمن روسيا. وحتى في قلب الاتحاد السوفييتي السابق فرضت مؤشرات محلية ثقافية ولغوية نفسها على الساحة (Drobizeva 1996). ومن إشارات المظاهر الخارجية لهذه الليبرالية هو إطلاق تسميات جديدة على المناطق غير الروسية التي تتمتع بالحكم الثقافي الذاتي. وأُبطلت صفة «سوفييتي» في كل مكان. وفي غالبية التسميات تم أيضا إسقاط صفة «اشتراكي»، الذي حدث مع تأخير دام بضع سنوات في بعض المناطق، ينطبق هذا على موردوفيا وجمهورية كومي حيث كان الشيوعيون يمثلون الأغلبية في البرلمانات المحلية مدة سنوات طويلة. وفي بعض الحالات تغلبت تسميات وطنية محلية كما في تحول جمهورية ماري السوفييتية الاشتراكية إلى جمهورية ماري إل Marij El، وتحول جمهورية كالميكيا السوفييتية الإشتراكية إلى كالم تانغش Chalm Tangsch. وتحول جمهورية ياكوتش السوفييتية الاشتراكية إلى ساشا Sacha وتحول جمهورية التتر السوفييتية الاشتراكية إلى تترستان (Tatarija) Tatarstan.

وسيكون المحك الفعلي للسياسة اللغوية الممارسة في الدول الجديدة المحيطة بروسيا هو العلاقة بين اللغة القومية المحلية ووظائفها كلغة رسمية للدولة وبين مكانة اللغة الروسية. إن الأمة الروسية ترى نفسها اليوم تواجه حالة تاريخية جديدة (Haarmann 2000). إذ لم يسبق في أي وقت من تاريخ روسيا القديمة (منذ توطيد دعائم النظام المركزي الموسكوفي في القرن السادس عشر) ان عاش روس بأعداد كبيرة خارج حدود دولتهم الخاصة بهم حيث قامت الامبراطورية القيصرية بسيطرة متتابعة على كثير من المستعمرات الداخلية إلى درجة ان الروس كانوا بغض النظر عن الأماكن غير الروسية التي يحلون فيها، يعيشون دوما في أراض تابعة للدولة الروسية ولم يوجد في معظم التاريخ الروسي ما يمكن أن يُدعى مكانة الأقلية السياسية كما هو الحال منذ سنوات قليلة بالنسبة إلى أكثر من 20 مليون إنسان يحملون الجنسية الروسية.

إن انتشار الروس في جميع أنحاء روسيا والاتحاد السوفييتي دفع بعض المراقبين إلى الادعاء بأن «شعب البدو الرحل الحقيقي هو الشعب الروسي» (Carrere d'Encausse 1979: 78). ثم ان الهجرة التاريخية للروس إلى المناطق غير الروسية كانت تركز منذ القدم على المدن. وحتى قبل الانعطافة السياسية في عام 1917 كان الروس يعيشون في معظم مدن الامبراطورية الواقعة خارج حدود البلد الأم (روسيا) حيث كانوا ينتمون إلى النخب الاجتماعية (صناعيون وتجار،

موظفو دولة في الشؤون القضائية والتعليمية، ضباط في الوحدات العسكرية المحلية).

وحتى في الأماكن النائية مثل مناطق القوقاز كان الروس موجودين في كل منطقة كبيرة (Volkova 1974: 193 ff.). وأكبر عدد للروس كان موجودا حتى قبل الحرب العالمية الأولى في كل من باكو وتبليسي وباطومي وشوخومي، وفي باكو كان عدد الروس يعادل عدد الأذريين، وفي تبليسي كان عدد الروس والأرمن أكبر من عدد الجورجيين (راجع: Ismail-Zade 1991: 186 ff.، مع خارطة خاصة مرفقة).

وفي العهد السوفييتي واصل هذا المنحى اتجاهه لأن الهجرة الروسية إلى الأراضي غير الروسية كانت ملتزمة بمبادىء أيديولوجية رفيعة. وكان الروس يرسلون إلى المناطق غير المتطورة من أجل دفع عجلة التحديث الصناعي - التقني إلى الأمام وكانت حركة الهجرة مقصورة بادىء ذي بدء على المحيط الغربي ومنذ عام 1960، وبصورة متزايدة، على المحيط الشرقي (آسيا الوسطى وشرق سيبيريا: Kolstoe 1995: 41 ff.).

وكان تزايد حصة السكان الروس المقيمين خارج نطاق الاتحاد الروسي أقوى بكثير من تزايد عدد السكان الروس بصورة عامة، حيث ارتفع عدد الروس ما بين 1917 و1979 بنسبة 80% في حين ان هذه النسبة بلغت في صفوف الروس المقيمين في المناطق غير الروسية 370% (Bruk/Kabuzan 1982). وفي جميع مناطق الهجرات والنزوح

كانت نسبة السكان الروس في المدن عالية فوق المعدل المتوسط. في مولدافيا على سبيل المثال بلغت نسبة الروس في عام 1970 (11,6%) من عدد سكان المنطقة، في حين ان النسبة بلغت في المدن 28,2%.

وفي المدن الصناعية المنتشرة في المناطق غير الروسية ارتفع عدد الروس بعد الحرب العالمية الثانية بصورة متزايدة. وفي العواصم المحلية أي في فروع سلطة موسكو المركزية كانت نسبة الروس أعلى من المعدل المتوسط من عدد سكان المناطق الحضرية في كل جمهورية من هذه الجمهوريات. في عام 1989 كانت نسبة الروس في عواصم الجمهوريات السوفييتية (خارج روسيا) كالتالي:

ريغا (لاتفيا)	- 46,8%
تالين (أستونيا)	- 37,9%
آلما - آتا (قازاكستان)	- 29,5%
فرونسه (قرغيزيا)	- 29,5%
كييف (أوكرانيا)	- 23,3%
طشقند (أوزبكستان)	- 23,3%
منسك (روسيا البيضاء)	- 20,1%
دوشامبيه (طاجكستان)	- 19,5%
عشق آباد (تركمنستان)	- 18,5%
فلنيوس (لتوانيا)	- 15,3%
كيشنيف (ملدافيا)	- 14,9%
تفليس/ تبليسي (جورجيا)	- 14,2%
باكو (أذربيجان)	- 6,1%
يرفان (أرمينيا)	- 5,8%

لقد أحدث عامل الزمن تفريقا نوعيا بين السكان الروس المقيمين خارج روسيا، أي التفريق بين الروس القدماء والروس الجُدد، الروس القدماء هم أولئك الذين وُلدوا ونشأوا خارج روسيا (خارج الأراضي الروسية) والذين هم ذرية المهاجرين الروس النازحين إلى تلك المناطق منذ أجيال عديدة. وكان القسم الأكبر من روس الخارج نظر إلى نفسه على أنه من المقيمين مدة طويلة، خاصة وأن أعدادا كبيرة من روس الجيلين الثاني والثالث كانوا يعيشون في محيط غير روسي. هناك فرق كبير بين الروس المقيمين في الخارج منذ مدة طويلة (الروس القدماء) وبين القادمين الجدد (الروس الجُدد) المولودين في روسيا نفسها. موطنهم الأصلي.

ويظهر الفرق في النسب المئوية بأجلى صوره في العقد ما بين 1979 و1989 كما جاء في: (Arutijunian 1992:52) ففي الحين الذي تزايد فيه عدد الروس القدماء في معظم المناطق غير الروسية تقريبا، انخفض في الوقت نفسه عدد الروس الجدد ولا يأخذ الاتجاه منحى مخالفا إلا في جورجيا التي تشهد تزايدا مستمرا في أعداد الروس الجُدد.

وفي معظم الدول المحيطة بروسيا يشكل الروس ديموغرافيا واقتصاديا. وفي العديد من المناطق ثقافيا أيضا - عاملا مهما. فيا ترى هل ستتمكن الدول الجديدة على المدى البعيد من إدماج المجموعات الروسية المحلية من السكان في مجتمعاتها دون حدوث أي صراعات؟ هذا السؤال له في الواقع مبرراته لعدم وجود أي مكان

تم التمكن فيه من إدماج الروس بصورة خالية من الأزمات. إن المكانة الرسمية السابقة التي كان الروس يحتلونها في الدولة (أي في الدولة السوفييتية) والمكانة الاجتماعية لم تعودا موجودتين.

وأصبح معظم روس الخارج بعد التحولات السياسية لا ينتمون إلى دولة معينة بالذات مما يجعلهم يواجهون اختيار الخضوع لامتحان عسير لغوي وثقافي يمكنهم من الحصول على جنسية بلدانهم الجديدة، وبالتالي المشاركة الفعلية في الحياة السياسية والاقتصادية أو التقوقع على أنفسهم مع روس آخرين يشاطرونهم ذات الميول والمواقف داخل حياة الغيتو. يمكن مراقبة مثل هذه الاتجاهات في منطقة نارفا الواقعة على الحدود الروسية - الأستونية).

وتختلف الشروط والطلبات التي يواجهها الروس الذين يريدون الحصول على الجنسيات الأستونية والأوكرانية والمولدافية والأزبكية وغيرها من الجنسيات، كإتقان لغة البلاد ومعرفة تاريخ المنطقة، من بلد إلى آخر وعلى أصعدة متباينة خلال التاريخ القصير لبعض الدول غير الروسية المحيطة بروسيا تعرضت قوانين إصدار الجنسية وبالتالي الطلبات والشروط المتعلقة بها إلى تبدلات مرارا وتكرارا (حول الأوضاع العامة راجع: Kreindler 1997: 94 ff. وحول التطور في استونيا راجع: Geistlinger/Kirch 1995, Haarmann/Holman 1997: 126 ff. ثم ان التشريعات المتعلقة بالجنسية تختلف من بلد إلى آخر أيضا. ولا يوجد أي تنسيق أو محاولة لإقرار مواصفات معينة عامة موحدة للحصول على الجنسية، فامتحان اللغة والثقافة في استونيا مثلا هو

أسهل على الروس من هذا الامتحان في لتوانيا حيث ينتظر المرء من طالب الجنسية ان يكون ملما باللغة إلماما جيدا.

من الجدير بالذكر ان بعض الروس المقيمين خارج روسيا كانوا يتقنون لغة البلاد التي يقيمون فيها حتى قبل حصول هذه البلدان الجديدة على استقلالها وسيادتها. علما بأن غالبية الروس كانوا ولا يزالون أحاديي اللغة بغض النظر عن بعض الإلمام باللغات الاجنبية التي تعلموها في المدرسة. وتعود مصاعب الاندماج الحالية التي تواجه روس الخارج إلى الإرث الذي خلفه العهد السوفييتي عندما كانت اللغة والثقافة الروسية تتبوآن مكانة رفيعة جدا وبالتالي عدم ظهور الحاجة أبدأ إلى تعلم اللغات المحلية.

ليس من الغريب أبدا ان نرى مواطنين روس عاشوا مدة عقود طويلة في استونيا أو ملدافيا، حيث كانوا يشغلون مناصب رفيعة جدا في السياسة والاقتصاد، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة تعلم أبسط قواعد لغة البلاد. ومن ناحية أخرى كان الناس خلال العهد السوفييتي يطلبون من غير الروس الإكثار من تعلم اللغة الروسية وهكذا فإن اللاتوازن في توزيع المعارف اللغوية هو في الوقت نفسه مواصلة للاتوازن السوفييتي لكن بأدوار مختلفة.

بدائل ضغط اللغة الروسية داخل وخارج روسيا

تمثلت إحدى ظواهر النتائج المباشرة لسياسة اللغات الوطنية التي تمارسها الدول الجديدة المحيطة بروسيا في إزالة الضغط الذي كانت

اللغة الروسية تمارسه على تلك الدول خلال العهد السوفييتي. ففي الوقت الذي تم فيه بناء سمعة وهيبة لغات الدول المذكورة تراجعت هيبة اللغة الروسية كلغة «سامية متفوقة» (بالروسية: verlikij). وفي الوقت نفسه فقدت الروسية دورها المتنفذ كـ (لغة للاتصالات الدولية (=الاتصالات الاثنية) (بالروسية: obscenija jazyk meznacional'nogo) وفي الدول الحديثة الاستقلال ترافق التحول الكبير في استخدام اللغة مع مصاعب اتصالاتية، نظرا لأن العديد من اللغات المحلية لم تكن تستخدم في الدوائر العليا للسلطة السياسية ولا في الحياة الاقتصادية. وحتى في الأماكن التي بدا فيها من المعقول استخدام الروسية في المعاملات الرسمية أو في المعامل والمصانع تم خفض هيمنة اللغة الروسية لأسباب سياسية تمثلت في معارضة الضغط السابق الذي كانت تمارسه «اللغة الكولونيالية».

أما في قازاخستان التي يشكل الروس أكبر أقلياتها الاثنية (35,8%) وحيث تهيمن اللغة الروسية على جميع مناحي الحياة العامة فقد تم الاتفاق على فترة انتقالية يجري خلالها استخدام الروسية كلغة رسمية اختيارية. غير ان اللغة القومية الرسمية الوحيدة المعترف بها هي القازاخية التي تؤدي حاليا وظائف رمزية أكثر من تأديتها وظائف عملية (Dave 1996).

وحتى في بلاروسيا في الجمهورية الروسية البيضاء الاشتراكية السوفييتية سابقا تنحرف الاوضاع اللغوية السائدة بكل وضوح عما هو

موجود في الدول الأخرى. في خلال السنوات الأولى من الاستقلال أرادت الحكومة تحقيق الانفصال عن اللغة الروسية. وكان الخبراء قد ذكروا في حينه ان فرص التحرر اللغوي في روسيا البيضاء ستتحقق شريطة إزاحة اللغة الروسية إلى الأبد من الوظائف السابقة في المعاملات الرسمية وكلغة مفضلة للكتابة.

لكن التبدل الحكومي في عام 1995 رافقه تبدل في الاتجاه السياسي يهدف إلى الاقتراب من روسيا من جديد. تؤكد الاتفاقية الكونفدرالية الموقعة من رئيسي البلدين (بوريس يلتسين عن روسيا وأ.جي. لوكاشنكا عن بلاروسيا) في مطلع عام 1997 مجددا على انفتاح بلاروسيا سياسياً وثقافياً نحو الشرق.

وفي استفتاء مايو/ أيار 1995 (بلغت نسبة التصويت 64%) قرر 83% من الروس البيض الاعتراف بمساواة اللغة الروسية مع لغة روسيا البيضاء كلغة رسمية في البلاد. بهذا استعادت اللغة الروسية مكانتها السابقة المهيمنة كما كان الحال عليه في عهد الدولة السوفييتية. وكلغة للكتابة عادت اللغة الروسية البيضاء من جديد للوقوع مباشرة تحت نفوذ اللغة الروسية ولا يزال الوضع الحالي يعكس حالة تعود إلى التاريخ: انعدام الهوية اللغوية نتيجة ضغط لغة قريبة مهيمنة. يصف وكسلر Wexler (1992) هذا الوضع بالعبارة التالية « schizoglossia perpètua» (الانفصام اللغوي الأبدي).

على عكس غالبية الجمهوريات السوفيتية السابقة ذات الأغلبية

السكانية غير الروسية. التي أصبحت اليوم دولا مستقلة، لا يزال ضغط اللغة الروسية داخل البلد الأم لهذه اللغة، أي روسيا نفسها يؤثر على الجماعات اللغوية غير الروسية الموجودة هناك. ولا تزال عمليات الادماج والتثقيف سارية المفعول في هذه المناطق والتي تواصل في روسيا اتجاها كان مألوفا خلال العهد السوفييتي والمعطل إلى حد بعيد في الدول المحيطة بروسيا. ولم تحرم ظواهر الاندماج اللغوي في السياسة اللغوية السوفييتية بل كان الوضع معكوساً، فعندما كان الأمر يتعلق بالتحول إلي اللغة الروسية كانت هذه العملية تنمق أيديولوجيا حيث كان المرء يتحدث عن الانتقال إلى الروسية على أنه بمثابة الانتقال إلى «اللغة الأم الثانية» (بالروسية: vtoroj rodnoj jazyk)، (Baziev/Isaev 1973: 207 f.) وأكد هذا المصطلح على قرابة وإلفة اللغة الروسية التي كان المنظرون العقائديون ينشدونها بالنسبة لغير الروس، لا بل كانوا يريدون تثبيت الميل باتجاه تحوّل طوعي إلى استخدام اللغة الروسية من قبل جميع الشعوب غير الروسية.

ومن ناحية التقييم الأيديولوجي السوفييتي لعملية التبدل اللغوي، لم يُعر المنظرون السوفييت أي اهتمام لاحتمال فقدان المناطق المعنية بالأمر لغاتها الأصلية وتم غض النظر عن هذه المأساة عند إجراء مناشدات عاطفية تشير إلى أن اللغة الروسية لم تكن البديل اللائق وحسب بل انها قادرة أيضا على أداء جميع الوظائف التي تركز على النواحي العاطفية تماما كما تفعله «اللغة الأم». إن هذا التحول

إلى اللغة الروسية المزين ايديولوجيا كان ظاهرة جماهيرية استهدفت إدماج الملايين من المواطنين السوفييت غير الروس.

حسب الاحصاءات الاثنية لعام 1970 اكتسب 13,0 مليون إنسان غير روسي (أوكرانيون، ملدافيون، لتوانيون وما شابه) الروسية كلغة أولى وهذه نسبة 11,6% من السكان غير الروس في الدولة الروسية السابقة، ولم تجر أقلمة هؤلاء المندمجين اجتماعيا عُبر الرمز الوطني لقوميتهم وللغتهم القومية بل عبر اللغة الروسية، وحتى عام 1979 ارتفع عدد المندمجين إلى 16,3% مليون (أي ما يعادل 14,4% من السكان غير الروس) وكانت غالبية المندمجين تعيش آنئذ في الجمهوريات السوفييتية غير الروسية والآن أصبحت الدول المستقلة المحيطة بروسيا موطنا جديدا لهم.

وعلي عكس التصورات المثالية التي كانت تعشش في عقول مخططي المجتمع السوفييتي، لم يتطور التغيير اللغوي إلى الروسية بصورة مستمرة ولا بمفعول منتظم، كانت ديناميكية الاندماج تعتمد على متغيرات مختلفة لا تزال قائمة في روسيا الحديثة. إن العوامل الرئيسية التي تتوفر عنها بيانات إحصائية اثنية هي التعيينية الاثنية وبيئة السكن والتفريق بين الجنسين.

ويمتلك الانتماء الاثني كعامل جماعي أهمية بالغة بالنسبة لدرجة التغيير اللغوي. في صفوف اليهود الاشكنازيين مثلا كان الاندماج في عام 1989 في اللغة الروسية قد بلغت نسبته 86,6%. وحتى بالنسبة إلى

الأقليات الوطنية الأخرى كالفنلنديين (54,6%) واليونانيين (51,4%) والألمان (50,8%) كان التغيير اللغوي قد شمل أكثر من نصف عدد هذه المجموعة الاثنية. وبالنسبة إلى القوميات الأكبر، تبلغ نسبة الاندماج أقل من الثلث (على سبيل المثال الروس البيض 28,5%، الشوفاشيون 23,3% والاوكرانيون 18,8%). ومن بين الشعوب التي أبدت مقاومة كبيرة للضغط الاندماجي الذي مارسته اللغة الروسية نذكر على سبيل المثال التتر (نسبة تغيير اللغة 16,1%) والبورجاتيون (13,6%) والغاغاوسيون (10,6%) مع إظهار قوميات أخرى معدلات منخفضة جدا (على سبيل المثال الشعوب القوقازية مثل اللاكن 15,1% والأباسيون 4,7% والانغوشيون 2,8%).

وتعتبر البيئة السكنية العامل الأكثر تأثيرا في دينامية الاندماج من وجهة النظر الإحصائية الاثنية. ويؤثر هذا العامل بصورة مستقلة عن الانتماء الاثني، أي ان التغيير اللغوي يختلف في جميع الاثنيات حسب محيطها (بيئتها) السكني. ففي معظم أرجاء الاتحاد السوفييتي السابق، أي في القسم الأوروبي في القوقاس وفي آسيا الوسطى وسيبيريا، تبلغ حصة الاندماج في صفوف سكان المدن أعلى بكثير من هذه النسبة في سكان الأرياف. هذا الاتجاه الرئيسي واضح للعيان في الاحصائية الاثنية لعام 1970 فقد واصل مسيرته نتيجة الظروف المحيطية الباقية على وضعها.

ومن الامور التي كانت واضحة للعيان أيضا في جميع أنحاء الدولة

السوفييتية السابقة ازدهار الضغط الاندماجي للغة الروسية في البيئات المدينية. وكان «ترويس» المدن في المناطق غير الروسية قد حقق تقدماً كبيراً في العديد من الأماكن في حين ان الظروف السائدة في المناطق السكنية الريفية كانت أكثر ملاءمة للمحافظة على اللغات الأم غير الروسية. ولم تكن الاتجاهات الاندماجية في الأرياف تؤثر إلا بصورة غير مباشرة. يمكن تفسير هيمنة اللغة الروسية في المدن بأنها جاءت من ناحية نتيجة نزوح المهاجرين الروس ومن ناحية أخرى تفضيل الروسية في بيئة العلاقات الاثنية المتبادلة - لم يتعلق هذا بالعلاقات القائمة بين الروس وغير الروس وحسب ولكن بين الجماعات غير الروسية المنتمية إلى اثنيات مختلفة.

وعلى عكس ادعاءات المنظرين العقائديين المتعلقة بالمساواة بين الرجل والمرأة في المجتمع السوفييتي، فإن النساء لم يكن متساويات أبدا في عالم العمل ولا في البنية الاجتماعية للدولة. ثم ان السلوكيات اللغوية للنساء كانت تختلف عن سلوكيات الرجال للتباين الكبير الموجود بين الجنسين، في ما يتعلق بالمحافظة على اللغة وكذلك في تبديل اللغة، علما بأن الإقبال على تغيير اللغة كان أقوى في صفوف الرجال منه في صفوف النساء، وعلى الرغم من أن بيانات الإحصاءات الاثنية الموجودة تحت التصرف لا تظهر اختلافا كبيرا في هذا المجال فإن الفجوة في أنواع الاندماج واضحة للعيان (على سبيل المثال لغة ماري 10% لدى الرجال مقابل 7% لدى النساء، اللغة السريانية - النسطورية 19% لدى الرجال مقابل 16% لدى النساء).

إن الاتجاه الواضح المنتشر في صفوف النساء للمحافظة على اللغة الأم قد تكون له علاقة بمزايا معينة في السلوك الاجتماعي نتيجة ميل النساء عادة لأداء الأدوار التقليدية، وكما يرى هبس Hubbs (1988) كانت التصورات ذات العلاقات بالتقاليد قد حددت تصرف النساء في أجزاء واسعة من الاتحاد السوفييتي السابق، وبصورة خاصة في المناطق الريفية التي لم تنتشر فيها طريقة التفكير السوفييتي في أي وقت من الأوقات بمقدار يستحق الذكر. ومن بين عينات هذا السلوك نذكر الإلمام القليل باللغة الروسية والمتأتي من قلة الحركية بسبب التقييدات الاجتماعية والمهنية. لهذا يمكن القول ان النساء في الاثنيات غير الروسية يحافظن على لغتهن الأم أقوى مما يفعله الرجال. وهن أقل ميلا من الرجال إلى استبدال اللغة الأصلية بلغة أخرى.

وتتأكد مثل هذه المراقبات العامة بواسطة البحوث الحقلية الانثروبولوجية. ومن الأمثلة على ذلك الاوضاع السائدة في صفوف شعب شانتن Chanten وهو شعب أوبغريني يعيش في غرب سيبيريا. ففي النظام الاجتماعي القائم على سلطة الأب يحافظ الناس على التقييدات التقليدية المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية للنساء على الرغم من الايديولوجية السوفييتية الداعية إلى تحرير المرأة.وخلال الفترة التي تلت العهد السوفييتي أعيدت الحياة إلى هذه التقييدات بالاعتماد الواعي على الإرث الثقافي المحلي. ولقد أشارت عالمة

انثروبولوجية أمريكية زارت في صيف عام 1976 في رحلة دراسية اثنوغرافية شعب شانتن في القسم الاسفل من نهر اوب Ob، إلى الخصال الإيجابية والسلبية لسلوك النساء المرتبط بالتقاليد (Mandelstam Balzer 1981: 862): «(..) تشارك الروح المحافظة النسوية بفعالية كبيرة للبقاء على قيد الحياة ثقافيا وللمحافظة على الهوية الاثنية. وتعكس الحياة النسوية في الحقيقة محدودية الامكانات المتاحة للنساء، (...) في حين ان الرجال حصلوا على أفضل الفرص مما يمكنهم في العلاقات الثقافية من التوصل إلى السلطة والارتقاء».

ويعيش القسم الأعظم من المندمجين في اللغة الروسية خارج روسيا وهم على الأغلب دون جنسية. وعلى غرار الروس المقيمين في الخارج يحاول المندمجون عبر تقديم امتحان اللغة والثقافة الحصول على جنسية البلد الذين يقيمون فيه. ومن النتائج التافهة اللاحقة التي تمخضت عنها السياسة السوفييتية تجاه اللغات هي فقدان الملايين من المندمجين لماء الوجه بعد أن كانوا في الماضي يعتبرون الرواد الحقيقيين للاندماج السوفييتي اللغوي الذي أصبحوا حاليا ضحاياه الحقيقيين. يمر المندمجون حاليا في أزمة هوية اجتماعية. على سبيل المثال يجب على شخص لتواني تعتبر الروسية لغته الأم تعلم اللغة اللتوانية أولا قبل الحصول على الجنسية اللتوانية علاوة على ما يجب تحمله من احتقار اللتوانيين الأصليين.

الانتقال من الثنائية اللغوية القديمة إلى الثنائية اللغوية الجديدة

أخذت عملية التخطيط اللغوي السوفييتي في مرحلتها المتأخرة على عاتقها تنفيذ المشروع الكبير لاندماج طويل المدى لجميع الشعوب السوفييتية داخل (أمة اشتراكية) (بالروسية: socialisticeskaja nacija) (Camerjan 1979). وكان هذا صنوا لتصور مثالي للأبعاد المستقبلية لمجتمع اشتراكي «متطور». أما العربة الثقافية التي كان على المجتمع الانتقال بواسطتها إلى الاتجاه المنشود فكانت تُدعى «الثنائية اللغوية الروسية الوطنية» (بالروسية: naciona'no russkoe dvujazycie): (Deseriev 1976).

وكان العامل الوطني في هذا المفهوم ممثلا بواسطة العديد من اللغات غير الروسية في الاتحاد السوفييتي أي بواسطة أكثر من 120 لغة اثنية موزعة على مختلف أرجاء البلاد. وكان ينتمي إلى ذلك جماعات لغوية قوية عدديا مثل الجماعة الاوكرانية (43:1989 مليون) أو الأزبكية (11:1989 مليون) وكذلك مثل اللغات الصغيرة (على سبيل المثال الفبسية: 12100 شخص، الكارامية: 530 شخصا، أو الإشورية: 300 شخص) وهكذا أراد المسؤولون جعل اللغة الروسية لغة ثانية مستقرة يستخدمها هؤلاء القوم من اللغات الاثنية المختلفة. كانت الثنائية اللغوية إرثا من روسيا القيصرية واستمر هذا النوع من الاتصال يواصل انتشاره منذ قيام الاتحاد السوفييتي.

مع هذا لم تكن الثنائية اللغوية ظاهرة جماهيرية قبل الحرب

العالمية الثانية وهو ما أراد أصحاب السلطة السوفييت تحقيقه حسب تصوراتهم. في المقام الأول تم التركيز في المناطق المتاخمة للدولة السوفييتية على دعم الثنائية اللغوية الروسية للوقاية من أي نزعات انفصالية. وكان الاهتمام الخاص للمخططين اللغويين ينصب على تطور الثنائية اللغوية في أذربيجان وبورجاتين وملدافيا ودول البلطيق.

من الناحية الرسمية كان هدف هذه العملية تشجيع اللغة الأصلية في هذه البلدان (اللغة الاثنية هي غير الروسية) بنفس قدر تشجيع الروسية كلغة ثانية. وكان التعليم المدرسي يركز في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة على اللغات الأم المحلية في حين ان اللغة الروسية كانت تتصدر الصفوف في المراحل الدراسية المتقدمة. وكان هذا ينطبق بصورة خاصة على التعليم الحرفي والجامعي.

لقد أعد التعود على الروسية، واستخدامها المستمر في قطاع التعليم أرضية خصبة أمام الإنسان السوفييتي ذي اللغتين لدخول عالم العمل الخاضع لسيطرة اللغة الروسية، وكذلك في الحياة الثقافية الواقعة أيضا تحت هيمنة اللغة الروسية. بهذا تحولت الثنائية اللغوية من خلال حملة الثنائية اللغوية الروسية الوطنية إلى ظاهرة جماهيرية وإلى عامل اجتماعي ذي أهمية كبيرة. وفي عام 1970 ادعى 41,8 مليون مواطن سوفييتي (ما يعادل 37,1% من جميع السكان غير الروس) انهم يتقنون الروسية كلغة ثانية وارتفع عددهم في عام 1979 إلى 61,2 مليون إنسان (ما يعادل 49,1% من جميع السكان غير الروس).

وفق التصورات النظرية للمنظرين الأيديولوجيين السوفييت كان على النمو المنتظم للثنائية اللغوية في صفوف السكان غير الروس ان يسهل شروط عملية الاندماج مع السكان الروس ورفع الاستعداد للاتصالات. وأخيرا وليس آخرا المساعدة على التهيئة لتحقيق المجتمع الشيوعي الموحد بواسطة استخدام اللغة الروسية لغة للاتحاد خلال فترة الانتقال إلى المجتمع السوفييتي الموحد اجتماعيا وثقافيا. ومع أن هذه المبادرة لم تكن مطروحة رسميا بهذا الشكل فإن العبء الأكبر لتحقيق مشروع الاتصال هذا وقع على كاهل غير الروس الذين كانوا يشكلون 49,1% (140 مليون) من سكان الدولة السوفييتية.

ولم يُطلب من الروس الذين كانوا بالكاد يمثلون الأغلبية بنسبة 50,9% (145,2 مليون) بذل أي جهود من أجل الاقتراب من اللغات الأخرى نظرا لأن الروس كانوا يتحدثون على أي حال اللغة (الصحيحة) التي كانت جميع الآمال المستقبلية للمجتمع معقودة عليها. ولم تُبذل أي مجهودات تطلب من المواطنين الروس السوفييت تعلم إحدى اللغات الاثنية غير الروسية.

وفي السبعينيات تطورت الثنائية الروسية الوطنية بادىء ذي بدء على خير ما يرام أما في الثمانينيات فبدأت ملامح الكساد تتزايد. وبدأت كل الدلائل تشير إلى أن الثنائية اللغوية لجميع السكان غير الروس كانت ستبقى يوتوبيا حتى عند استمرار الدولة السوفييتية في البقاء، ناهيك عن المخططات الايديولوجية القاضية بالتحول جملة

وتفصيلا إلى اللغة الروسية فقط. ومنذ الثمانينيات بدأت طاقات التخطيط اللغوي السوفييتي تتناقض. وقدم الاتجاه الاصلاحي لغورباتشوف المجال لتشجيع مصالح اللغات القومية غير المرتبطة باللغة الروسية. على أي حال إن بدائل غورباتشوف لتحقيق آفاق الدمقرطة والتعاون بين الروس وغير الروس قد أدت إلى أن العديد من غير الروس بدأوا يبتعدون عن قصد من اللغة الروسية كرمز للهيمنة الاثنية.

وينعكس هذا التباطؤ القوي لديناميكية الثنائية اللغوية فى الإحصاءات الاثنية السوفييتية. حيث كان ضعف دينامية التطور متواضعا لدى بعض الاثنيات غير الروسية. في حين انه كان منخفضا بصورة أقوى لدى الأغلبية. لا بل ان التطور كان تراجعيا لدى الآخرين وخاصة المجموعات اللغوية الصغيرة. يرجى مقارنة الأمثلة التالية:

	1970	1979	1989
أوكرانيا	%36,3	%49,7	%56,2
التتر	%62,3	%68,9	%70,8
البورجاتيون	%66,7	%71,9	%72,1
الموردوفينيون	%65,7	%65,5	%62,6
كومي	%63,1	%64,5	%62,2

وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي انعدمت الحاجة الفعلية في غالبية المناطق إلى الثنائية اللغوية الروسية الوطنية (اللغة الروسية + لغة

محلية أخرى) أما العامل المسؤول عن هذا التخلي دون بديل من هذا المشروع، الذي كان يعتبر أكبر مشروع لتخطيط اللغات في تاريخ عالم الدول الأوروبية فكان التحول من سياسة نشر اللغة الروسية المنمقة أيديولوجيا (Haamann 1992b) إلى احتكار اللغات القومية غير الروسية.

أدى احتكار اللغات الوطنية في الدول المحيطة بروسيا إلى إزاحة الثنائية اللغوية من الصعيد العام - الاجتماعي - كما كان الحال عليه خلال فترة الدولة السوفييتية - إلى الصعيد الشخصي. ثم ان الطريقة التي سيستخدم فيها أفراد الأغلبيات (على سبيل المثال الاستونيون في استونيا، الاوكرانيون في أوكرانيا إلى آخره) الروسية كلغة ثانية في المستقبل ستبقى مسألة خاصة بهم وليس من مهام المؤسسات التابعة للدولة كما كان الأمر عليه في الماضي في بعض البلدان مثل بلاروسيا أو قازاخستان لا تزال الروسية تستخدم وسيلة اتصال وطنية في الإدارة والحياة المهنية كذلك.

غير ان الثنائية اللغوية باتت مطلوبة بإلحاح من قبل الدول القومية الجديدة لعلاقة ذلك بالأقليات الجديدة وبصورة خاصة بالمجموعات الروسية المقيمة في الخارج نظرا لأنهم لن يستطيعوا الحصول على جنسية البلد الذي يقيمون فيه دون تعلم لغته. لكن هذه الثنائية اللغوية المعكوسة الاتجاه (على سبيل المثال الروسية كلغة أولية والاستونية كلغة ثانية) لم تتطور حتى الآن إلا في صفوف البعض من روس الخارج

نظرا لأن شروط مواجهتهم للتحول اللغوي في بلدان الموطن الجديد لم تكن ملائمة. من المجموع العام للسكان غير الروس مثلا كان يوجد في عام 1970 فقط 3,8 مليون إنسان (2% من جميع السكان الروس) يتقنون لغة اثنية غير روسية كلغة ثانية. ارتفع عدد الروس الذين يتقنون لغتين في عام 1979 إلى 4,8 مليون (3,5%) وارتفع في 1989 إلى 5,7 مليون (4%).

وعلى الرغم من أن النسبة المذكورة كانت أعلى في المناطق غير الروسية أي في مناطق روس الخارج الحاليين فإنها كانت أدنى من مستوى اللغتين في صفوف غير الروس (Arutjunjan 1992: 289 f.). أكثر من 30% من الروس المقيمين في لتوانيا وفي اوكرانيا وارمينيا لهم إلمام كاف بلغة هذه البلدان. في حين ان هذه النسبة تعتبر أقل في بلدان أخرى، إذ تصل في بعض الاحيان إلى 25% كما في بلاروسيا وجورجيا ولاتفيا وأقل من 15% في آذربيجان واستونيا وملدوفا. أما أكبر العوائق اللغوية فنجدها لدى الروس المقيمين في آسيا الوسطى، الذين لا يحسن لغة البلاد منهم سوى قلة ضئيلة من الناس: في أوزبكستان، طاجيكستان، تركمنستان وقرغيزستان تبلغ النسب أقل من 5%، لا بل إنها تصل في قازاخستان إلى أقل من 1%.

إن الثنائية اللغوية التي أصبحت في الدول المحيطة بروسيا بمثابة الشرط الذي لا بد منه Conditio sine que non لإدماج الروس ليست في طبيعتها سوى عودة مباشرة لطراز الثنائية اللغوية القديم. لقد انقلبت

الثنائية اللغوية الروسية الوطنية التابعة إلى الفترة السوفييتية إلى ضدها تماما: إلى ثنائية روسية - محلية.

حول البنية التحتية الاثنية للمجموعة اللغوية الروسية خارج روسيا

يعتبر موضوع المتغيرات المحلية اللغوية الجديدة التي تشكل فيها اللغة الروسية الجزء الأول من تكوينها (أي الثنائية اللغوية الروسية - الاستونية، الروسية - اللتوانية، الروسية - الأوكرانية وما شابه ذلك) أعقد بكثير مما قد يوحي به المصطلح المستعمل في هذا السياق فالجزء «روسي» ينطبق في كل مكان على الروس الذين تعتبر الروسية لغتهم الأم غير أنه يضم أيضا جماعات تتحدث اللغة الروسية على الرغم من عدم انتمائها إلى العرق الروسي. ومن بين الذين ينتمون إلى متحدثي الروسية كلغة أم نذكر الجماعات المدمجة (راجع أعلاه)، أي أولئك الناس غير الروس الذين كانوا قد تعلموا الروسية كلغة أولى خلال الفترة السوفييتية. ومن وجهة نظر السياسة اللغوية والتشريعات اللغوية في الدول القومية الجديدة تضطر الجماعات المندمجة من أصول استونية ولتوانية وأوكرانية أو من جذور أخرى مثل الروس إلى تقديم واجتياز امتحان اللغة والثقافة للحصول على جنسية البلد.

وهكذا فإن اللغة المشتركة تجعل كلا المجموعتين الاثنيتين المندمجين والروس يجلسون حاليا في قارب واحد وان كان الروس لا يعاملون الجماعات المندمجة في الكثير من الأماكن كالأنداد لأنهم

ليسوا روسا حقيقيين على الرغم من لغتهم الروسية ولذا فإن المندمجين هم المغلوبون على أمرهم أكثر من الروس أنفسهم.

في ضوء هذه المتغيرات يجب علينا أن ننتظر لنرى المدى الذي ستتعادل فيه قيم الاختلافات الاثنية وما يرتبط بذلك من تكاتف وتلازم وتضامن بين مختلف الجماعات اللغوية والاثنية. على أي حال يتواجد الناطقون باللغة الروسية الموجودون خارج روسيا على طريق تطور سيحصلون خلاله على ملامح اثنية معينة غريبة على الروح الروسية في روسيا .وهناك من يتحدث مثل لايتين Laitin (1995) عن هوية اثنية جديدة: «قومية تتحدث الروسية» Russian Speaking Nationality متنوعة الاثنيات.

ثم أن مجموعة الناطقين بالروسية الموجودة خارج روسيا ليست متنوعة حسب تركيبتها الاثنية وحسب، بل في ما يتعلق أيضا بالسلوك الاجتماعي في المراحل العمرية المختلفة. وعلى الرغم من أن الانعطافة السياسية في بداية التسعينيات مست جميع روس الخارج بنفس القدر، فإن ردود فعل الاجيال على ذلك كان مختلفا جداً، وبصورة عامة يمكن التأكيد على أن الشبيبة المولودة غالبيتها خارج روسيا أكثر مرونة ونشاطا من الكبار والمسنين فيما يتعلق بمتطلبات المجتمعات المحلية غير الروسية.

يعاني الكثير من الروس الذين قطعوا الخمسين من العمر الأمرين من مشاكل التأقلم ولا يجدون أي حافز يحثهم على تعلم لغة البلاد

وتقديم طلب الحصول على جنسية البلد. وهؤلاء الناس يوجهون نظرهم إلى الشروط المعاشية (محدودة حاليا) ذات العلاقة بنهاية عمر العمل والوصول إلى سن التقاعد في حين ان ممثلي الجيل الجديد يرون ان تعلم لغة البلاد سيعود عليهم بالنفع ويساعدهم على الارتقاء الاجتماعي والثقافي.وفي دول البلطيق هناك محفزات خاصة تتمثل في العضوية المرتقبة في الاتحاد الأوروبي وتوسيع السوق الأوروبية البينية باتجاه أوروبا الشرقية.

أما الروس الكبار في السن الذين لا يستطيعون التأقلم مع معطيات مجتمع الاقتصاد الحر فيجب عليهم التفكير في انهم سيحسبون في المستقبل القريب على الأقليات المهضومة الحقوق، ليس لغويا وثقافيا وحسب، بل اجتماعيا أيضا. لذلك نرى الكثير من الروس الكبار يهاجرون بأعداد كبيرة عاما بعد عام من الدول القومية الجديدة المتاخمة لروسيا في حين ان الاجيال الجديدة أكثر فعالية في توجهها نحو الغرب ولا تهتم كما يبدو بالهجرة إلى روسيا.

إن آفاق التطور الاقتصادي الايجابي وخاصة في الدول الأوروبية المحيطة بروسيا يحقق وزنا معادلا للعلاقات الثقافية الطبيعية مع الروح الروسية عبر حدود الدولة، ويمر طريق الشباب الروسي نحو مستقبل اجتماعي مستقر عبر التنافس مع السكان المحليين في مجتمعاتهم الجديدة (الاستونيون، اللتوانيون، الاوكرانيون، و ما شابه) وليس عبر الاندماج في الموطن الاصلي لآبائهم وأجدادهم.

تشبه حالة الشباب من روس الخارج حالة العمال البولنديين الذين نزحوا خلال بحثهم عن العمل إلى منطقة الروهر الصناعية في ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى وبعد مرور جيلين على أقصى حد انصهر هؤلاء المهاجرون البولنديون وذريتهم من بعدهم لغويا وثقافيا داخل المجتمع الألماني المحيط بهم مستخدمين وسيلة الاتصال اللغوية الثنائية البولونية - الألمانية. ان الغالبية العظمى من بولنديي الخارج لا يتكلمون حاليا إلا الألمانية ولا يستطيع المرء معرفة أصولهم البولندية إلا عند سماع ألقابهم العائلية.

هناك طريق مشابه للتثقيف و الاندماج تبدو ملامحه بالنسبة إلى روس الخارج الراغبين بالاندماج كما أن وسيلة الاتصال المتمثلة في الثنائية اللغوية الروسية - الوطنية الآخذة بالتطور (على سبيل المثال ثنائية لغوية روسية - استونية) تتحول قدر الامكان في الجيل التالي إلى ثنائية لغوية استونية - روسية أو أنها تتحول إلى لغة وطنية واحدة (على سبيل المثال اتقان الاستونية فقط من قبل «الاستونيين الجدد» من أصل روسي).

الفصل الخامس

عائلة كبيرة؟
أوجه القرابة اللغوية التاريخية وطراز البنية اللغوية وديناميكية التقارب ونشوء لغات الكرييول

لقد تمكن الإنسان الحديث (Homo sapiens) منذ بدايات إبداعاته الثقافية من تطوير العديد من الأعمال الرمزية التي لم تكن بمقدور سلفه، الإنسان القديم (Homo neandertalensis) تطويرها أبداً. وكانت اللغة، كأهم نظام للعلامات التي استخدمها الإنسان، معقدة للغاية منذ البداية. وعلى الرغم من عدم توفر أي وثائق تتعلق بلغة الإنسان من مرحلة التطور المبكرة (50000 حتى 12000 سنة قبل الميلاد)، فإنّ مقارنة اللغات المحلية الموجودة في الثقافات التقليدية المنتشرة في أرجاء العالم تُشير إلى عدم وجود ما قد يشبه وضع لغوي «بدائي» في مجتمعات الإنسان الحديث.

وحتى اللغات التي تستخدمها حالياً الجماعات البدائية (مثل فيدا Veddah في سريلانكا أو سمانج Semang في ماليزيا) لا تتميّز بتراكيب «بدائية»، بل إنها ذات بنية متعددة الطبقات. يتعلق هذا بالنظام

الصوتي والبناء النحوي أو المفردات. وفي لغات أقوام لم يروا المدينة في حياتهم أبداً، نجد بنية معجمية معقدة للغاية يتم بموجبها مثلاً وصف الظواهر الطبيعية والطبيعة وما تحتويه من نباتات.

وبالمقارنة مع الآخرين، أي مع الأنواع الأقدم من البشر، استطاع النوع الجديد من الإنسان، من الناحية البيولوجية، تحقيق طفرة في التطور إلى درجة أنّ لغة ممثلي هذا النوع البشري كانت نظاماً منظماً يعمل حسب مخططات إنشاءات معقدة. لقد تمكنت إنجازات دماغ الإنسان الحديث من تحقيق الشروط البيولوجية اللازمة لذلك (Deacon 1997). ثم إنّ التفكير المعقد الذي يتضمن القدرة على التخطيط للمستقبل وإقامة عالم أفكار مجرد، لم يكن متاحاً تماماً للإنسان النياندرتالي نظراً لأنّ دماغه كان لا يزال يفتقد إلى الفص الأمامي الموجود خلف الجبهة. وهذا القسم من الدماغ يمكّن البشر من تحقيق الإنجازات التنظيمية الرفيعة. ونتيجة لقدرة التفكير المحدودة، كان تواصل الإنسان النياندرتالي مقصوراً على الأمور العادية.

وإذا لم يكن يوجد بين لغة الإنسان الحديث ولغة الإنسان القديم (النياندرتالي) التي كانت في الواقع تستحق صفة «البدائية»، الكثير من العوامل المشتركة، فهل يحق لنا أن نفترض بأنّ جميع لغات الإنسان الحديث تعود إلى لغة مشتركة واحدة موغلة في القِدَم؟ وترتبط القدرة على اللغة بمتانة بوجود الإنسان إلى درجة أنّ كفاءة الإنسان على استخدام العلامات اللغوية، والموجودة في العديد من الأماكن

المختلفة من العالم المسكون آنئذ من قبل إنسان العصر الحجري، كان يفترض أن تطور مثل هذه العلامات بصورة مستقلة عن بعضها البعض. يعني هذا أنّ اللغات المعروفة لا يجب أن تعود بالضرورة إلى منشأ مشترك. وهكذا فإنّ نظرية وحدانية المنشأ Monogenese تقابلها نظرية تعدد المناشىء Polygenese.

مع هذا لم يجرِ حتى الآن دحض هذه النظرية أو تلك؛ وما دامت الأمور ستبقى معلقة على هذا المنوال، فإنّه لمن المعقول جداً أن نتقصّى جميع مصادرِ البحوث المتعلقة باللغة من أجل تحديد المسارات، أي البحث في تنوّع اللغات عَبْر التاريخ، وفي الوقت الحاضر من ناحية العلاقات الوطيدة وعلاقات القرابة المحتملة بينها، والبحث في طراز بنية اللغات في جميع أنحاء العالم وفق مختلف أنواع المبادىء والنظم والاستعانة بمسألة العلاقات التي يصبح من زاوية نظرها قيام نظام لغوي جديد مفهوماً، مثل لغات الكرييول على سبيل المثال (أنظر الفقرات التالية).

وفي تاريخ علم اللغة نرى أنّ مجالات العمل والاختصاص مفصولة عن بعضها البعض منذ زمن طويل وإنْ كانت موضوعاتها التي تحتاج إلى فحص وتمحيص لا تتطلب في الواقع مثل هذا الفصل. ويقوم علم اللغة المقارن ببحث قرابة اللغات وفق وجهة نظر السلالات. لقد أخذت طوبولوجيا اللغة (علم أنماط اللغة) من بنية اللغة وتقنياتها موضوعاً للبحث، والتي يجري بموجبها تنظيم جوهر اللغة (مواد اللغة مثل نظام الصوت، المورفولوجيا (علم بناء الكلمة)، وتركيب الجملة

والمفردات). ومن الناحية المبدئية، يعمل البحث الطوبولوجي بصورة مستقلة عن العلاقة السلالية. ومن ناحية أخرى فإنّ العديد من مجموعات اللغات القريبة من بعضها البعض مرتبطة مع طُرز معينة من اللغة (مثل اللغات الهندية - الأوروبية ذات الطراز الصرفي flektierender Typ، أو اللغات الأورالية ذات الطرز المتجمعة (لغات ملتصقة) agglutinierender Typ، أو لغات الهنود الحمر في أمريكا الشمالية ذات الطراز المندمج inkorporierender Typ، أو اللغات الصينية ذات الطراز العازل isolierender Typ.

تمّ التعرّف مبكراً على حقيقة التأثير المتبادل الذي تمارسه اللغات المتقاربة جغرافياً. فبواسطة البحوث المتعلقة بمناطق اللغات وبالاتصالات اللغوية الجارية على نطاق عالمي، تم خلال العقود المنصرمة وضع نموذج الفصل بين علم اللغة القائم على المقارنات التاريخية وعلوم اللغة المعتمدة على الناحية الطوبولوجية، موضع التساؤل، وحتى علم لغات الكرييول شارك بقسطه في التغلب على التصنيفات التقليدية للغات.

حول القرابة بين اللغة والسكان

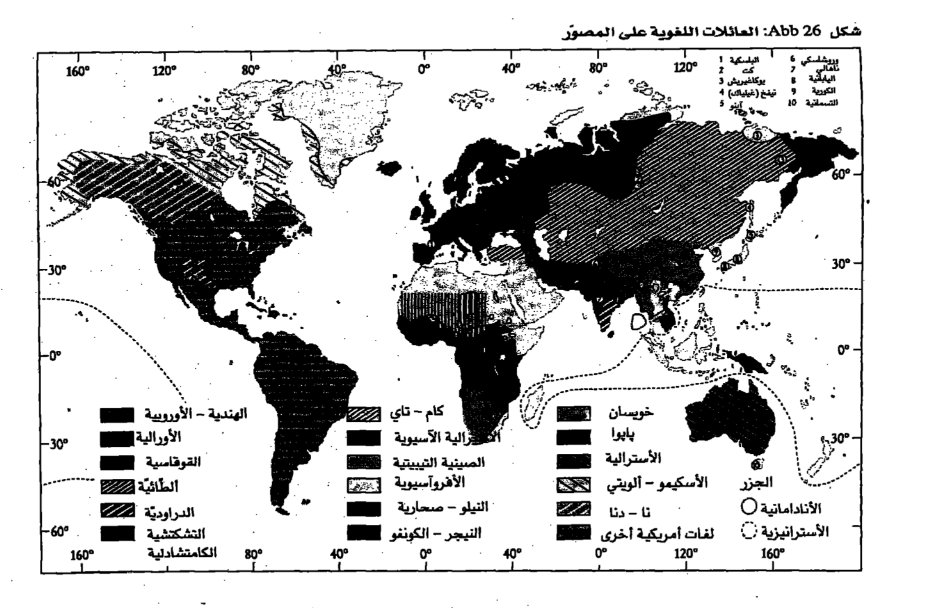
يتجمع التنوع اللغوي في العالم في عشرات من المجموعات الكبيرة (الأُسر اللغوية). التي تتفرع بدورها إلى مجموعات ثانوية عديدة (راجع الشكل 26). ويبلغ عدد المجموعات الكبير 64 مجموعة يتبعها على الأقل 4 مجموعات أخرى (على سبيل المثال يانومام Yanomam)

ولغاية 1436 لغة مفردة كحد أقصى (النيجر – كونغو). علاوة على ذلك تضم ذخيرة اللغات على صعيد عالمي أكثر من مائة لغة معزولة، أي تلك التي لا يمكن التدليل بالتأكيد القاطع على نوع قرابتها مع لغة أخرى من لغات العالم (Girmes/Grimes 1996).

إنّ مثل هذه اللغات المفردة المعزولة ليست لغات أقلية كلغة الباسك في أوروبا، وبوروشاسكي في الهمالايا وآينو في اليابان، بل إنها لغات تتحدثها في الواقع أعداد كبيرة من الناس كاليابانية والكورية. وربما ترتبط الكورية بعلاقة قرابة بعيدة مع أُسرة اللغات الطّائية التي تضم اللغات التركية والمغولية والمنشورية والتنغوسية، ولا تزال الافتراضات القائلة بوجود علاقة بين اليابانية واللغات الطّائيّة متنازع على صحتها (Miller 1996).

ومن بين الأسر اللغوية العديدة في العالم هناك أُسر لغوية قليلة جداً تستثير الانتباه كثيراً نتيجة الأعداد الكبيرة من الناس الذين يتحدثونها (راجع الشكل 27). ومن بين هذه الأُسر اللغوية نذكر أُسر لغات النيجر – الكونغو (1436 لغة)، والأسترانيزية التي تضم (1236 لغة)، والهندية الأوروبية (418 لغة)، والأفروآسيوية (371 لغة)، وأسرة اللغات الصينية التيبيتية (360 لغة). ويبلغ العدد الإجمالي للغات المعنية 3821 لغة التي تشكل 60% من جميع اللغات المفردة في العالم، لكن نسبة عدد الناطقين بلغات هذه المجموعة الخماسية الكبيرة من الأُسر اللغوية تبلغ 98% من سكان العالم.

شكل Abb 26: العائلات اللغوية على المصوّر



الشكل 27: نظرة عامة على أُسر اللغات في العالم

عدد اللغات المفردة	الأسر اللغوية	
أكثر من 1000	لغات النيجر - كونغو (1436 لغة) الأسترالنيزية (1236 لغة)	
100 - 1000	ترانس غينيا الجديدة (539 لغة) اللغات الهندية الأوروبية (418 لغة) اللغات الأفروآسيوية (371 لغة) اللغات الصينية - التيبيتية (360 لغة) الأسترالية (257 لغة) النيلو - صحارية (194 لغة)	
10 - 100	التسمية	مناطق الانتشار الرئيسية
	الألفية (33)	كندا، الولايات المتحدة الأمريكية
	الطائيّة (65)	أوراسيا (الأجزاء الأوروبية من روسيا، سيبيريا)، تركيا، آسيا الوسطى، شمال الصين
	الأندامانية (13)	الهند
	الأراواكية (74)	القسم الشمالي من أمريكا الجنوبية، الكاريبي
	شيبشا (22)	إكوادور، كولومبيا، باناما، كوستاريكا
	شوكو (10)	كولومبيا، باناما
	دايش (68)	الصين، فيتنام، لاوس، تايلاند، ميانمار، الهند
	الدراويديش (78)	الهند، الباكستان، النيبال
	اسكيمو - أليوتي (11)	شرق سيبيريا، آلاسكا، كندا، غرونلاند
	غيلفينغ بي (34)	إندونيسيا (أريان جايا)
	همونغ - مين (32)	الصين
	هوكا (27)	الولايات المتحدة الأمريكية، المكسيك
	الكاريبية (29)	البرازيل، كولومبيا، فنزويلا، غويانا
	خويزان (35)	جنوب أفريقيا، بوتسوانا، ناميبيا، أنغولا، تنزانيا
	ماكرو - غي (32)	البرازيل
	ماتاكو - غوايكورو (11)	البرازيل، الأرجنتين، بورغواي
	مايا (68)	المكسيك، غواتيمالا
	ميكس - زوغ (16)	المكسيك

	نا – دنا (42)	كندا، الولايات المتحدة الأمريكية
	القوقازية الشمالية (34)	روسيا
	شرق – پاپوا (36)	پاپوا – غينيا الجديدة، السولومون
	پانوا (29)	البرازيل، بيرو، بوليفيا
	پنوتي (27)	الولايات المتحدة الأمريكية، كندا
	كويشوا (47)	بيرو، إيكوادور، كولومبيا، بوليفيا، الأرجنتين، تشيلي
	السالية (27)	كندا، الولايات المتحدة الأمريكية
	سيوكس (17)	الولايات المتحدة الأمريكية
	توريتشلي (48)	پاپوا – غينيا الجديدة .
	توتوناكية (11)	المكسيك
	توكانو (26)	كولومبيا، البرازيل
	توپي (70)	البرازيل، برغواي، بيدو، بوليفيا
	أورالية (34)	فنلندا، آيسلندا، روسيا الوسطى، هنغاريا، غرب وشمال سيبيريا
	أوتو – أزتيكية (60)	الولايات المتحدة الأمريكية، المكسيك
	غرب – پاپوا (27)	إندونيسيا (أريان جايا)
أقل من 10 + لغات معزولة	الكالوف، عمتو – موسى، الآراوكانية، آروتاني – ساپا، آيامارپا، بارباكو – پيس، باس كيش، كادو، كاهواپان، تشاپاكورا – فانهام، شيماكو، شون، شوكوتو – كامشاتكا، كوآهولتيكيش، إيست بردس هيد، غولف، هويف، إيروكيسيش، اليابانية، كاتوكينا، كيريس، كيووا تانو، كوومتاري – باي باي، لفت ماي، لولا – فيليلا، ماكو، ماسكوي، ميسومبالا، موسيتينا، مورا، موسكوغي، نامبيكوارا، پيا – ياغوا، ساليف، سكو، القوقازية الجنوبية، سوبتيآبا – تلابانيك، تاكان، أورو – شيبايا، واكاش، ويتوتو، يانومام، يوكاغيريش، يوكي، زاموكو، زاپارو.	

وباستثناء اليابانية يمكن إرجاع لغات العالم ذات المنشأ الأوروبي أو المنشأ الآسيوي إلى إحدى هذه المجموعات الكبيرة، ناهيك عن أنّ غالبية لغات الملايين تنتمي إلى هذه الدائرة اللغوية. ومن ناحية أخرى توجد في هذه المجموعات الخمس المرتبطة بعلاقات جينية، لغات من كافة الأحجام، ابتداء بالصينية العملاقة ولغاية اللغات القزمة التي لا يتجاوز عدد الناطقين بها ألف إنسان (على سبيل المثال اليهودية - البربرية في إسرائيل، وآرغوبا في أثيوبيا وفدا في سريلانكا).

تعتمد تسمية أربع من هذه الأُسر الخمس الكبيرة على معايير جغرافية. وتعتبر الأسرة الصينية - التيبيتية حالة استثنائية تشير تسميتها إلى علاقة تاريخية مع لغات أخرى والتي تنقسم إلى فرع تنتمي إليه اللغة الصينية وغيرها من اللغات ذات القرابة، وكذلك إلى فرع تيبيتي تشكّل فيه اللغة التيبيتية الممثل الرئيسي.

ومن الشروط اللازمة لتحديد العلاقات التاريخية اللغوية هو توفر مواد للمقارنة يجري استخلاصها من أكبر قدر ممكن من اللغات المفردة، كما وضعت أسس ذلك منذ العصور الوسطى. لكن مجموعات اللغات كانت حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر تظهر فجوات، علماً أنّ تفكير الباحثين كان ينوء تحت أعباء العقيدة الكنسية القائلة بأنّ العبرية هي أم جميع اللغات لأنها اللغة المقدسة للإنجيل.

بدأت المحاولات الأولى لتوثيق لغات العالم في العصور الوسطى. (Bonofante 1954) في حينه لم تكن أوروبا تعرف سوى لغات العالم

القديم، حيث نعثر على أكبر المعلومات ذات الصلة عند رودريغو خمينيس دي رادا Rodrigo Jiménez di Rada الذي صنّف لغات أوروبا في الفصل الأول من كتابه De rebus Hispaniac الصادر عام 1243، والذي أكد فيه خمينيس دي رادا على ثلاث مجموعات رئيسية هي اللغات الرومانية، واللغات السلافية والجرمانية، إضافة إلى لغات أخرى عديدة من بينها أيضاً الإيرلندية والهنغارية والباسكية.

ويعود الفضل في إجراء التصنيف الأول للغات الرومانية romanic ويضمن ذلك اللغة الرومانية roumanian إلى شخص إسباني آخر هو آندريس دي پوزا (Andrés De Poza, La antigua lengua, poblaciones, y Coseriu 1975). في كتابه الصادر عام 1587، قدّم المؤلف المذكور نظرة شاملة على لغات أوروبا كانت أوسع بكثير مما قدمه خمينيس دي رادا. وهكذا بقيت الأمور على حالها حتى القرن الثامن عشر الذي شهد صياغة تصنيف أكثر دقة للغات أوروبا.

ظهرت القوائم الأولى للغات التي تم فيها مراعاة أعداد كبيرة من اللغات الموجودة خارج النطاق الأوروبي بعد مرور عقود قليلة جداً على اكتشاف كولومبوس أمريكا في عام 1492، مما جعل الناس في أوروبا ينتبهون للمرة الثانية في تاريخهم إلى أمريكا وسكانها. إلا أنه عندما يتحدث الناس تقليدياً عن «اكتشاف أمريكا من قِبَل كولومبوس» فإنّ هذا تشويه تاريخي لأنّ الفايكنغ Viking كانوا منذ نهاية القرن العاشر وحتى القرن الرابع عشر يجوبون بسفنهم

المناطق الساحلية الواقعة في الشمال الشرقي من أمريكا (فيلاند Viland، ماركلاند Markland) (Wahlgren 1993).

إن اكتشاف المناطق الأمريكية على يد الإسبان والبرتغاليين، وفي وقت لاحق الهولنديين والإنجليز والفرنسيين، وفتح الطرق البحرية إلى آسيا، وسّع أفق معارف الأوروبيين ومعلوماتهم عن اللغات الموجودة خارج النطاق الأوروبي (حول مجموعات الدراسات عن اللغات الأفريقية قبل القرن التاسع عشر راجع Foder 1975). وفي سجلات المسافرين الأوروبيين والمبشرين العاملين في المناطق الكولونيالية، تم جمع الكثير من المواد المتعلقة بثقافات ولغات المناطق الواقعة عبر البحار وإن كانت غير منتظمة ومبعثرة.

ومن بين المشاريع المبكرة الهادفة إلى تصنيف لغات العالم وجمعها في كاتالوجات خاصة يمكن ذكر عمل تيودور بيبلياندرس Theodor Biblianders (omnium linguarum De ration communi) الصادر عام 1548 وكتاب كونراد غسنرس (Mithridates) Conrad Gesners الصادر عام 1555. أعتمد غسنرس فيما جمعه من مواد عن اللغة على ترجمات الصلاة الربانيّة (أبانا الذي في السموات، ليتقدس أسمك، ليأت ملكوتك، ليكن ما تشاء، في الأرض كما في السماء، أرزقنا اليوم خبز يومنا، واعفنا مما علينا، فقد أعفينا نحن أيضاً من لنا عليه، ولا تعرضنا للتجربة، بل نجنا من الشرير، فإن تغفروا للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوي وإن لم تغفروا للناس لا يغفر لكم أبوكم زلاتكم.

إنجيل متى 6 :8-15 – المترجم). كانت هذه الطريقة المتعلقة بجمع المواد عن عدد كبير من اللغات ناجحة جداً في تاريخ بحوث اللغة.

وفي عام 1713 كتب جوتفريد فيلهلم فون لايبنيتس Gottfried Wilhelm von Leibniz (1716 - 1646) الذي كان يهتم كثيراً بلغات أوروبا الشرقية وسيبيريا، رسالة إلى الإمبراطور بطرس الأول يقترح عليه فيها القيام بتجميع واسع النطاق لجميع اللغات الموجودة في روسيا، وهو مشروع أُريد له التماشي يداً بيد مع عملية تنصير شعوب روسيا. من أجل تحقيق هذا الهدف رأى العلاّمة والفيلسوف لايبنيتس أنّ الصلاة الربانية كانت ملائمة بصورة متميّزة لتجميع النصوص بلغات مختلفة (Andelung 1815: v f).

وحصلت مقارنة اللغات الحديثة مع اللغة العبرية على دفعة كبيرة إلى الأمام إثر صدور الدراسة النحوية الكاملة للغة الكتاب المقدس من إعداد يوهانّس رويشلين Johannes Reuchlin في عام 1506 في بفورتسهايم (Percival 1992: 154). وعلى الرغم من تضارب الآراء والمزاعم المتعلقة بالقرابة الجينية بين اللغات والمقارنة المتحذلقة بين العديد من الكلمات باللغات اللاتينية واليونانية والعبرية، لم يستغرق الوقت طويلاً حتى عرف علماء جادون أفاضل بأنّ اللغات الأوروبية ليس لها علاقة قرابة مع اللغة العبرية. أحد هؤلاء العلماء الذين ساعدوا في التغلب على مطبات العقيدة الكنسية في هذا الصدد كان الفيلسوف لايبنيتس.

ولم تحدث أي محاولة جادة لتصنيف اللغات حسب علاقة القرابة إلاّ في القرن الثامن عشر، عندما تم جمع الكثير من المواد الجديدة التي لم تكن متوفرة حتى ذلك الحين وتصنيفها في مجموعات لغوية كبيرة تعتمد عليها أيضاً المجموعات الأولى من الأُسر اللغوية، علماً أنّ رائد هذه الملاحظات اللغوية القيّمة الشاملة كان لورنسو هرفاش إي پانديرو Lorenzo Hervàs y Pandero الذي تطرق في موسوعته اللغوية الكبيرة (Catalogo delle lingue.. 1784) كأول شخص إلى إمكانات المقارنة النحوية بين اللغات، خاصة وأنّ المجموعات اللغوية المعاصرة التي كانت تركز حصراً على مقارنات معجمية للغات كانت أقل نجاحاً. ينطبق هذا على كتاب Totius orbis vocabularia comparativa الذي نشره پيتر سيمون پالّلاس Peter Simon Pallas في عام 1789/1786.

ويعتبر صاموئيل جيارماتي Sàmuel Gyarmathi (1751 - 1830) الذي برهن في دراسته الكلاسيكية Affinitas linguae hungaricae cum linguis fennicae originis grammatice demonstrata الصادرة في عام 1799 على القرابة بين اللغات الهنغارية والفنلندية والزاميّة وغيرها من اللغات الفنلندية – الهنغارية، أول من وضع منهج مقارنة اللغات على قاعدة تعتمد أسلوب مقارنة التراكيب النحوية. ولم يحقق جيارماتي بذلك الشروط المنهجية المطلوبة لعلوم اللغة الهنغارية (بفرعيها الرئيسيين فينو – أوغريستيك Finno - Ugristik وساموديستيك Samojedistik) وحسب، وإنما بالنسبة لعلم اللغات المقارن بصورة عامة. على أي حال لقد ظهرت الدراسة الرائعة التي أعدها جيارماتي بسبعة عشر عاماً قبل نشر كتاب

Über das Conjugationssystem der Sanskritsprache in Vergleichung mit ،jenem der grechischen, lateinischen, persischen und germanischen Sprachen (حول نظام تصريف الأفعال في اللغة السنسكريتية بالمقارنة مع التصريف في اللغات اليونانية، واللاتينية، والفارسية، والجرمانية) في عام (1816) لمؤلفه فرانتس بوبّ (1791 - 1867) Franz Bopp الذي أسس به دراسة العلوم الهندية الجرمانية indogermanistik.

تعود تسمية اللغات الهندية الجرمانية إلى القرن التاسع عشر. وفي تقاليد اللغوية الألمانية أنّ جزئي التسمية يشيران إلى محيط منطقة انتشارهما؛ المحيط الشرقي (الهندي indo) والمحيط الغربي (جرماني germanisch). وإذا ما أراد المرء تطبيق هذا المعيار بصورة دقيقة لكانت هذه الأسرة اللغوية ستحصل في الواقع على تسمية «هندية كلتية indokeltisch»، عند مراعاة الحالة في القسم الأقصى الشمالي من أوروبا حيث تنتشر اللغات الكلتية وليس الأوروبية، لا بل وحتى إطلاق تسمية «هندية رومانسية indoromantisch»، عليها إذا ما فكرنا في شبه جزيرة إيبيريا جنوب جبال البيرنة في الجنوب الغربي. ويستطيع المرء في المصطلحات اللغوية الألمانية الحديثة التأكد من وجود اتجاه لمعادلة التسميات الدولية: بالألمانية indoeuropäisch المعادلة لعبارة Indo - European بالإنجليزية، وindo-européen بالفرنسية، أو indoevropejskij بالروسية.

منشأ اللغات الهندية الأوروبية هو أوروبا الشرقية، وبصورة أدق المنطقة الواقعة بين أودية نهر الفولغا وروافده الجنوبية وبين نهر

الدون. من هنا انطلقت القبائل الهندية - الأوروبية باتجاه الغرب والشرق (Martinet 1994: 34f). وبواسطة نزوح الأوروبيين وتصدير اللغات الأوروبية إلى المناطق الواقعة عبر البحار منذ القرن السادس عشر وكذلك نتيجة لاستعمار مناطق واسعة من العالم، انتشرت اللغات الهندية - الأوروبية بأساليب مختلفة وكلغات رئيسية أو ثانية ولغات تعليمية أو رسمية ولغات تجارية أو عالمية إلى جميع بلدان قارات العالم. وفي الوقت الحالي يعيش معظم الناطقين باللغات الهندية - الأوروبية في ثلاث مناطق كبيرة هي أوروبا، وغرب وجنوب آسيا (من إيران إلى بنغلاديش وسريلانكا) وقارة الأمريكتين (خاصة الجماعات الناطقة بالإنجليزية والإسبانية والبرتغالية).

وتعود تسمية أسرة اللغات الأفرو آسيوية afroasiatisch إلى غرينبرغ (Greenberg 1963 b). ولم تكن هذه المجموعة الجينية بفروعها الخمسة الرئيسية معروفة حتئذ بعلاقات القرابة الموجودة بينها. ففي البحوث القديمة تأتي الإشارة الى اللغات الحامية - السامية hamitisch-semitisch، علماً أنّ الحامية تضم المصرية القديمة والقبطية الحالية. وفي الخمسينيات أضيفت البربرية والكوشية (لغة تابعة إلى اللغات الحامية - المترجم). علاوة على ذلك أضاف غرينبرغ لغات التشاد.

ولا يتعلق النزاع الدائر حول اللغات الأوموتية omotisch في الواقع بضم محتمل لمجموعة أخرى من اللغات لم تكن معروفة حتئذ على أنها مجموعة أفرو آسيوية، بل بمسألة فصل اللغات الكوشية إلى

مجموعتين هما الكوشية والأوموتية. وهنا دلائل قد تعيق ضم اللغات الأوموتية إلى الأسرة الأفروآسيوية وفروعها كمجموعة تابعة للغات النيجر - الكونغو (من أجل الحصول على مزيد من المعلومات عن تاريخ البحوث في هذا المجال راجع Sasse 1981).

اللغات الأفرو آسيوية منتشرة في الشمال الأفريقي بأسره. وعبر الجسر الجغرافي لوادي النيل تشق منطقة نتشار هذه اللغات أسفينا عميقاً باتجاه إفريقيا السمراء. ويمتد فرع اللغة السامية الى قلب آسيا الوسطى. ونجد اقصى ممثل للغات السامية في الشمال في الآشورية الجديدة Neuassyrisch (Aisor)، وهي آخر فرع حي من اللغة الآرامية (Hoberman 1992: 98). وهناك جماعة صغيرة من الناطقين بلغة آيسور Aisor موجودة في الشمال الغربي من المنطقة الروسية من القوقاس. وأدت الدياسبوره (الشتات اليهودي) إلى انتشار العبرية كلغة دينية في بلدان العالم. كما أنّ موجات الهجرة من البلدان العربية قد زرع في أوروبا أنواعاً مختلفة من العربية كلغة محكيّة وكلغة للدين الإسلامي (لغة القرآن).

وتنتمي أسرة اللغات الصينية - التيبيتية إلى أكبر المجموعات اللغوية من ناحية متكلميها نتيجة الأعداد الكبيرة من الصينيين الذين يتحدثونها. وتولد التسمية التقليدية لأسرة هذه اللغات الإنطباع وكأنّ هناك تقسيم ثنائي، في حين أن ضروب اللغة الصينية هي في الواقع مستقلة بذاتها كمجموعة تقابلها سلسلة من المجموعات الندية لها مثل كام - تاي kam-Thai، مياو - ياو Miao - Yao والفرع التيبيتي

البورمي بتفرعاته العديدة (De Lancey 1992). وتشكل منطقة شرق اسيا وجنوب شرق اسيا المنطقة الرئيسية لانتشار اللغات الصينية التيبيتية، وهي منطقة أوسع من منطقة الانتشار التاريخي للغات الهندية - الأوروبية (أي دون مراعاة انتشار اللغات العالمية الأوروبية منذ بداية العصر الجديد) أو الانتشار الحالي للغات الأفروآسيوية.

ومن بين الأُسر اللغوية المذكورة هنا، لا تعتبر الصينية - التيبيتية، والأفروآسيوية، والهندية - الأوروبية أكبر المجموعات في عدد الناطقين بها وحسب، بل إنها الأغنى في تراثها الحضاري. فغالبية اللغات الثقافية القديمة في العالم تنتمي إلى أحد الأُسر اللغوية الكبيرة الثلاث المذكورة. على سبيل المثال انتماء اليونانية واللاتينية والسنسكريتية إلى اللغات الهندية - الأوروبية. ومن أقدم اللغات الأفروآسيوية تراثاً هي اللغة الثقافية الأكدية التي كانت موجودة في بلاد وادي الرافدين، إضافة إلى مراحل تطورها الأجد إلى الآشورية والبابلية التي أثرت جميعها على المدى الطويل على ثقافات الشرقين الأدنى والأوسط. وهناك لغات قديمة أخرى مثل المصرية القديمة، والعبرية، والآرامية التي تنتمي إلى الأسرة الأفروآسيوية وكذلك العربية كاللغة الثقافية الأحدث. وفي دائرة اللغات الصينية - التيبيتية نذكر الصينية والتيبيتية مصدراً لجميع التقاليد الحضارية القديمة في آسيا.

ومنذ القرن التاسع عشر والبحوث اللغوية العلمية تتحفنا بالمزيد من المعارف حول علاقات القرابة بين اللغات. من ناحية توسعت

بانوراما أسر اللغات. ومن ناحية أخرى تم تحديد تجمعات داخلية (Ruhlen 1987). وبالتوازي مع هذه المساعي تكررت محاولات تقفي آثار القواسم المشتركة في اللغات. وتعتبر الغلوتوغونيا Glottogonie من أشهر الاتجاهات البحثية التي تتقفى مناشىء اللغات التاريخية التي يتمحور استفسارها الرئيسي حول احتمال تمتع جميع اللغات وجميع الأُسر اللغوية بمناشىء مشتركة. فيا تُرى هل هناك نقاط إلتقاء بين الأُسر اللغوية الكبيرة في العالم تشير إلى وجود قرابة لغوية قديمة قِدَم الأزمنة الغابرة؟

إنّ فكرة الأُسرة اللغوية النوستراتية nostratische (وصف لمجموعة لغات تتعدى في قرابتها اللغات الهندية - الجرمانية والتي لها قرابة مع اللغات الحامية والسامية أو أُسرة لغات الأورال - المترجم) التي صاغها عام 1903 إتش. پدرسن H. Pedersen، وحدت الأورالية، والهندية - الأوروبية، وألطائية، والحامية - السامية والقوقازية والباسكية (ما يتعلق بقرابة اللغات الأورالية (راجع Hahdu/Domokos 1987: 300 ff). ومن الجدير بالذكر أنّ اللغة الباسكية التي لم تتوضح أصولها حتى اليوم قد شغلت الباحثين دوماً وأبداً ودفعتهم إلى التفكير بمختلف الفرضيات حول وجود علاقة محتملة بين أُسر لغات قديمة وجديدة (للحصول على خلاصة وافية عن تقارير البحوث العلمية راجع (Trask 1997: 358 f).

ويظهر هزال الفرضيات الأقدم عن المجموعات الكبيرة من الأسر اللغوية في كونها افتراضات وحيدة الجانب، لأنها تعتمد ما يتعلق بعلاقات القرابة الكبيرة على المقارنات المعجمية في المقام الأول.

وبهذا تتراجع المقارنة اللغوية مجدداً إلى درجة من التطور الذي كان قد تمّ التغلب عليه قبل مائتي عام. وفي هذه الأثناء طوى النسيان تماماً بحث الغلوتوغونيا (Glottogonie) = (من Glottis وهي فتحة في أعلى الحنجرة).

إلاّ أن هذا الاتجاه حصل بعد فترة من الركود، وبشكل حديث كعلم تصنيف لغوي، على زخم جديد. وبالاعتماد على المعارف المذهلة التي جاء بها علم الجينات البشرية (الهندسة الوراثية) عن المواصفات الجينية للشعوب ما قبل التاريخ والشعوب التاريخية وكذلك عن ديناميكية نزوح شعوب الأرض (راجع النظرة الشاملة العامة في Cavalli-Sforza et al. 1994)، قام ممثلو علم الغلوتوغونيا خلال السنوات الماضية بالبحث من جديد، وبشكل قوي، عن أبعد علاقات القرابة.

وتتمتع الغلوتوغونيا اليوم بشعبية لم تشهدها من ذي قبل أبداً، علماً أنّ التأكيد التالي لا يعتبر مبالغة بأي حال من الأحوال: «في السنوات الماضية شهد علم تصنيف اللغات نهضة أعادت الحياة إلى هذا الحقل البحثي الذي كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة وجرته من الظلمة وأخرجته الى النور ووضعته في صدارة الاهتمام (Ruheln 1994: vii).

بيد أنّ الضعف المنهجي الأكبر الذي لا تزال الغلوتوغونيا تعاني منه حتى الآن يتمثل في أنّ مقارنات المواد المعجمية يطغى على المقارنة اللغوية.

وفي مؤالفة أسرة اللغة النوستراتية (Kaiser/Shevoroshkin 1988) وكذلك

في الترتيب الوضعي الأجدد لأسرة اللغات الأوراسية (حسب غرينبرغ) تنتمي اللغات الهندية - الأوروبية، والأورالية، والألطائيّة كأسرة نواة (Ruhlen 1994: 18 ff). ثم إنّ البحوث، وبصورة خاصة بحوث علاقات القرابة الموجودة بين هذه اللغات، لها تقاليد طويلة في أوروبا. وهكذا فإنّ البحوث الأوروبية تستطيع بما تملكه من معارف حول إعادة تركيب اللغات الأساسية ومعجمها، تقديم دفعات حاسمة لدراسة علاقات القرابة القديمة بين اللغات (Koivuletho 1991, Trask 1996: 260 ff, 354 ff).

ولا يتعلق أمر بحوث الفلوتوغونيا الحديثة بإصدارات جديدة لنتائج قديمة، بل باستعمال المعارف المتوفرة عن أماكن اللغات والعلاقات القائمة بينها في علم اللغة المقارن والاستخلاص من ذلك منافع لتدقيق عمليات إدماج لغوي حدثت في العصور الماضية. على سبيل المثال تقدم نظرية الوفاق المطوّرة من قبل پيتر هايدو Peter Hajdù توضيحاً لقرابة ممكنة بين الهندية الأوروبية والأورالية (Hajdù/Domokos 1987: 299 f) وهي قرابة يفترض أن يكون عمرها أكثر من 8000 عام.

بناء عليه يجب البحث عن البدايات الأولى للأسرتين اللغويتين في منطقة حدثت فيها تطورات ثقافية متقاربة من بعضها البعض - أي في أودية القسم الأوسط من نهر الفولغا وروافده والمناطق المحيطة به - علماً أنّ جنوب المنطقة كان يُشكّلُ مركزاً ما قُبيل هندي - أوروبي protoindoeuropäisch، وفي الشمال مركزاً أورالياً uralisch. لقد تحوّل هذا التقارب البدئي بين الكتلتين في أفق الزمن إلى استمرارية في العلاقات بين اللغات المنفردة. وتقدم المعلومات المتوفرة عن

العلاقات السابقة بين الجماعتين الهندية - الأوروبية والأورالية صورة لمركزي جذب إثنيين وثقافيين معينين في شرق أوروبا، اللذين عزلا نفسيهما تدريجياً خلال الأزمنة ما قبيل التاريخ (خلال الألفية الرابعة والثالثة قبل الميلاد). لقد استمرت عملية انعزال اللغات الهندية الأوروبية والأورالية المفردة حتى العصر الحديث (راجع الشكل 28a-b)(*).

وفي إطار انعزال اللغات الأورالية تعتبر عملية تطور اللغة الهنغارية متميّزة تماماً. فمنذ انعزالها عن اللغات الأخرى التابعة للفرع الهنغاري (مانسية/ وغولية Mansisch-Wogulisch، شانتية/أوستياكية Chantisch-Ostjakisch) من الأسرة الأورالية في القرن الخامس قبل الميلاد، سلكت الهنغارية «سبيلاً خاصاً بها» بكل ما تتضمنه هذه العبارة من معنى. ومنذ ألف وخمسمائة سنة تطورت هذه اللغة إلى حد بعيد بصورة مستقلة عن اللغات الأخرى التي تربطها بها علاقة قرابة. حيث قام الهنغاريون بالتوجه إلى وسط أوروبا في موجتين من النزوح

(*) راجع: الشكل ٢٨ a - b في:
Harald Haarmann, Babylonische Welt, 2001, rr. 245 0 247
وعن اللغات الأورالية وتفرعاتها من نحو ١٠٠٠ - ٤٥٠٠ ق.م: R. Austerlitz (1987), uralic Languages، وفيه يوضح الباحث تفرعات اللغات الأورالية عبر العصور ومنها اللغات الفينية ولغات الفولغا واللغات الهنغارية ولغات حوض بحر البلطيق؛ وعن اللغات الهندو - أوروبية راجع: J.P. Mallory (1989), in search of the Indo - Europeans. Language, Archaeology, and Myth. London.
ويوضح المؤلف في بحثه عن الهندو - أوروبيين، من خلال دراسة اللغات والآثار والأساطير، مواقع اللغات الهندو - أوروبية ومجال انتشارها وتفرعها منذ تشكلها منذ أواسط الألف الثاني ق.م. إلى نهاية القرن الخامس عشر ومطلع العصور الحديثة والأوروبية. ومن هذه اللغات: الإغريقية وتفرعاتها، ومنها لغة أتيكا ولغة إيونيا. والتراقية والفريجية والطوخارية التي تحدرت منها اللغة الأرمنية. واللغات الهندو - إيرانية؛ ومنها لغات الأفستا والفارسية القديمة والهندية السنسكريتية.

كانت أولهما موجة ضعيفة حدثت في القرن السابع وموجة ثانية أقوى في القرن التاسع وأقاموا في المنطقة التي لا تزال تحمل اسمهم. وفي عام 896 حدث الاحتلال الأسطوري للقبائل الثمان (إشارة إلى استيلاء قبيلة المجريين القادمة من المناطق الرعوية في الشمال بقيادة آرپادش ARPÀDS على البلاد القليلة السكان - المترجم).

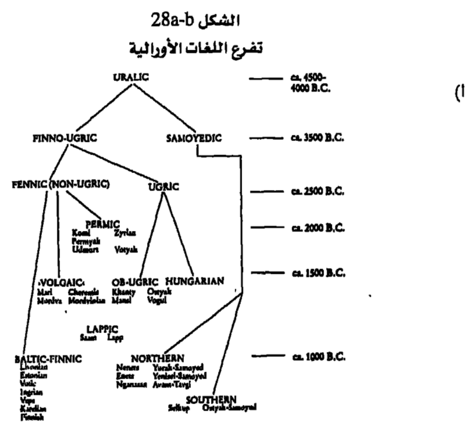
ومما يدعو إلى العجب هو المقاومة التي أبدتها الهنغارية من أجل المحافظة على طبيعتها اللغوية الأورالية. فعلى الرغم من كونها محاطة بلغات هندية أوروبية تتميّز بتراكيب تختلف عن تراكيب اللغة الهنغارية، إلاّ أنّ التقنيات القديمة المتوارثة بقيت موجودة في هذه اللغة حتى يومنا هذا وذلك بصورة أقوى مما هو الحال عليه في الفنلندية مثلاً (راجع المقاطع التالية حول طوبولوجيا (علم تصنيف) اللغات). مع هذا فإنّ اللغات الهندية الأوروبية أثرت منذ مئات السنين بصورة مكثفة على الهنغارية، وبصورة خاصة على كنز مفرداتها. وتعتبر اللاتينية التي كانت منتشرة في هنغارية فترة طويلة كلغة التعليم والأدب واللغة الرسمية، والألمانية التي تم عن طريقها اشتقاق بعض

= ومن هذا الأصل جاءت اللغات الهندية المعاصرة. والأناضولية: ومنها اللغات القديمة اللوفية والحثية والليقية والليدية. واللغات السلافية التي تولدت منها اللغات الروسية والتشيكية والبولندية والأوكرانية والبلغارية والصربية والكرواتية. ولغات البلطيق. واللغات الجرمانية ومنها جاءت القوتية والسويدية والدانية والنروجية واللغات المعاصرة الإنجليزية والجرمانية والدوتش - الهولندية والفلمنكية والأيرلندية.
واللغات السلتية/ الكلتية ومنها البروتونية والويلزية. واللغات الإيطالية - اللاتينية: ومنها تفرعت الإيطالية الحديثة والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والرومانية. واللغات الإلّيرية: ومنها جاءت اللغة الألبانية - المراجع).

الشكل 28a-b

تفرع اللغات الأورالية

أ)



يلاحظ في الشكل مراحل تشكل اللغات الفينية والهنغارية والبالطية (لغات البلطيق) بعد تفرعها عن الأصل الأورالي.

الكلمات الفرنسية، المصدرين الرئيسيين لمفردات الثقافة الهنغارية التاريخية (Kobilarov-Göze 1972).

وما يتعلق بإمعان النظر في أعماق تاريخ اللغة خلال الفترة ما قبل التاريخ، فإنّ طرق المقارنة التاريخية الموجودة تحت التصرف حالياً غير كافية لتفسير ما حدث من تبدلات لغوية خلال نهاية العصر الجليدي الأخير أو حتى العصور التي سبقت ذلك. لقد قدمت لنا المعارف المتعلقة بالهندسة الوراثية الإنسانية معلومات دقيقة حول التعاقب الزمني وحجم الهجرات ما قبل التاريخ في منطقة العالم القديم. وعند ربط هذه البيانات مع نتائج علم الآثار الحديث. فإن الغلوتوغونيا تملك معارف عن بروفيلات مناطق العلاقات اللغوية لدى الشعوب القديمة، والتي يتعيّن علينا تحديد أوضاعها اللغوية.



ب)

500	1000	1500	لغة حديثة

إغريقية/ يونانية حديثة

الأرمنية — أرمنية حديثة

B – (Kuchean) ·Tocharian· A –

الأوسيتية(*)

E — الصغدية — Khotanese

البشتو

البامير

البهلوية الفارسية الفرثية — Persian

الفارسية

الكردية

لغات هندو – آرية

(Modern Indian Languages: Gujerati, Marathi, Panjabi, Hindi, Hindustani, Bengali, Singhalese etc.)

الروسية: E — Little Russian — الأوكرانية; White Russian — لغة روسيا البيضاء; Great Russian — الروسية

S — Old Church Slavonic — البلغارية; الصربية – الكرواتية

W — Czech — التشيكوسلوفاكية; Polish — البولندية

Latvian — اللاتفية

Lithuanian — اللتوانية

O. Prussian

القوطية

النورسية القديمة — Swedish — السويدية; Danish — (لغة الدنمارك)

Icelandic — الأيسلندية

Norwegian — النروجية

O. Eng. — Middle Eng — الانكليزية

Low German — دوتش (الهولندية) الفلمنكية الفريزية

OHG — German — الالمانية

الايرلندية القديمة — الايرلندية

Cornish

Breton — البرتونية

Welsh — الويلش (الويلزية)

الغالية

Hispano-Celtic

Lepontic

الايطالية

الفرنسية

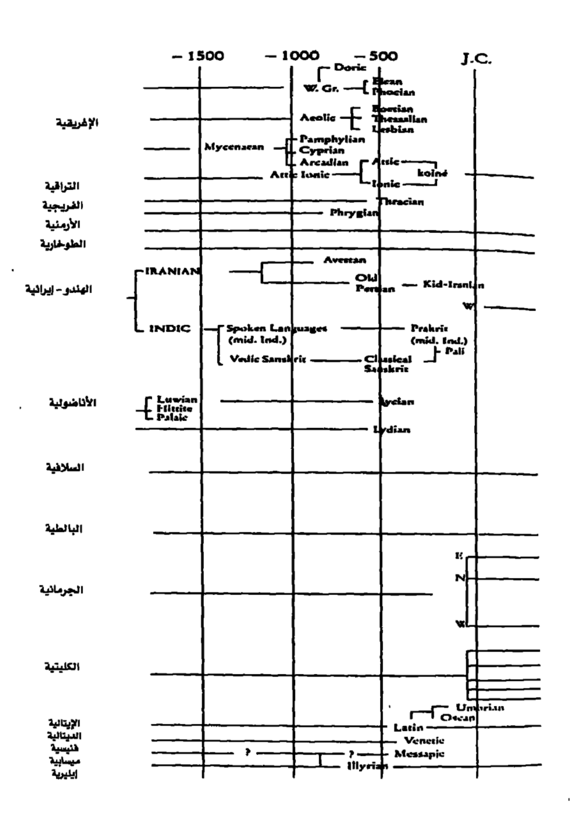
الاسبانية

البرتغالية

الرومانية

? — Albanian — الالبانية

(*) الأوستية: لغة إيرانية شرقية يتداولها الاسيتيون من شعوب شمال القوقاز، وتكتب بالحروف الكيريلّية، وهي تحتفظ بعناصر لغوية من الإيرانية القديمة مع تأثرها بلغات غير إيرانية كالروسية – المراجع.



– 1500
– 1000
– 500
J.C.
Doric
W. Gr.
Elean
Phocian
الإغريقية
Aeolic
Boeotian
Thessalian
Lesbian
Mycenaean
Pamphylian
Cyprian
Arcadian
Attic
Attic Ionic
koiné
Ionic
التراقية
Thracian
الفريجية
Phrygian
الأرمنية
الطوخارية
Avestan
IRANIAN
Old
Persian
الهندو - إيرانية
INDIC
Spoken Languages
(mid. Ind.)
Prakrit
(mid. Ind.)
Pali
Vedic Sanskrit
Classical
Sanskrit
الأناضولية
Luwian
Hittite
Palaic
Lycian
Lydian
السلافية
البالطية
الجرمانية
الكليتية
Umbrian
Oscan
الإيتالية
Latin
الديتالية
Venetic
فنيسية
?
Messapic
ميسابية
Illyrian
إيليرية

تـم اتخـاذ الـخطـوات الأولـى فـي اتـجـاه الـمـعـارف الـتـي تـدور حـول العلاقات المتبادلة بين الجينات البشرية وعلم الآثار واللغات. غير أنّ المتشككين في الأمر يرون أنّ مثل هذه الخطوات لن تستطيع تقديم أي شيء للبحوث بخصوص أوضاع البدايات الأولى لنشوء اللغات على الرغم مما قد تتميّز به من جرأة. في حين أنّ علماء الجينات البشرية (مثل Cavalli-Sforza 1995) وعلماء لغات (مثل Ross 1995) مقتنعون، على عكس ذلك، بأنّ المرء يستطيع تخفيض تنوّع الشعوب واللغات في العالم إلى مجموعات كبيرة قليلة، مما أدى إلى طرح اقتراح بإجراء نظرة عامة يتم وفقها المؤالفة بين أشجار أنساب الشعوب البشرية وبين لغاتها.

وللمرة الأولى في تاريخ العلوم الإنسانية جرى هنا بخبطة كبيرة تطوير نظرية توضح انتشار الإنسان الحديث في قارات العالم بصورة متزامنة مع انتشار الأُسر اللغوية الكبيرة وفروعها. مع هذا فإنّ إمكانية البرهنة بصورة تفصيلية على هوية العلاقات المتشابكة بين شجرتي النسب المذكورتين (انتشار البشر/ انتشار اللغة) والتعرف على هوية القرابة بين الأُسر اللغوية في المقارنة المعجمية المتسلسلة (وربما أيضاً المقارنة النحوية)، ستعتمد على البحوث في المستقبل.

وبغض النظر إن كان المرء يراقب هذه الإنطلاقة التي يقوم بها علم الجينات البشرية والغلوتوغونيا للخوض في غمار المجهول بترقب وحذر وفضول أو بالريبة، فإنّ علم الجينات البشرية قد دخل على أي حال أحد فروع الحقل العلمي الواسع الذي يستحق البحث دون أي شك.

نمط البنية وتقنيات التنظيم اللغوي

تعتبر اللغة واحدة من أنظمة علامات ثقافية معينة، وبهذه الصفة أكثر أنظمة تشغيل المعلومات قدرة على الإنجاز، نظراً لأنّ كفاءتها قد تم تطويرها في عملية النشوء والارتقاء، والتي استُخدمت من قبل الناس لمختلف أغراض الاتصال والتواصل. وجميع أنظمة العلامات منظمة، أي أنها تملك بنية تحتية تكفل استخداماً معقولاً للعلامات. ثم إنّ البنية التحتية للغة تعتبر معقدة بصورة خاصة وبالتوافق مع كفاءتها كنظام عالي الأداء (Haarmann 1997b). ولا يقتصر التنظيم وفق مبادىء محددة على مفردات اللغة، بل إنّ هناك تراكيب تنظيمية معقدة يظهر تأثيرها أيضاً في النحو وفي نظام الأصوات لكل لغة من اللغات. إنّ الكشف عن تراكيب التنظيم هذه وتصنيف اللغات بالنسبة إلى عوامل عالمية مشتركة (Universalien) واختلافات، هو مهمة علم تصنيف اللغات.

ولا يعتبر البحث اللغوي التاريخي المقارن نتاج عصر التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر، بل إنّ دراسة بناء اللغة، وطوبولوجية اللغة أيضاً تعودان إلى ذلك العالم الزاخر بالأفكار. كان روّاد تحليل التصنيفات اللغوية علماء نحو فرنسيين مثل جي. جيرار G. Girard (1747)، وإن. بوزيه N. Beauzée (1767)، ور. أ. زيكار R.A. Sicard (1790). وبصورة مستقلة عن هؤلاء العلماء طوّر الأسكتلندي آ. سميث A. Smith (1761) تصنيفاته اللغوية الخاصة به. وفي وقت لاحق تقدم الصفوف علماء ألمان مثل آوغست فيلهلم شليغل A.W. Schlegel (1818)، وفيلهلم فون همبولت

(1850) H. Steinthal ، وإتش. شتاينتال (1829 - 1827, 1822) W.V. Humboldt (حول تاريخ هذه التطورات راجع Harrmann 1976a: 9ff).

ومنذ البدايات الأولى للبحوث الطوبولوجية أظهر الأوروبيون اهتماماً وشغفاً كبيرين بتصنيف لغات العالم، مع الاهتمام الخاص باللغات الغريبة التي كانت بنيتها تختلف كثيراً عن بنية اللغات الأوروبية. ويكمن ضعف الطوبولوجيا التقليدية في أنّ الناس كانوا يظنون أنّ خطة بناء كل لغة من اللغات تقوم وفق مبادىء طراز لغة واحد.

وعند النظر إلى الأمور من هذه الزاوية تكون اللاتينية والعبرية لغتين مصرّفتين (أي «خاضعتين» للاشتقاق من أصل الكلمة)، والتركية واليابانية لغتين ملتصقتين (أي «تلتصق» بأصل الكلمة)، والصينية أو الفيتنامية لغة معزولة (أي أنهما لغتان تعملان باستخدام أصول الكلمة دون تصريف)، والنافاهو واللاكوتا لغتين غير متحدتين (أي أنهما لغتان تدخل علاقات الفاعل والمفعول بهما بكتلة الفعل المركزي).

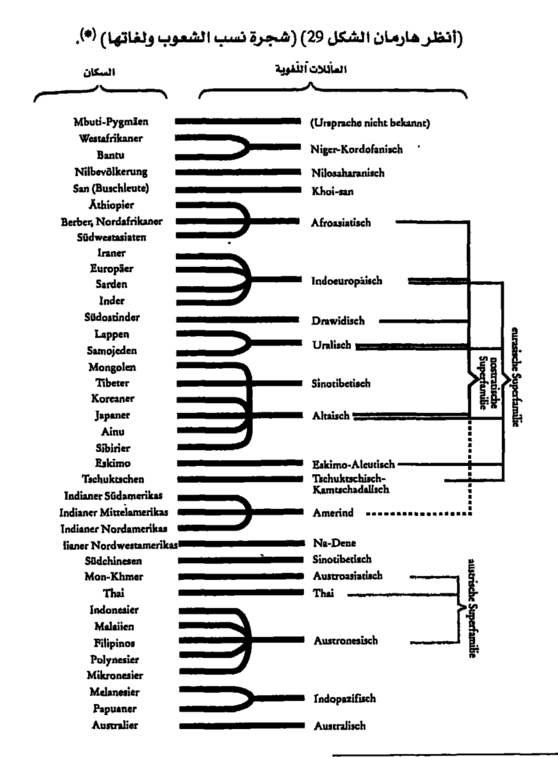
وتعتبر الإنجليزية من اللغات المعروفة التي يولد تصنيفها متاعب جمّة. فنتيجة لتصنيف اللغات الهندية - الأوروبية كلغات ممثلة للنوع المصرّف. لم يتمكن العلماء من ضبط الإنجليزية الجديدة التي لا تزال تضم عناصر مرنة قليلة فقط. أما الفنلندية فقد نأت بنفسها عن الأنواع الكلاسيكية من اللغات لأنها تحمل سمات مماثلة للغات المغراة (الملتصقة) كالتركية، والكورية أو لغة الزولو، لا بل لأن بنيتها تخضع لحالات الإعراب Flexion كما في الألمانية أو الروسية.

ابتعد علم تصنيف اللغات الحديث عن هذا النموذج القديم من التحليل العلمي للغات، وأخذ ينطلق من أنّ المبادىء التنظيمية لبناء وتركيب لغة ما يمكن أن يؤثر في المبادىء التنظيمية لمختلف أنواع اللغات (Haarmann 1976a). ثم إنّ واقع اللغات الطبيعية يظهر علاوة على ذلك أنّ مزايا طراز تم قبوله نظرياً لا يجب أن يكون بالضرورة ممثلاً بصورة مستثناة، وإن كان الطراز قابلاً للتعرف من جراء تراكيبه الرئيسية. وهكذا فإنّ بناء لغة طبيعية يقترب من المثل الأعلى لطراز نظري. وعلى الرغم من مثل هذه المنافع المنهجية لبحوث التصنيفات اللغوية الحديثة لا يوجد طراز لغوي عام ثابت يمكن الأخذ به (Croft 1990).

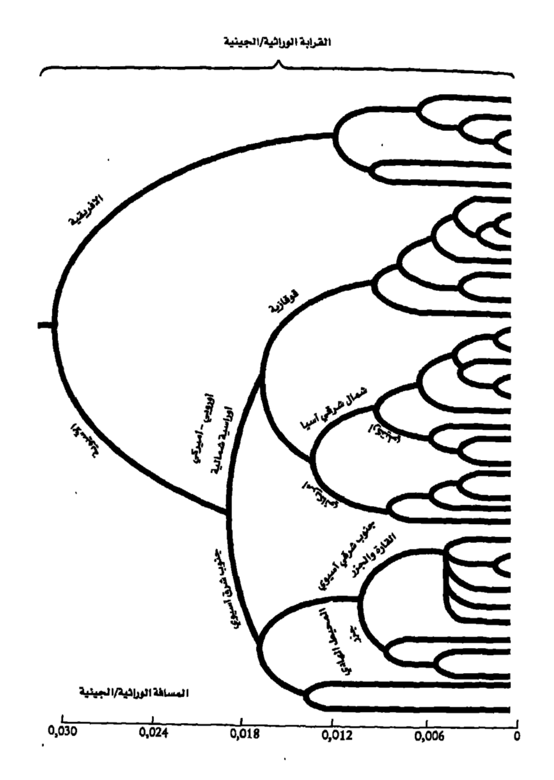
وعند الإنطلاق من طريقة مرنة للنظر إلى الأمور، فإنّ تراكيب اللغات الأوروبية، على سبيل المثال، تبدو مختلفة تماماً عمّا هو مألوف في فصل قاسٍ للطرز. ويعثر المرء على مزايا عديدة كانت فرضيات سابقة تدعي عدم التمكن من العثور عليها إلاّ في اللغات غير الأوروبية فقط. وهكذا يتبيّن أنّ لغات أوروبا لا تختلف إلاّ قليلاً عن اللغات الأخرى في العالم كما كان المرء يظن حتى قبل بضعة عقود. ثم إنّ المرء يستطيع اليوم بشكل أفضل فهم عمليات التغيير التي كانت تسبب تغيير نوع التركيب في اللغات.

ولا يوجد في أوروبا ما يمكن تسميته بنية طوبولوجية موحدة للغة (تصنيف موحد)، فعلى الرغم من أنّ أنواع التركيب المعروفة في لغات العالم غير موجودة جميعها في لغات هذه القارة (القارة الأوروبية)، إلاّ

(أنظر هارمان الشكل 29) (شجرة نسب الشعوب ولغاتها) (*).



(*) للإستزادة راجع الأصل: H. Haarmann, (2001), rr. 250 - 251
وفيه يوضح في صورة شجرة بيانية القرابات الجينية المحتملة بناء على التفرعات اللغوية من أصول اللغات الأفرو - آسيوية.
لمزيد من المتابعة راجع:
Cavally - Sforza, L. (1955). Stammböume von Völkern - u. sprachen.
- Cavally - Sforza. L./ Menozzi. P. Piazza, A. (1994), the History and Geography of human genes.
- Princeton, N.J. المراجع



القرابة الوراثية/الجينية
الافريقية
قوقازية
اوروبي - اميركي
اوراسية شمالية
شمال شرقي آسيا
جنوب شرقي آسيوي
القارة والجزر
جنوب شرق آسيوي
المحيط الهادي
جزر
المسافة الوراثية/الجينية
0,030
0,024
0,018
0,012
0,006
0

أنها مع هذا تحتوي عدد كبير من الصفات التي تميّزها. فالإنجليزية على سبيل المثال ما تزال تمثل في مرحلة التطور العائدة إلى العصور الوسطى (الإنجليزية القديمة) نوع اللغة اللاصقة الذي يميّز الكثير من اللغات الهندية - الأوروبية. حيث يجري تحوير المعنى الأساسي للكلمات بواسطة النهايات النحوية وعوامل الاستخلاص: اللاحقة Suffixe، البادئة Präfixe (أدوات توضع في بداية أو نهاية كلمة أخرى لتغيير معناها أو لتكوين كلمة جديدة مثل unload - المترجم). التي يمكن بواسطتها أيضاً بناء الجملة وترتيب كلمات الجملة في أشكالها وعلاقاتها الصحيحة وإعرابها.

أما الإنجليزية الجديدة فلم تحافظ إلاّ على عوامل تصريف مورفولوجية قليلة مثل (S) الشخص الثالث المفرد 3. Pers. Sing في تصريف الأفعال (على سبيل المثال she comes مقابل I come) أو حرف (S) كعلامة للجمع (مثال: house وجمعها houses). ثم إنّ الاستخلاص بواسطة اللاحقات أو البادئات لا يزال موجوداً في الإنجليزية الجديدة أيضاً (على سبيل المثال light «نور، ضوء النهار» - lighter «ولاعة»). وعدا ذلك فإنّ الإنجليزية تعمل وفق مبدأ النوع الإنعزالي، أي أنّ العلاقات بين العناصر المعجمية في الجملة يتم تركيبها إلى حد كبير بواسطة قواعد تركيب الكلمات. ووفق هذا المبدأ تعمل أيضاً الصينية الكلاسيكية (أي نوع لغة الكتابة الصينية الكلاسيكية).

وهكذا نرى أنّ الإنجليزية والصينية، وعلى الرغم من كونهما لغتين لا علاقة قرابة جينية بينهما، قد طورتا نوعاً مشابهاً من التركيب

بصورة مستقلة عن بعضهما البعض. لم تعد الصينية الجديدة تمثل نوع اللغة المعزول، بل إنها تستخدم أيضاً تقنيات اللغات اللاحقة. وفي الحين الذي لم تكن فيه الصينية الكلاسيكية تعرف سوى الكلمات ذات المقطع الواحد، نجد في الصينية الجديدة كلمات ذات مقاطع متعددة وهي إما كلمات مركبة أو كلمات أصلية ذات صيغ مستخلصة.

وتعتبر التقنيات اللغوية التصريفية مميزة لخطط بناء النحو في اللغات الهندية - الأوروبية والساميّة. إنّ تبدل الأصل بواسطة تصريف الكلمة يميّز لغات مثل الألمانية (على سبيل المثال تبديل أصل كلمة Huhn «ديك» بإضافة حرف ü واستخلاص كلمة Hühner «ديوك»، Raum <Räume> أو werfen (إلقاء) – erwirft (يلقي، يرمي)، أو الروسية (على سبيل المثال تغيير الحرف الساكن في كلمة strach «خوف» إلى «مرعب» Strasnyi أو drug «صديق» إلى druzla «صداقة»).

ويجد المرء أيضاً خصائص نوع اللغة المصرفة في اللغات التي توصف تقليدياً بأنها تلازمية (أي ملتصقة ببعضها البعض أو «مغرّاة» دون تغيير الكلمة الأصلية). الفنلندية، على سبيل المثال، تستخدم التقنيات التلازمية والتصريفية. ويظهر مفعول المبدأ الأخير في تغيّر أصول الكلمات في تلك الحالات التي تظهر فيها النهاية النحوية مقطعاً مغلقاً بواسطة الحرف الساكن. هذه الظاهرة تُسمّى تبدل الدرجات أو المراتب (على سبيل المثال بالفنلندية joki «نهر» joen «للنهر»؛ tavalta «لقاء» tapaan «أنا ألتقي»).

ومن الجدير بالذكر أنّ علماء تصنيف اللغات توصلوا في القرن الثامن عشر إلى معرفة أنّ تركيب اللغات - الأوروبية واللاأوروبية - يمكن وضعه بين مبدئي تنظيم متطرفين، بين نوع اصطناعي رفيع الدرجة وبين طراز تحليلي رفيع الدرجة. ويتميز النوع الاصطناعي الرفيع الدرجة باستعمال العديد من النهايات النحوية إلى جانب العديد من عناصر الاشتقاق، ويتميز النوع التحليلي الرفيع الدرجة بواسطة استخدام العديد من تقنيات تركيب الكلمة. اللغات الفنلندية والهنغارية والباسكية في أوروبا مثلاً والعديد من لغات الهنود الحمر في أمريكا الشمالية هي أمثلة على اللغات ذات النوع الاصطناعي الرفيع الدرجة، أما الإنجليزية واللوغبارا lugbara (من لغات السودان) أو الفيتنامية فهي مثال على النوع التحليلي رفيع الدرجة. في اللغة الفنلندية مثلاً يجري صياغة العلاقات النحوية للاسم Substantiv إلى أجزاء أخرى من اللغة بمعونة خمس عشرة حالة وفي الباسكية بمعونة اثنتي عشرة حالة. ولا يتجاوز عدد الحالات في اللغة الهنغارية 27 حالة (Tmopa 1972: 123 f). وهو رقم قياسي أوروبي. وفي الألمانية والإنجليزية يحتاج المرء لإنشاء مثل هذه التراكيب العديد من حروف الجر، وظرف المكان والزمان، والضمائر (على سبيل المثال بالفنلندية talo «بيت» - taloomme «الدخول إلى بيتنا»). وعند مقارنة أي نص فنلندي مع نفس النص المترجم إلى الإنجليزية أو الألمانية، نرى أن النص الفنلندي أقصر بكثير نظراً لأنّ علاقة الكلمات في الجملة مدمجة بعضها ببعض بطريقة اصطناعية رفيعة الدرجة في النهايات النحوية.

وفي اللغة الواحدة يمكن لكلا الاتجاهين أن يؤديا مفعولهما، أي المفعول التحليلي والمفعول الاصطناعي أيضاً. على سبيل المثال يعتبر الإعراب في الفرنسية أو الإسبانية تحليلياً إلى حد بعيد (باستثناء صيغة الجمع)، في حين أنّ أدوات الوصل وأحرف العطف على عكس ذلك قد حافظت على طبيعتها الاصطناعية التي ورثتها من اللغة اللاتينية (باستثناء طريقة التعبير التحليلية عن المستقبل القريب؛ على سبيل المثال بالفرنسية je vais partir «سأسافر بعد قليل»، في الإسبانية voy a pagar «سأدفع بعد قليل»). هناك حالة شبه مع البلغارية أو المقدونية. وإذا ما كان الإعراب تحليلي الطبيعة فإنّ علاقات النحو والصرف في نظام الفعل منظمة اصطناعياً على الأغلب (بوساطة نهايات التصريف/ الإعراب).

ويظهر تركيب الجمل في لغات العالم تماماً مثل البناء النحوي تنوعات كبيرة جداً. ولا يعتمد هذا النوع فقط على الأجزاء الرئيسية للجملة (فاعل = S، فعل = V، مفعول به = O) التي يمكن أن تظهر في الجملة في مواضع مختلفة، بل لأنه في نفس الجملة توجد الأنواع المختلفة من مواقع الكلمة بغض النظر إن كان الأمر يتعلق بمقولة ثابتة، أو عبارة عاطفية، أو مطالبة معينة. مع هذا فإنّ تنوّع العلاقات التي يمكن أن تظهر فيها أجزاء الجملة يمكن تقليلها إلى عيّنات أساسية قليلة شريطة النظر إلى الجملة الحيادية من ناحية الأسلوب.

وما يتعلق بالجمل الحيادية أسلوبياً يمكن التفريق بين ثلاثة أنواع تتردد غالباً وثلاثة أنواع نادرة كما يظهر في الجدول التالي:

انواع ترتيب الكلمات في الجملة	
النوع الأول: فاعل/ فعل/ مفعول به S V O	
لغات أوروبا:	نوع كثير الانتشار (على سبيل المثال: الألمانية، الإنجليزية، الروسية، الألبانية). في الفنلندية أيضاً (نتيجة التأثير السويدي) وفي الأستونية (نتيجة النفوذ الألماني). ويعتبر تتالي فاعل/ فعل/ مفعول به في الهنغارية عادياً جداً. اللغات الفنلندية - الأوغرية الأخرى تمثل النوع الثاني..
لغات أفريقيا:	سواحلي، إغبو، زولو، ولوف، كيكويو.
لغات آسيا:	العربية، الصينية (ماندرين)، بورو، الفيتنامية.
لغات أسترالية وأقيانوسيا:	كريبول، تايورا، يانوا، بوكييوب، مبلا - فيلا.
لغات أمريكا:	مايوشا، كاكچيكويل، كويشيه، ناهواتل، پوپولوكا
النوع الثاني: فاعل/ مفعول به/ فعل S O V	
لغات أوروبا:	هذا الترتيب لكلمات الجملة يميّز الجملة المفيدة في اللغة الباسكية. وحتى في اللغات الأورالية (على سبيل المثال: ننزيش، الموردفونية، ماري، باستثناء الفنلندية، الأستونية والهنغارية) واللغات الألطائية (اللغات التركية، الكالميكية) يهيمن هذا النوع SOV.
لغات أفريقيا:	الأمهرية، ناما، النوبية، أورومو، غوراغا.
لغات اسيا:	التيبيتية، التاميلية، كانادا، الهندي، اليابانية.
لغات أستراليا وأقيانوسيا:	آنغور، آراندا الغربية، بورارا، غوماتي، والماجاري.
لغات أمريكا:	كوفان، كويشوا، ريكباكتسا، بورا، تلنفيت.
النوع الثالث: فعل/ فاعل/ مفعول به V S O	
لغات أوروبا:	صنف نادر في أوروبا على عكس النوعين الأولين والذي يقتصر على اللغات الكلتية (الكمرية، البرتونية، الإيرلندية وما شابه).
لغات أفريقيا:	تامازغت، تاشلهايت، تويوسا، توكن، نيانجي.
لغات آسيا: -	(في العربية).
لغات أستراليا وأقيانوسيا:	كابنغامارانغي، ماوري، تونغية، شامورو، ساموية.
لغات أمريكا:	إكسيل، تاكانيكو، شاتينو، ميتلا - ساپوتيكيه

النوع الرابع: فعل/ مفعول به/ فاعل V O S
هذا النوع من ترتيب الكلمات في الجملة موجود فقط في لغات أوقيانوسيا (مثال: فيجي، كساراغورا) وأمريكا (مثال: شاروتي، شوي في غواتيمالا).
النوع الخامس: مفعول به/ فعل/ فاعل O V S
هذا النوع من ترتيب الكلمات في الجملة نادر وإن كان موجوداً في غويابيانغو، وهي لغة يتحدثها نحو950 شخصاً من الأبورجنيس في منطقة آرنهم (أستراليا)، والمنتمية إلى أسرة پاما – نويوننا، والباراسانا، وهي لغة لمجموعة توكانوا في كولومبيا والتي لا يتحدث بها سوى نحو 350 شخصاً.
النوع السادس: مفعول به/ فاعل/ فعل
وهذا النوع نادر للغاية في لغات العالم، على سبيل المثال آپوس، إحدى لغات پاپوا – غينيا الجديدة.

طراز البنية والاتفاقات بين المناطق

من الناحية المبدئية تتميّز الطريقة التي تنظم فيها التراكيب اللغوية، أي الطريقة التي يتبيّن فيها مفعول المبادىء الطوبولوجية في بناء اللغة، باستقلالية عن علاقة القرابة النسبَية (ما يخص سلسلة النسب) للغة من اللغات. فهناك، على سبيل المثال، نوع معيّن من التراكيب يمكنه التدليل على طبيعة مجموعة معيّنة من اللغات المرتبطة بعلاقة قرابة (على سبيل المثال النوع اللاحق للغات البانتو)؛ كما يمكن أيضاً تطبيق أنواع تراكيب مختلفة في لغات ذات قرابة معينة (كما في بناء اللغة الإنجليزية وفق المبادىء العازلة على عكس الألمانية القابلة للصرف).

ومن الناحية الأخرى يعثر المرء في العديد من لغات العالم على مبادىء تنظيمية مشابهة، لكن المصبوغة بألوان محلية في الوقت

نفسه. إذ هناك في نوع تركيب اللغات المجاورة مزايا عديدة تشير إلى تطورات متوافقة مع بعضها البعض في منطقة ما، وحيث كانت توجد علاقة طويلة الأمد بين لغات مختلفة خاضعة لظروف مشابهة.

ومن الأمثلة على عملية تقارب أنواع التركيب في منطقة ذات لغات مختلفة الأصول والأنساب نود ذكر المنطقة الكبيرة لجنوب شرق آسيا التي تطرقنا إلى شروط وظروف علاقاتها الثقافية (راجع الفصل الثالث). بعيداً عن علاقة القرابة التي تجمع بينها، طورت لغات جنوب شرق اسيا نظام أصوات معقد للغاية. ومن الأمور التي تنتمي إلى خصوصيات التقارب في المنطقة هناك أيضاً أداة لغوية ناعمة لها علاقة بالوشائج الاجتماعية في المجتمع (على سبيل المثال التعبير عن البعد الاجتماعي، التفريق والتمييز بين لغات الرجال والنساء) التي يتم التعبير عنها.

ونتيجة لنظامها الصوتي المعقد، وخاصة نظامها الصوتي ذي المتغيرات العديدة، فإنّ كل لغة من لغات جنوب شرق آسيا تثير انتباه كل متحدث للغة من اللغات الأوروبية. وتتوسع تعقدية الكميات والنوعيات الصوتية في اللغات الصينية التيبيتية بواسطة التمييز بين النبرات الصوتية. في الجونخا Dzonkha (المنتشرة في بوتان) توجد نبرتان صوتيتان، وفي بعض الأنواع الموجودة في شمال الصين هناك ثلاثة عشر اختلافاً في نبرات الصوت. وعلى الرغم من أنّ الفيتنامية تعد من الناحية الجينية من لغات مون - خمير، فإنها من اللغات القائمة على النبرات الصوتية. إن الفيتنامية (Solncev et al. 1960)

تفرّق بين ستة أنغام صوتية، يشار إلى خمس منها في التصنيف اللاتيني للغات بواسطة علامات صوتية مميزة «توضع فوق الحرف أو تحته» (راجع الشكل 30a).

ويختلف نظام الفونيمة الصوتية Vokalphoneme (إحدى وحدات الكلام الصغرى التي تساعد على تمييز لفظة ما عن نطق لفظة أخرى في لغة أو لهجة. مثلاً الـ p في spin والـ f في fin هما فونيمتان مختلفتان - المترجم)، في ما مجموعه اثنتي عشرة نوعية صوتية Vokalqualität. علاوة على ذلك هناك فروق بين عشرين نوعاً من

الشكل 30: الطبقات الصوتية وتراكيب المقاطع في اللغة الفيتنامية

(Haarmann 1998c: 1933)

أ) الاختلافات في الطبقات الصوتية وعلاماتها الصوتية المميزة

الوصف الألماني	الوصف الفيتنامي	علامة	مثال
الصوت العادي	thah khong	^	mai «صباح»
صوت متراجع	thanh huyén	/	mài «جلخ»
صوت متعالي	thanh sac	.	mài «سقف»
صوت عميق	thanh nang	.	mai in thuong mai «تجارة»
صوت متراجع مرتفع	thanh hoi	,	mdi «يسعى»
صوت مرتفع متقطع	thanh nga	-	mai «طويل»، «دوماً».

ب) المؤالفة بين طبقات الصوت وبين حاملات المقاطع الصوتية

صوت متراجع	ỳ	ừ	ù	ờ	ồ	ò	ì	ề	è	ầ	ằ
صوت مرتفع	ý	ứ	ú	ớ	ố	ó	í	ế	é	ấ	ắ
صوت عميق	ỵ	ự	ụ	ợ	ộ	ọ	ị	ệ	ẹ	ậ	ặ
صوت متراجع مرتفع	ỷ	ử	ủ	ở	ổ	ỏ	ỉ	ổ	ê	ẩ	ẳ
صوت مرتفع متقطع	ỹ	ữ	ũ	ỡ	ỗ	õ	ĩ	ễ	ẽ	ẫ	ẵ

الإدغام Diphthonge (حرفا عِلّة يشكلان صوتاً واحداً - المترجم) واثنتي عشرة ثلحرف Triphthong (ثلاثة أحرف يُرسم بها صوت واحد مثل eau في لفظة beau - المترجم). ومن مؤالفة التونيمة Toneme مع النوعية الصوتية ينشأ العديد من أنواع التراكيب المقطعية (راجع الشكل 30b)، غير أنّ الإمكانات النظرية لهذه المؤالفة الصوتية لا يمكن الاستفادة منها لغوياً، لعدم ظهور كل مقطع من المقاطع في اللغة الفيتنامية في طبقات الصوت الستّ (على سبيل المثال لا يمكن لفظ كلمة khuya «منتصف الليل» إلاّ في الطبقة العادية).

وفي لغة تاي Thai (Delagnau 1987) يمكن التفريق بين خمسة أصوات مختلفة. ويعتبر نظام الفونولوجيا phonologie (علم الأصوات الكلامية -ا لمترجم) لهذه اللغة أكثر تعقيداً من هذا النظام في اللغة الفيتنامية نظراً لأهمية التفريق بين قِصَر وطول نوعيات الأصوات التسعة. ومن الأمثلة التوضيحية على مؤالفة التونيمات مع الأصوات القصيرة أو الطويلة في لغة تاي، هو ما تقدمه أنماط الصيغ الصرفية لجذر معيّن paradigma للأعداد الأصلية cardinal number (أي من الأعداد 1، 2، 3، إلخ تمييزاً لها عن العدد الترتيبي ordinal، أي الأول، الثاني، الثالث، إلخ - المترجم). وتملك اللغة اللاوسية (Morev et al. 1972) ست نبرات صوتية واثنتي عشرة نوعية صوتية تظهر بدورها قصيرة وطويلة. وعلى الرغم من أنّ نظام تركيب المقاطع الناتج عن هذه المؤالفة يعتبر من الناحية النظرية أكثر تعقيداً منه في اللغات الصوتية الأخرى المذكورة، فإنّ المقاطع جميعها لا يستطيع كل واحد منها ربط

جميع الأصوات، إضافة إلى وجود تفضيلات معينة في ربط التونيمات ذات الأصوات القصيرة والطويلة.

ولا تعتبر لغة الخمير khmer لغة صوتية. فهي تتقاسم مع لغات أخرى من جنوب شرق آسيا مزية نظام صوتي متميّز جداً. حيث يجري التفريق بين عشرة أصوات (قاعدية) التي تعتبر فروعها النوعية (قصير/طويل) فونيمية. ويتوسع نظام الأصوات بإدماج «ثلحرفيات» ثلاثة قصيرة وعشرة طويلة مشكلةً نظاماً معقداً .(Sacher/Phan 1985: 13ff. 28ff)

ومن الناحية التقليدية يجري تصنيف الفيتنامية على أنها لغة أحادية المقاطع، غير أنّ مثل هذا التعميم لا وجود لما يبرره على الإطلاق لأنّ الفيتنامية الحديثة تتعاطى الكلمات المتعددة المقاطع مثل تعاطيها الكلمات ذات المقطع الواحد، علماً أنّ حاملات المعاني من المفردات تعتبر أحادية المقطع. ودون مراعاة الاختلافات بين درجات الصوت هناك ما بين 800 و900 تركيب مقطعي مختلف (DeFrancis 1997: 7) في الفيتنامية. إلاّ أنّ هناك أيضاً أجزاء لا تعتبر عناصر مستقلة بمثابة حاملات معاني، بل إنها تستطيع تكوين مفهوم معّين عند استخدامها مع كلمات أخرى.

ينطبق هذا مثلاً على أجزاء مثل khàn (على سبيل المثال في khàn gia «مشاهد») أو huru (على سبيل المثال في huru nghi «صداقة»). ويتكون العديد من المصطلحات من مقاطع عديدة. إنّ تراكيب حاملات المعاني هذه تشبه إذن تراكيب من مقاطع عديدة. إنّ اتجاه

تطور اللغة ينتقل من الطبيعة ذات المقطع الواحد إلى الطبيعة ذات المقاطع المتعددة (Haudricourt 1961: 59). وهكذا تمر الفيتنامية في مرحلة من التطور تشبه مرحلة التطور التي شهدتها اللغة الصينية عند انتقالها من الكلاسيكية إلى طور اللغة الحديثة.

وينتمي استخدام عوامل التصنيف العددية إلى مزايا التصنيف اللغوي التي تشترك فيها لغات جنوب شرق آسيا مع لغات شرق آسيا (على سبيل المثال الصينية، الكورية، اليابانية). وتتمثل طريقة العد باستخدام عوامل التصنيف العددية في ربط الموضوعات المعدودة مع الأرقام الحرفية عبر عوامل التصنيف اللغوية. إنّ تفريق الاسم حسب الدرجات السمانتية هو أمر معيّن. وبما يتعلق بأوصاف الموضوعات فإنّ لغة التاي مثلاً تعرف التفريقات الدقائقية التالية (راجع الشكل 31).

الشكل 31: مصنفات عددية في لغة تاي (Haarmann 1998c: 1934)

Abb. 31: Numeralklassifikatoren im Thai (Haarmann 1998c: 1934)

Numeralklassifikation für Objekte im Thai

Objekt im allgemeinen	/an/	อัน	
Objekt mit Dach	//lagn/	หลัง	z. B. Haus
Objekt mit Enden	/khan/	คัน	z. B. Regenschirm
Objekt mit Arm- und Beinstücken	/toua/	ตัว	z. B. Möbel, Kleidungsstück
Sphärisches Objekt	/\louk/	ลูก	z. B. Ball, Frucht
Hohles, sphärisches Objekt	/bai/	ใบ	z. B. hohler Kürbis, Behälter
Zylindrisches Objekt	/\ton/	ต้น	z. B. Baum, Topf
Hohles, zylindrisches Objekt	/lam/	ลำ	z. B. Flugzeug, Bambusrohr
Dünnes, flaches Objekt	/_phàn/	แผ่น	z. B. Blatt, Schallplatte
Eckiges Objekt	/lém/	เล่ม	z. B. Buch, Messer
Langes, schmales Objekt (konkrete Bedeutung)	/\sén/	เส้น	z. B. Haar, Nadel
Langes, schmales Objekt (abstrakte Bedeutung)	//sai/	สาย	z. B. Linie, Flugroute
Winziges Objekt	/¯méd/	เม็ด	z. B. Tablette, Knopf
Objekt aus Textil	//phun/	ผืน	z. B. Teppich, Handtuch
Objekt in Rollenform	/¯mouan/	ม้วน	z. B. Filmrolle, Folie
Eingewickeltes Objekt	/_ho/	ห่อ	z. B. Paket, Schachtel

موضوع بصورة عامة	/an/	
موضوع في السقف	/lagn/	مثال: بيت
موضوع مع نهايات	/Khan/	مثال: مظلة
موضوع مع ذراع وساق	/toua/	مثال: أثاث، قطعة لباس
موضوع مدور	/louk/	مثال: كرة، ثمر.
موضوع مدور فارغ	/bai/	مثال: قرع فارغ، وعاء
موضوع أسطواني	/ton/	مثال: شجرة، قدر
موضوع رقيق مسطح	/-phén/	مثال: ورقة، إسطوانة موسيقى
موضوع له زوايا	/lém/	مثال: كتاب، سكين
موضوع طويل نحيف	/sen/	مثال: شعر، إبرة
(معنى محدد)		
موضوع طويل نحيف	//sai/	مثال: مسطرة، طريق السفر
موضوع صغير جداً	/méd/	مثال: قرص دواء، زر
موضوع من منسوجات	//phun/	مثال: سجادة، منشفة يدوية
موضوع ملفوف الشكل	/mouan/	مثال: لفة فيلم، رقاقة
موضوع مغلف	/-ho/	مثال: باكيت، علبة

ومن الأمور الأخرى التي تميّز لغات جنوب شرق آسيا هو التفريق بين أصناف المراتب الاجتماعية، أي درجات مختلفة من أدب المخاطبة في هذه اللغات. لذا فإن نظام التصنيف المعني بالأمر يركّب النظام الأسمي، ونظام الضمائر والأفعال، ويفرق بين تركيب أو استعمال كلمة أو عبارة في جملة ما ويولّد نوعاً أو ضرباً معجمياً. ومن الأمثلة التي لا يمكن للأوروبي توقعها في تركيب الكلمة أو الجملة هو طريقة استخدام ضمير «أنا» في لغة الخمير مثلاً:

وبالتوافق مع طريقة التركيب المعقدة للغة المؤدبة، فإنّ نظام أشكال المخاطبة أيضاً يختلف أيضاً عند مقارنته مع اللغات الأوروبية الغربية. في اللغة الفيتنامية على سبيل المثال يجري استخدام كلمات المخاطبة التالية:

المعادل بالخمير	الوظيفة الدايكتية الأساسية (كلمة يونانية تشير إلى مزايا وحدات لغوية معينة مثل اسم الإشارة)	ضروب المكانة الاجتماعية
khnom	«أنا»	وصف تاريخي لعبد الدار، يستعمل في مخاطبة الغرباء.
khnomkaruna	«أنا»	مؤدب كثيراً، وخاصة تجاه الرهبان
khnomba;t	«أنا»	يستخدم من قبل الرهبان فقط
khnommcah	«أنا»	تجاه ذوي المناصب الاجتماعية الرفيعة، ويستخدم من قبل النساء
an	«أنا»	خاصة
kni;e	«أنا»	لغة عادية؛ يستخدمها الكبار مع الصغار تعبير انتماء شخص إلى مجموعة
je:n khnom ١	«أنا»	استخدام لغوي رسمي، يُستخدم عندما يطل الشخص كممثل لجهة معينة أو شخص معين
khlu:en khnom	«أنا»	تعبير عن الفردية دون رابطة اجتماعية («أنا ذاتي»)

وفي نظام أشكال المخاطبة المتعارف عليها في اللغة الفيتنامية يفرَّق بين أصناف واضحة من المكانة الاجتماعية للنساء والرجال. وهذا يميّز لغا جنوب شرق اسيا التي يتوضح في تراكيبها النحوية والصرفية والمعجمية التفريق اللغوي للمكانة الاجتماعية بصورة عامة

وكما يظهر في ثنائية لغة الرجال والنساء (في لغة الخمير على سبيل المثال تعني cah «نعم» في حين أنّ «نعم» في لغة النساء تعني ba:t).

con مخاطبة طفل من قبل الأبوين والجدين؛ هذا الشكل من المخاطبة يبقى لنفس الشخص حتى بعد أن يبلغ سن الرشد.

co مخاطبة فتاة وأمرأة غير متزوجة.

chi مخاطبة امرأة في سن ٣٠ فما فوق (يستخدم بين الأخوة والأخوات أيضاً).

ba مخاطبة امرأة في سن ٥٠ فما فوق، علاوة على أنه لقب شرف أنثوي (على سبيل المثال للمناضلات الفيتناميات من أجل الحرية (Ba Trung) اللواتي ثرن في القرن الأول بعد الميلاد ضد الحكم الأجنبي الصيني).

ong مخاطبة رجل في سن ٥٠ فما فوق، علاوة على أنه لقب شرف ذكوري.

em مخاطبة الأخ أو الأخت الأصغر من الأكبر.

anh مخاطبة الأخ أو الأخت الأكبر من قبل الأخ الأصغر.

ثم إنّ تصنيف لغات العالم حسب ظروف تقاربها في مختلف المناطق يقدم في الوقت نفسه قالباً خاصاً لا يتماثل مع قرابة اللغة أو مع نوع تركيبها. إن تجميع مزايا تقارب وتشابه التراكيب في بناء اللغات التي كانت ترتبط مع بعضها البعض بعلاقات طويلة الأمد لا يخضع إلى نوع من التلقائية. وهذا لا يعني أبداً أنّ كل لغة من لغات

العالم كانت قد ارتبطت في وقت من الأوقات بنوع من العلاقة مع لغات أخرى. مع هذا فإنّ الكثير من اللغات تتميّز بتراكيب تدلل على ارتباطها بعلاقات قرابة محلية مع لغات أخرى.

قام الناس بفترة مبكرة بمتابعة وملاحقة التأثير المتبادل لنظام الأصوات والبناء النحوي للغات، لكن هذه المراقبات اللغوية لم تجر معالجتها علمياً ونظامياً إلاّ في وقت متأخر بعض الشيء. إنّ إلقاء نظرة سريعة على تاريخ العلوم ترينا أنّ تاريخ الأفكار المتعلقة بالصلات اللغوية لها تقاليد مليئة بالفخر، لا بل إنها أقدم من علم مقارنة اللغات. إن بدايات بحث يستحق صفة «الاتصالات اللغوية» ترجع إلى القرن 18.

قبل الاختراق الفعلي الذي حققته طريقة المقارنة التاريخية للغات بسنوات طويلة، طوّر عالم اللغات الإسباني لورنسو هرفاس إي پاندورو Lorenzo Hervàs y Panduro (1809 - 1735) أول نظرية تعالج موضوع العلاقات اللغوية. وعلى الرغم من المديح الذي أُغدق عليه من معاصريه ومن علماء القرن التاسع عشر، لم يجر «كشف» الخدمات الجليلة التي قدمها هرفاس لعلم اللغة إلا قبل فترة وجيزة (راجع التفاصيل لدى Haarmann 1997c). وفي موسوعته العامة الواقعة في واحد وعشرين مجلداً (..Idea dell'Universo الصادرة ما بين 1778 و1787 في سيسينا) التي تعالج خمسة مجلدات منها (المجلدات 17 إلى 21) حصراً موضوعات تدور حول اللغة، يحلل هرفاس ظواهر

الاقتباسات المعجمية، علاوة على المؤثرات الصوتية والمعجمية. ومما يثير الاهتمام هو أنّ المعارف التي توصل إليها هرفاس عن المؤثرات الجوهرية الأساسية (على سبيل المثال تأثيرات الأتروسكية في اللغة الإيطالية، والباسكية في اللغة الإسبانية، والكلتية في اللغة الفرنسية) توصل إليها بعد عقود طويلة الباحث الإيطالي غرازياديو إيزايا آسكولي Graziadio Isaia Ascoli في شكل مماثل تقريبا (Tagliavini 1968: 120 f. Coseriu 1978).

وفي تاريخ العلاقات اللغوية ظهر أيضاً اتجاه خاص في البحث العلمي الذي يناقش مشكلة العلاقات في مناطق التقاء اللغات والذي يسمى (علم مناطق اللغات). ومنذ منتصف القرن التاسع عشر تنبه المرء إلى ظواهر التوافق بين اللغات المتجاورة جغرافياً، وشهد القرن العشرين نشوء الدراسات الكلاسيكية في هذا المجال كما لدى ياكوبسون Jakobson (1931)، وليفي Lewy (1942)، وبيكر Becker (1948). وما يتعلق بوجود التوافقات الطوبولوجية في اللغات المتجاورة، تواجهنا في أدبيات البحث العلمي إلى حد ما مقولات متطرفة كتلك العائدة إلى فاغنر Wagner (1959: 241): «إنّ كل لغة لها صلة قرابة طوبولوجية مع اللغة التي تجاورها». يعني هذا إمكانية الإدعاء بوجود علاقة تاريخية بين كل لغة مع لغة البلد المجاور والتي تتمخض في نتائجها عن حدوث تقاربات في تراكيب هذه اللغات.

ولقد أصبحت الدراسات المقارنة للغات البلقان رائداً في مجال

تطوير مفاهيم المناطق اللغوية. حيث تحولت عصبة لغات البلقان إلى حالة نموذجية منهجية للبحث العلمي الحديث (Schaller 1975: 96 ff)، وفي كل مرة يتم فيها التطرق علمياً إلى مصطلح «عصبة اللغات» تصبح لغات البلقان مثالاً رائعاً يستحق الذكر (على سبيل المثال Masica 1992). غير أنّ رايتر Reiter (194: 30 f) شكك في مبررات بحوث «عصبة اللغات» بتحذيره من تشوش التراكيب العامة للغة من اللغات عند التأكيد الأحادي الجانب على مزايا «عصبة اللغات».

حصلت بحوث الأماكن اللغوية مؤخراً على دعم يقوم على أعمال تتعلق بنظرية التقارب التي يجري بواسطتها توضيح تطور التقنيات المتقاربة للغات نتيجة لظروف الاتصالات بين هذه اللغات. ثم إنّ ديناميكية التقارب للغات ذات العلاقة المتبادلة يمكن أن يكون لها مفعول تجديدي أو كابح أيضاً، لأنّ الأمر لا يتعلق فقط ببحث المستجدات المشتركة التي تحصل في منطقة الاتصالات اللغوية، بل التثبت من تأثير نفوذ لغة على أخرى في كبح تطورات معينة أو تثبيت تقنيات قائمة. بواسطة بعض الدراسات الجديدة حول العلاقات بين اللغات الهندية - الأوروبية واللغات البلطيقية الفنلندية في منطقة بحر البلطيق (على سبيل المثال Östman/Raukko 1995, Wiik 1995) تتم الإشارة إلى مسار الاتجاه نحو نظرية تقارب ديناميكية أكثر عطاء ومرونة من مفهوم «عصبة اللغات» التقليدي.

لقد تطور التقارب الموجود بين التراكيب المميّزة للغات منطقة

بحر البلطيق إثر صلات متبادلة دامت مئات السنين. وكان التعامل التجاري مكثفاً بين المزارعين في وسط أوروبا منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد وبين شعوب الصيادين في منطقة بحر البلطيق الذين كانوا يتعاملون بتجارة الكهرمان وحجر الصوان والجلود والدهون والأعشاب الطبية. علاوة على ذلك كان مزارعو الحبوب يملكون صلات اجتماعية وثيقة مع الجماعات التي كانت تعيش في الشمال على مهنة الصيد والتجميع. ثم إنّ شراء الفتيات لغرض الزواج من الشمال وجلبهن إلى المجمعات السكنية في الجنوب وما نتج عن ذلك من ذرية مشتركة أحدث على المدى الطويل نوعاً من التقارب بين جينات الطرفين. وبهذه الطريقة حدث التمازج الثقافي بين مناطق اللغات الهندية - الأوروبية في الجنوب وبين لغات بحر البلطيق الفنلندية في الشمال (Suhonen 1995).

ولا يزال بالإمكان العثور في الفروع اللغوية الحديثة على بعض المؤثرات الفنلندية - الأوغرية (على سبيل المثال التأكيد في النطق على الجزء الأول من الكلمات في الجرمانية)، ومن ناحية أخرى مؤثرات لغات الجنوب على فنلندية بحر البلطيق (على سبيل المثال نظام الإعراب لتبدل الدرجات الحالات في الفنلندية؛ على سبيل المثال تبدل الأصل كما في lento «طيران/ في حالة رفع الفعل»: lennon «طيران/ في حالة جر الفعل»). إنّ تغيير أصل الكلمة ناحية تتميّز بها عادة اللغات الهندية - الأوروبية (على سبيل المثال باللاتينية lex «قانون/ في حالة الرفع»: legis «قانون/ في حالة الجر»). وتعود

أولى المحاولات المبذولة لإجراء تصنيف عام للغات الأوروبية وفق وجهات نظر المناطق اللغوية إلى العلاّمة ليفي Lewy (1942). إنّ توزيع اللغات الذي قام به ليفي على خمس مناطق قد أُعيد النظر فيه من قبل البحوث اللغوية الحديثة (على سبيل المثال Haarmann 1976b)، حيث يجري هنا التفريق بين ثمانية أنواع من المناطق (عُصب لغوية) تنحصر ستة منها في أوروبا، واثنتان دُوليتان لا تساهم فيها لغات أوروبية وحسب بل لغات من خارج أوروبا أيضاً. وبالتفصيل يتعلق الأمر بالمجموعات التالية (حسب تصنيف Haarmann 1977: 111 ff).

1) نموذج منطقة البلقان

(الرومانية، البلغارية، المقدونية، الألبانية، اليونانية، الصربية).

2) نموذج مناطق لغات الدانوب

(الألمانية، التشيكية، السلوفاكية، الهنغارية).

3) نموذج منطقة البلطيق

(العصبة الداخلية: أستونيا، لتفيا، لثوانيا، فويتية؛ العصبة الخارجية: لغات العصبة الداخلية + الكاشوبية، الدنماركية، السويدية، النرويجية).

4) نموذج المنطقة البريطانية

(الإنجليزية، الولزية، الكورنية، البريتونية، الإيرلندية، الاسكتلندية - الغالية، مانكس - غاليه).

5) نموذج مناطق (SAE = Standard Average European «المواصفة القياسية لتركيب لغوي أوروبي عادي»)

(الألمانية، الإنجليزية، الفرنسية، الإسبانية، الإيطالية، السويدية؛ ومع انتمائية موضع التساؤل: الروسية!).

6) نموذج مناطق لغات فولغا - كاما

(اللغات الفنلندية - الأوغرية: فويتاكية، ماري؛ اللغات التركية: التترية، التشوفاشية، الباشكيرية).

7) نموذج مناطق اللغات الأوراسية (أوروبا - آسيا)

(الروسية، اللغات الفنلندية - الأوغرية والتركية في القسم الأوروبي والسيبيري من روسيا، لغات ساموييدية في سيبيريا).

8) نموذج مناطق اللغات الأوروأفريقية

(توسيع نموذج المنطقة البريطانية مع ضم لغات البربر)

وعند تصنيف لغات أفريقيا حسب مزايا نظامها الصوتي وتركيبها القواعدي والنحوي والمعجمي، تظهر على الأغلب تقاطعات في القرابة التاريخية وأنواع تراكيب اللغات في الكثير من المناطق، مما لا يمكن بصورة معقولة إجراء فصل تام بين علاقات النسب أو المبادىء التيبولوجية لهذه اللغات. لا بل هناك مناطق يعتمد فيها تصنيف اللغات في المقام الأول على معايير المناطق التي تتواجد فيها.

ومن الأمثلة على ذلك لغات السودان التي كان أبوالعلوم اللغوية

الأفريقية ديدريش فسترمان Diedrich Westermann أول من اكتشف التطورات في علاقات القرابة بينها. وهناك الكثير من الأمور التي تشير إلى «أنّ (فسترمان) كان ينظر إلى هذه المجموعة (لغات السودان) كـ «عصبة لغات» منطبعة بتشابه التراكيب أكثر من النظر إليها كأسرة لغوية تتسم بقرابة النسب» (Heine/Vossen 1981: 418).

تم التعرف على مناطق التقارب داخل حزام عريض يمتد من غربي أفريقيا إلى شرقها (راجع الشكل 32).

ومن الأمور التي تميّز هذه العصب اللغوية هو هيمنة نوع معيّن من أنواع ترتيب الكلمات في الجمل. في العُصب اللغوية الأفريقية يظهر التوزيع التالي:

عصبة اللغة منطقة التقارب اللغوي	نوع ترتيب الكلمات في الجملة
تشاد – أثيوبيا	SOV
وادي الريف	VSO
أوبانغي	SVO
فولتا – نيجر	SVO او SOV
السنغال – نيجر	SVO او SOV
دوسّو – نيكّي	SVO او SOV

S = فاعل، O = مفعول به، V = فعل.

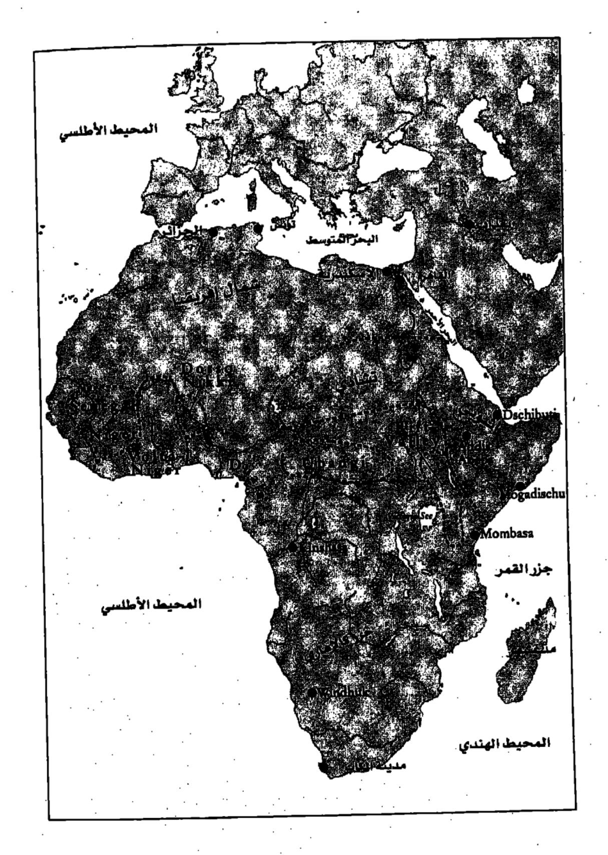
(الپيجين: لغة مبسطة تستخدم عادة للتفاهم بين الشعوب الناطقة بلغات مختلفة وبخاصة: رطانة إنجليزية تستخدم في الأغراض التجارية في الموانىء الصينية مثلاً - المترجم).

(الكرييولي: أحد مواليد جزر الهند الغربية أو أمريكا اللاتينية المنحدرين من أصل أوروبي أو من أصل إسباني بخاصة، أو أبيض منحدر من نزلاء بعض الولايات المتحدة الفرنسيين أو الإسبان الأولين ولكنه لا يزال يحتفظ بلغته وثقافته الأصليتين، أو شخص يجري في عرقه مزيج من الدم الفرنسي (أو الإسباني) والزنجي يتكلم بلهجة من لهجات الفرنسية أو الإسبانية. والكرييولية هي الفرنسية التي ينطق بها كثير من الزنوج في الجزء الجنوبي من لويزيانا مثلاً - المترجم).

في جميع أرجاء العالم ركزت بحوث الاتصالات اللغوية اهتماماتها على كشف الاتصالات الثقافية القائمة في مراحل ما قبل التاريخ من أجل العثور على تفسيرات لنشوء اللغات الحديثة المنبثقة من عمليات دمج وانصهار لغوية. وتتركز هذه البحوث بصورة خاصة وبكثافة على تلك اللغات التي لم يتمكن المرء حتى الآن من العثور على علاقة قرابة جينية بينها وبين لغات أخرى.

وفي هذا الصدد لا يتركز الاهتمام على اللغات المعروفة تقليدياً بأنها حصيلة إندماجات لغوية مثل لغة الباسك، بل على لغات أخرى

الشكل 32: العُصب اللغوية الافريقية



كاليابانية التي خضعت بناء عليه إلى بحوث من أجل معرفة العلاقات اللغوية ما قبل التاريخ التي كانت سبب نشوئها وحصولها على خطوط قسماتها الخاصة بها (Maher 1996). ويقوم مثل هذا الافتراض على معارف أركيولوجية وجينية بشرية تدور حول انتشار آينو Ainu الذين يعرف المرء عنهم حالياً بأنهم كانوا قد اندفعوا للسكن في الجنوب أيضاً حيث كانوا يقطنون القسم الأكبر من جزيرة هُنشو Honshu. بقايا شعب الآينو يُعثر عليهم حالياً في القسم الجنوبي من ساخالين على الطرف الروسي، وفي المناطق الساحلية الشمالية في هُكيدو Hokkaido، وفي الجزء الشمالي من أرخبيل اليابان (Alpatov 1996).

وتعتبر عمليات الاندماج التي أدت إلى تطور اللغة اليابانية قديمة نسبياً. فهي تعود إلى 2000 عام على الأقل. في الوقت الذي تمكن فيه شعب آينو من المحافظة على استقلاله في القسم الشمالي من اليابان، والذي لم ينصهر في الثقافة واللغة اليابانيتين إلاّ في القرن العشرين، اندمج في القسم الأوسط من اليابان مع شوب أخرى تعود إلى فترة ما قبل التاريخ، مما أدى في نهاية المطاف إلى نشوء شعب جديد له لغة خاصة به: اليابانيون واللغة اليابانية. أما هوية السكان الآخرين المشتركين في عملية الاندماج - باستثناء شعب آينو - فغير معروفة. في صورة قسمات اليابانيين هناك علاقات واضحة مع السكان في البر السيبيري خلال المرحلة الواقعة ما قبل التاريخ.

ثم إنّ البحوث المتعلقة بعمليات الاندماج اللغوي خلال الفترة ما

قبل التاريخ هي فروع من علم الكريبولية، أي بحث اللغات الكريبولية في الوقت الحاضر. كانت اللغات الكريبولية تتمتع مدة طويلة من الزمن في العالم بسمعة غير طيبة مفادها أنّ هذه اللغات عبارة عن أنماط «فاسدة» أو «محرفة» من اللغات الثقافية الأوروبية. وعلى الرغم من أنّ الاهتمام بخصائص لغات الكريبول كان قد بدأ في القرن السابع عشر، فإنّ علوم اللغة المقارنة - التاريخية في القرن التاسع عشر لم تعترف بلغات الكريبول على أنها لغات «تستحق» البحث. وهكذا مر وقت طويل إلى أن أقدم الباحثون على تكريس أنفسهم لدراسة أنواع وضروب لغات الكريبول.

وتشكل لغات الكريبول أهمية خاصة بالنسبة للباحثين في علوم العلاقات اللغوية مثل علماء الأثنولوجيا، وكذلك بالنسبة للباحثين في هويات الشعوب (راجع هارمان الشكل 33)(*). وبغض النظر من أنّ الأعداد الكبيرة من لغات الكريبول التي تتحدثها ملايين الناس لا تعتبر هامشية في نطاق لغات العالم، فإنّ بعضها قد حصل على مكانة اللغة الرسمية. من الأمثلة على ذلك الكريبولية - الفرنسية في هايتي أو توك پيسين Talk Pisin (Talk Pidgin) في پاپوا - غينيا الجديدة. وأشهر لغات الكريبول هي القائمة على أساس إحدى اللغات الأوروبية الكولونيالية. ومن ناحية أخرى هناك أيضاً لغات كريبول ذات قاعدة خارجة عن النطاق الأوروبي تماماً (راجع المقطع التالي).

(*) للإستزادة: Rotland/ Waossen, (1981)

ولا تقتصر ظاهرة الكريبولية على العلاقة بين اللغات الأوروبية وغير الأوروبية، بل إنها موجودة أيضاً نتيجة علاقات بين لغات غير أوروبية. ومن أهم الشروط اللازمة في جميع عمليات الكريبولية، وبعيداً عن منشأ اللغات المعنية بالأمر، توفر شروط ثقافية اقتصادية إطارية من العلاقات الاجتماعية المكثفة والمؤثرات اللغوية المتبادلة في حقل ذي لغات متعددة (Valdman 1996).

الشكل **33**: نظرة عامة على لغات البيجين والكريبول (جدول مفصل)

أولاً: لغات البيجين والكريبول بالاعتماد على قاعدة لغات أوروبية
1/1 الإنجليزية
أفرو – سيمنوليّة (الولايات المتحدة الأمريكية: تكساس وأوكلاهوما؛ المكسيك؛ وهي تختلف عن الإنجليزية – الكريبولية المنتشرة في جزر البحر Sea Islands؛ تطور ذاتي مستقل منذ نحو 1760).
آوكانس (جوكا، نيوكا؛ سورينام؛ غويانا الفرنسية).
الإنجليزية – الكريبولية في البهاماس
الإنجليزية – الكريبولية في بليز (كريول)
بيسلاما (بيشلامار؛ فانواتو؛ كاليدونيا الجديدة: نويما).
بيجين الكاميرون (الساحل الغربي؛ الكاميرون: منطقة الجنوب الغربي والشمال الغربي)
البيجين – الإنجليزي – الصيني (ناورو)
الإنجليزية – الكريبولية في غويانا (كريوليسه، غوانيسه؛ غويانا: جورج تاون والمنطقة الساحلية).
الإنجليزية – الكريبولية في هواي (البيجين الإنجليزي في هواي، دا كاينا، الإنجليزية – البولينيزيه)
كريو (كريبولا؛ سيراليون، السنغال، غينيا، غينيا الاستوائية، غامبيا).
كريول (كريبولية – روبر – باميلي؛ أستراليا: المناطق الشمالية، غرب أستراليا)
الإنجليزية الكريبولية للأنتيل الصغيرة (غرنادا، توباغو، غرب الهند البريطانية)
بيجين – ليبيريا
ماتاواري (ماتوايواري، ماتاوي؛ سورينام)
نيو – نيونغا (نونغا، نوغار؛ أستراليا: جنوب غرب أستراليا).

بيجين – نيجيريا (جنوب نيجيريا)
بيجين (الإنجليزية – الكريبولية لجزر السولومون؛ السولومون)
إنجليزية – يتكارين (بيتكارين – نورفولك؛ بعض المتحدثين من الجيل الثاني يعيشون في أستراليا ونيوزيلندا)
روبونوني (الإنجليزية – الكريبولية في غويانا)
الإنجليزية – الكريبولية في سامانا (جمهورية الدومينيكان: خليج سامانا)
ساراماكان (الإنجليزية – الكريبولية في سورينام)
الإنجليزية – الكريبولية في لجزر البحر «سي آيلاندس» (غوللا، غيشيه؛ الولايات المتحدة الأمريكية: جزر أمام ساحل جورجيا)
سرانان (الإنجليزية – الكريبولية في سورينام، سرانان تونغو، تاكي – تاكي؛ سورينام، هولندا، جزر الأنتيل الهولندية)
توك بيسين (بيسين، نيو – ميلانيزيه، إنجليزية – بيجين في غينيا الجديدة؛ بابوا – غينيا الجديدة)
بيجين ممرات تورّيس البحرية (أستراليا: كوينزلاند، جزر ممرات توريس البحرية)
الإنجليزية – الكريبولية لغرب الكاريبيك (جامايكا، الأنتيل الغربية، كولومبيا: جزر سانت آندريه وبروفيدينسيا)

2/1 الفرنسية

الفرنسية – الغويانية (باتوا، باتوا؛ غويانا الفرنسية)
الفرنسية – الكريبولية في هايتي (هايتي، جمهورية الدومينيكان)
كالدوشا (كالدوش؛ كاليدونيا الجديدة: آمايا، قرب الحدود مع غويانا الفرنسية)
الفرنسية – الكريبولية في جزر الأنتيل الصغيرة (باتوا، كويبول؛ غواديلوب، مارتينيك، سانت لوتشيا، دومينيكا، فرنسا)
الفرنسية – الكريبولية في لويزيانا (الولايات المتحدة الأمريكية، شرق تكساس، كاليفورنيا: ساكرامنتو)
موريسن (كريبوله؛ موريشيوس)
الفرنسية – الكريبولية في ريونيون (ريونيون)
الفرنسية – الكريبولية في سان ميغيل (پاناما)
سسلوا (الفرنسية – الكريبولية للسيشيل؛ السيشيل: تروميلين، ليفا؛ المنطقة البريطانية في المحيط الهندي: أرخبيل شاغوس)
تي بوا (الفرنسية الأناميتية، البيجين الفرنسي الفيتنامي؛ مستخدم ما بين 1862 و1954؛ فيتنام)
الفرنسية – الكريبولية في ترينيداد (ترينيداد؛ ترينيداد: المناطق الجبلية الشمالية، المنطقة الساحلية؛ توباغو)

3/1 البرتغالية

كرافوندو – كريبولية (البرتغالية الكريبولية في كافوندو؛ البرازيل: كافوندو، 220 كم من ساو باولو؛ لغة سرية)

غريولو (برتغالية – كريبولية في غرب أفريقيا؛ غينيا – بيساو: جزر بيجاغوس، السنغال: زيغوينشور؛ كابفردن؛ غامبيا)

غريولو ساو تومية (برتغالية – كريبولية في ساو تومية؛ ساو تومية وبرنسيبال)

فا دامبو (برتغالية – كريبولية في غينيا الاستوائية، باغالو؛ غينيا الاستوائية: آنوبون)

الهندية – البرتغالية (برتغالية – كريبولية في سريلانكا؛ سريلانكا؛ منطقة باتيكالوا؛ انقرضت في الهند: غوا)

كورلاي – كريبولية (الهند: قرب بومباي)

الماكانيزية (برتغالية – كريبولية في ماكاو؛ لم تعد تستعمل في ماكاو؛ نحو 4000 متحدث في هونغ كونغ؛ علاوة على متحدثين آخرين في الولايات المتحدة الأمريكية)

مالاكيّة (بابيا كريستانغ، برتغالية – كريبولية على طول المضايق البحرية في ملقا؛ ماليزيا، البر القاري)

بابيامنتو (بابيامنتو، بابيام، كوراجولينو، كوراسيسه؛ جزر الأنتيل الهولندية، هولندا، بورتوريكو، جزر العذراء التابعة للولايات المتحدة)

ترناتينو (برتغالية – كريبولية لجزر الملوك؛ منقرضة؛ إندونيسيا: شمال مالوكو/ الملوك، جزيرة ترنانتا غرب هالماهيرا)

بيجين – تيمور (منقرضة؛ إندونيسيا: نوسا تنغارا، جزيرة تيمور)

4/1 الهولندية

كريبولية – هولندية في بريبسا (غويانا؛ وادي نهر بريبسا)

نيغرهولاندس (الولايات المتحدة الأمريكية: جزر العذراء، بورتوريكو)

كريبولية – هولندية في سلبي (غويانا: وادي نهر إسكويبو)

5/1 الإسبانية

شافاكانو (زامبوآنغوينو؛ الفيليبين: منداناو، زامبوآنغا؛ كافيتا، ترنات وإرميتا قرب مانيلا؛ ماليزيا: سباح)

بالنغويرو (بالنغ، لنغوا؛ كولومبيا: جنوب شرق كارتاغينا)

5/1 الإسبانية

شافاكانو (زامبوآنغوينو؛ الفيليبين: منداناو، زامبوآنغا؛ كافيتا، ترنات وإرميتا قرب مانيلا؛ ماليزيا: سباح)

بالنغويرو (بالنغ، لنغوا؛ كولومبيا: جنوب شرق كارتاغينا)

6/1 الألمانية

أونزردويتش (كريبولية – راباول؛ بابوا – غينيا الجديدة: غرب نيوبريتن؛ أستراليا: جنوب شرق كوينسلاند؛ نشأت في حضن الزيجات المختلطة بين الپاپوانيين والألمان (فوناپوپ) خلال الفترة الكولونيالية الألمانية)

7/1 روسنورسك

(لغة النرويجيين الذين كانوا قد مارسوا التجارة مع الروس في شبه جزيرة كولا من نهاية القرن 18 حتى عام 1917؛ مورمانسك كانت مركزاً تجارياً يقع في أقصى الشمال؛ في عام 1917 تم إجلاء التجار النرويجيين من مورمانسك).

ثانياً: لغات البيجين والكريبولية على قاعدة لغات في أفريقيا

1/2 سواحلي

كوتشي – سواخلي (السواحلي الأسيوي؛ كينيا، كريبولية – سواحلية مستعملة من قبل الآسيويين الجنوبيين)

2/2 العربية

كريبولية – سودانية جوبا – عربية، عربية بحر الغزال؛ جنوب السودان: إكواتوريا، بحر الغزال؛ مناطق واقعة على النيل الأعلى)

كينوبي (نوبي، كريبولية – عربية، منذ نحو 1900 لها علاقة مع الكريبولية – السودانية؛ كينيا: نيروبي، كيبيرا؛ أوغاندا: منطقة غرب النيل)

3/2 الكونغو

كيتوبا (كيكونغو يالتا، كيلتا؛ زائير: باس – زائير، جنوب باندوندو)

مونوكوتوبا (مونوكوتوبا؛ جنوب الكونغو: غرب برازفيل، حتى مايوكو)

4/2 حوسا

فاناغلو (فاناكالو، فاناغولو، فانيكولو، شيلاپالاپا، كيتشن كافير، ماين كافير، پيكي، يسيپيكي، لولولو؛ جنوب أفريقيا، سامبيا)

5/2 نغباندي

سانغو (سانغهو؛ 0.2 مليون متحدث/ 4.9 مليون متحدث؛ جمهورية أفريقيا الوسطى، زائير، تشاد، كاميرون)

6/2 أفريقانية

أورلانس (كريبولية – أفريقانية في جنوب أفريقيا)

ثالثاً: لغات البيجين والكريبيول على قاعدة لغات آسيوية

1/3 الملايوية

بتاوي (كريبولية – مالايية في جاكارتا؛ إندونيسيا: جاوا، جاكارتا)

كريبولية – مالايية في سريلانكا (ميلايو بهاسا؛ سريلانكا: لغة محلية في المدن)

2/3 موتو

هيري موتو (بوليس موتو، پيجين موتو، هيري؛ پاپوا – غينيا الجديدة: المنطقة الوسطى، منطقة پورت مورسبي، أورو، سنترال، غولف، ملنا بي؛ المناطق الغربية)

3/3 أسّامية

پيجين – ناغا (ناغاميزيّة، ناغاسامسيّة، كاجاري – بنغالي؛ الهند: ناغالاند، ديماپور)

رابعاً: لغات البيجين والكرييول على قاعدة لغات أمريكانية

1/4 چينوك

چينوك واوا (چينوك – جاركون، چينوك – پيجين؛ كندا: كولومبيا البريطانية، الشمال الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية)

2/4 كريه

ميتشيف (كرييه – الفرنسية؛ الولايات المتحدة الأمريكية؛ كندا)

3/4 موسكوغيه

موبيليان (موبيليان – جارغون؛ الولايات المتحدة الأمريكية: غرب الوسط الغربي)

تحقق مثل هذه الشروط في الكثير من مناطق العالم نتيجة الاستيراد (غير الطوعي) للغات الأوروبية، مما أدى إلى تطور غالبية لغات الكرييول بالاعتماد على قاعدة أهم اللغات الكولونيالية تاريخياً وهي الإنجليزية، الفرنسية، البرتغالية، الإسبانية والهولندية. وتشير حقيقة وجود لغات الكرييول إلى المقاومة التي أبدتها اللغات الأصلية المحلية عند احتكاكها باللغات الكولونيالية. إذن أنّ الشعوب الواقعة عبر البحار لم تنصهر دون مقاومة، لا بل «دمغت» تراكيب اللغات الأجنبية المستوردة بـ «ختم» لغوي محلي.

كانت نتيجة هذا الاندماج ظهور نوع من اللغة انفصل عن قاعدته (لغة كولونيالية) وحصل على «صورة قسمات» خاصة به نتيجة التحوّل

الذي تعرّضت له اللغة الكولونيالية في «أفواه غير الأوروبيين» (أي في التأقلم الديناميكي مع العادات اللغوية المحلية). بناء عليه نشأت لغة بيجين، نيجيريا Nigeria - Pidgin في جنوب نيجيريا، والكريول Kriol في أستراليا، وسسلوا Seselwa في السيشيل، والهندية – البرتغالية Indo - Portugiesisch في سريلانكا، وپالينغويرو Palenquero في كولومبيا، ونيغرهولاندس Negerhollands في بويرتو ريكو وإلى آخره.

ولا تختلف لغات البيجين عن لغات الكرييول بتراكيبها المختلفة أو من ناحية عمليات الاندماج المختلفة التي تعرضت لها (Mühlhäuser 1996) وحسب، بل إنّ ما يفصل هذين الصنفين من اللغات عن بعضهما البعض هي معايير وظائفية. حيث تُستخدم لغة البيجين كلغة ثانية، في حين أنّ مكانة البيجين تكون ابتدائية. لذا فإنّ «البجننة» هي الشرط الأساسي لتحول أي وضع لغوي إلى كرييولية.

عندما كان الإقطاعيون ومُلّاك الأراضي وأزلامهم خلال الفترة الكولونيالية يتواصلون في مزارعهم مع الأيدي العاملة المحلية، كانوا يفعلون ذلك باستخدام اللغات الكولونيالية المهيمنة. وكان العمال يضطرون إلى تعلم بعض المبادىء الأولية من اللغة الكولونيالية لهذا الغرض بالذات. ونظراً لأن اكتساب اللغة كان يحدث دون رقيب، أي دون وجود نظم مدرسية عامة تكفل الرقابة الصحيحة لتعلم اللغة الأجنبية، تعرضت تراكيب وبنية اللغات الكولونيالية خلال عملية التحول إلى لغة البيجين إلى تبسيط كبير، ولم يكن هذا «التقليل من

القيمة» يتعلق بنطق الكلمات والبنية النحوية وحسب، بل كذلك بالمفردات التي كانت لا تقتصر على تبني الاشتقاقات المأخوذة من اللغة الأم، علماً أنها (الكلمات المشتقة) شهدت تبدلات متنوعة نتيجة تغيير تراكيب الكلمات.

ويعود انتشار البيجين في المناطق الكولونيالية السابقة إلى عمليات منتهية تاريخياً. ومع هذا فبإمكان المرء اليوم مراقبة عمليات التحوّل إلى لغة البيجين نظراً لأنّ شروط تطورها الديناميكي غير مرتبطة أو محصورة بفترات زمنية معينة أو بتجارب كولونيالية. إنّ اكتساب الألمانية كلغة أجنبية من قبل العمال الأتراك من الجيل الأول الذين هاجروا إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية ملائم تماماً لتوضيح عملية تحول لغة من اللغات إلى لغة البيجين (Stutterheim 1986).

بيد أنّ البيجين الألمانية («ألمانيّة العمال الضيوف») التي يتحدثها الجيل الذي كان قد تعلّم لغة البلد المضيف خلال التعامل اليومي مع الألمان وليس عن طريق تعلّم قراءة وكتابة اللغة الألمانية، تنحصر بهذا الجيل فقط الذي توجد غالبيته حالياً في سن التقاعد. ويتحدث جميع أفرد الجيل الثاني من المولودين في ألمانيا أو الذين هاجروا إلى ألمانيا في سن مبكّر وتعلموا الألمانية في المدارس، الألمانية كلغة ثانية بطلاقة إلى جانب استخدام لغتهم الأصلية (التركية) ودون الرطانة المعروفة في لغة البيجين.

يتم التحدث بلغات البيجين منذ نشأتها كلغة ثانية والتي تؤدي بعض

الوظائف المعينة (أي استخدامها كلغة مشتركة lingua franca). في الكاميرون على سبيل المثال يتحدث ما يقرب من مليوني شخص لغة الكاميرون - بيجين (Wes Cos) كلغة مشتركة، أي ما يقرب من نصف السكان في مناطق الساحل الغربي (Wes Cos).

لكن لغة البيجين تستطيع أن تغيّر مكانتها والتحوّل إلى لغة أصلية (أم). إنّ توك بيسين مثلاً، وهي بيجين إنجليزي كان يُستخدم في الأصل حصراً بالشكل الشفاهي للتواصل بين البيض والسكان المحليين في پاپوا - غينيا الجديدة، غيّرت مكانتها وارتقت لتصبح لغة الدولة الرسمية. ولا يقوم اليوم نحو مليوني پاپواني من أصحاب مختلف اللغات الأصلية باستخدام لغة توك بيسين كلغة مشتركة في القسم الشمالي من البلاد بصورة رئيسية وحسب، بل إنّ توك بيسين يتم استعمالها كلغة للكتابة. ثم إنّ توك بيسين، كلغة رسمية وكلغة تجارية بشكليها المحكي والمكتوب، هي اللغة الغالبة الاستعمال في پاپوا - غينيا الجديدة.

يبلغ عدد الذين تعتبر توك بيسين لغتهم الأم نحو 50000 شخص، والتي تنتشر بهذه الصفة في صفوف سكان پاپوا - غينيا الجديدة من الذين يعيشون في محيط حضري متعدد اللغات كما أنّ الانتشار كلغة أم يحوّل لغة البيجين إلى لغة كريبول خاصة وأنه بالنسبة إلى هذه العملية تعتبر حيازة اللغة كلغة أصلية هي معيار التفريق الحقيقي. وهكذا فإنّ نفس اللغة يمكنها، وبالاعتماد على الشروط الإيكولوجية

لبيئة الصلات اللغوية أداء وظائف لغة بيجين (ليس لغة أم في الاستخدام كلغة مشتركة)، أو أداء لغة كريبول (اللغة الأم المستخدمة لمختلف أغراض الاتصالات).

وعلى غرار توك پيسين تمتلك لغات أخرى مكانة متناقضة كما هو الحال بالنسبة إلى بيجين - نيجيريا وهي ضرب من الإنجليزية وتستعمل كلغة عامة بهذه الصفة من قبل النيجريين على اختلاف لغاتهم الأصلية، علاوة على استخدامها كلغة اتصالات بين الأوروبيين والأفارقة. أما كلغة أم فهي تمثل نوعاً من الإنجليزية ذي صبغة كريبولية؛ وبهذه الصفة تتزايد أهمية النيجيرية - الكريبولية المستخدمة كلغة للآداب ولوسائل الإعلام.

تطورت لغات البيجين والكريبول في جميع قارات العالم (راجع الشكل 34a)(*). وفي مناطق معينة يمكن ملاحظة تركيز اللغات من الصنفين: في حوض الكاريبي (راجع الشكل 34b). وفي القسم الشمالي من أمريكا الجنوبية، وفي غرب وشرق أفريقيا، وفي جنوب شرق آسيا، وپاپوا - غينيا الجديدة وفي شمال أستراليا. وخلال القرن التاسع عشر نشأت أكثر من 170 لغة بيجين وكريبول (Hancock 1981). وتعتبر لغات الكريبول القائمة على أُسس لغات أوروبية مستوردة أشهر

(*) راجع: هارمان، ذكر سابقاً، ص 275, 276 تظهر في المصورين نقاط انتشار وتمركز اللهجات المختلطة في أنحاء العالم بتأثير التوسع اللغوي الأوروبي مرافقاً للتوسع الكولونيالي، للإستزادة:
Rickford J.L (1992)
Perrot, (1981)

الشكل .Abb 34

أ) توزع لغات البيجين والكريول

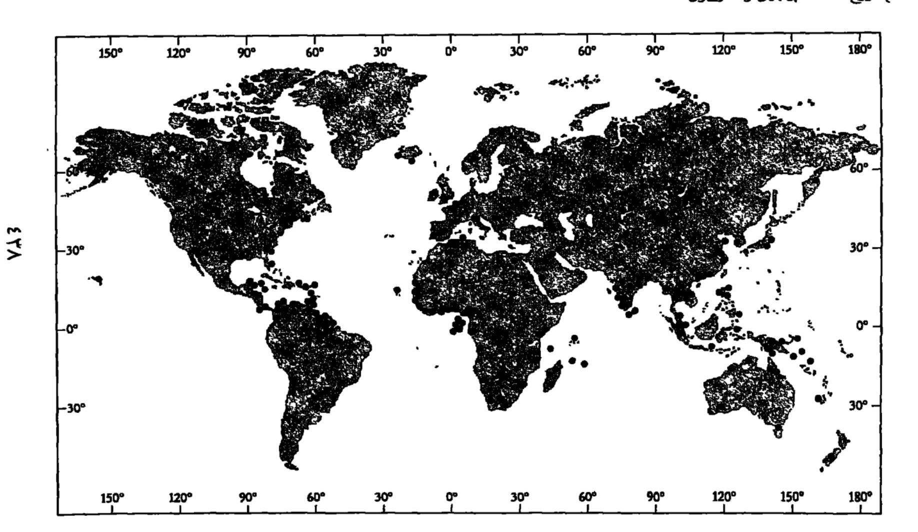
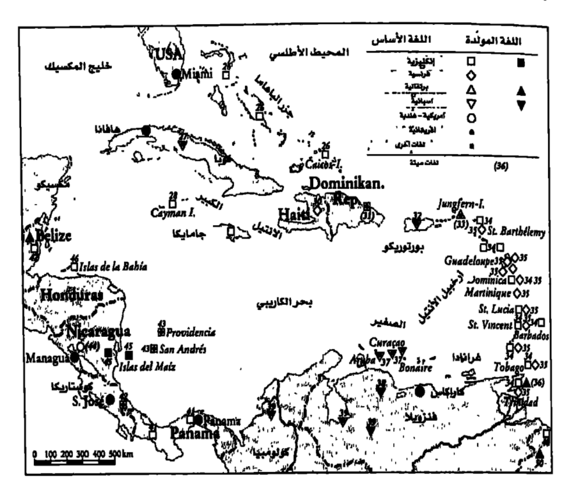


Abb 34. الشكل

ب) توزع لغات البيجين والكريول في حوض الكاريبي



وأحسن اللغات التي جرى بحثها في العالم. وعند مراعاة لغات البيجين والكريول المستخدمة في القرن العشرين، نرى أنّ 55 لغة منها تعود إلى مناشىء أوروبية والموزعة كالتالي: الإنجليزية 26، الفرنسية 12، البرتغالية 11، الهولندية 3، الإسبانية 2، الألمانية 1.

ولا تتولد الشروط اللازمة لـ «بجننة» أو «كريلة» اللغات من احتكاك لغات أوروبية مع وسائل اتصالات (لغات) عبر البحار وما ينتج عن ذلك من شروط اتصالات بين الإثنيات المختلفة فقط. بل هناك

سلسلة من لغات الكريول التي لا تشترك اللغات الأوروبية في نشأتها. ينطبق هذا على لغات الكريول المعتمدة على اللغة العربية (على سبيل المثال الكريولية - السودانية)، وعلى السواحلي (على سبيل المثال كوتشي - سواحلي Cutchi - Swahili في كينيا)، والكونغو (على سبيل المثال كيتوبا Kituba في كونغو/ زائير)، والكسوها Xhosa (فاناغولو Fanagolo في جنوب أفريقيا) والنغباندي Ngbandi (سانجو Sango في زائير) في أفريقيا، وبالنسبة لتلك المعتمدة على أُسس اللغة المالايية (على سبيل المثال بتاوي Betawi في جاكارتا)، وموتو Moto (هيري موتو Hiri Motu في پاپوا - غينيا الجديدة)، والأساماسيّة Assamesische (ناغا - پيجين Naga Pidgin في الهند) في آسيا، وبالنسبة إلى تلك القائمة على أُسس لغات الهنود مثل شينوك Chinook، كريه Cree أو موسكوغيه Muskogee في شمال أمريكا (الولايات المتحدة الأمريكية، كندا).

وتعتبر مكانة أورلانس Oorlans في أفريقيا الجنوبية مكانة خاصة نظراً لأنّ تصنيفها كلغة كريول على أُسس أوروبية أو أفريقية يعتبر مسألة تعريف فقط. فإذا ما عرّف المرء الأفريقانية Afrikaans على أنها لغة ذات منبت ألماني، حينئذ تعتبر أورلانس لغة كريول معتمدة على قاعدة أوروبية. أما إذا انطلق المرء - كما كان الحال عليه في السبعينيات - من أنّ الأفريقانية نفسها هي ضرب كريولي من الهولندية، حينئذ تعتبر أورلانس حصيلة «پجننة» ثانوية ونتيجة عملية ثانوية للتحول إلى الكريولية. ولا يمكن للاتصالات الجارية بين الدول

والإثنيات المختلفة الاستغناء أبداً عن الكثير من لغات الپيجين والكريبول القائمة على أُسس لغات أوروبية. على سبيل المثال يمكن للمرء أن يتصوّر أنّ الإنجليزية هي لغة إلدولة لپاپوا - غينيا الجديدة، أو أنّ الفرنسية هي لغة الدولة لهايتي. مع هذا فإنّ توك پيسين في پاپوا - غينيا الجديدة أو الكريبولية الفرنسية في هايتي لهما، على الرغم من أماكن انتشارهما المحدودة، منافع مقابل اللغات العالمية متمثّلة في أنهما تقدمان لسكان المناطق المعنية الشعور بأنهما إثنية حميمية قائمة بذاتها، على غرار النوع السويسري من اللغة الألمانية Schwyzertütsch بالنسبة للسويسريين أو اللتسبورغية Letzeburgische بالنسبة للمواطنين اللكسمبورغيين. إنّ المسحة المحلية المشجعة للهوية تلاقي الكثير من الإقبال أكثر من أي وقت مضى، مما يقوي مكانة الپيجين والكريبول في جميع أرجاء العالم.

منذ أكثر من مائة عام يوجد اتفاق في الرأي على الميزة العامة الأعم للغات الپيجين والكريبول والمتمثلة في أن هدف هذه اللغات هو تبسيط تراكيب اللغات الأصلية المعتمدة عليها. في نظام الأصوات يجري تفكيك الحروف الساكنة، وفي النحو نهايات التصريف، مع التخلّي عن الجنس والتعدد (على سبيل المثال في الپيجين - الفرنسي في فيتنام؛ Reinecke 1971). ومن الممكن أن يؤدي تبسيط التراكيب المعجمية إلى المحافظة على بضع مئات فقط من المفردات اللغوية الأساسية. وفي التركيب اللغوي لعالم المصطلحات يجري استحداث

اصطلاحات جديدة بواسطة إعادة وصف وكتابة المصطلحات مما يؤدي إلى قيام وصف جديد نتيجة المؤالفة بين مصطلحات معروفة؛ على سبيل المثال في لغة هيري موتو kuku ania gauna «غليون» (حرفياً «دخان - طعام - شيء») أو lahi gabua ganua «عود ثقاب» (حرفياً «إشعال نار - شيء»).

إنّ الاتجاه إلى تبسيط التركيب ليس المبدأ التنظيمي الوحيد الذي يصف لغات البيجين والكرييول. في لغات البيجين تظهر ظواهر قواعدية نحوية ومقطعية لا يمكن توضيحها بالرجوع إلى تراكيب اللغة الأصلية، لأننا هنا نتعامل مع خصائص لغات أُم محلية فرضت نفسها تجاه العناصر التركيبية للغات الأصلية. مثال على ذلك هو استخدام ضمير الشخص الثالث للجميع (dem) في الإنجليزية - الكرييولية في جامايكا الذي يستعمل كاسم في الجملة والمؤشر إلى الجمع (على سبيل المثال de man dem «الرجال»). إنّ هذه الميزة الإعرابية الفريدة قد تكون خاضعة ربما لتأثير إيفا Ewe أو توي Twi (Holm 1988: 193).

الفصل السادس

الصراع ضد الفناء: اللغات بين الشفهية والكتابة التقليدية والحرفية الرقمية

تبقى ذاكرة الإنسان محدودة على الرغم من مقدرات الحفظ المذهلة التي يمتلكها بعض الأفراد. ومن بين هؤلاء الناس على سبيل المثال، «المؤرخون» من غرب إفريقيا الذين يستطيعون تقديم كشوفات لأشجار عائلات بكاملها عبر العديد من الأجيال، أو مقدرات الرهبان البوذيين الذين يستطيعون عن ظهر قلب تلاوة مئات الصفحات من نصوص الكتابات المقدسة، أو مواهب القصاصين الهنود والايرانيين أو الكارليين في إلقاء الآلاف من الأبيات الشعرية، أو الذاكرة الاحترافية التي يتدرب عليها الممثلون لحفظ نصوص مسرحيات بكاملها.

ومازلنا نجد حتى يومنا هذا إنجازات جبارة حققتها الذاكرة

البشرية في ثقافات غرب إفريقيا. قام جودي Goody 1998 (.ff بفرز وتمحيص مواد من الحكايات الشفهية خلال الخمسينات والستينات والسبعينات التي جمعها من لا داغا La Dagaa في شمال غانا والتي تضم الحكايات الخرافية عن «الباغرا/ البقرة البيضاء» (White Bagre) و«الباغرا/ البقرة السوداء» (Black Bagra) والمكونة من 1204 الى 6133 سطرا وعند مقارنة النصوص التي تتلى في أوقات مختلفة، يظهر أن القصاصين لا يتلون هذه النصوص الكاملة حرفيا، بل انهم يخترعون تلقائيا كل مرة من المرات أجزاء معينة، مما يؤدي إلى تحوير النص من حالة الى أخرى، ومن الجدير بالذكر عدم وجود «نص أصلي» يمكن للمرء الرجوع اليه، كما هو الحال بالنسبة للنصوص المكتوبة المتوارثة.

حول دور التقاليد الشفاهية في الاتصال مع عالم الكتابة

إذا ما صدق أن التقاليد الشفهية هي عبارة عن عناصر أنثروبولوجية ثابتة في تطور الاتصالات القائمة بين البشر، حينئذ يجب على هذا الشكل من الأمور المتوارثة أن يكون مرنا الى درجة يتأقلم فيها مع ظروف التفاعل القائمة بين مختلف أنواع المجتمعات، ومن بينها مجتمع المعلومات الحديث أيضا، ومن الجدير بالذكر أن التقاليد الشفهية السائدة حاليا مثل فن القص، والشعر الشعبي، وانتقال كنوز الامثال من جيل الى آخر وغير ذلك من الخبرات الشعبية

لا تبقى مقصورة فقط على المجالات التي تميزها كما تشير الى ذلك بعض الأحكام المسبقة واسعة الانتشار (Zumthor 1983, Belova et al. 1988).

منذ عقود طويلة يحاول المؤرخون استشراف آفاق خبرات الثقافات التقليدية «أي الثقافات غير القائمة على الكتابة» بواسطة تسجيل وتدوين القصص والحكايات الشعبية، وعلى الرغم من أن هذا التسجيل يخترق التقاليد الطبيعية، إلا أنه يجعل محتويات القصص متوفرة للآخرين ويمكن بهذه الوسيلة توسيع المعرفة المتعلقة بمثل هذه الثقافات، ثم إن التركيبة التقليدية الثنائية «ماقبل التاريخ» (الثقافات ما قبل عصر الكتابة) و «التاريخ» (الثقافات القائمة على الكتابة) يتم توسيعها بضم صنف ثالث هو «التاريخ الشفهي»، وعلى غرار الثقافات التقليدية توجد في مجتمع ما بعد الحداثة إنجازات قصصية شفهية بعيدة عن التدوين الخطي منها، على سبيل المثال، نصوص الكلام في العروض الكلامية والمقابلات التلفزيونية أو الحكايات الشفهية التي تدور حول أجواء الحانات والشراب..

وفي التقاليد الشفهية لمجتمع المعلومات توجد اتجاهات لا يعتمد تطورها على الثقافة الكتابية. لقد ولدت الذكريات التي تدور حول الحوادث التي وقعت خلال أزمنة الحروب في العديد من المجتمعات أساليب معينة، ومن بين هذه الأساليب مثلا ذكريات المحاربين القدماء عن الحرب العالمية الثانية، والحروب التي يشهدها عصرنا الحالي كما حدث في فيتنام وأفغانستان وفي الخليج والشيشان وفي

كرواتيا والبوسنة. ثم إن الحكايات والقصص التي يرويها لنا ألبان كوسوفو عن التهجير والمذابح والاغتصاب ستبقى عالقة في أذهاننا فترات طويلة. إن الإقبال الشعبي على الدراما التي تضفيها الأفلام السينمائية على الأحداث الحربية والتعرض لمصير السكان المدنيين هي إشارات واضحة للحاجة الملحة إلى معالجة موضوعات الأزمات.

وما يتعلق بالجهات المذكورة أعلاه لا يمكن الاعتماد على مقدرات الذاكرة إلا في صفوف علماء الأنساب الأفارقة والبعض من ممثلي قص الحكايات نظرا لأن جميع النصوص المتوارثة في هذا المجال بالذات موجودة في ذاكرة هؤلاء القوم دون وجود أي نصوص مكتوبة يمكنهم العودة اليها والاستئناس بها.

وعندما لا يقوم القصاصون بنقل معارفهم الى الآخرين أو عندما يفوتون فرصة تدريب جيل أصغر من القصاصين، أو عندما توقف المنازعات الحربية فجأة التطور الثقافي الطبيعي. حينئذ تخبو جذوة كل ما هو موجود من معارف ويضيع هباء، يعني هذا أن الكثير من محتويات التقاليد الشفهية في الكثير من الثقافات قد تتعرض الى الضياع دون رجعة.

إن تاريخ الثقافات يعرف بعض الحالات التي تكون فيها المعارف المتراكمة منذ أجيال عديدة خاضعة لنوع من المحرمات «تابو» التي لا تسمح بتثبيت هذه المعارف خطيا بل التعرض اليها شفهيا فقط، لقد منع مثل هذا التابو مثلا تدوين مجموعات الاعراف الايرلندية التي

بقيت محتوياتها من زمن الوثنيين كمعارف خاصة محفوظة لدى الدرويديين «كهان كلتيون وثنيون كانوا يمارسون الطب أيضا - المترجم» إلا أنه عندما تنصرت ايرلندا دونت بعض مقاطع هذه الاعراف بعد ان أنقشعت التقييدات والمحرمات الدينية وانتفى مفعولها (Mytum 54f.).

وفي ثقافات أخرى يستتكف المرء عن إجراء تثبيت خطي لنصوص أساسية هامة نظرا للإنطلاق من عدم ضرورة مثل هذا التدوين والاكتفاء بما تتناقله الالسن فقط، هكذا كان الحال في إسبارطه القديمة، عندما كانت النخبة الاسبارطية تتباهى على الاثينيين بأن الإسبارطيين لا يحتاجون الى تدوين قوانينهم لأنهم يبجلون هذه القوانين حتى دون كتابة (Thomas 1992:23).

لقد رافقت الشفهية، كتقنية لنقل المعلومات عبر اللغة المحكية، الناس منذ ذلك الزمن الذي بدأوا فيه يوجهون الاسئلة المتعلقة بأنفسهم وبظروف وجودهم في العالم ولربما تكون الخرافات المتعلقة بأصل الإنسان وكيف انها ساعدت الانسان النياندرتالي في اكتشاف هويته، من أقدم الحكايات الشفهية التي وصلت إلينا (Donald 1991:201f) ومن الجدير بالذكر أن خرافات وأساطير معظم الشعوب التي تعيش في ثقافات تقليدية منقولة ومتوارثة شفهيا يتلوها حفظة قصاصون يقومون بدورهم بنقل معارفهم الى الاجيال القادمة.

أما في الثقافات التي تستعمل الكتابة فقد دونت الخرافات والاساطير كتابيا مع عدم اهمال المتوارثات الشفهية بأي حال من

الأحوال، وفي المجتمع الكلاسيكي الاغريقي كانت التقاليد الشفهية المتعلقة بكنز الاساطير والخرافات قوية مثل الحصر الكتابي للموضوعات الميثولوجية. وكان كلا النوعين المتوارثين يؤثران على بعضهما البعض، ويلهمان من جانبهما صياغة العديد من الموضوعات الميثولوجية في الفنون التشكيلية (النحت وصنع التماثيل الصغيرة، الرسومات على المزهريات، الرسومات الجدارية) والتي كانت متشابكة مع الابداع الثقافي للادباء الإغريق، وخاصة شعراء التراجيديات والكوميديات (Vernant. 1990).

لا يوجد أي موضع همشت فيه الكتابة التقاليد الشفهية أو عملت على التخلص منها. ثم إن الخرافات والحكايات عن البلدان والناس وذكريات «الأيام الجميلة التي مرت» التي يتحدث عنها الناس والخبرات والتجارب التي يتبادلونها في حواراتهم الشفهية كانت ولاتزال موجودة حتى يومنا هذا، أما في مجتمعات العصور القديمة فإن الناس كانوا يقدرون التقاليد الشفهية، لا بل إنها بقيت في بعض المجالات دون منافس.

ومن الأمثلة على ذلك الطقوس المتعلقة بتبجيل دميتر Demeter (وابنتها برسفونه Persephone) التي كانت من أرفع الإلهات مرتبة ومقاما في الميثولوجيا اليونانية (Haarmann 1996: 137f.) وهكذا فإن حكايات دميتر وابنتها التي اختطفها هادس Hades الى العالم السفلي والتي كانت النسوة تقصها بمناسبة عيد التضحية تكريما لـ ثسموفوريا Thesmophoria

وكذلك خطابات الاستهزاء عند الدخول الى إلويزيس Eleusis وطقوس العبادات السرية، لم تدون أبدا بل بقيت محفوظة في بطون التقاليد الشفهية التي كانت الألسن تتناقلها عبر مئات وآلاف السنين.

لم يجر استخدام الكتابة في أي مكان من العالم، من أجل ابطال التقاليد الشفهية، ثم إن الكتابة والشفهية لم ينظر اليهما في مجتمعات العصور القديمة على أنهما متناقضان كما يؤكد على ذلك الأوروبيون في العصر الحديث، لأن الاوروبيين يعتبرون الكتابة مؤسسة من مؤسسات المدنية الرفيعة التي يجب عليها الخضوع لوسائل تشغيل المعلومات (مثلا: الحفظ بمعونة الكلمة المحكية)، هذا هو تقريبا المنحى الذي يذهب اليه اسمان Assmann في دراسته الصادرة عام 1999 عن أبعاد التذكر في عالم المدنية.

لذا فإن كتابة اللغات وتثبيت مقياس لكتابة اللغة تعتبر بنظر الاوروبيين قمة منجزات مجتمع حديث. وفي الواقع تتصدر أوروبا الصفوف منذ مئات السنين في ما يتعلق باستحداث كتابات جديدة للغات الشعبية التي لم تكن مكتوبة حينئذ. وكذلك في تحديث وتمتين المقاييس المطبقة في هذا المجال وتوسيع الوظائف التواصلية للغات القياسية (Haamann 1993: 279f.). ولرعاية اللغة وتخطيطها، ما يتعلق بتحديد كتابة اللغات القياسية الوطنية ومواصلتها، تقاليد طويلة تعود الى القرن الرابع عشر، اذ لم تشهد كتابة اللغات الشعبية في أي قارة أخرى ما شهدته من انتظام وفعالية، وزخم متواصل استمر حتى القرن

التاسع عشر في المناطق الثقافية الاوروبية، لا بل إن الاوروبيين صوروا تقييم الكلمة المكتوبة وتقدير واحترام الكتابة كالمراسي الثقافية لأيديولوجية التقدم الأوروبي الذي نقلوه الى المناطق التي كانوا يستوطنونها «يستعمرونها» عبر البحار.

لقد تقبل الأوروبيون وجود ثقافات كتابية غير أوروبية في هذه المناطق المستعمرة والتي كانت لا تنتمي الى أفقهم التقليدي للمعرفة، ومنها العبرية والعربية والهندية أو الصينية. لكن الاوروبيين اظهروا ردود فعل عنيفة للغاية على الثقافات الكتابية الغريبة عليهم كتلك الموجودة عند شعب الازتيك المايا في المكسيك، لقد كان الشعب الهندي «أمريكا الجنوبية» حسب المعايير والاحكام المسبقة للأوروبيين شعبا «بدائيا» وبالاعتماد على مثل هذا التصنيف ما كان لهذا الشعب أن يملك ما لم يكن مسموحا به حسب العلوم الاوروبية المتعلقة ببحث الشعوب البدائية: الكتابة، الهندسة المعمارية والمدنية، لهذا كانت هزات الهوية هذه في الجانب الاوروبي ذات عواقب وخيمة بالنسبة الى الامريكان القدماء: ابادة جماعية ثقافية وتدمير المدنية القائمة قبل عهد كولومبوس (Gruzinski 1993).

وعندما تعتمد الذكريات على اللغة المحكية فقط، حينئذ يجب علينا أن نتوقع تبدلات في طريقة تصوير الاحداث الجارية وبعض التشوشات في أفق-الزمن (Hoem 1995) لهذا فإن مراقبة المعلومات المنقولة إلينا عبر الإرث الشفهي غير ممكنة التحقيق على المدى

الطويل نظرا لعدم وجود تثبيت يعتمد عليه ويوثق به لنص أصلي يمكن المرء مقارنته مع صيغة لاحقة لنص شفهي، إن محاولة إحداث نوع من التعادل مع افتقار الناس الى التذكر والتصدي للعيب الموجود في دقة النصوص المتوارثة شفهيا دفعت الناس وأغرتهم في وقت مبكر لتطوير مثل نظم الكتابة هذه التي تخدم غرض مساعدة الذاكرة والملائمة لرفع العبء المتأتي من اضطرار المرء للتذكر.

لكن أقدم أنظمة العلامات المستحدثة في تثبيت المعلومات من أجل اعادة استخدامها في وقت لاحق لم تكن أنظمة كتابية بل ذخيرة من الصور والايقونات والرموز المجردة المرسومة على الصخور أو المحفورة في الاحجار والتي تتناول على الأغلب موضوعات قصصية، اضافة الى العلامات المنقوشة على العظم أو الحجر التي أمكن بها المحافظة على المعلومات (Anati 1989)، واذا ما صح بأن مصطلحات عددية قد تم تثبيتها في مثل مقاطع العلامات العددية كالتحولات التي يمر بها القمر في حركته، عندئذ تكون مصطلحات الترقيم العددي أقدم مما تتضمنه مصطلحات الترابط اللغوي (Marshack 1972) ثم إن النظر الى مقاطع رسومات السرد القصصي على الصخور كانجازات ثقافية انسانية «على سبيل المثال رسومات بشرية، حيوانات وموضوعات بيئية وكذلك رموز هندسية مجردة» لا تعتمد هي الاخرى على اللغة.

إذ إن أقدم تقنيات الانسان، أي تثبيت المعلومات من أجل إعادة استخدامها مرتبطة جميعها باللغة وحتى أقدم الانظمة التي

استخدمها الناس في الكتابة لم تهدف الى تحقيق غرض تبادل الرسائل اللغوية فيما بينهم، علما أن تثبيت العلاقة بين المصطلحات ومقاطع الافكار تعتبر من الاهداف المركزية لأقدم استخدام لغوي على الاطلاق لكن عنصر اللغة يعتبر في هذا المجال ذا أهمية ثانوية ولكنه يتبوأ الصدارة في وقت لاحق وأقدم اللوجوجرامات Logogramme الصينية تعكس، كما يشير اليها اسمها (تعني كلمة logos حرفيا باللغة اليونانية شيئاً تم التفكير به، فكرة معينة عبر استخدام علامة معينة). (اللوجوجرام حرف أو رمز أو علامة للدلالة على كلمة - المراجع).

وحتى البكتوغرافيا Pictography (الكتابة التصويرية) السومرية القديمة لم تهدف في المقام الأول الى تثبيت اللغة السومرية، بل أنها أرادت تحديد العلاقة بين الاعداد ومصطلحات السلع والبضائع. وفي الواقع لا يمكن ملاحظة أي ارتباط لغوي إلا خلال مرحلة انتقال الكتابة الى استخدام تقنيات الكتابة المسمارية «نحو 2500 قبل الميلاد» (Haarmann 1992a: 154f.) وتتميز كتابة اللغة السومرية الأقدم بما يدعى علامات التخصيص (Kode) أي تثبيت أهم الافكار الموجودة في رسالة من الرسائل على شكل شعارات، وفي وقت لاحق من أوقات استخدام اللغة تم تنسيق رموز علامات الكتابة بصورة أقوى (راجع الشكل 35).

في المرحلة المبكرة من الإرث اللغوي المنقول إلينا نرى أن الكتابة والقراءة انحصرتا كمعرفة اختصاصية بيد جماعة محدودة من النخبة «الكتبة» وفي الوقت نفسه لم تكن النصوص المكتوبة مخصصة لعامة

الناس وللقراء من السكان العاديين، بل إنها كانت تعد من قبل خبراء من أجل تقديمها الى خبراء ومن ناحية أخرى كانت الوظائف التواصلية وبالتالي المضمون الاعلامي للنصوص متخصصة الى حد كبير.

الشكل 35 طريقة الكتابة السومرية حسب مبدأ علامات التخصيص(*)

Abb. 35: Die Schreibweise des Sumerischen nach dem Schlagwortprinzip
(Haarmann 1992a: 155)

a) [ĝeš] tug₂ inim zu kalam

b) ud-ba (...) Šuruppak ĝeštug₂ tuku inim galam inim zu-a kalam-ma

a) til-la Šuruppak dumu na [n] a-mu- ri

b) ti-la-am, Šuruppak[ki]-e dumu-ni-ra na na-mu-un-ri-ri

a) Archaischer Text aus der Zeit um 2600 v. Chr.
b) Altbabylonischer Text aus der Zeit um 1850 v. Chr.

Übersetzung:
»(An jenem Tag) gab (Šuruppak), der weise, der, der sich wohl auszudrücken weiß, der in Sumer lebte, Šuruppak gab (seinem) Sohn Unterweisungen«.

الترجمة

«(في يوم من الأيام) أعطى (Šuruppak) الحكيم الذي يعرف كيف يعبر عن أفكاره، الذي عاش في سومر في مدينة (Šuruppak) أعطى ابنه تعاليم».

كانت الكتابة الاوروبية القديمة المستعملة خلال الفترة الواقعة ما بين عام 5500 وعام 3500 تقريبا تستخدم لأغراض دينية، وتحت الاشكال

(*) المثال هنا من a) نص مسماري قديم، 2600 ق.م.
و b) نص مسماري من العصر البابلي القديم، 1850 ق. م. نجد أولاً قراءة النص وكتابته بالحروف اللاتينية والترجمة إلى الالمانية ثم الترجمة إلى العربية - المراجع.

والصور التي تم العثور عليها، ومن بينها أيضا بعض الصور الانثوية، وجد الباحثون كتابات قصيرة تتعلق كما يفترض بكتابات مقدسة، أو انها مجرد عبارات توسل وتضرع (استحضار الإلهة) تدور على الأغلب حول الطقوس. كانت الكتابة الهيروغليفية المصرية. وكانت تخدم بادئ ذي بدء الاغراض الاحتفالية وكانت اقدم علاماتها وكتاباتها ذات صلة متينة برموز الحكم.

وكما يبدو فإن الضرورات الاقتصادية في بلاد الرافدين Mesopotamien (العراق والجزيرة) كانت وراء الاقبال المبكر على استخدام الكتابة، ففي خضم التعامل التجاري المتوسع والمتزايد بكثافة خلال الالفية الرابعة قبل الميلاد ظهرت الحاجة الى إعداد قوائم تتضمن بيانات السلع وكمياتها وحتى بالنسبة الى ادارة المعابد ظهرت حاجة الى تدوين ما تحتويه من احتياطي، لهذا فإن قوائم السلع تعتبر أقدم المخلفات الاثرية الكتابية الموجودة في الأرشيف السومري القديم.

وعندما بدأت الكتابة تظهر الى الوجود في الصين نحو 1200 قبل الميلاد، كان استخدام الكتابة ذا علاقة بالتنبؤات وممارسات التكهن والتنبؤ بالمستقبل حيث كان الخبراء والسحرة لمئات السنين يطلبون من الآلهة والرموز المؤلهة النصح والارشاد في مسائل وقضايا الاحياء من البشر. ولم يكن استخدام الكتابة لغرض التنبؤ في الصين القديمة منتشرا في صفوف الشعب، بل كان مقصورا على متطلبات عائلة

الامبراطور والطبقة الارستقراطية وأعيان القوم في البلاد، وبعد مرور مئات السنين حرر استخدام الكتابة نفسه من الاقتصار على النخبة من أبناء البلاد.

لقد أكملت الكتابة والشفهية منذ الأزمنة المبكرة لاستخدام الكتابة بعضهما البعض ثم إن تكنولوجيا الكتابة قد وسّعت أطياف الإبداع الثقافي في المجالات التي لم تكن الشفهية قد تناولتها حينئذ «على سبيل المثال تسجيل وتطوير علم الرياضيات، تنظيم أراشيف الدولة، ترميز النصوص المقدسة» ومن ناحية أخرى دعمت الكتابة بما تملكه من وسائل مساعدة على التذكر الشفهي في تلك المجالات التي كانت فيها التقاليد الشفهية مازالت مهيمنة «على سبيل المثال شؤون المسرح» ولا يمكن تصور انتاج النصوص المعقدة وتشعب الشؤون المسرحية المتطورة إلا بواسطة استخدام المواد المساعدة على التذكر أما في الثقافات المعتمدة على الكتابة فيمكن ملاحظة أن الأداء المسرحي قائم على الاكثر على قاعدة أدبية مكتوبة.

ومع تزايد شعبية الكتابة والاقبال عليها وانتشارها تزايد تراجع الشفهية الى «ركن معزول» وإن لم يتم القضاء عليها بصورة كاملة، ويتمثل الاختراق الحقيقي للكتابة وزيادة شعبيتها في اختراع الطباعة بواسطة الاحرف المتحركة في نحو 1450 على يد يوهانس جوتنبرج في المانيا، إذ إن الأمر يتعلق هنا بظاهرة من ظواهر العصر الاوروبي الجديد (Steinberg 1955/1996) لكن الاستخدام الشعبي للكتابة في القرون

الوسطى لم يكن في الحقيقة الا ظاهرة استثنائية، علما أن مثل هذه الاوضاع كانت مميزة لنوفغورود Nowgorod في العصور الوسطى، إن الكتابة المنقولة إلينا والعائدة الى الفترة الواقعة بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر «على الاغلب مدونة على لحاء شجر البتولا» تحتوي الكثير من المواثيق الرسمية وعقود البيع والشراء والنصوص المساعدة على تعلم الكتابة الى جانب الرسائل الغرامية أو قوائم المشتريات لأناس عاديين.

لقد حققت الشفهية حتى في العصر التقني الحالي نهضة ما كان بمقدور المرء في القرن التاسع تصور حدوثها حيث استغلت وسائل الاعلام كالمذياع والفيلم «وخاصة الفيلم الناطق» والتلفزيون طاقة اللغة المحكية من أجل تقديم المعلومات ولإنتاج النصوص الروائية، وللأغراض التجارية وللتأثير على الرأي العام سياسيا ولأغراض التدريس والتعليم بطريقة لم يكن بالامكان تصورها في بداية القرن العشرين. إن تطور الكتابة الرقمية (Gilster 1997) قد أخلّ قليلا بالتوازن وجاء هذه المرة على حساب ثقافة الكتابة ذات العلاقة بتقنية الطباعة التقليدية.

الكتابة واستخدام اللغات المكتوبة مؤسسات للتمدن

قبل نحو نصف قرن كان العلماء مقتنعين ومتفقين على الرأي القائل بأن الكتابة، اكتشفت، في حضن حضارة معينة «حضارة السومريين»

وفي زمن معين (نحو 3200 قبل الميلاد) وكيف أن فكرة الكتابة ومعرفة أنظمة معينة للكتابة انطلقت من بلاد الرافدين لتنتشر في جميع أنحاء العالم (Gelb 1963)، لا بل إن هذه النظرية عن المنشأ الوحيد للكتابة تتضمن أيضا الإدعاء القائل بأن اللغة قبل كولومبوس كانت قد تأثرت بآسيا (دائرة ثقافة اللغة الصينية) بدأت نظريات المنشأ الواحد لتطور المؤسسات المدنية (من بين ذلك تكنولوجيا الحراثة، وتشغيل وتصنيع المعادن، والكتابة وانتاج الخزف، والهندسة المعمارية الجبارة) في القرن التاسع عشر وبقيت حتى يومنا هذا متشبثة برأيها بكل عناد.

وفي العقود الماضية قدم علماء الآثار والاثنولوجيا والانثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية العديد من المعارف الجديدة حول ظروف منشأ المدنيات والحضارات إلى درجة أن النظريات المنتشرة عن الحداثة وتقنيات الري والسقاية وغيرها من الانجازات التقنية يجب النظر اليها على أنها نظريات قديمة أكل الدهر عليها وشرب، وكما تشير النظريات الجديدة، فإن الناس قد قاموا في مناطق مختلفة بعيدة عن بعضها البعض باختبار مختلف أنواع التقنيات. وحصيلة هذه التجارب كانت المدنيات القديمة في أوروبا، والشرق الادنى، ومصر والصين، وجنوب شرق آسيا، ومع بعض التأخير في أمريكا الوسطى.

وفي حالة هذه التكنولوجيا أيضا تثير الملاحظات المتعلقة بتنوع التطور الثقافي في المدنيات القديمة الذي أوحى باستخدام مبكر

للكتابة الى ضرورة الانطلاق من عدة مناشئ للكتابة ظهرت بصورة مستقلة عن بعضها البعض (راجع الشكل 36). لقد أعطى الابداع البشري والقدرة على التأقلم مع ظروف اجتماعية أكثر تعقيدا الكتابة زخما كبيرا ودفعها الى التطور مرارا عديدة، وفي اطار مراقبة تطور الكتابة من وجهة نظر المناشئ المتعددة يتحاشى المرء، كمراقب حيادي أيضا، مخاطر التفسيرات الاثنية «التعصب الاثني» لقيام الحضارات، أما في حال افتراض المنشأ الوحيد فإن زخم الاتيان بانجازات رفيعة يظهر وكأن نور الخضارة يعود الفضل فيه الى ذكاء شعب معين بالذات، مما يعني في الوقت نفسه الحط قليلا من قيمة الشعوب الاخرى واعتبارها غير قادرة على تطوير الحضارة.

الشكل 36 الوظائف الاجتماعية للاستخدام المبكر للكتابة في حضارات العالمين القديم والجديد

المدى المكاني للثقافة	الوظائف المبكرة لاستخدام الكتابة
أوروبا القديمة	ديني - طقوس
سومر القديمة	اقتصادية - بيروقراطية المعبد
مصر القديمة	احتفالية - كتابات متصلة بالحاكم وشاراته ورموزه.
الأندوس/ السند	دينية - عبادات - أختام
الصين	سحرية
أمريكا القديمة	دينية - احتفالية - فلكية - أنساب - استطلاع النظام الكوني.

وفي مراكز المدنيات القديمة، حيث نشأت الكتابة، وازدهرت ثقافة الكتابة، حدث هذا التطور حسب ظروف محلية ثقافية إيكولوجية، وهكذا فإن تطور الكتابة في حضارات الدانوب لأوروبا القديمة، وفي بلاد الرافدين، وفي مصر، وفي وادي الاندوس، وفي الصين القديمة، وفي وسط أمريكا قبل كولومبوس، ليس إلا نتاج التجارب المحلية التي أجراها كل طرف من هذه الاطراف المختلفة على ما توفر لديه من نماذج ومعطيات ثقافية، لقد أثرت الكتابات الاصلية القديمة على الحضارات المجاورة للحضارات المذكورة وكذلك على الحضارات التي جاءت في وقت لاحق، مما أدى الى قيام تفرعات كتابية محلية في جميع هذه المناطق المجاورة.

إلى ما قبل سنوات قليلة كان الناس يفترضون أن كتابة الاندوس كانت قد بقيت معزولة ولم يتمكن المرء من تقفي ذخيرة العلامات الهندية القديمة إلا في الرمزية الدينية التي تم العثور عليها في جزر المالديف، لكن علم الاثار في الدول الواقعة على الخليج الفارسي قدم في هذه الاثناء الدليل على أن كتابة الإندوس كانت مستخدمة في المركز التجاري لدلمن «البحرين الحالية» (Parpola 1994: 114, Rice 1994: 166).

ومن الجدير بالذكر أن الصينية هي الكتابة الاصلية الوحيدة التي بقيت موجودة حتى يومنا هذا، أما الكتابات الأخرى فلم تعد قيد الاستعمال والتي أزيح أغلبها من قبل الكتابات المستخدمة للأحرف الأبجدية، ثم إن الكتابات الاصلية وتكييفها محليا يرتبط بالمحيط

الثقافي الذي تلتزم فيه عملية الإبداع الثقافي بتقاليد مشابهة بكلمات أخرى. إن المعين الذي يستقي منه تطور اللغات الاصلية واللغات المتفرعة عنها داخل حلقة ثقافية معينة هو محيط علاقات تسود فيه مسبقا اتجاهات التقارب الثقافي في فسيفساء دوائر الكتابة القديمة (أي ما قبل الابجدية) يواجه المراقب الحديث الاشكال التالية من الكتابات الأصلية والكتابات المتفرعة عنها «راجع الشكل 37».

تعزى جميع الكتابات الأصلية القديمة والكتابات المتفرعة عنها الى مرحلة تطور الكتابة ما قبل الأبجدية، حيث يتعلق الأمر بضروب من الكتابة اللوغوغرافية. (على سبيل المثال: اللوغوغرافيا الصينية القديمة والسومرية القديمة، والحنية القديمة أو البكتوغرافيا الاولماكشية)، أو بنظم فونوغرافية (على سبيل المثال: الكتابة المقطعية المصرية القديمة، والكتابة المسمارية المقطعية) «متعلقة بمقاطع صوتية»، والمقطعية من A وB الكتابات القبرصية»، ان مبدأ طريقة الكتابة بالأحرف الابجدية، الذي ترتبط بموجبه علامة كتابية مع حرف أبجدي تمثل أحدث مرحلة من مراحل تطور تاريخ الكتابة وفي الوقت نفسه أكثرها اختصاصا من ناحية تقنية الكتابة.

ولا يجب النظر الى الابجدية على أنها تحصيل حاصل لتطور مستمر لمبادئ كتابة قديمة، بل على أنها اختراع جديد تكنولوجي كتابي ظهر على المسرح الجانبي في الشرق الادنى، لقد كانت هذه المنطقة الثقافية منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد على أقصى حد

منطقة إلتقاء واتصالات تقاطعت فيها مؤثرات بلاد الرافدين والمؤثرات المصرية، وفي وقت لاحق المؤثرات الإيجية، وترتبط بداية التقاليد الابجدية مع مرحلة من التغيرات السياسية، والاقتصادية، والثقافية ومع القلاقل المندلعة نتيجة غزو الشعوب البحرية وهجوم القبائل البدوية السامية على فلسطين وكنعان.

كان الشرق الأوسط في النصف الثاني من الألفية الثانية قبل الميلاد منطقة التقاء مختلف المناشئ، الكتابية، مثل الكتابة المسمارية السومرية، والكتابة المقطعية المصرية، والكتابة الإيجية القديمة ذات المقاطع، وأقدم متوارثات الكتابة الأبجدية نجدها في المناطق المحيطة بمنطقة الالتقاءات هذه أي في سوريا وسيناء.

أما أقدم الابجديات في الشمال فهي أبجدية كتابة أوغاريت شمال سورية، التي بقيت قيد الاستعمال الى القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد، وأقدم الابجديات في الجنوب هي كتابة سيناء المبكرة Protosinaitische وفي هذين النوعين من العلامات يمكن التعرف على مبدأ تنظيمي تمخض عن البحوث الحديثة الجارية على اللغات والذي يسمى مبدأ مقلع الحجارة Haa(mann 1994) Prinzip Steinbruch ومن مخزون علامات لغات قديمة يجري انتقاء علامات مفردة ودمجها في نظام جديد، وتعود علامات كتابة أوغاريت الى المسمارية، في حين أن علامات الكتابة الـ برونو سينائية تعود على الاكثر إلى أسرة الكتابة المقطعية المصرية، وإلى حد ما إلى مخزون علامة الصوت الواحد.

الشكل 37 تصنيف دوائر ثقافة الكتابة قبل الأبجدية

(Haarmann 1992a: 365ff. حسب)

1 ـ حلقة ثقافة الكتابة الأوروبية القديمة - الإيجية القديمة وفيها الكريتية والقبرصية.
2 ـ حلقة ثقافة الكتابة في بلاد الرافدين الخط «مسماري» سومري قديم تطور من التصويري إلى المسماري بخطوط متعددة الأشكال: سومري - آكادي - عيلامي - حوري - حثي - أورارتي - أُغاريتي - فارسي.
3 ـ حلقة ثقافة الكتابة المصرية القديمة وفيها المصرية الهيروغليفية والهيراطية والديموطية والميروية (السودان والنوبة).
4 ـ حلقة ثقافة كتابة الإندوس القديمة كتابة الأندوس وكتابة ديلمون؟
5 ـ حلقة ثقافة الكتابة الصينية القديمة على أساس العلامة - الكلمة امتدت إلى كوريا واليابان وفيتنام.
6 ـ كتابات أصلية معزولة في العالم القديم دون تفرعات الكتابة البروتو - عيلامية Proto-ealamisch الكتابة الخطية العيلامية القديمة، الهيروغليفيات الكريتية «نوعان»، هيروغليفيات حثية.
7 ـ حلقة ثقافة الكتابة الأمريكية القديمة (قبل كولومبوس) وفيها كتابة المايا والأزتيك وغيرها.

كما يؤدي مبدأ مقلع الحجارة مفعوله في عملية نشوء الكتابات الأبجدية الفتية أيضا. ففي مجال حصيلة علامات الكتابات الأبجدية في ثقافات البحر المتوسط تقاطع تقليدان رئيسيان هما الفينيقي والإيجي القديم اللذان أدى مفعولهما في فترة خلق الأبجدية، وفي ذخيرة علامات أنواع الكتابة اليونانية، والقارية Karisch، والنوميدية Numidisch والإيبيرية Iberisch يلاحظ المرء العلاقات المتينة مع المصادر الفينيقية ومع ما تبقى من علامات الكتابة الإيجية والعلامات الاضافية في الابجدية اليونانية، وعلامات مقاطع مختلفة للإيبيرية وما شابه (Haarmann 1997a).

ثم إن الكتابات الأبجدية كانت بفضل فعاليتها التكنولوجية ناجحة أيضا في الناحية الثقافية والتي انتشرت في جميع أنحاء العالم، ومن بين أنظمة الكتابة المستخدمة حاليا، تعتبر الكتابة الأبجدية بكل ضروبها وتفرعاتها الاكثر شيوعا واستعمالا، وهذا بالطبع ناحية مميزة اذا ما أخذنا بنظر الاعتبار تقاليد الكتابة اللاأبجدية المتواصلة للغتين الصينية واليابانية التي يستعملها أكثر من مليار إنسان.

إن عملية التصنيف التاريخية والحالية للكتابات الأبجدية وكذلك تكييفها مع اللغات التي تعود الى مختلف الفروع الوراثية وذات الاصوات المختلفة تماما، أمر معقد للغاية وبغض النظر عن التصدير الثقافي للغة اللاتينية الى أمريكا في العصر الحديث،انتشرت الكتابات

الأبجدية في المقام الاول في المناطق الثقافية لأوروبا وآسيا وشمال إفريقيا (راجع هارمان الشكل 38).

ثم إن النظرة الاجمالية على التفرعات الأبجدية هي الأخرى معقدة، علما أن بعض الطرق التي تطورت فيها هذه الأنواع المنفردة من الأبجديات ملتو جداً. في بعض الحالات يمكن ايضاع مثل هذه التطورات في رسم تصويري، على سبيل المثال ما يتعلق بعزل الأبجديات الهندية.

وتعتبر اللاتينية الأكثر نجاحا في جميع أنواع الكتابات الأبجدية وفق المعايير التالية:

أ ـ عدد أنواع الكتابات المحلية المتفرعة عنها «مثال: السويدية، التركية، الفيتنامية».

ب ـ عدد اللغات المفردة المكتوبة بها «مثال: الإسبانية، الأنويت، الأسكيمو، الهاوسا».

جـ ـ الانتشار العالمي في بلدان جميع القارات.

د ـ عدد اللغات العالمية المكتوبة بها «مثال: الإنجليزية، الفرنسية، الإسبانية».

هـ ـ عدد المستخدمين المحتملين، أي أولئك الذين يستخدمون الغات المكتوبة بالإبجدية اللاتينية.

و ـ الشعبية التي تتمتع بها الكتابة اللاتينية في المشاريع الحديثة

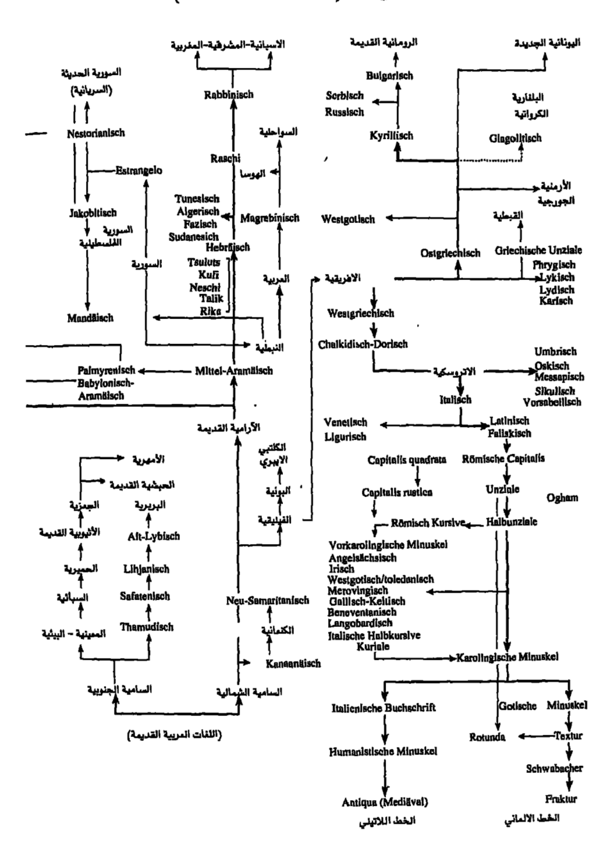
لتخطيط اللغات «على سبيل المثال في كتابة اللغات الإفريقية والأمريكية الجنوبية وفي إعادة إحياء الأبجدية اللاتينية لكتابة اللغات غير الروسية في روسيا الحديثة وفي الدول الحديثة المحيطة بها مثل مولدافيا، أذربيجان الى اخره».

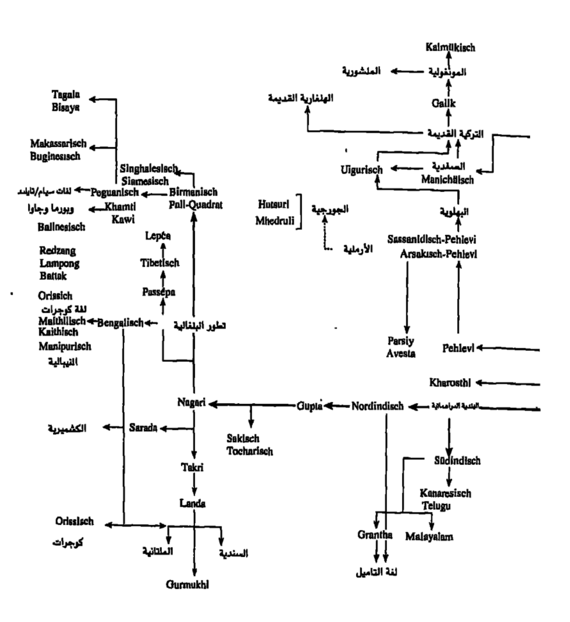
ز. كمية المعلومات المتوفرة باللغات التي تستخدم الأبجدية اللاتينية.

حـ. هيمنة الكتابة اللاتينية في المجالات الوظائفية للحرفية الرقمية «مثال: الإنترنت».

علاوة على المعايير المذكورة أعلاه، هناك بعد ثقافي متميز ملائم جدا للتأكيد على عالمية الكتابة اللاتينية في القرن العشرين، فهذا النوع من الكتابة كما هي عليه في الوقت الحاضر (بغض النظر عن الأوضاع التاريخية) قومي، وأثني، وأيديولوجي وغير محصور منذ البداية في أي تداعيات دينية، يعني هذا استخدام الكتابة اللاتينية لكتابة مختلف اللغات القومية (على سبيل المثال اللغات في الدول الصناعية الغربية مقابل اللغات فيما يدعي بالعالم الثالث)، والمستخدمة من قبل شعوب من مختلف المناشئ، (على سبيل المثال الالمان والهنغاريين والتاهيتيين) والمنتشرة في مجتمعات تتقيد بأكثر العقائد تناقضا (على سبيل المثال الديموقراطيات الأوروبية الغربية إزاء دول أوروبا الشرقية التابعة للاتحاد السوفيتي خلال مرحلة «الحرب الباردة»).

الشكل 38 : (Haarmann 1994a: 342)





Kalmükisch
المونغولية
المنشورية
Galik
الهنغارية القديمة
التركية القديمة
الصغدية
Manichäisch
Uigurisch
البهلوية
الجورجية
Hutsuri
Mhedruli
الأرمنية
Sassanidisch-Pehlevi
Arsakisch-Pehlevi
Parsiy
Avesta
Pehlevi
Kharosthi
Tagala
Bisaya
Makassarisch
Buginesisch
Singhalesisch
Siamesisch
Peguanisch
Birmanisch
Pali-Quadrat
Khamti
Kawi
Balinesisch
Redzang
Lampong
Battak
Lepča
Tibetisch
Passépa
Orissich
لغة كوجرات
Maithilisch
Kaithisch
Bengalisch
Manipurisch
النيبالية
Nagari
Gupta
Nordindisch
Sakisch
Tocharisch
الكشميرية
Sarada
Takri
Landa
Südindisch
Kanaresisch
Telugu
Orissisch
كوجرات
الملتانية
السندية
Gurmukhi
Grantha
Malayalam
لغة التاميل

عندما تم في عام 1928 فرض التغيير من العربية الى اللاتينية لكتابة اللغة التركية في تركيا من قبل كمال أتاتورك، كانت اللاتينية تمثل رمزيا «التحديث» لذا لم ينظر الى رمز الحداثة هذا الذي كان من شأنه أن يقرب الجمهورية المسلمة الفتية ذات الاغلبية السكانية المسلمة في ذلك الحين من دول أوروبا الغربية ومن المسيحية من ناحية التطور والتنمية والثقافة، على أنه عامل يبعث على الإزعاج، مع هذا ظهرت بعض الانتقادات في صفوف المسلمين المحافظين، ويعود فضل التطبيق الناجح لتغيير الكتابة من العربية الى الابجدية اللاتينية الى الدكتاتورية الاتاتوركية (Macfie 1994: 141).

وبالنسبة الى لينين كان استخدام الأبجدية اللاتينية لكتابة اللغات غير الروسية الموجودة داخل الاتحاد السوفيتي المؤسس حديثا بمثابة «الثورة في الشرق»، ولم تكن طبيعة الكتابة اللاتينية كحلقة وصل مع العالم الخارجي «البرجوازي» تشكل بالنسبة الى لينين وسياسته تجاه القوميات حجر عثرة، أما ستالين فكان يرى في الكتابة اللاتينية عامل إخلال بثقافات الكتابة اللاروسية وإبعادها عن الاعتراف بالدور الوظيفي القيادي للغة الروسية المكتوبة بالأبجدية الكيريلية السلافية القديمة، وهكذا أظهرت سياسته القائمة على الحكم المركزي المطلق آثارها في التخطيط اللغوي أيضا، وفي نهاية العشرينات تم تغيير كافة أنظمة الكتابة المحلية من الأبجدية اللاتينية الى الابجدية الكيريلية، وفي المرحلة التي تلت نهاية النظام السوفيتي قام في روسيا العديد

من الجماعات اللغوية مجددا بتبديل ثقافاتها الكتابية الى الكتابة اللاتينية «مثال الكالميكية Kalmykisch، البورجاتية Burjatisch). تماما كما حدث في الدول المستقلة حديثا والمنتشرة على أطراف الاتحاد السوفيتي سابقا، في الجمهوريات السوفييتية غير الروسية (مثال: المولداوية Moldauisch، والأذرية Aserbaidschanisch).

ولقد أظهرت اللاتينية مرونة وحيوية خاصة في ما يتعلق بالصدام العقائدي الذي شهده تاريخ فيتنام الحديث. من الناحية التقليدية مثلا كانت الأبجدية اللاتينية (Quoc Ngu) هي نظام الكتابة المستخدم من قبل الفيتناميين المسيحيين في حين أن البوذيين والطاويين كانوا يستخدمون علامات الكتابة الصينية المكيفة مع متطلبات الكتابة الفيتنامية (Nom) (DeFrancis 1977: 223ff.)، وفي استخدامها في كتابة اللغة الفيتنامية حدث ذلك في عام 1945 بمناسبة الاستقلال الأسمي للبلاد.

وعلى الرغم من تفاقم السخط على الكولونيالية خلال حرب الهند الصينية في الخمسينات، والحرب الفيتنامية في الستينات والسبعينات، تمت المحافظة على اللاتينية حتى بعد توحيد فيتنام في عام 1975، لم تؤد أدلجة السياسة الداخلية والخارجية الى أي انقطاع في تقاليد كتابة اللغة الفيتنامية بنظام Quoc Ngu على الاطلاق.

وبالنظر الى شعبية وحيوية الكتابة اللاتينية التي تمكنت من تثبيت أقدامها في مختلف الدوائر الثقافية، فإنه لمن المستغرب أن لانرى

أي ضرب آخر من الأبجديات وقد ولد مثل هذا العدد الكبير من أساليب الكتابة كما فعلته الكتابة اللاتينية، فمنذ العصور الوسطى تطورت باستمرار أساليب جديدة كان كل واحد منها يعكس الاتجاهات الجمالية السائدة في كل عصر من العصور، وعلى الرغم من أن الأبجدية اللاتينية لم تستخلص مباشرة من الكتابة اليونانية، بل أنها أتت عبر الأتروسكية (Haamann 1992a:2241.f) فإن أساليب الكتابة اليونانية قد أثرت مباشرة على الأسلوب اللاتيني.

وعلى الرغم من عدم تطوير دائرة الثقافة اللاتينية فناً مماثلاً لفن الخط العربي، فإن إظهار الاحرف الاولى من كلمات بدايات الأسطر كانت الى حد ما قد حققت مستويات رفيعة في هذا التفنن في الكتابة هناك بعض الأمثلة الجمالية المؤثرة جدا من التاريخ الثقافي الاوروبي تعود الى ايرلندا في العصور الوسطى، عندما شكل الأسلوب الكلتي - الوثني تكافلا وتعايشا مع فن الخط المسيحي «راجع هارمان الشكل 39».

لقد تشجع زحف الكتابة اللاتينية إلى حد كبير نتيجة اختراع طباعة الكتب في عام 1450، مما أدى إلى سيطرة تقنية الطباعة التقليدية «صف الأحرف الرصاصية» على تطور الطباعة الورقية، وعندما نشر من س. هـ. شتاينبرغ S.H.Steinberg في عام 1955 كتابه المشهور مرور خمسمائة عام على الطباعة Five hundred years of printing، لم يكن بمقدوره أن يتنبأ أن هذه المحاولة التي أراد لها أن تكون بمثابة

كتابة موجز لمرحلة تاريخية لم تكن في الواقع سوى كتابة تاريخ عصر ذهبي كان على قيد الزوال دون رجعة بعد مرور بضع سنوات.

إلا أن الطباعة بالأحرف المتحركة بقيت مئات السنين دون منافس إلى أن بدأت الطباعة التقليدية في الستينات والسبعينات تواجه منافسة تستحق الذكر تمثلت في تقنية الاستنساخ الفوتوميكانيكي كالطباعة الفوتوغرافية والتنضيد الضوئي للحروف. كانت الأحرف المستخدمة آنذاك شبيهة بأحرف الآلة الكاتبة العادية، ولو لم تكن قد ظهرت مع مرور الأيام تقنيات لاحقة لما كانت هذه المرحلة من الاستنساخ الميكانيكي للصفحات المطبوعة على الآلة الكاتبة ستستطيع لوحدها تحقيق الاختراق الحاسم، تمثلت التقنيات الجديدة في التشغيل الرقمي للغة والتقنيات لطباعة مثل هذه البيانات.

الشكل 39 نموذجان لأحرف من مخطوطة إيرلندية تعود الى العصور الوسطى

. Book of kells, 8th century) (Haarmann 1997d, Abb. 36,10)



ويعود سبب النكسة التي تعرضت لها الطباعة التقليدية بصورة غير مباشرة إلى ظهور حاسوب الكتابة المستخدم منذ نهاية السبعينات، وبصورة مباشرة إلى تطور الجودة التي تقدمها أجهزة الطباعة المرتبطة بالحواسيب الشخصية PC أما اليوم فإن أجهزة الطباعة الليزرية تستخدم في كل حدب وصوب لطباعة الكتب والمجلات.

وبالتوازي مع برامج الكتابة الكومبيوترية ظهرت حاجة ماسة للغاية الى تطوير تقنية فعالة لأجهزة الطباعة التي يمكن وضعها على طاولات الكتابة، بهذا تمكنت التكنولوجيا المزدوجة المؤالفة بين التشغيل الرقمي للبيانات وتحسين التقنية المستخدمة للطباعة الكومبيوترية وبين تقنية الاستنساخ القديم و(المعدل) بعض الشيء، إن مؤالفة هذه التكنولوجيات كان فعالا جدا لأنه تمكن في نهاية المطاف من إغراق البارجة الغوتنبرجية «نسبة الى مخترع الطباعة بالاحرف المتحركة يوهانس غوتنبرج» للمدنية الحديثة المتمثلة في تقنية الطباعة التقليدية.

إن كان إحلال تقنية جديدة للطباعة بدل تقنية قديمة ناحية حَريّة بالتأمل، فإن تعقيد استمرارية استخدام الكتابة شئ آخر تماما ولا علاقة له بذلك على الإطلاق، ومن المتناقضات التي تنتمي الى المشهد الحالي لوسائل الاعلام هو أن العديد من العاملين في مهنة الطباعة والعديد من مستخدمي الحواسيب الشخصية لا يعون الظروف والملابسات الحاصلة في عالم الثورة التكنولوجية للحداثة

على الرغم من أنهم يقفون في وسط التيار العارم لهذا التطور الذي يتقاذفهم من كل صوب.

أما أصحاب الرؤى الذين تنبأوا بانقراض الطباعة على الورق فقد وقعوا ضحية أوهامهم، فعلى الرغم من الزخم الكبير الذي حققته الحرفية «معرفة القراءة والكتابة» الرقمية اللاورقية في الأعوام الأخيرة وكذلك الكتابة المباشرة على شاشة الحاسوب، فإن الأمر لا يتعلق هنا سوى بتكنولوجيا اضافية متممة للأشكال التقليدة للكتابة وليس بتكنولوجيا تهدد بتقويض جميع وظائف الطباعة غير الرقمية.

وبالتفاعل القائم بين وسائل الكتابة التقليدية (أهمها الورق المطبوع أشكاله وألوانه ووظائفه) والوسائل الرقمية الفخمة لتشغيل البيانات، نرى أن العالم الحديث قد بدأ ينمو داخل مجتمع المستقبل، وهكذا فإن ثمن الوصول الى هذه المرحلة من التطور هو ليس فقدان وغياب وسائل الكتابة التقليدية، بل تعقدية عملية تنسيق عملية بين الوسائل القديمة والحديثة، إن التعامل العقلاني مع هذه التعقدية هو الدرس الذي يجب علينا أن نعيه من أجل إعداد أنفسنا لمواجهة المستقبل.

وإذا أردنا التركيز في هذا السياق على موضوع الكتابة وتقنية الكتابة وعلى الحرفية التقليدية والرقمية، وعندما يأتي في الصدارة كل ما له علاقة بكتابة المعلومات المتعلقة باللغة، حينئذ يجب التأكيد بصورة لا تقبل الشك على الناحية التالية: على الرغم من أهمية

تكنولوجيات تشغيل البيانات ضرورية للمحافظة على ظروف الحياة الحديثة والتي هي بالتالي ذات أهمية عالمية أيضا، فإن أغلبية قليلة جدا من سكان العالم تشارك فيها، وكيف أن الغالبية العظمى من اللغات المتفردة الموجودة في العالم مستثناه من هذه التكنولوجيا.

هناك 1964 لغة (30%= من جميع لغات العالم) تتمتع بقابلية تثبيت النصوص كتابيا ويضم هذا العدد جميع اللغات التي ترجمت اليها مثلا بعض مقاطع الأنجيل التي لا يستخدم الناطقون بها أنفسهم لغتهم الأم كوسيلة للكتابة إلا ما ندر أو أنهم لا يستخدمونها بتاتا، وكما هو معروف فإن أغلبية اللغات المكتوبة (نحو 19% = 1200 من جميع لغات العالم) ذات مقدرات كتابية سلبية، هناك 764 لغة كتابية فقط يتم استخدامها بصورة فعالة من قبل الذين يتحدثونها كلغة أم، وهذه النسبة لا تتعدى 11.9% من جميع لغات العالم، وبفضل التطور السريع الذي شهدته الكتابة منذ زمن الحضارات القديمة حتى الآن، توجد في جميع أنحاء العالم لغة ما تكون موجودة كوسيلة للكتابة تحت تصرف سكان المنطقة، غير أن انتشار الكتابة من ناحية وقدرة الناس على القراءة والكتابة من ناحية أخرى هما معياران مختلفان عن بعضهما البعض تماما، حيث تظهر كتابة اللغات في العالم اختلالات كبيرة جدا في علاقاتها التناسبيةوينطبق هذا أيضا على انتشار قدرة الناس على القراءة والكتابة في العالم، نحو عشر لغات العالم فقط يجري

استخدامها بصورة منتظمة كلغات يمكن الكتابة بها، في حين أن نصف سكان العالم تقريبا لايزال يعاني من الأمية.

لقد حوربت الأمية في العالم بصورة منتظمة منذ نهاية القرن التاسع عشر، حيث أحدث تحسين التعليم المدرسي في الكثير من مناطق العالم تقدما ملحوظا في محو الأمية في دول مثل روسيا والصين مثلا. انعكست نسبة الأمية والقدرة على القراءة والكتابة في الوقت الحاضر عند مقارنة المسألة بالاوضاع السائدة قبل مئات السنين، أي أن نسبة الذين يحسنون القراءة والكتابة قد ازدادت على نسبة الأميين، وفي مجال مكافحة الأمية كانت الدول الصناعية بادئ ذي بدء قيادية، علما أن بعض تباشير النجاح المتواضعة في هذا المجال بدأت تبدو في آفاق البلدان النامية.

ومن ناحية أخرى هناك بلدان ذات تقاليد كتابية تعود الى آلاف السنين يسكنها أناس أغلبيتهم من الأميين، أحسن مثال على ذلك هو الهند التي يتفوق فيها عدد الأميين (52%) على عدد غير الأميين (48%)، على الرغم من المجهودات والمساعي الوطنية والدولية لرفع مستوى التعليم في أوساط الطبقات الواسعة من الشعب لازال هناك العديد من الدول التي يشكل فيها الذين يحسنون القراءة والكتابة الأقلية يبلغ المجموع العام للدول التي تنتمي الى هذا الصنف 38 دولة (راجع الشكل 40).

الشكل 40: دول ترتفع فيها نسبة الأمية

نسبة الأمية المئوية	أسماء الدول
فوق 80%	بوركينا فاسو (82%) جيبوتي (88%)
70 - 80%	أفغانستان (71%) بنين (77%) غامبيا (73%) غينيا (76%) نيپال (74%) النيجر (72%) عُمان (70%) سييراليون (79%) الصومال (76%) السودان (73%) التشاد (70%)
60 - 70%	بنغلادش (65%) بهوتان (62%) غينيا - بيساو (64%) اليمن (62%) كمبوديا (65%) ليبريا (61%) مالي (68%) موريتانيا (66%) موزامبيق (67%) باكستان (65%) السنغال (62%) جمهورية إفريقية الوسطى (62%)
50 - 60%	مصر (52%) أنغولا (58%) غينيا الاستوائية (50%) بوروندي (50%) الهند (52%) الرأس الأخضر (50%) جزر القمر (52%) لاوس (56%) مالاوي (59%) المغرب (51%) رواندا (50%) توجو (57%) أوغنده (52%)

إن انتشار الأمية في العالم مختل النسب الى درجة عالية جدا، ففي الدول الصناعية الواقعة في النصف الشمالي من الكرة الأرضية مثلا توجد نسبة ضئيلة من الأميين، حيث تتراوح هذه النسبة في أوروبا بين 1% و15% أقل النسب الأوروبية موجودة في ايسلندا، حيث تبلغ نسبة الأميين في هذا البلد 0% وأعلاها في البرتغال 15% أما في دول النصف الجنوبي من الكرة الأرضية فالنسب هذه معكوسة تماما حيث تبلغ النسب هنا عادة 10% فما فوق، جميع الدول ذات الاغلبية السكانية الأمية تنتمي الى هذا التصنيف.

وتتعقد هذه النسبة في الدول ذات التطور الصناعي القليل نظرا للاختلاف الكبير في مستوى تعليم الذكور والاناث، ثم أن اختلاف النسب ذات العلاقة بالجنسين لا يعتمد بالضرورة على المعدل الوسطي لمستوى نسب الاميين، إن ما يدعو الى الملاحظة هو الاختلافات الاحصائية التي تبرز في النسب المرتفعة، يظهر هذا للعيان في نسب الأميين من عشرة بالمائة فما فوق.

في جمهورية الصين الشعبية وساحل العاج وبوتسوانا، والكاميرون، ولاوس وموزامبيق، والباكستان وتركيا وغيرها من الدول، تبلغ نسبة الاختلاف في حصص الأميين لدى الجنسين 20% ويبلغ الفرق في غواتيمالا وزائير أقل من 20%.

ومن الجدير بالذكر أن الاختلافات بين الجنسين (نسبة الأمية) موجودة في الدول ذات مختلف أنواع أشكال الحكم والأديان، حيث

تزداد هذه الحصة في صفوف النساء على الحصة في صفوف الرجال في الصين الشعبية مثلا الخاضعة اسميا للحكم الشيوعي والتي تمارس منذ سنوات طويلة ساسية اجتماعية تقوم على المثل العليا الاشتراكية المنادية بالمساواة بين الرجال والنساء في جميع مجالات الحياة، ومن المتوقع أن نرى نفس النسب في البلدان الاسلامية نتيجة التضييق على حرية المرأة لأسباب دينية، وفي الدول الإفريقية يولد توزيع الأدوار في الثقافات التقليدية القائمة على الولاء للعشيرة اختلافات مماثلة في مستوى الحصص.

وهكذا فإن المستوى التعليمي المنخفض للنساء ليس نتيجة للنقص في إطلاق حريتهن داخل المجتمعات والجماعات ذات التقاليد والعقائد المعينة وحسب، بل إنه يأتي بصورة عامة نتيجة للتهميش الاجتماعي الذي تتعرض له المرأة في الحياة العامة، لا بل واضطهادها في المجتمعات ذات تراكيب السلطة الأندروقراتية (الذكورية).

هناك دولة واحدة فقط في العالم تتفوق فيها حصة الأمية في صفوف الرجال على الحصة في صفوف النساء هذا البلد هو جامايكا التي تصل فيها نسبة الأمية 15% موزعة على الشكل التالي 11% لدى النساء و19% لدى الرجال، يتضح هذا الانحراف عما هو متعارف عليه في مثل هذه البلدان عند النظر الى التطور التاريخي للمجتمع الجامايكي والظاهر في الابقاء على التراكيب العائلية الأمومية هنا كما

هو الحال في مناطق أخرى في البحر الكاريبي (SMITH 1996). إن اعتداد الجامايكيات بأنفسهن ومطالبتهن بالتعليم تنعكس إحصائيًا على حصص الأمية.

ثم هناك سلسلة من الدول لايوجد فيها فرق كبير في نسب الامية بين الرجال والنساء، ينطبق هذا في المقام الاول على تلك الدول التي يشكل فيها المعدل الوسطي لحصة الأمية نسب مئوية قليلة وفي الاماكن التي تكون فيها الحصص أقل من 1% مثلا، تكون الفروقات بين الجنسين ذات قيمة لا تستحق الذكر مطلقا، كما هو الحال عليه في دول مثل استراليا، والدانمارك، وألمانيا، وأستونيا، وفنلندا، وفرنسا، والسويد، وسويسرا إلى آخره.

في هذه الدول تتوفر الشروط الملائمة للانتقال الى الحرفية الرقمية، حيث يستطيع الجميع، الرجال والنساء والناس من مختلف مستويات التعليم المشاركة في سريان المعلومات. في هذا البعد الجديد من الكتابة لن نستطيع العثور على الاستقرار والتوازن اللذين يطلبهما المجتمع من أجل إحداث الطفرة اللازمة الى المستقبل سوى في تلك الاماكن التي تكون فيها الكتابة متوفرة للجميع.

الفصل السابع

تعدد اللغات ومجتمع الشبكة في المستقبل

لقد حققت البشرية الطفرة الحاسمة الى الحرفية الرقمية بعد التمكن في نهاية عام 1970 من تطوير مبرمجات Software ملائمة لتركيب برامج كتابة في الحواسيب، وما نشهده في الوقت الحاضر هو الثورة الثالثة في تاريخ الكتابة ونقل الكتابة نفسها الى دائرة اختصاص المعلومات الرقمية، وكما نعلم فقد حدثت الثورة الاولى على مراحل واستغرقت وقتا طويلا، وبناء على ماهو متوفر حاليا من معارف علمية حديثة، بدأ تاريخ الكتابة في نحو 5300 قبل الميلاد في أوروبا القديمة(*) وبعد مرور ألفي عام على ذلك تم استخدام الكتابة في بلاد الرافدين، وابتداء من ذلك التاريخ وما بعد تطورت الكتابة بمختلف الانواع والاشكال وجرى استخدامها بمختلف الطرق والأساليب.

(*) هذه نظرية المؤلف، وتوجد آراء أخرى عن أسبقية الكتابة في وادي الفرات وحضارات الشرق الأدنى القديم ـ المراجع.

أما الثورة الثانية في تاريخ الكتابة فقد تأخرت فترة طويلة جدا، حيث لم يتمكن الناس إلا في عام 1450 من طباعة الكتب باستخدام الاحرف المتحركة (اشارة الى اختراع الطباعة في ماينتس/المانيا على يد يوهانس غوتنبرغ - المترجم) ومثلت الثورة الثالثة تحديا صارخا للكتابة التقليدية وأثرت عليها تأثيرا بالغا وبدأت تتشعب وتتعاظم كما لم يحدث قبلئذ في أي من الثورتين الكتابيتين السابقتين، وعندما قيل: (إننا سنشهد قيام هذه الثورة» كانت هذه الجملة قد صيغت ربما بصورة عامة. وبصورة أدق، لم يتمكن سوى قسم صغير فقط من سكان العالم من تحقيق الطفرة الى الحرفية الرقمية، علما أن نصف الناس في العالم لم يتمكنوا حتى الآن من بلوغ المستوى التقليدي للكتابة.

ويعتبر البعد الجديد للرقمية أحدث جميع الانجازات التي تمكن الانسان التوصل اليها، وفي هذا الصدد، هناك موضوع معلوماتي تكنولوجي دائم التأجج استحوذ على عقول الناس، ألا وهو موضوع مجتمع المعرفة، الكلمة السحرية التي ستقودنا إلى آفاق المستقبل، وما يرتبط بهذه الكلمة السحرية من محتويات جميع ما يمكن تصوره من احلام. ومع هذا فان الاحلام المعقودة على العالم الرقمي الذي ستتحسن فيه أوضاع جميع الناس والذي سيتم فيه توزيع المصادر الطبيعية على الناس بصورة أكثر عدالة ليست الا بمثابة التمنيات المطروحة على مذبح مريم العذراء في إحدى الكنائس الكاثوليكية أو

على الشريط الورقي الذي يشده اتباع مذهب الشنتو المملوئين حماسا وآمالا عريضة على غصن أحد الأحراش طلبا للخير.

قبل مدة طويلة اخترع باحثو المستقبل مصطلح «مجتمع المعرفة»، على غرار أمور كثيرة أخرى يعود أصل هذه الفكرة الى الدائرة الثقافية الانجلوسكسونية في بداية الستينات من القرن المنصرم. مثلا ظهر في اللغة الانجليزية مصطلح Knowledgeable society وبعد ذلك بفترة قصيرة مصطلح knowledge society (=)Stehr 1994:26 علما بأن مصطلح Knowledge-constructiing society هو الأكثر شيوعا في يومنا هذا، ولقد بقي النقاش الدائر حول مجتمع المعرفة محصورا عقوداً طويلة في دائرة الخبراء، ومنذ بداية التسعينات أخذ نفوذ التقنية الرقمية في عالم العمل وفي الحياة اليومية للناس يتزايد باستمرار.

وعلى الرغم من أن القسم الأكبر من المعلومات يتم حاليا معالجته رقميا، يجب على المرء في البداية إقامة الروابط الفكرية بين البيانات المتراكمة، وانتقاء المطلوب من هذه الكمية الهائلة من البيانات وتحويلها الى معرفة بناءة، ثم أن مصطلح مجتمع المعرفة يوحي لنا وكأننا نعيش في عصر فيه معارف أكثر من معارف العصور السابقة، هذه فرضية مشكوك بصحتها جدا، إن مجتمع المعرفة لا يقدم لنا تلقائيا المزيد من المعارف لمجرد أن كمية البيانات التي لا علاقة فيما بينها تتدفق بصورة انفجارية، لهذا نرى أن اولئك الذين يأخذون

بعض الوقت للتفكير بصورة انتقالية بالآثار التي تخلفها تكنولوجيا المعلومات يفضلون استخدام المصطلح الحيادي مجتمع الشبكة society network (Castells 1996) من أجل تحاشي ما قد يرتبط بسهولة من تقييمات متعجرفة بـ«مجتمع المعرفة».

لقد أكد الباحثون الإعلاميون «على سبيل المثال Kerckhove 1997» على أننا سنبقى، في ما يتعلق بالتغلب على كمية البيانات الهائلة التي تهدد باجتياحنا كالسيل العارم، وكما فعلنا دوما وأبدا سنبقى متعلقين ومعتمدين بأقدم تكنولوجيات الجنس البشري، أي اللغة، نظرا لأن الانسان يعي ويشكل معرفته عن العالم بمعونة اللغة بغض النظر عن كمية المعلومات الرقمية أو تلك الموجودة على شكل معلومات غير رقمية تحت التصرف، اللغة هي محرك الهوية الثقافية. أي أنها أهم أداة بيد الإنسان لبناء الاتصالات الاجتماعية ولتشكيل محيطه الثقافي ثم إن معرفتنا عن العالم مشفرة بآلاف الاشكال أي باللغات الطبيعية، علما أن معرفتنا في هذا المجال ليست موضوعية بصورة مطلقة، بل إنها مرتبطة دوما بالزمن ومعتمدة على المصالح (Weizsacker 1992).

ونستطيع بمعونة لغتنا التلاعب بالمعرفة كما يحلو لنا وتوجيه نقل المعرفة حسب أهوائنا. أما المعلومات فيمكن تزييفها بصورة متعمدة، حيث تخدم اللغة في هذه الحالة غرض التضليل المقصود، ثم هناك الحالة المعكوسة التي تكون فيها المعلومات خاطئة لأن المعرفة التي تعتمد عليها هذه المعلومات غير كاملة أو أنها مليئة بالاخطاء. إن

تقديم المعرفة في وسائل الاعلام الحديثة مطبوع بالمعلومات والتضليلات على حد سواء.

ومن الأمثلة الصارخة على التناقضات وتصادم المصالح في قطاع المعلومات تذكر التقارير الواردة عن الحرب في الشيشان (PanfiloviSimonoy 1997) والحملة الإعلامية الضخمة حول حرب كوسوفو، والمعلومات الخاطئة التي كانت تبثها أجهزة الدعاية اليوغسلافية ووسائل الإعلام الغربية، اننا نعيش تحت تأثير صدمة، الهذيان الرقمي، (kroker 1997).

وفي «متاهة اللغة» (Weber 1992) بكل إمكانات التلاعب المتعددة التي تملكها يتوه الكثير من الناس، أما عدم التيه في هذه المتاهة فهو فقط من نصيب أولئك الذين اعتادوا على التفكير والتصرف بصورة مستقلة، وفي متاهة اللغة تلعب الاستراتيجيات الايديولوجية دورا متميزا لأنها ترجح كفة ميزان المصالح العقائدية التي تحول المعرفة للسير في اتجاه واحد لما هو في صالحها، وعلى الرغم من أن اللغة بحد ذاتها حيادية القيمة، فإنها تعتبر قوة خطيرة لأنها ملائمة بصورة ممتازة لنقل أشباه المعارف والمعلومات والتستر على القوة الذاتية الهدامة لمصالح الافراد والمجموعات الاجتماعية المتولدة من «حقائق غير موضوعية» من ناحية، ولتقديم الدعم اللازم لها لفرض نفسها من ناحية أخرى (WEBER1991:105).

تقدم السيدة فيبر Weber في دراستها هذه صورة ملحة لإجمالي

التشابكات المحتملة لاستخدام اللغة، والحواجز التي تقف بوجه التفاهم بالاعتماد على تفاوت المعرفة في أوساط أطراف الحوار ومرورا بالسلوك غير التعاوني مثل الصمت أو الإسهاب في الحديث وانتهاء بإستراتيجيات البلبلة مثل خلط الأقوال والبيانات «الصادقة» «الخاطئة» «عديمة المعنى» و«لغاية الكذب» و«النميمية» والاتهام والتجني والدسائس والمكائد.

إن تشابك المعرفة الذي يشبه المتاهة والتعبير عنه بواسطة اللغة يتضاعف نتيجة إمكانات التثبيت الخطي لنواياها، علما إن استخدام الاستراتيجيات الجوهرية ومحتويات المعرفة وتقديمها لغويا لغرض إعطاء المعلومات أو للتضليل لم تتبدل منذ اختراع تقنية الطباعة حتى يومنا هذا والتي ترافقنا أيضا في عصر ترقيم المعرفة وهكذا فإن الطبيعة المتاهية.للغة ستبقى قائمة في عصر مجتمع الشبكة أيضا.

وكما يبدو فإن الشئ الجديد في البعد الرقمي هو لا محدوديته وكماله التقني، فأصحاب الرؤى يتبارون على تقديم الإمكانات النظرية للاتصالات العالمية وللتشابك الرقمي «على سبيل المثال (Dixon/Cassidy) أما الحقيقة التي لاتزال غائبة عن البال فهي أن الاتصالات العالمية ليست إلا ظاهرة من ظواهر الاتصالات غير الثقافية، وكيف أن الاختلافات الثقافية تتحمل مسؤولية عدم تقديم المعرفة بصورة لايمكن إساءة فهمها (Hofstede 1995).

وحسب الآراء التقليدية، فإن المعرفة المتوفرة عنا وعن العالم

مخزنة في مكتبات، ماذا سيحدث لهذا الكنز من المعرفة في عصر المكتبات الافتراضية؟ إن انفجار البيانات وشعور الفرد بالتخمة التي أصابته منها، لا تفسح المجال في الواقع لظهور مزاجية من التحمس، بل أكثر من ذلك احساس خافت بالابتعاد المتشكك منها. «لقد تربينا على الفرضية القائلة بأن المعلومات هي مصدر نادر، مما دفعنا إلى التأقلم مع قلة ما يصلنا من معلومات، أما في شلال المعلومات نرى أن المكتبة الافتراضية التي تزودنا بالمعلومات من كل الامور وتجرفنا بسيل عارم من البيانات، لا تنال التقدير الذي تستحقه (O'Donnell 1998:43).

وإذا كنا نعتمد في صياغة معارفنا على أقدم التكنولوجيات التي يملكها الانسان في مجال المعلومات أي لغتنا، فإن ذلك يعني الاعتماد على لغة تاريخية معينة موجودة كلغة أصلية في مكان ما من العالم تقوم بخدمة الناس الذين ينتمون الى دائرة لغوية معينة للمحافظة على ارتباطاتهم الاجتماعية الثقافية التي يتقيدون بها.

يصل عدد اللغات الموجودة في العالم التي تتميز بكفاءة تقديم المعرفة اللازمة لبناء مجتمعنا التقني الحديث الى 200 لغة تقريبا، وهو عدد يولد بعض الإحباط اذا ما قورن بالعدد الاجمالي لعدد اللغات في العالم (نحو 6400)، بيد أن أمر هذه اللغات كوسائل إعلامية يتعلق إن صح التعبير «بالنواة القاسية» لهذا الكم الهائل من اللغات، أي بلغات تستطيع الصمود بوجه جميع تحديات العصر التكنولوجي، علما أن عدد الذين يتحدثون هذه اللغات لا يلعب دورا مقررا في مجتمع

الشبكة فاللغة الاسلندية التي لا يتجاوز عدد الناطقين بها ربع مليون إنسان تخدم بناء المجتمع الحديث تماما كما تفعله اللغة الاستونية البالغ عدد متحدثيها مليون إنسان، أو الدانماركية التي يتحدثها خمسة ملايين إنسان أو اللغة الانجليزية العملاقة التي ينطق بها أكثر من نصف مليار إنسان في العالم.

وما يتعلق بالمصادر اللغوية لمجتمع المعلومات نرى أن العالم مقسم الى قسمين، هناك اللغات التي تتولى فيها الانجليزية دور الوسط اللغوي المتميز المطلوب للتحديث، أي تلك اللغات الموجودة في القسم الشمالي من الكرة الارضية «العالم الانجلوسكسوني»، وفي الأجزاء الأخرى من العالم تتنافس الانجليزية مع إحدى اللغات الوطنية المحلية الموجودة في هذا البلد أو ذاك، في دول أوروبا الغربية مثلا التي لا تعتبر فيها الإنجليزية لغة البلاد، تقوم هذه الوسيلة بالتأثير على عملية التحديث لكن بصورة غير مباشرة، أي عن طريق اللغة الثقافية المحلية.

لقد أنتج عالم التكنولوجيا ثنائية لغوية من نوع جديد، الثنائية اللغوية الوطنية - الانجليزية، وهذا النوع من الثنائية اللغوية مشحون ببعض التوترات في فرنسا نتيجة التوتر الموجود بين اللغتين الفرنسية والانجليزية، وفي ايطاليا كثنائية ايطالية - انجليزية، وفي ألمانيا تنافس بين الالمانية والانجليزية كأيقونتين للحداثة الى أخره، إن استخدام وسائل الاتصال ذات العلاقة بالموضوع ليست متناسقة،

أي عدم إمكان استخدام كل لغة من اللغتين لأداء جميع الوظائف المطلوبة. إن الثقافة اللغوية الوطنية - الانجليزية لها تفضيلها الوظيفي الخاص بها ففي الوقت الذي تخدم فيه اللغة الوطنية في بلد معين أغراض الحياة اليومية وتقوم بأداء العديد من الوظائف ذات الابعاد الوطنية (لغة الإدارة - التعليم المدرسي - المجالات المهنية وما شابه)، تؤدي الانجليزية العديد من الوظائف المتخصصة الاخرى وتستخدم كلغة للتسويق والعلوم والدبلوماسية وما شابه.

في السبعينات قام رعاة اللغة والنشطاء الثقافيين خارج نطاق النصف الشمالي الانجلوأمريكاني من الكرة الارضية بالدخول في مناقشات طويلة عريضة حول الأسلوب الذي يجب استخدامه للحد من نفوذ الإنجليزية على اللغات الثقافية الأخرى، أما في يومنا هذا فإن جميع الخبراء الذين يهتمون بتعدد اللغات في مجتمعاتنا يدركون تمام الادراك عدم جدوى الوقوف بوجه الحقائق الثابتة القائمة التي حققت أوضاع غير قابلة للتغير (Ammon1997) ولم يعد من المعقول أو المجدي أن نناقش ماذا كان سيحدث أو «أكثر أصالة» لو لم تكن خاضعة لنفوذ الانجليزية. يجب علينا أن نعيش مع هيمنة هذه اللغة شئنا أم أبينا.

لكن لماذا أصبحت الانجليزية هي اللغة التي يتعين علينا استخدامها يوميا بغض النظر إن كان ذلك في شبكة الانترنت أم في الاتصالات داخل عالم الأعمال التجارية أم في أدغال أسواق المال أم

في فرع الإعلان والترفيه؟ على هذا السؤال هناك إجابة بسيطة واحدة؛ حدث هذا نتيجة مصادفة تاريخية، أو لنقل نتيجة سلسلة من المصادفات التاريخة: قدم كريستال Crystal في عام 1997 إجابة بسيطة مذهلة على هذا السؤال الذي يحرك العديد منا، لقد كانت الإنجليزية، حسب تقديراته، قد ظهرت في المكان الصحيح وفي الوقت الصحيح (The right place at the right time) في الواقع أن التقاء عامل الزمان مع عامل المكان شكل اللحظة المقررة لنهوض الانجليزية ثم إن الزخم الجبار الذي حصلت عليه الإنجليزية في خضم التقنية الرقمية لتكنولوجيا المعلومات يعتمد هو الآخر على مصادفة تاريخية، لو لم يكن بيل غيتس Bill Gates قد ولد أمريكيا بل صينيا لكان مسرح الإعلام والمعلومات سيبدو حاليا مخالفا بعض الشئ. مع هذا فقد أكد الباحثون اللغويون على أن الإنجليزية كوسيلة للاتصالات ذات مدى عالمي لا تقوم بتشجيع الفرادة اللغوية من طرف واحد أو أنها تساهم في عملية التسطيح الثقافي (على سبيل المثال Swaan 1993 إذ أن نحو 41% من الذين يتكلمون الإنجليزية (نحو 235 مليون إنسان) يتحدثون لغتين اكتسبوا إحداهما كلغة أم وتعلموا الإنجليزية كلغة ثانية إضافية، ينعكس التوسع العالمي للمجال الذي تشمله الإنجليزية في تزايد نمو نسبة الذين يتحدثون لغتين، وليس في تزايد أعداد الذين يتحدثون اللغة الأم فقط، وكلما ازداد انتشار الإنجليزية كلغة عالمية، كلما ازدادت صورة الثنائية اللغوية الوطنية - الانجليزية ألوانا.

علاوة على ذلك لا يجب فهم عالمية الإنجليزية على أنها أداة لإعادة صياغة أشكال الجماعات التي تتحدث لغات أخرى، نظرا لأن الإشعاع الدولي لهذه اللغة يختلف وظيفيا من حالة إلى أخرى فعند استخدام الإنجليزية مثلا كلغة في عمليات التسويق العالمية، أو كلغة للعلوم، وكرمز للحداثة في عالم الترفيه، فإنها لا تنافس على الاطلاق لغات أصلية أخرى مثل الفرنسية، اليونانية، الروسية، الصينية، اليابانية، أو الفيتنامية.

إن الاعتراف بأهمية الإنجليزية كلغة اتصالات وقبولها قد يبدو لبعض الناس وكأنه صنو للاستسلام أو «شر لابد مه»، إن مثل هذا الموقف يفشي أسرار مخلفات القومية التاريخية وخرافتها التي تدور حول «نقاء» الثقافة اللغوية القومية واحتكارها اللامحدود، ولكنه لا يملك أي وزن برغماطي من أجل التغلب على مشاكل الاتصالات الراهنة، ثم إن التفكير بعدم التمكن من الاستغناء عن الإنجليزية بالنسبة الى تحديث اللغات الثقافية في العالم فتح آفقا جديدا لزيادة التعامل مع هذه اللغة بصورة أكثر عقلانية، وإذا ما تخلينا عن تخوفات الاحتكاك غير العقلانية بالإنجليزية التي تدعي بأن هذا الاحتكاك سيولد الغربة، حينئذ ستبقى بدائل عقلانية كثيرة تمكن من الاستفادة من الثنائية الوطنية – الانجليزية للعصر التكنولوجي.

وإذا لم يكن بالإمكان التخلي عن الإنجليزية لتحديث عالمنا حينئذ يجب استخدام الطاقة الاجتماعية الثقافية لهذه الوسيلة الاتصالاتية

لما فيه نفع وفائدة تطوير المجتمعات الوطنية، وهكذا فإن استخدام الانجليزية «كأداة» لعملية التحديث، سيعود بالنفع على مصالح المجتمعات اللغوية الفرنسية، والايطالية أو الهنغارية، وكما يبدو فإن الشعوب الصغيرة التي كانت قد خضعت في تاريخها لفترات طويلة من الهيمنة الاجنبية قد طورت حصافة أكبر في استخدام احدى اللغات المهيمنة لما فيه خير مصالحها الوطنية أكثر مما فعلته الأمم «الكبرى».

وفي الوقت الذي لم يتمكن فيه الكثير من الروس والألمان حتى يومنا هذا من التعود على تقبل فكرة التعايش بين اللغتين الوطنية والإنجليزية، استطاع الاستونيون والفنلنديون أن يظهروا للعالم أن المرء قادر على اغناء الثنائية اللغوية الوطنية - الانجليزية بالأفكار الطيبة وايصالها الى مستوى مدر للمنافع بواسطة اعتماد استراتيجيات تخطيط لغوية برغماطية، مما يسمح أيضا بمحافظة التطور اللغوي - الثقافي على اتجاه فعال، ومن الجدير بالذكر أن فنلندا وأستونيا تعتبران في طليعة البلدان الاوروبية التي تعمل على بناء مجتمع الشبكة، ثم إن تفاعل الإنجليزية مع الفنلندية والاستونية أدى خلال الاعوام القليلة الماضية الى تشكيل لغة تكنولوجية باتت تؤثر باستمرار على لغة الحياة اليومية كما تتطرق اليها وسائل الاعلام.

ويظهر أثر الإنجليزية بشكل خاص على استحداث العديد من المصطلحات العلمية، وكما هو معروف فإن متحدث اللغة العادية يجد

صعوبة بالغة في فهم لغة الاختصاص ولكن هذا كان الحال دوما وأبدا، قبل مائة سنة أيضا، الفرق الوحيد الذي نشهده حاليا هو استعاضة الاصطلاحات الاختصاصية القديمة المركبة من عناصر المفردات الثقافية اللاتينية - اليونانية والمصطلحات المحلية، بالمصطلحات الانجليزية وكيف أن احتياطي المصطلحات الانجليزية يشكل في الواقع معينا لا ينضب. إلى جانب ذلك هناك مصطلحات جديدة تنشأ بالاعتماد على المحصلة اللغوية المحلية إذ تحتوي الفنلندية مثلا على مفردات ومصطلحات مترادفة زوجية أحدها مأخوذ من الإنجليزية والآخر من منشأ وطني (على سبيل المثال بالفنلندية diskettiَ) بالانجليزية diekette مرادفة لـ Levyke بمعنى Computerdiskette, Diskette قبل فترة وجيزة تم فحص عملية التحديث المعقدة للمجتمع الفنلندي من وجهة النظر هذه (Haarmann, Holman 2000) لا وجود لبحوث مقارنة مع بلدان أخرى في الوقت الحاضر.

وتعتبر عملية التحديث اللغوي القائمة في أستونيا أكثر سرعة من تلك العملية في فنلندا، لقد كان المجتمع الاستوني في عام 1991 الذي حصلت فيه البلاد على استقلالها متخلفا كبقية الدول الاوروبية الشرقية الخاضعة للنظام الاشتراكي، ومن خلال فترة لا تتعدى عشر سنوات تمكن المجتمع الاستوني «الوصول» الى شواطىء التطور الحديث، يعني هذا في المرحلة الأولى من التطور اللغوي تنقية الاستونية من المفردات السوفيتية العالقة بها، والتخلص من أعباء

المصطلحات الاشتراكية المتخشبة المنتشرة في المجتمع وإصلاح اللغة في العديد من مجالات الحياة اليومية.

كانت الإنجليزية منذ البداية جزءا لا يمكن الاستغناء عنه في عملية التحديث هذه، حيث أخذت جميع المصطلحات الاختصاصية في كافة الفروع المهنية والعلمية تتفاعل مع اللغة الانجليزية، ولا يجب بأي حال من الاحوال فهم هذا التفاعل على أنه بالضرورة تبعية كاملة للغة الانجليزية. كلا، إن الجهات المسؤولة عن رعاية اللغة الوطنية بذلت مجهودات ناجحة للغاية لزيادة شعبية الكلمات والمصطلحات الاستونية المعتمدة في ترجمتها على الإنجليزية. وتشبه سرعة عملية التحديث اللغوية في أستونيا تلك السرعة التي شهدها تحديث اللغة الروسية في القرن الثامن عشر، عندما تم ادراج المئات والآلاف من مصطلحات اللغات الأوروبية الغربية في مفردات اللغة الروسية في حينه كان العديد من الكلمات غريبا تماما على السمع، إلا أنه مع مرور الأيام أصبحت كلمات مألوفة كالكلمات والمفردات المحلية الأخرى. من المتوقع حدوث اندماج مشابه من المفردات الغربية في المفردات المحلية للغة الاستونية.

. لم يكن من باب المصادفة اختيار فنلندا أو استونيا ممثلين لمحافظة اللغات الصغيرة، حتى عند اتصالها مع اللغة الانجليزية العالمية والتفاعل المتين معها، على استقلاليتها وبقائها في وضع يمكنها من التأقلم بمرونة مع وتيرة التنمية للعصر التكنولوجي. إن هذه

الكفاءة أي التأقلم بمرونة دون فقدان الهوية الثقافية الذاتية، تفترض وجود كفاءة أخرى سابقة لها، وهذا ما برهن عليه الفنلنديون والاستونيون خلال تاريخهم الحديث، مهارة تنظيمية فائقة بالترابط مع مستوى عال من التعليم، إذ ما فائدة وجود لغة مرنة في مجتمع يفتقد الى البراعات الفنية Know-how الاحترافية، في هذا الصدد تتمتع فنلندا بمنفعة كون هذا البلد خال من القسر الايديولوجي منذ استقلاله في عام 1917 وحتى يومنا هذا، لقد وجه الفنلنديون دوماً وأبداً أبصارهم باهتمام كبير إلى العالم وطوروا بكل عناية مستواهم المعرفي والعلمي ووسعوه باستمرار.

إن مانويل كاستلس Manuel Castells الأب الروحي لمجتمع الشبكة والعامل في وادي سيليكون Silicon Vailey في كالفورنيا، تحدث في بداية عام 2000 في مقابلة أجريت معه عن الظروف التي يستطيع العالم بموجبها تحقيق الطفرة من المجتمع ما بعد الصناعة الى مجتمع المعرفة، في هذه المقابلة أشاد كاستلس ببلدين يلعبان حسب قناعته دورا قياديا في هذه العملية الانتقالية، أحد هذين البلدين - غير مثير للعجب - هو الولايات المتحدة الامريكية والدولة الثانية مفاجأة لجميع المراقبين الحياديين - هي فنلندا (Castells 2000) ويرى كاستلس إن البلدين يملكان فرصة حقيقية للوصول الى مرتبة جديدة من التطور الاجتماعي، علما بأنه يعطي في هذا الصدد الاسبقية لفنلندا نظرا لأن التكافل الاجتماعي الداخلي في هذا المجتمع الخالي

من الاختلافات والفروقات الطبقية يضمن نوعية الحياة الكريمة للجميع، في حين أن التقدم التكنولوجي في الولايات المتحدة الأمريكية يقوم على حساب الضعفاء اجتماعيا، حيث تقوم في الولايات المتحدة الأمريكية حسب رأي كاستلس، في الوقت الحاضر بروليتاريا جديدة لعصر المعلومات.

ثم إن انقسام المجتمع في الولايات المتحدة الأمريكية الى نخبة من احتكاريي المعلومات والى جماهير عريضة تعتمد على مثل هؤلاء الاحتكاريين يعكس أيضا انقسام العالم المستقبلي إلى قسمين. فالبلدان التي تقف حاليا على عتبة التحول الى مجتمع الشبكة تتوزع دون استثناء تقريبا على القسم الاعلى من الكرة الارضية، باستثناء استراليا ونيوزيلندا كحصنين خارجيين في الجنوب الى الجنوب من منطقة البلدان المتطورة تكنولوجيا، وفي القسم الجنوبي من الكرة الارضية سيتم الانتقال الى مجتمع الشبكة تدريجيا وببطء شديد لعدم وجود مصادر تكنولوجية يمكن تحريكها من أجل تحقيق التنمية الشاملة في هذه البلدان، كما أن صراع الجنوب - الشمال الذي يميز المرحلة ما بعد الكولونيالية لن يستمر وحسب، بل إنه سيزداد حدة على أكثر احتمال، ومن الظواهر الراهنة المميزة لهذه الاعراض الخطيرة تذكر محاولة كسب الاختصاصيين في تكنولوجيا المعلومات من البلدان النامية واستقدامهم الى البلدان المتطورة، إن هذا التجفيف الدماغي brain drain لن يعطي البلدان النامية أي فرص

تستحق الذكر لاستغلال منافع مجتمع الشبكة وإغداقها على مجتمعاتها.

ثم إن عملية الانشطار الاجتماعي الاقتصادي لها آثارها على السياسة الدولية وعلى الحياة الثقافية. إن صراع الجنوب - الشمال سيزداد حدة نظرا لزيادة تراكم المعرفة والمصادر الاستراتيجية الاقتصادية في البلدان النامية، في حين أن هذه البلدان النامية لا تستطيع اللحاق بالتقدم التكنولوجي للمجتمع الرقمي، لا بل إن بعضها سيخسر السباق جملة وتفصيلا ويخرج من الحلبة ليصبح أكثر ارتباطا باحتكارات المعرفة التي تمارسها بلدان القسم الشمالي من الكرة الأرضية.

لقد تعرض السيناريو المذكور من تصادم الحضارات (Huntington 1996) بحق إلى كثير من الانتقادات ومع هذا فانه ملائم كنموذج للصراع الذي سيقع في المستقبل بين العالم المتشابك وخرابة التطور الرقمي «العالم الثالث».

إننا لا نعيش في عصر «الهذيان الرقمي» بل حسب رأي بعض الخبراء الاقتصاديين المتشككين في عصر «الاوهام الاقتصادية» أيضا (Todd 1998) أما الشيء الضروري اللازم الذي يجب علينا الاعتماد عليه فهو تطوير المدارك الواعية للترابطات القائمة بين سريان المعلومات الذي نواجهه حاليا، إذ يوجد هناك بديل لتكنولوجيا المعلومات Informationstechnologie بكل ما يرتبط بها من خرافات، هو

إيكولوجيا المعرفة Wissensokologie (Davenoport 1997) غير أن ترابط الظروف المؤدية الى اقامة المعرفة بالاعتماد على اللغة، الذي هو في الواقع الموضوع المركزي لإيكولوجيا المعرفة، لا يزال حتى الان بانتظار نقاش عريض.

سيعتمد المستقبل اللغوي في البلدان التي تتمكن بنجاح من تحقيق مجتمع الشبكة الى حد كبير على إمكانية تحقيق التوازن بين القوى الدافعة للثنائية اللغوية الوطنية - الانجليزية، ففي الاماكن التي تستطيع فيها اللغة الوطنية الوقوف بوجه ما قد ينصب عليها من تبديلات من قبل اللغة الانجليزية ستكون نقاط الاحتكاك قليلة دون شك، علما بأن التأثير المتبادل المثالي سيعتمد دون شك على اتفاق وجهات النظر في هذا الباع كما نشاهده في فنلندا وأستونيا والدانمارك، أما في البلدان الكبيرة مثل فرنسا، ألمانيا، أو ايطاليا ذات الوعي القومي المتنامي والمتراص عبر التاريخ فإن علاقة اللغات في الثنائية اللغوية الوطنية - الانجليزية لازال محفوفا بالأزمات وفي هذا السياق سيظهر لنا إن كان بالإمكان حدوث أي نوع من الاتفاق البرغماتي بين لغات هذه البلدان والانجليزية أم لا.

ولا تستطيع التكهنات مهما كان نوعها إلا الاعتماد على البيانات المتوفرة حاليا واستخدامها لاستخلاص الاتجاهات المستقبلية. أما الامور التي لا يمكن أخذها بالحسبان فهي العوامل اللاعقلانية كالعلاقة المتأزمة بين الكبرياء الذي تظهره أمة ما بلغتها والضغط

الذي قد تمارسه عليها الإنجليزية كلغة عالمية. إن مصاعب اصلاح الخدمات اللغوية مثلا في أجهزة الاتحاد الاوروبي وتخفيف العدد الكبير من اللغات الرسمية المستخدمة حالياً في الاتحاد تظهر تصادم المصالح القومية للدول الأعضاء. وبالنظر الى المقاييس الدولية نرى تراكم الكثير من العوائق بوجه قيام تفاعل مع الإنجليزية يكون خاليا من التصادمات. إن الكراهية التي يبديها العديد من البلدان الإسلامية، في المقام الأول إيران وأفغانستان، ضد الموثرات الغربية، وبصورة خاصة ضد الإنجليزية كأداة «للإمبريالية الأمريكية» لها جذور عقائدية عميقة جدا.

ومن ناحية أخرى فإن الإنسان لا يعيش فقط مع الوقائع القائمة، بل مع أحكامه السابقة غير العقلانية ومع أوهامه. ونظرا لأننا نعيش في عالم فوضوي فإن أي مقولة تتعلق بالمستقبل قد تكون «صحيحة» كالمصادفة التي قد تؤكد هذه المقولة، فالتعامل مع التكهنات والتطرق الى ما يخبئه المستقبل من أمور هو عمل مدر للأرباح (Sherden 1998) أما من سيحقق في النهاية الفوز في ماراثون التكنولوجيا ومن سيخسر فسيعتمد إن كان المجتمع قد وضع في الوقت المناسب الخطة الصحيحة للتطور اللاحق، وإن كانت ديناميكية الثنائية اللغوية الوطنية - الإنجليزية داخلة في هذه العملية أم لا.

وعند الإقدام على تطوير آفاق المستقبل في هذا الباب بالذات فإنه لمن الحصيف بالتأكيد أن يتم التفكير أيضا بمستقبل تعدد

اللغات على نطاق عالمي وخاصة الثنائية اللغوية الوطنية - الإنجليزية بكل الضروب والأشكال الوطنية لهذه اللغة. في الناحية النظرية يستطيع المرء أن يتصور أن زخم اللغات الوطنية سيتضاءل مع مرور الوقت نتيجة الاحتكاك باللغة الانجليزية المهيمنة عالميا، ومما يخطر على البال أيضا أن الناطقين باللغات الوطنية سينصهرون ولن يتحدثوا إلا اللغة الإنجليزية فقط، مما يعني نهاية تعدد اللغات في العالم مع بقاء لغة واحدة في العالم هي الإنجليزية(؟!).

بإمكان المرء صياغة مثل هذا السيناريو بصورة دراماتيكية وإحداث صدمة وخاصة في صفوف أناس يتعلقون بثقافتهم الوطنية، مع هذا فإن مثل حكاية التطورهذه قد تبدو مشابهة لإحدى القصص الخرافية التي ألفها الاخوان غريم Grimm ولكن مع إشارات معكوسة، حيث تتحول العبارة التي كانت هذه القصص الخرافية تنتهي بها عادة «لو ما ماتوا لكانوا حتى الان أحياء يرزقون» إلى عبارة «عندما يموت جميع الآخرين تشعر إحداهن (اللغة الإنجليزية - المترجم) بالفرحة»، إن المرء يتقبل بسهولة اصطلاح «الانجليزية» الذي تجري الاشارة إليه بكل بداهة، وهل من المتوقع أن يكون الأمر عكس ذلك - بصيغة المفرد.

منذ سنوات والخبراء متفقون على الرأي القائل بأن الإشارة الى اللغة الانجليزية بعبارة «الانجليزية» ليس إلا نوع من التعميم الذي سيفقد قيمته مع مرور الوقت، ولهذا نرى أن الناس يستخدمون

المصطلح على الأغلب بصيغة الجمع ويتحدثون عن (World English) (انجليزية العالم) في معرض إشارتهم إلى أشكال الإنجليزية التي تختلف من منطقة إلى أخرى من مناطق العالم. إذن أن كل من يتحدث عن مسيرة انتصار الإنجليزية يجب عليه أن يعي تماما أن الامر يتعلق بظاهرة لغوية متفككة في الهوية الإقليمية. وعندما «تقضي» الإنجليزية على جميع اللغات الأخرى في أي وقت من الاوقات في المستقبل البعيد، حينئذ ينعدم الحديث عن الإنجليزية بصيغة المفرد، وما التفريق المعروف بين الإنجليزية البريطانية والإنجليزية الأمريكانية سوى قمة جبل الجليد الذي يتكون من الضروب الإنجليزية المحلية العديدة التي يشهدها العالم الناطق باللغة الإنجليزية منذ سنوات طويلة.

بصورة دقيقة، انشقت منذ عصر الكولونيالية صيغ لغوية عديدة عن الإنجليزية، علما بأن العشرات من لغات البيجن Pidgins والكريبول Kreol ذات القاعدة الإنجليزية عبارة عن منتوجات تاريخية تمخضت عن وضع تعلم خلاله أناس الإنجليزية، لم تكن هذه اللغة هي لغتهم الأم، فحولوا بالاعتماد على عادات الكلام المتبعة محليا هذه اللغة إلى لغة جديدة، إن استقلالية لغات الكريبول معترف بها منذ زمن بعيد، وفي السابق لم تكن لغات البيجنس والكريبول تلاقي أي تقدير من الأوروبيين، أما في الوقت الحاضر يجب على الأوروبيين المتزمتين من الناطقين بالإنجليزية أن يقبلوا ويتقبلوا وجود لغات دول قامت على البيجنس مثل توك بيسين Tok Pisin اللغة الرسمية لدولة بابوا - غينيا الجديدة.

بعد مرور بضعة عقود لن يكون من الممكن التحدث عن الإنجليزية بصيغة المفرد، باستثناء الإنجليزية الدولية لعالم الأعمال Business World والعلوم والتي توصف عن حق بأنها «الانجليزية» الدولية اللادموية bloodless international English، بيد أن هذا الشكل من الإنجليزية ليس سوى ضرب واحد فقط من ضروب الإنجليزية، علما بأن هذا الشكل من اللغة المصاب «بفقر الدم» لا يستطيع وظيفيا تعويض «المنتوجات المنشقة» المرتبطة بالأرض للعالمية الإنجليزية، وكما يتحدث الناس في عالم الازياء عن الأساليب الأثنية، فإن أداب اللغة الإنجليزية تعرض أيضا أساليبها الأثنية Ethnic Styles.

عندما يتحدث مواطن هندي تكون الهندي Hindi هي لغته الأم والذي اكتسب الإنجليزية كلغة ثانية، الإنجليزية المحلية المشبعة بالمصطلحات المحلية (تسمى هذه اللغة هندية Hindish فإن البريطاني أو الأمريكاني يفكران على الفور باستقدام من يترجم لهما. وإذا ما أراد أسترالي من الأصقاع النائية التحدث مع هذا الشخص الهندي فإن التفاهم بينهما يكون مستحيلا مثل استحالة التفاهم بين نيجيري يتحدث بيجين الساحل الغربي مع أمريكاني من أصل إفريقي يستخدم لغة الإيبونيكس Ebonics المحلية (حرفيا: لغة الأبنوس، لغة أناس الأبنوس المنحدرة من كلمة ebony أي «خشب الأبنوس»).

وعلى الرغم من عالميتها فإن الإنجليزية بصيغة الفرد تتعرض إلى تصور كالذي شهدته اللغة اللاتينية في أقاليم وتخوم الأمبراطورية

الرومانية، فمع ازدياد انتشار اللاتينية أنئذ في صفوف أولئك البشر الذين لم يكونوا من سكان روما، ازدادت هذه اللغة تبدلا حيث قام الكلتيون في الغال، والإيبيريون في هسبانيا والداكيون في ترانسلفانيا بتطوير عاداتهم المحلية في الكلام، ولم يستغرق الأمر إلا بضعة قرون حتى انهارت اللاتينية وتفككت إلى ضروب محلية تطورت فيما بعد بصورة مستقلة كلغات رومانسية (في الاستخدام اللغوي الالماني القديم، اللاتينية الجديدة Neulateinisch أو كما يدعى بالإيطالية lingue neolatine) منذ العصور الوسطى ولم تتمكن اللاتينية المكتوبة من إيقاف عملية الإنهيار الحاصلة آنذاك.

ستتطور الإنجليزية الى الإنجليزية 1. والانجليزية 2 والإنجليزية 3، الإنجليزية 4 والإنجليزية الدولية فلن يتمكنان من منع حدوث هذا الإنشطار، وعلى نفس المنوال، فإن الإنجليزية الدولية لن تكون في وضع يمكنها من إزاحة اللغات المحلية المتطورة كلغات ثقافية عن الطريق. في حال الهندي مثلا لن يكون هذا واردا نتيجة ازدياد عدد المتحدثين بلغة الهندي وبفضل تزايد الولادات والانصهار: بعد مرور عقدين فقط من الزمن سيطغى عدد الناطقين بالهندي على عدد متحدثي الإنجليزية، إذن إن مسيرة انتصار الإنجليزية وانصهار اللغات الأخرى فيها لن تحدث إلا أن الإنجليزية قد تدخل مع هذا تاريخ الأرقام القياسية كاللغة التي تشمل أكبر عدد من الإنشقاقات والأشكال الخاصة المحلية.

قائمة المراجع

Adelung, F. v. (1815). Catherinens der Großen Verdienste um die Vergleichende Sprachenkunde. St. Petersburg (Nachdruck mit Einleitung und einem bio-bibliographischen Register von H. Haarmann; Hamburg 1976)

Aertsen, H./Jeffers, R.J. (Hg.) (1993). Historical linguistics 1989. Papers from the 9th International Conference on Historical Linguistics, Rutgers University, 14-18 August 1989. Amsterdam/Philadelphia

Aitchison, J./Carter, H. (1994). A geography of the Welsh language 1961-1991. Cardiff

Albrow, M. (1998). Abschied vom Nationalstaat. Staat und Gesellschaft im Globalen Zeitalter. Frankfurt

Alpatov, V.M. (1996). Ajnskij jazyk, in: Volodin 1996: 126-138

Ammon, U. (1991). Die internationale Stellung der deutschen Sprache. Berlin/New York

– (1995). Die deutsche Sprache in Deutschland, Österreich und der Schweiz. Das Problem der nationalen Varietäten. Berlin/New York

– (1997). Ist Deutsch noch internationale Wissenschaftssprache? Englisch auch für die Lehre an den deutschsprachigen Hochschulen. Berlin/New York

– (Hg.) (2000). The dominance of English as a language of science. Berlin/New York

Anati, E. (1989). Origini dell'arte e della concettualità. Mailand

Andronov, M.S. (1978). Dravidijskie jazyki, in: Indoevropejskie jazyki, dravidijskie jazyki. Moskau, S. 317-434

Anwar, M. (1995). ›New Commonwealth‹ migration to the UK, in: Cohen 1995: 274-278

Arsanis, G.V. (1968). Sovremennyj assirijskij jazyk, in: Skorik 1968: 489-507

Arutjunjan, J.V. (1992). Russkie. Etno-sociologičeskie očerki. Moskau: Nauka

Arutjunov, S.A. (1989). Narody i kul'tury. Razvitie i vzaimodejstvie. Moskau

Asher, R.E./Simpson, J.M. (Hg.) (1993). The encyclopedia of language and linguistics, 10 vols. New York/London

Assmann, A. (1999). Erinnerungsräume. Formen und Wandlungen des kulturellen Gedächtnisses. München

Assmann, A. und J. (1990). Kultur und Konflikt. Aspekte einer Theorie des unkommunikativen Handelns, in: Assmann/Harth 1990: 11-48

Assmann, J./Harth, D. (Hg.) (1990). Kultur und Konflikt. Frankfurt

Auburger, L. (1993). Sprachvarianten und ihr Status in den Sprachsystemen. Hildesheim

– (1997). Der Status des Kroatischen als Einzelsprache und der Serbokroatismus: ein Lehrstück aus der kontaktlinguistischen Begriffsgeschichte, in: Moelleken/Weber 1997: 21-29
Austerlitz, R. (1987). Uralic languages, in: Comrie 1987: 175-184

Bähr, J. (1992). Bevölkerungsgeographie. Verteilung und Dynamik der Bevölkerung in globaler, nationaler und regionaler Sicht. Stuttgart (2. Aufl.)
Balzer, M.M./Vinokurova, U.A. (1996). Nationalism, interethnic relations and federalism: The case of the Sakha (Yakutiia) Republic, in: Europe-Asia Studies 48, 101-120
Bardet, J.-P./Dupâquier, J. (Hg.) (1997). Histoire des populations de l'Europe. I. Des origines aux prémices de la révolution démographique. Paris
Bausani, A. (1970). Geheim- und Universalsprachen. Entwicklung und Typologie. Stuttgart/Berlin
Baziev, A.T./Isaev, M.I. (1973). Jazyk i nacija. Moskau
Becker, H. (1948). Der Sprachbund. Leipzig/Berlin
Belova, K.A. et al. (Hg.) (1988). Rol' fol'klora v razvitii literatur jugo-vostočnoj i vostočnoj Azii. Moskau
Benedict, P.K. (1967). Austra-Thai studies: 3. Austro-Thai and Chinese, in: Behavior Science Notes 2, 4, 275-336
– (1973). Austro-Thai studies. New Haven
Benson, E.P./Fuente, B. de la (Hg.) (1996). Olmec art of Ancient Mexico. Washington/New York
Bereznak, C./Campbell, L. (1996). Defense strategies for endangered languages, in: Goebl et al. 1996: 659-666
Biraben, J.-N. (1997). Les vicissitudes du peuplement préhistorique, in: Bardet/Dupâquier 1997: 46-69
Böckh, R. (1866). Die statistische Bedeutung der Volkssprache als Kennzeichen der Nationalität, in: Zeitschrift für Völkerpsychologie und Sprachwissenschaft 4, 259-402
Bohnke, B.-A. (1997). Abschied von der Natur. Die Zukunft des Lebens ist Technik. Düsseldorf
Bombi, R./Graffi, G. (Hg.) (1998). Ethnos e comunità linguistica: Un confronto metodologico interdisciplinare/Ethnicity and language community: an interdisciplinary and methodological comparison. Udine
Bonfante, G. (1954). Ideas on the kinship of European languages from 1200 to 1800, in: Cahiers d'histoire mondiale 1, 680-681
Boretzky, N./Enninger, W./Stolz, T. (Hg.) (1988). Beiträge zum 4. Essener Kolloquium über »Sprachkontakt, Sprachwandel, Sprachwechsel, Sprachtod«. Bochum
Born, J./Dickgiesser, S. (1989). Deutschsprachige Minderheiten. Ein Überblick über den Stand der Forschung für 27 Länder. Mannheim
Borst, A. (1957-63). Der Turmbau von Babel. Geschichte der Meinungen über Ursprung und Vielfalt der Sprachen und Völker, 4 Bde. Stuttgart
Bresciani, E. (1992). Der Fremde, in: Donadoni 1992: 261-295
Breuilly, J. (1998). German national identity, in: Kolinsky/Will 1998: 44-66

Bright, W. (Hg.) (1992). International encyclopedia of linguistics, 4 Bde. New York/Oxford
Bromlej, J.V. (Hg.) (1988). Narody mira. Istoriko-etnografičeskij spravočnik. Moskau
Bruk, S.I./Apenčenko, V.S. (Hg.) (1964). Atlas narodov mira. Moskau
Bruk, S.I./Kabuzan, V.M. (1982). Dinamika čislennosti i rasselenija russkich posle Velikoj Oktjabr'skoj socialističeskoj revoljucii, in: Sovetskaja Etnografija 5, 3-20
Bryan, M.A. (1959). The Bantu languages of Africa. London
Budinszky, A. (1881). Die Ausbreitung der lateinischen Sprache über Italien und die Provinzen des römischen Reiches. Berlin (Nachdruck: Walluf bei Wiesbaden 1973)
Burger, J. (1990). Gaia atlas of first peoples: the future for the indigenous world. London
Burrow, T./Bhattacharya, S. (1970). The Pengo language. Oxford

Camerjan, I.P. (1979). Nacii i nacional'nye otnošenija v razvitom socialističeskom obščestve. Moskau
Campbell, G.L. (1991). Compendium of the world's languages, 2 Bde. London/New York
Campbell, L. (1993). On proposed universals of grammatical borrowing, in: Aertsen/Jeffers 1993: 91-109
Campbell, L./Mithun, M. (Hg.) (1979). The languages of native America: Historical and comparative assessment. Austin
Carbonell, E./Vaquero, M. (Hg.) (1996). The last Neandertals, the first natomically modern humans. Cultural change and human evolution: the crisis at 40 KA BP. Tarragona
Cardona, G. (1992). Indo-Aryan languages, in: Bright 1992/II: 202-206
Carlén-Wendels, T. (1997). Nätjuridik. Lag och rätt på Internet. Stockholm
Carrère d'Encausse, H. (1979). Risse im roten Imperium. Das Nationalitätenproblem in der Sowjetunion. München
Castells, M. (1996-98). The information age: economy, society and culture, 3 Bde. Malden, Mass./Oxford
– (2000). Castells tietää mistä tässä kaikessa on kysymys, in: Helsingin Sanomat (2.1.2000)
Cavalli-Sforza, L. (1995). Stammbäume von Völkern und Sprachen, in: Streit 1995: 118-125
Cavalli-Sforza, L./Menozzi, P./Piazza, A. (1994). The history and geography of human genes. Princeton, New Jersey
Cavalli-Sforza, L./Piazza, A. (1993). Human genomic diversity in Europe: A summary of recent research and prospects for the future, in: European Journal of Human Genetics 1, 3-18
Cavallo, G./Chartier, R. (Hg.) (1997). Histoire de la lecture dans le monde occidental. Paris
Chaliand, G./Rageau, J.-P. (1998). Atlas du millénaire. La mort des empires 1900 – 2015. Paris
Chanazarov, K.Ch. (1964). Sbliženie nacij i razvitie jazykov narodov SSSR. Moskau

Chandler, D.P. (1993). A history of Cambodia. Bangkok (2. Aufl.)
Chang, K.C. (1983). Art, myth, and ritual. The path to political authority in ancient China. Cambridge, Mass./London
Clark, G. (1989). World prehistory in new perspective. Cambridge/New York/Melbourne (3. Aufl.)
Cohen, R. (Hg.) (1995). The Cambridge survey of world migration. Cambridge/New York
Comrie, B. (Hg.) (1987). The world's major languages. London/Sydney
Coseriu, E. (1975). Andrés de Poza y las lenguas de Europa, in: Studia hispanica in honorem R. Lapesa III. Madrid, 199-217
– (1978). Hervás und das Substrat, in: Studii şi cercetări lingvistice 5, 523-530
Coulmas, F. (1992). Die Wirtschaft mit der Sprache. Eine sprachsoziologische Studie. Frankfurt
– (1996). The Blackwell Encyclopedia of writing systems. Oxford
Croft, W. (1990). Typology and universals. Cambridge/New York
Crystal, D. (1997). English as a global language. Cambridge
– (2000). Language death. Oxford
Csaba, L. (1995). The capitalist revolution in eastern Europe. A contribution to the economic theory of systemic change. Aldershot, England/Brookfield, USA
Culbert, S. (1977). The principal languages in the world, in: The World Almanach (New York), 226
Curto, S. (1989). La scrittura nella storia dell'Uomo. Mailand

Dauzat, A. (1953). L'Europe linguistique. Paris (2. Aufl.)
Dave, B. (1996). National revival in Kazakhstan: Language shift and identity change, in: Post-Soviet Affairs 12, 51-72
Davenport, T.H. (1997). Information ecology. Why technology is not enough for success in the information age. New York/Oxford
Deacon, T. (1997). The symbolic species. The co-evolution of language and the human brain. London/New York
Décsy, G. (1973). Die linguistische Struktur Europas. Wiesbaden
DeFrancis, J. (1977). Colonialism and language policy in Viet Nam. The Hague/Paris/New York
Delagnau, J.C. (1987). Grammaire élémentaire de la langue Thai. Bangkok
DeLancey, S. (1992). Sino-Tibetan languages, in: Bright 1992/3: 445-449
Denoon, D./Hudson, M./McCormack, G./Morris-Suzuki, T. (Hg.) (1996). Multicultural Japan – Palaeolithic to postmodern. Cambridge
Derbyshire, D.C./Pullum, G.K. (1986a). Introduction, in: Derbyshire/Pullum 1986b: 1-28
– (Hg.) (1986b). Handbook of Amazonian languages, 2 Bde. Berlin/New York/Amsterdam
Desai, Z. (1995). The evolution of a post-apartheid language policy in South Africa: an ongoing site of struggle, in: European Journal of Intercultural Studies 5, 18-25
Dešeriev, J.D. (Hg.) (1976). Razvitie nacional'no-russkogo dvujazyčija. Moskau
– (1987). Vzaimovlijanie i vzaimoobogaščenie jazykov narodov SSSR. Moskau

Desnickaja, A.V. (1987). Albanskaja literatura i albanskij jazyk. Leningrad
Dittmar, J. (1989). Thailand und Burma. Tempelanlagen und Königsstädte zwischen Mekong und Indischem Ozean. Köln (6. Aufl.)
Dixon, J.B./Cassidy, E.J. (Hg.) (1998). Virtual futures. Cyberotics, technology and post-human pragmatism. London/New York
Dixon, R.M.W. (1980). The languages of Australia. Cambridge
Donadoni, S. (Hg.) (1992). Der Mensch des Alten Ägypten. Frankfurt/New York
Donald, M. (1991). Origins of the modern mind. Three stages in the evolution of culture and cognition. Cambridge, Mass./London
Dorian, N.C. (1992). Obsolescent languages, in: Bright 1992/III: 135-36
– (Hg.) (1989). Investigating obsolescence: Studies in language contraction and death. Cambridge/New York
Dow, J.R. (1999). Germany, in: Fishman 1999: 286-299
Dressler, W./Wodak-Leodolter, R. (Hg.) (1977). Language death. (= International Journal of the Sociology of Language, 12). Amsterdam
Drobiževa, L.M. (1996). Demokratizacija i nacionalizm v Rossijskoj Federacii 90-ch godov, in: Zaslavskaja 1996: 172-181
Dupâquier, J. (1997). Introduction, in: Bardet/Dupâquier 1997: 26-38

Ehrhart, H.-G./Kreikemeyer, A./Zagorski, A.V. (Hg.) (1995). Crisis management in the CIS: Whither Russia? Baden-Baden
El español en el mundo. Madrid 1998
Esen-Baur, H.-M./Walter, C. (1989). Die Osterinsel heute, in: 1500 Jahre Kultur der Osterinsel. Schätze aus dem Land des Hotu Matua. Mainz, S. 160-166
Extra, G./Verhoeven, L. (Hg.) (1993). Immigrant languages in Europe. Clevedon/Philadelphia/Adelaide

Fagan, B.M. (1987). The great journey: The peopling of Ancient America. London
Fara, P./Patterson, K. (Hg.) (1998). Memory. Cambridge/New York
Feldbusch, E./Pogarell, R./Weiss, C. (Hg.) (1991). Neue Fragen der Linguistik. Akten des 25. Linguistischen Kolloquiums, Paderborn 1990. Tübingen
Ferro, M. (1994). Histoire des colonisations des conquêtes aux indépendances (XIIIe – XXe siècle). Paris
Finkenstaedt, T./Schröder, K. (1990). Sprachschranken statt Zollschranken? Grundlegung einer Fremdsprachenpolitik für das Europa von morgen. Essen
– (1992). Sprachen im Europa von morgen. Berlin/München
Fischer, W./Jastrow, O. (1980). Handbuch der arabischen Dialekte. Wiesbaden
Fishman, J.A. (Hg.) (1999). Handbook of language and ethnic identity. New York/Oxford
Fishman, J.A. et al. (Hg.) (1986). The Fergusonian impact. Berlin/New York/Amsterdam
Fodor, I. (1975). Pallas und andere afrikanische Vokabularien vor dem 19. Jahrhundert. Ein Beitrag zur Forschungsgeschichte. Hamburg
Fodor, I./Hagège, C. (Hg.) (1983). Language reform: history and future. La réforme des langues – histoire et avenir. Sprachreform: Geschichte und Zukunft, Bd. III. Hamburg

Fuchs, L.H. (1990). The American kaleidoscope. Race, ethnicity, and the civic culture. Hanover/London
Funk, D.A./Sillanpää, L. (Hg.) (1999). The small indigenous nations of Northern Russia. Vaasa
Furman, D. (1995). The dynamic of the Karabakh conflict, in: Ehrhart et al. 1995: 33-43

Gabelentz, G. v. d. (1891). Die Sprachwissenschaft. Ihre Aufgaben, Methoden und bisherigen Ergebnisse. Leipzig
Gage, W.W. (1986). The world balance of languages, in: Fishman et al. 1986: 371-383
Gardt, A. (Hg.) (2000). Nation und Sprache. Die Diskussion ihres Verhältnisses in Geschichte und Gegenwart. Berlin/New York
Gaudes, R. (1985). Wörterbuch Khmer-Deutsch, 2 Bde. Leipzig
Geistlinger, M. (1997). Die russischsprachige Minderheit in Estland, Lettland und Litauen, in: Europa Ethnica 54, 1-11
Geistlinger, M./Kirch, A. (1995). Estonia – A new framework for the Estonian majority and the Russian minority. Wien
Gelb, I.J. (1963). A study of writing. Chicago (2. Aufl.)
Gilster, P. (1997). Digital literacy. New York/Weinheim/Toronto
Glassé, C. (1991). The concise encyclopedia of Islam. San Francisco
Glazer, N. (1997). We are all multiculturalists now. Cambridge, Mass./London
Godart, L. (1995). Una iscrizione in Lineare B del XVII secolo A.C. ad Olimpia, in: Rendiconti dell'Accademia nazionale dei Lincei. Classe di Scienze morali, storiche e filologiche, s. 9, v.: 445-447
Goebl, H. (1984). Dialektometrische Studien, 3 Bde. Tübingen
Goebl, H./Nelde, P.H./Stary, Z./Wölck, W. (Hg.) (1996). Kontaktlinguistik/ Contact Linguistics/ Linguistique de contact, Teil 1. Berlin/New York
Goody, J. (1998). Memory in oral tradition, in: Fara/Patterson 1998: 73-94
Greco, E. (1993). Archeologia della Magna Grecia. Roma/Bari (2. Aufl.)
Greenberg, J.H. (1963a). Universals of language. Cambridge, Mass.
– (1963b). The languages of Africa. The Hague
– (1987). Language in the Americas. Stanford
– (1990). The American Indian language controversy, in: Review of Archaeology 11, 5-14
Grimes, B.F. (Hg.) (1984). Ethnologue – Languages of the world. Dallas (10. Aufl.)
– (1996). Ethnologue – Languages of the world. Dallas (13. Aufl.)
Grimes, J.E./Grimes, B.F. (1996). Ethnologue – Language family index. Dallas, Texas
Gruzinski, S. (1993). The conquest of Mexico. Cambridge/Oxford
Günther, H./Ludwig, O. (Hg.) (1994). Schrift und Schriftlichkeit/Writing and Its Use. Berlin/New York

Haarmann, H. (1974). Die finnisch-ugrischen Sprachen. Soziologische und politische Aspekte ihrer Entwicklung. Hamburg (unter Mitarbeit von A.-L. Värri Haarmann)
– (1975). Soziologie und Politik der Sprachen Europas. München

(1976a). Grundzüge der Sprachtypologie. Methodik, Empirie und Systematik der Sprachen Europas. Stuttgart/Berlin/Köln
(1976b). Aspekte der Arealtypologie. Die Problematik der europäischen Sprachbünde. Tübingen
(1977). Grundprobleme des multilateralen Sprachvergleichs. Tübingen
(1984). Elemente einer Soziologie der kleinen Sprachen Europas, Bd.3: Aspekte der ingrisch-russischen Sprachkontakte. Hamburg
(1985). Gengoseitaigaku. Tokyo
(1986a). Language in ethnicity. A view of basic ecological relations. Berlin/New York/Amsterdam
(1986b). Zum Fortleben des französischen Spracherbes im modernen Vietnam – Fragmente einer romanischen »Sprachlandschaft« in Ostasien, in: Zeitschrift für romanische Philologie 102, 479-490
(1989). Symbolic values of foreign language use. From the Japanese case to a general sociolinguistic perspective. Berlin/New York
(1990). »Basic« vocabulary and language contacts: the disillusion of glottochronology, in: Indogermanische Forschungen 95, 1-37
(1991). Basic aspects of language in human relations. Toward a general theoretical framework. Berlin/New York
(1992a). Universalgeschichte der Schrift. Frankfurt/New York (2. Aufl.)
(1992b). Measures to increase the importance of Russian within and outside the Soviet Union – A case of covert language-spread policy (a historical outline), in: International Journal of the Sociology of Language 95, 109-129
(1993). Die Sprachenwelt Europas. Geschichte und Zukunft der Sprachnationen zwischen Atlantik und Ural. Frankfurt/New York
(1994). Entstehung und Verbreitung von Alphabetschriften, in: Günther/Ludwig 1994: 329-347
(1995a). Early civilization and literacy in Europe. An inquiry into cultural continuity in the Mediterranean world. Berlin/New York
(1995b). Europeanness, European identity and the role of language – Giving profile to an anthropological infrastructure, in: Sociolinguistica 9, 1-55
(1996a). Die Madonna und ihre griechischen Töchter. Rekonstruktion einer kulturhistorischen Genealogie. Hildesheim/Zürich/New York
(1996b). Aspects of early Indo-European contacts with neighboring cultures, in: Indogermanische Forschungen 101, 1-14
(1996c). Identität, in: Goebl et al. 1996: 218-233
(1997a). Writing technology in the ancient Mediterranean and the Cyprian connection, in: Mediterranean Language Review 9, 43-73
(1997b). The development of sign conceptions in the evolution of human cultures, in: Posner et al. 1997: 668-710
(1997c). Lorenzo Hervas y Panduro als Sprachkontaktforscher, in: Moelleken/Weber 1997: 203-213
(1997d). Zeichenkonzeptionen im keltischen Altertum, in: Posner et al. 1997: 763-

- (1998a). Basque ethnogenesis, acculturation, and the role of language contacts, in: Fontes lingvae vasconvm. Stvdia et docvmenta. 77, 25-42
- (1998b). Zeichenkonzeptionen in den Festlandkulturen Südostasiens, in: Posner et al. 1998: 1928-1971
- (1999). Der Einfluss des Lateinischen in Südosteuropa, in: Hinrichs 1999: 545-584
- (2000). *Nation* und *Sprache* in Russland, in: Gardt 2000: 747-824
- (2001). Die Kleinsprachen der Welt – Existenzbedrohung und Überlebenschancen. Eine umfassende Dokumentation. Frankfurt/Zürich/New York

Haarmann, H./Holman, E. (1997). Acculturation and communicative mobility among former Soviet nationalities, in: Annual Review of Applied Linguistics 17, 113-137
- (2000). The impact of English as a language of science in Finland and its role for the transition to network society, in: Ammon 2000: 229-260

Hajdú, P./Domokos, P. (1987). Die uralischen Sprachen und Literaturen. Hamburg

Hancock, I.F. (1981). Répertoire des langues pidgins et créoles, in: Perrot 1981: 631-647

Haraway, D.J. (1997). Modest_Witness@Second_millennium. FemaleMan_Meets_OncoMouseTM. Feminism and technoscience. New York/London

Harris, M./Zainal, Z. (1990). History and culture of Malaysia. Kuala Lumpur/Singapur/Brunei

Haudricourt, A.G. (1961). La langue vietnamienne, in: Europe 387/88, 59-63

Haugen, E. (1972). The ecology of language. Stanford

Hecker, H. (1994). Dynastische Abstammungslegende und Geschichtsmythos im Russland des 16. Jahrhunderts, in: Wunderli 1994: 119-132

Heine, B./Schadeberg, T.C./Wolff, E. (Hg.) (1981). Die Sprachen Afrikas. Hamburg

Heine, B./Vossen, R. (1981). Sprachtypologie, in: Heine et al. 1981: 407-444

Helimski, E. (1997). Factors of Russianization in Siberia and linguo-ecological strategies, in: Shoji/Janhunen 1997: 77-91

Heller, E. (1991). Wie Werbung wirkt: Theorien und Tatsachen. Frankfurt

Heller, M./Pfaff, C.W. (1996). Code-switching, in: Goebl et al. 1996: 594-609

Helskog, K. (1988). Helleristningene i Alta. Spor etter ritualer og dagligliv i Finnmarks forhistorie. Alta

Hill, J.H./Hill, K.C. (1986). Speaking Mexicano – Dynamics of syncretic language in Central Mexico. Tucson

Hinrichs, U. (Hg.) (1999). Handbuch der Südosteuropa-Linguistik. Wiesbaden

Hoberman, R.D. (1992). Aramaic, in: Bright 1992/I: 98-102

Hoem, I. (1995). A way with words. Language and culture in Tokelau society. Oslo/Bangkok

Hofmann, J.B. (1966). Etymologisches Wörterbuch des Griechischen. Darmstadt

Hofstede, G. (1995). Organisationer och kulturer – om interkulturell förståelse. Lund

Holm, J. (1988). Pidgins and creoles, vol. 1: Theory and structure. Cambridge/New York

Hooker, J.T. (1979). The origin of the Linear B script. Salamanca

Horton, D. (Hg.) (1994). The encyclopaedia of aboriginal Australia, 2 Bde. Canberra

Hosking, G. (1997). Russia. People & empire 1552 – 1917. London

Hosking, R.F./Meredith-Owens, G.M. (Hg.) (1966). A handbook of Asian scripts. London
Houston, R.A./Grada, C.O./Schofield, R./Wrigley, T. (1997). Les îles Britanniques, in: Bardet/Dupâquier 1997: 369-387
Hoxie, F.E. (Hg.) (1996). Encyclopedia of North American Indians. Native American history, culture, and life from Paleo-Indians to the present. Boston/New York
Hubbs, J. (1988). Mother Russia: The feminine myth in Russian culture. Bloomington
Huntington, S.P. (1996). The clash of civilizations and the remaking of world order. New York
Hymes, D. (Hg.) (1971). Pidginization and creolization of languages. Cambridge/New York

Ifrah, G. (1987). Universalgeschichte der Zahlen. Frankfurt/New York (2. Aufl.)
Irmscher, J./Johne, R. (Hg.) (1986). Lexikon der Antike. Leipzig (7. Aufl.)
Isaev, M.I. (1990). Jazyk i zakon, in: Russkij jazyk v nacional'noj škole 7, 3-6
Ismail-Zade, D.I. (1991). Naselenie gorodov zakavkazskogo kraja v XIX – načale XX v. Istoriko-demografičeskij analiz. Moskau

Jakobson, R. (1931). K charakteristike evrazijskogo jazykovogo sojuza. Paris
Jelen, J./Hegyi, G. (1991). Angkor and the Khmers. Brutality and grace. Cambodia from 9 to 13 century, an unknown civilization introducing itself. Budapest
Jenkins, K. (1999). Why history? Ethics and postmodernity. London/New York
Jokipii, M. (Hg.) (1995). Itämerensuomalaiset. Heimokansojen historiaa ja kohtaloita. Jyväskylä

Kachru, B.B. (Hg.) (1982). The other tongue – English across cultures. Urbana/Chicago/London
Kaiser, M./Shevoroshkin, V. (1988). Nostratic, in: Annual Review of Anthropology 17, 309-329
Kappeler, A. (1992). Russland als Vielvölkerreich. Entstehung – Geschichte – Zerfall. München
Katičić, R. (1976). Ancient languages of the Balkans, 2 Bde. The Hague/Paris
Kattenbusch, D. (Hg.) (1995). Minderheiten in der Romania. Wilhelmsfeld
Katzner, K. (1995). The languages of the world. Guernsey (Neuedition der 2. Aufl. von 1986)
Kazakevitch, O.A. (1998). Minor aboriginal peoples of Russia: language and ethnic self-identification, in: Bombi/Graffi 1998: 307-320
Keightley, D.N. (1985). Sources of Shang history. The oracle-bone inscriptions of Bronze Age China. Los Angeles/London
Kemf, E. (1993a). In search of a home: people living in or near protected areas, in: Kemf 1993b: 3-11
– (Hg.) (1993b). The law of the mother. Protecting indigenous peoples in protected areas. San Francisco
Kerckhove, D. de (1997). The skin of culture. Investigating the new electronic reality. London

Kidron, M./Segal, R. (1995). The state of the world atlas. London/New York (5. Aufl.)
Kiernan, V.G. (1995). Imperialism and its contradictions. New York/London
Ki-Zerbo, J. (Hg.) (1989). General history of Africa I: Methodology and African prehistory. Paris/London
Kirillov, V. (1995). The conflict in the trans-Dniestr region: History and current situation, in: Ehrhart et al. 1995: 55-65
Klimov, G.A. (1977). Tipologija jazykov aktivnogo stroja. Moskau
Kloss, H. (1967). Abstand languages and Ausbau languages, in: Anthropological Linguistics 9, 29-41
– (1969). Grundfragen der Ethnopolitik im 20. Jahrhundert. Wien
– (1974a). Die den internationalen Rang einer Sprache bestimmenden Faktoren. Ein Versuch, in: Kloss 1974b: 7-77
– (1978). Die Entwicklung neuer germanischer Kultursprachen seit 1800. Düsseldorf (2. Aufl.)
Kloss, H. (Hg.) (1974b). Deutsch in der Begegnung mit anderen Sprachen. Beiträge zur Soziologie der Sprachen. Mannheim
Kloss, H./McConnell, G.D. (Hg.) (1974). Linguistic composition of the nations of the world, vol. 1: Central and Western South Asia. Québec
– (Hg.) (1981). Linguistic composition of the nations of the world, vol. 4: Oceania. Québec
– (Hg.) (1975). The world's written languages, vol. 1: The Americas. Québec
Kobilarov-Götze, G. (1972). Die deutschen Lehnwörter der ungarischen Gemeinsprache. Wiesbaden
Koivulehto, J. (1991). Uralische Evidenz für die Laryngaltheorie. Wien
Kolinsky, E./Will, W. van der (Hg.) (1998). Modern German culture. Cambridge/New York
Kolstoe, P. (1995). Russians in the former Soviet republics. London
Kononov, A.N. (1972). Istorija izučenija tjurkskich jazykov v Rossii. Dooktjabr'skij period. Leningrad
Koselev, A.D. (Hg.) (1996). Iz istorii russkoj kul'tury, Bd. IV (XVIII – načalo XIX veka). Moskau
Kozlov, V.I. (1975). Nacional'nosti SSSR (etnodemografičeskij obzor). Moskau
Krauss, M. (1979). Na-Dene and Eskimo-Aleut, in: Campbell/Mithun 1979: 803-901
– (1992). The world's languages in crisis, in: Language 68, 4-10
– (1997). The indigenous languages of the North: a report on their present state, in: Shoji/Janhunen 1997: 1-34
Kreindler, I. (1997). Multilingualism in the successor states of the Soviet Union, in: Annual Review of Applied Linguistics 17, 91-112
Kremnitz, G. (1977). Die ethnischen Minderheiten Frankreichs. Bilanz und Möglichkeiten für den Französischunterricht. Tübingen (2. Aufl.)
– (1995a). Dimensionen und Dynamik kollektiver Identitäten (Beispiele aus dem okzitanischen und katalanischen Sprachgebiet), in: Sociolinguistica 9, 67-87
– (1995b). Sprachliche Minderheiten in Frankreich heute, in: Kattenbusch 1995: 81-

Martinet, A. (1994). Des steppes aux océans. L'indo-européen et les »Indo-Européens«. Paris
Masica, C.P. (1992). Areal linguistics, in: Bright 1992/1: 108-112
Maxeiner, D./Miersch, M. (1998). Lexikon der Ökoirrtümer. Frankfurt
Maybury-Lewis, D. (1992). Millennium: tribal wisdom and the modern world. London
McCall, G. (1994). Rapanui. Tradition & survival on Easter Island. St. Leonards, Australia (2. Aufl.)
McConnell, G.D. (Hg.) (1998a). Linguistic composition of the nations of the world, vol. 6: East and Southeast Asia. Québec
– (Hg.) (1998b). The written languages of the world: a survey of the degree and modes of use, vol.: 5: West Africa. Québec
McLuhan, M. (1953). Culture without literacy, in: Explorations – Studies in Culture and Communication 1, 117-127
McRae, K.D. (1997). Conflict and compromise in multilingual societies, vol. 3: Finland. Waterloo, Ontario
– (1998). A note on language change in Finland, in: Geolinguistic Newsletter 7, 1-3
Meillet, A. (1928). Les langues dans l'Europe nouvelle (mit einem Anhang von L. Tesnière über Statistique des langues de l'Europe, S. 293-473). Paris (2. Aufl.)
Meillet, A./Cohen, M. (1924). Les langues du monde. Paris
Menges, K.H. (1968). The Turkic languages and peoples. Wiesbaden (2. Aufl. 1995)
Meusburger, P. (1998). Bildungsgeographie. Wissen und Ausbildung in der räumlichen Dimension. Heidelberg/Berlin
Mihăescu, H. (1978). La langue latine dans le sud-est de l'Europe. Bukarest/Paris
Miles, R./Thränhardt, D. (Hg.) (1995). Migration and European integration. The dynamics of inclusion and exclusion. Madison/Teaneck
Miller, R.A. (1996). Languages and history. Japanese, Korean, and Altaic. Oslo/Bangkok
Möhlig, W.J.G. (1981). Die Bantusprachen im engeren Sinn, in: Heine et al. 1981: 77-116
Moelleken, W.W./Weber, P.J. (Hg.) (1997). Neue Forschungsarbeiten zur Kontaktlinguistik. Bonn
Moiseev, N.N./Iordanskij, V.B. (Hg.) (1995). Rossija na novom rubeže. Moskau
Mommsen, M. (1996). Wohin treibt Russland? Eine Großmacht zwischen Anarchie und Demokratie. München
Monreal-Wickert, I. (1977). Die Sprachforschung der Aufklärung im Spiegel der großen französischen Enzyklopädie. Tübingen
Moreno Fernández, F./Otero, J. (1998). Demografía de la lengua española, in: El español en el mundo 1998: 59-86
Morev, L.N./Moskalev, A.A./Yu Ya Plam (1972). Laosskij jazyk. Moskau
Morris, S.E. (1993). Languages of the world. New York
Mortensen, C.D. (1997). Miscommunication. Thousand Oaks/London/New Delhi
Morvan, M. (1996). Les origines linguistiques du basque. Bordeaux
Mühlhäusler, P. (1986). Pidgin and creole linguistics. Oxford
– (1996). Pidginization, in: Goebl et al. 1996: 642-649

Kroker, A. und M. (Hg.) (1997). Digital delirium. New York
Kruta, V. (1993). Die Anfänge Europas 6000 – 500 v. Chr. München
Kuhrt, A. (1995). The ancient Near East c. 3000-330 BC, 2 Bde. London/New York

Laakso, J. (Hg.) (1992). Tietoa suomen sukukielistä ja niiden puhujista. Porvoo/Helsinki/Juva (2. Aufl.)
Laitin, D.D. (1995). Identity in formation: The Russian-speaking nationality in the post-Soviet diaspora, in: Archives Européennes de Sociologie 36, 281-316
Lallukka, S. (1995). Komipermjakit – Perämaan kansa. Syrjäytyminen, sulautuminen ja postkommunistinen murros. Helsinki
Langosch, K. (1964). Die deutsche Literatur des lateinischen Mittelalters in ihrer geschichtlichen Entwicklung. Berlin
Lee, G. (1990). An uncommon guide to Easter Island. New York
Lehtiranta, J./Seurujärvi-Kari, I. (1992). Saamelaiset, in: Laakso 1992: 123-155
Le Kha Ke (1968). L'élaboration d'une terminologie scientifique en langue vietnamienne, in: Le vietnamien et l'enseignement supérieur en vietnamien dans la R.D.V.N. Hanoi, 121-147
Levinson, P. (1997). The soft edge. A natural history and future of the information revolution. London/New York
Lewy, E. (1942). Der Bau der europäischen Sprachen. Dublin
Lichatschew, D.S. (1996). Die russische Literatur vom 11. Jahrhundert bis zum Beginn des 12. Jahrhunderts, in: Lichatschew et al. 1996: 11-56
Lichatschew, D.S. et al. (1996). Russland. Seele – Kultur – Geschichte. Augsburg
Liikanen, I. (1995). Fennomania ja kansa. Joukkojärjestäytymisen läpimurto ja Suomalaisen puolueen synty. Helsinki
Lincoln, W.B. (1993). The conquest of a continent. Siberia and the Russians. London
Lo Bianco, J. (1995). Australian experiences: multiculturalism, language policy and national ethos, in: European Journal of Intercultural Studies 5, 26-43
Lotman, J.M./Uspenskij, B.A. (1996). K semiotičeskoj tipologii russkoj kul'tury XVIII veka, in: Koselev 1996: 425-447
Loukotka, C. (1968). Classification of South American Indian languages. Los Angeles
Loveday, L.J. (1996). Language contact in Japan. A sociolinguistic history. Oxford
Lutz, W. (Hg.) (1994). The future population of the world. What can we assume today? London

Macfie, A.L. (1994). Atatürk. London/New York
Mackey, W.F. (1976). Bilinguisme et contact des langues. Paris
Maher, J.C. (1996). North Kyushu Creole: a language-contact model for the origins of Japanese, in: Denoon et al. 1996: 31-45
Malkin, I. (1987). Religion and colonization in ancient Greece. Leiden
Mallory, J.P. (1989). In search of the Indo-Europeans. Language, archaeology and myth. London
Mandelstam Balzer, M. (1981). Rituals of gender identity: Markers of Siberian Khanty ethnicity, status, and belief, in: American Anthropologist 83, 850-867
Marshack, A. (1972). The roots of civilization. New York

Müller, K.E. (1987). Das magische Universum der Identität. Elementarformen sozialen Verhaltens. Ein ethnologischer Grundriss. Frankfurt/New York
Münch, P. (1998). Lebensformen in der Frühen Neuzeit. Frankfurt
Muljačić, Ž./Haarmann, H. (1996). Distance interlinguistique, élaboration linguistique et »coiffure linguistique«, in: Goebl et al. 1996: 634-642
Muller, S.H. (1964). The world's living languages. Basic facts of their structure, kinship, location and number of speakers. New York
Myntti, K. (1997). Suomen saamelaisten yhteiskunnallinen osallistuminen ja kulttuuri-itsehallinto. Raportti oikeusministeriölle, osa I. Helsinki
Mytum, H. (1992). The origins of early Christian Ireland. London/New York

Nefiodow, L.A. (1990). Der fünfte Kondratieff: Strategien zum Strukturwandel in Wirtschaft und Gesellschaft. Frankfurt
Nelde, P.H. (1982). Langues en contact, in: Europa ethnica 39, 134-141
– (1994). Languages in contact and conflict, in: Current Issues in Language and Society 1/2 (summer 1994)
Nettle, D. (1999). Linguistic diversity. Oxford
Newman, J.L. (1995). The peopling of Africa. A geographic interpretation. New Haven/London
Nguyen Dinh Hoa (1961). The Vietnamese language. Saigon
Nguyen Khac Vien (Hg.) (1967). Régions montagneuses et minorités nationales. Hanoi
Nguyen Phu Phong (1983). Formation et standardisation du vocabulaire scientifique et technique en vietnamien, in: Fodor/Hagège 1983: 1-21
Nile, R./Clerk, C. (1996). Cultural atlas of Australia, New Zealand & the South Pacific. Vineyard, Abingdon (England)
Noin, D./Woods, R. (Hg.) (1993). The changing population of Europe. Oxford/Cambridge, Mass.
Novik, E.S. (1989). Ritual und Folklore im sibirischen Schamanismus. Hamburg

O'Donnell, J.J. (1998). Avatars of the word. From papyrus to cyberspace. Cambridge, Mass./London
Ogden, P.E. (1993). Evolution of the population: a slow growth, in: Noin/Woods 1993: 6-22
– (1995). Labour migration to France, in: Cohen 1995: 289-296
Osborne, M.E. (1997). The French presence in Cochinchina and Cambodia: Rule and response (1859-1905). Bangkok
Östman, J.-O./Raukko, J. (1995). The »pragmareal« challenge to genetic language tree models, in: Suhonen 1995: 31-69
Ostrower, A. (1965). Language, law and diplomacy, 2 Bde. Philadelphia

Panfilov, O./Simonov, A. (Hg.) (1997). Informacionnaja vojna v Čečne. Fakty, dokumenty, svidetel'stva, nojabr' 1994 – sentjabr' 1996. Moskau
Parpola, A. (1994). Deciphering the Indus script. Cambridge
Parpola, S. (1993). The Assyrian tree of life: tracing the origins of Jewish monotheism and Greek philosophy, in: Journal of Near Eastern Studies 52: 161-208

Pearson, I. (Hg.) (1998). Der Fischeratlas Zukunft. Frankfurt
Peiros, I.I. (1988). Avstro-tajskaja gipoteza i kontakty meždu sinotibetskimi i avstronezijskimi jazykami, in: Drevnij Vostok – Etnokul'turnye svjazi LXXX, 319-332
Percival, W.K. (1992). History of linguistics: The renaissance, in: Bright 1992/II: 152-155
Perevedencev, V.I. (1975). Metody izučenija migracii naselenija. Moskau
Perrot, J. (Hg.) (1981). Les langues dans le monde ancien et moderne, deuxième partie: Pidgins et créoles. Paris
Philippson, A./Neumann, L. (1894). Europa. Eine allgemeine Landeskunde. Leipzig/Wien
Posner, R./Robering, K./Sebeok, T.A. (Hg.) (1997). Semiotik – Ein Handbuch zu den zeichentheoretischen Grundlagen von Natur und Kultur. Berlin/New York
Pratt, M.W./Norris, J.E. (1994). The social psychology of aging. Oxford/Cambridge
Pulsiano, P. (Hg.) (1993). Medieval Scandinavia – An encyclopedia. New York/London

Reh, M. (1981). Sprache und Gesellschaft, in: Heine et al. 1981: 513-557
Reichenkron, G. (1965). Historische latein-altromanische Grammatik, Teil I: Einleitung. Wiesbaden
Reinecke, J.E. (1971). Tay Böi: Notes on the Pidgin French spoken in Vietnam, in: Hymes 1971: 43-56
Reiter, N. (1994). Grundzüge der Balkanologie. Ein Schritt in die Eurolinguistik. Berlin
Ribeiro, D. (1957). Culturas e línguas indígenas do Brasil, in: Educação e Ciências Sociais (Rio de Janeiro) 2, 1-102
Rice, M. (1994). The archaeology of the Arabian Gulf c. 5000 – 323 BC. London/New York
Rickford, J.R. (1992). Pidgins and creoles, in: Bright 1992/III: 224-232
Rjabinin, E.A. (1997). Finno-ugorskie plemena v sostave Drevnej Rusi. K istorii slavjano-finskich etnokul'turnych svjazej. St. Petersburg
Robins, R.H. (1997). A short history of linguistics. London/New York (4. Aufl.)
Robins, R.H./Uhlenbeck, E.M. (Hg.) (1991). Endangered languages. Oxford
Romaine, S. (1988). Pidgin and creole languages. London
Romanova, A.V./Myreeva, A.N./Baraškov, P.P. (1975). Vzaimovlijanie evenkijskogo i jakutskogo jazykov. Leningrad
Rood, D.S. (1992). North American languages, in: Bright 1992/3: 110-115
Ross, A.S.C. (1958). Etymology, with special reference to English. London
Ross, P.E. (1995). Streit um Wörter, in: Streit 1995: 126-135
Ross, W. (1972). Deutsch in der Konkurrenz der Weltsprachen. München
Rossillon, P. (Hg.) (1995). Atlas de la langue française. Histoire – géographie – statistiques. Paris
Rottland, F./Voßen, R. (1981). Sprache und Geschichte, in: Heine et al. 1981: 479-512
Rubió i Balaguer, J. (1964). La cultura catalana del renaixement a la decadència. Barcelona
Ruhlen, M. (1987). A guide to the world's languages, vol. 1: Classification. Stanford

– (1994). On the origin of languages. Studies in linguistic taxonomy. Stanford

Sacher, R./Phan, N. (1985). Lehrbuch des Khmer. Leipzig

Sankhala, K. (1993). Prospering from the desert, in: Kemf 1993b: 18-22

Santel, B. (1995). Loss of control: the build-up of a European migration and asylum regime, in: Miles/Thränhardt 1995: 75-91

Sasse, H.-J. (1981). Afroasiatisch, in: Heine et al. 1981: 129-148

Schaller, H.W. (1975). Die Balkansprachen. Eine Einführung in die Balkanphilologie. Heidelberg

Schlossmacher, M. (1996). Die Amtssprachen in den Organen der Europäischen Gemeinschaft. Frankfurt

Schmidt, A. (1994). Language maintenance, in: Horton 1994: 600-601

Schmidt, W. (1926). Sprachen und Sprachfamilien der Erde. Heidelberg

Schoolfield, G.C. (1996). Helsinki of the Czars. Finland's capital: 1808-1918. Columbia, SC

Schröder, K. (Hg.) (1992). Fremdsprachen im Europäischen Haus. Frankfurt

Schwär, J.F./Pape, B.E. (o.J.). Deutsche in Kaffraria 1858 – 1958. Pinetown

Seager, J. (1995). The state of the environment atlas. London

– (1998). Der Fischer Frauen-Atlas. Frankfurt

Sebeok, T.A. (Hg.) (1977). Native languages of the Americas, 2 vols. New York

Sedillot, R. (1992). Muscheln, Münzen und Papier. Die Geschichte des Geldes. Frankfurt/New York

Sherden, W.A. (1998). The fortune sellers. The big business of buying and selling predictions. New York

Sherratt, A. (Hg.) (1980). The Cambridge Encyclopedia of Archaeology. New York

Shlyakhov, V./Adler, E. (1995). Russian slang & colloquial expressions. New York

Shoji, H./Janhunen, J. (Hg.) (1997). Northern minority languages. Problems of survival. Osaka

Showalter, E. (1997). Hystories. Hysterical epidemics and modern media. New York

Sieferle, R.P. (1997). Rückblick auf die Natur. Eine Geschichte des Menschen und seiner Umwelt. München

Sittek, D. (1997). Das Internet-Lexikon. Begriffe, Abkürzungen, Slang – enträtselt und erläutert. München

Skorik, P.J. (Hg.) (1968). Jazyki narodov SSSR, t. 5: Mongol'skie, tunguso-man'čžurskie i paleoaziatskie jazyki. Leningrad

Smeds, K. (1996). Helsingfors – Paris. Finlands utveckling till nation på världsutställningarna 1851-1900. Vammala

Smith, J.E. (1994). Quasi-religions. Humanism, marxism and nationalism. Houndmills, Basingstoke/London

Smith, R.T. (1996). The matrifocal family. Power, pluralism, and politics. New York/London

Söderberg, M. (Hg.) (1996). The business of Japanese foreign aid. Five case studies from Asia. London/New York

Solncev, V.M./Lekomcev, J.K./Mchitarjan, T.T./Glebova, M.I. (1960). V'etnamskij jazyk. Moskau

Sporton, D. (1993). Fertility: the lowest level in the world, in: Noin/Woods 1993: 49-61
Stehr, N. (1994). Arbeit, Eigentum und Wissen. Zur Theorie von Wissensgesellschaften. Frankfurt
Steinberg, S.H. (1955). Five hundred years of printing. London (new edition, revised by J. Trevitt; 1996)
Streit, B. (Hg.) (1995). Evolution des Menschen. Heidelberg
Stutterheim, C. v. (1986). Temporalität in der Zweitsprache. Eine Untersuchung zum Erwerb des Deutschen durch türkische Gastarbeiter. Berlin/New York
Suhonen, S. (Hg.) (1995). Itämerensuomalainen kulttuurialue – The Fenno-Baltic cultural area. Helsinki
Swaan, A. de (1993). The emergent world language system: An introduction, in: International Political Science Review 14, 219-226

Tagliavini, C. (1968). Storia della linguistica. Bologna (2. Aufl.)
Taylor, P.W. (1989). Respect for nature. A theory of environmental ethics. Princeton, New Jersey/Oxford (2. Aufl.)
Thanh Ha (1967). Les langues des minorités nationales et la création ou le perfectionnement de leurs écritures particulières, in: Nguyen Khac Vien 1967: 129-146
The Russian Federation 1993. Luxemburg 1994
Thernstrom, S. (Hg.) (1980). Harvard encyclopedia of American ethnic groups. Cambridge, Mass.
Thibault, P.J. (1997). Re-reading Saussure. The dynamics of signs in social life. London/New York
Thomas, R. (1992). Literacy and orality in ancient Greece. Cambridge
Thomas, R.R. (1996). Redefining diversity. New York/Brüssel/Tokyo
Thompson, J.M. (1994). Russia & the Soviet Union. An historical introduction from the Kievan state to the present. Boulder/San Francisco/Oxford
Thorne, A.G./Wolpoff, M.H. (1995). Multiregionaler Ursprung der modernen Menschen, in: Streit 1995: 94-101
Thornton, R. (1996). Population: precontact to the present, in: Hoxie 1996: 500-502
Todd, E. (1998). L'illusion économique. Essai sur la stagnation des sociétés développées. Paris
Tompa, J. (1972). Kleine ungarische Grammatik. Leipzig
Trask, R.L. (1996). Historical linguistics. London/New York/Sydney
– (1997). The history of Basque. London/New York
Tribalat, M. (1996). De l'immigration à l'assimilation. Enquête sur les populations d'origine étrangère en France. Paris
Trinkaus, E./Shipman, P. (1992). The Neandertals. New York
Trofimov, D. (1995). The conflict in Abkhazia: Roots and main driving forces, in: Ehrhart et al. 1995: 75-90
Tsunoda, M. (1983). Les langues internationales dans les publications scientifiques et techniques, in: Sophia Linguistica 1983: 144-155

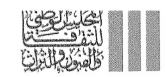
U Tin Htway (1983). Word-borrowing and word-making in modern South Asian languages: Burmese, in: Fodor/Hagège 1983: 367-381

Vääri, E. (1995). Liiviläiset ja liivin kieli, in: Jokipii 1995: 127-146
Vachtin, N.B. (1996). Eskimossko-aleutskie jazyki, in: Volodin 1996: 72-75
Valdman, A. (1996). Créolisation, in: Goebl et al. 1996: 649-658
Verdoodt, A. (Hg.) (1989). Les langues écrites du monde: Relevé du degré et des modes d'utilisation, vol. 3: Europe occidentale. Québec
Vernadskij, G.V. (1996). Kievskaja Rus'. Tver'/Moskau
Vernant, J.-P. (1990). Myth and society in ancient Greece. New York
Voegelin, C.F./Voegelin, F.M. (1977). Classification and index of the world's languages. New York/Oxford/Amsterdam
Volkova, N.G. (1974). Etničeskij sostav naselenija severnogo Kavkaza v XVIII – načale XX veka. Moskau
Volodin, A.P. (Hg.) (1996). Jazyki mira: Paleoaziatskie jazyki. Moskau

Wagner, H. (1959). Das Verbum in den Sprachen der britischen Inseln. Tübingen
Wahlgren, E. (1993). Norse in America, in: Pulsiano 1993: 12-13
Warren, M.A. (1997). Moral status. Obligations to persons and other living things. Oxford
Weber, U. (1991). Überlegungen zur Beziehung zwischen Linguistik und Soziologie, dargestellt an »Ideologie und Wahrheit« von Theodor Geiger, in: Feldbusch et al. 1991: 97-106
– (1992). Im Labyrinth der Sprache. Essays zum literarischen Diskurs. Berlin
Wehrt, H. (Hg.) (1996). Humanökologie. Beiträge zum ganzheitlichen Verständnis unserer geschichtlichen Lebenswelt. Berlin/Basel/Boston
Weinreich, M. (1980). History of the Yiddish language. Chicago
Weizsäcker, C.F. von (1992). Zeit und Wissen. München/Wien
Welchman, J.C. (1997). Invisible colors. A visual history of titles. New Haven/London
Wexler, P. (1992). Diglossia et schizoglossia perpetua – The fate of the Belorussian language, in: Sociolinguistica 6, 42-51
Whitehouse, D./Whitehouse, R. (1990). Archäologischer Weltatlas. Köln
Wiik, K. (1995). The Baltic Sea prosodic area revisited, in: Suhonen 1995: 75-92
Witthauer, K. (1969). Verteilung und Dynamik der Erdbevölkerung. Gotha/Leipzig
World education report 2000. The right to education: Towards education for all throughout life. Paris 2000
Wulf, A. (1991). Vietnam. Pagoden und Tempel im Reisfeld – Im Fokus chinesischer und indischer Kultur. Köln
Wunderli, P. (Hg.) (1994). Herkunft und Ursprung. Historische und mythische Formen der Legitimation. Sigmaringen
Wurm, S.A. (1972). Languages of Australia and Tasmania. The Hague
– (Hg.) (1996). Atlas des langues en péril dans le monde. Paris/Canberra
Wurm, S.A./Hattori, Sh. (1981). Language atlas of the Pacific area. Canberra

Yémen – au pays de la reine de Saba'. Paris 1997
Zaslavskaja, T.I. (Hg.) (1995). Kuda idet Rossija?... Al'ternativy obščestvennogo razvitija. Moskau

– (Hg.) (1996). Kuda idet Rossija?... Social'naja transformacija postsovetskogo prostranstva. Moskau
Zilliacus, H. (1935). Zum Kampf der Weltsprachen im oströmischen Reich. Helsinki
Zlotnik, H. (1994). Migration to and from developing regions: a review of past trends, in: Lutz 1994: 321-360
Zumthor, P. (1983). Introduction à la poésie orale. Paris
Zvelebil, M. (1996). The agricultural frontier and the transition to farming in the circum-Baltic region, in: Harris 1996: 323-345



National Council for Culture, Arts and Heritage

Translation Centre

في هذا الكتاب: تاريخ اللغات ومستقبلها - عالم بابلي، يقدم المؤلف هـ. هارمان دراسة علمية غنيّة وجديدة لمسألة اللغة التي تُعدّ أقدم أداة للتواصل بين الناس، وهي الآن أهمّ قضية ثقافية - حضارية في هذا الزمن ولأجيال قادمة.

صدرت أطروحة المؤلف الثقافية عن تأمّل عميق وموقف فكري من اللغة، وبحوث ميدانية قادته إلى استخلاص نتائج موضوعية عن الوجود الإنساني الذي قام برصده في المعطيات الإثنوغرافية والاجتماعية - الثقافية والجيوسياسية، في أصولها وفروعها وتعدّدها في مرآة الاتصالات والتفاعلات اللغوية في بقاع واسعة من العالم، وما يرافق ذلك من ارتباطات اللغات بالهوية الثقافية.

كان المؤلّف سبّاقًا في تقديم المعطيات المساعدة على إعادة النظر في الأجوبة المتداولة عن مسألة اللغة، بعد أن أصبحنا ننظر حاليًا إلى العالم بطريقة مختلفة جدًا وبمقاييس مغايرة وبمزيد من الخبرات وبأدوات متجدّدة، ممّا يشقّ أمامنا طرقًا للبحث في دور اللغة في مجتمعات متعددة الثقافات وفي مواقف الناس منها.

إنّ صدور الترجمة العربية من " تاريخ اللغات ومستقبلها - عالم بابلي" عن مركز الترجمة في المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث في دولة قطر، إنّما يأتي إسهامًا في الجهود الحثيثة لإغناء الساحة الثقافية العربية بالفكر الإنساني المتجدّد، والمتميّز في العالم الصاخب والمتحوّل.

Doha 2006